قصص العشاق النثرية
في العصر الأموي

تأليف
الدكتور عبد الحميد ابراهيم
عميد كلية الدراسات العربية
جامعة المنيا

١٩٨٧



دار المعارف

الناشر : دار المعارف ١١١٩ كورنيش النيـل ـ القاهرة ـ ج٠م٠ع٠

نوقشت هذه الرسالة سنة ١٩٦٥ بكلية
دار العلوم ونال صاحبها درجة الماجستير بتقدير ممتاز

مقـــدمة

(١)

عاطفة العشق عاطفة انسانية أصيلة · يغرى الحديث عنها كل فرد ، ويجذب كل انسان · وهو حديث قديم منذ بدء الخليقة ، وسيظل الى أن تنتهى الخليقة ·

وقد أولع كثير من العرب بنوع من العشق ، هو ذلك النـــوع العفيف · وكانوا يقدرون العاشق ويحترمونه ، فأخو الفزارية كان يرغب فى مصاهرة قيس ابن ذريح ، ولما لامتــه العرب فى ذلك ، قال لهم : « دعونى ففى مثل هذا الفتى ترغب الكرام » (١) وذلك العاشق الذى أصاب السبع معشوقته فلحق بها ، عظـم القوم تضحيته وقـالوا : « والله لننحرن عليه تعظيما له ، فخرجـوا وأخرجوا مـائة ناقة ، وتسامـــع الناس ، فاجتمعوا الينا فنحرت ثلاثمائة ناقة » (٢) وكانوا يتجاوبون مع هذه العاطفة ، ويعطفون على أصحابها ، فمعاوية يقول : لو أدركت عفراء وعروة لجمعت بينهما (٣) ، وحتى بعض الأزواج كانوا يقدرون هذه العاطفة ، فجميل يذكر فى نهاية القصة التى افترس فيها الأسد المعشوقة ثم انتحر العاشق ، أن الزوج تأسف وحزن حزنا شديدا لأنه لم يجمع بينهما فى حياتهما (٤) · وكان من العشاق من يعتقد أن هناك رباطا يربط بينهما ، كذلك الرباط الذى يربط بين الزوجين ، فكان

(١) تزيين الأسواق ١ ــ ٥٣
(٢) المحاسن والاضداد ص ٧٠
(٣) الأغانى ٢٠ ــ ١٥٧ ساسى
(٤) ذم الهوى ص ٥٧٦

اذا غضب مع معشوقته ، يرد عليها هذا الرباط ، كما يطلق الرجل امرأته فالرماح بن مالك القيسى غضب مع معشوقته فقال لها « الوصل عليك مردود » فقالت له « ما قضى الله فهو خير « (٥) . وتنتهى بعض قصص العشق بنوع من الخيال يومىء الى انتصار الحب على الجاء والثروة وعلى العادات والتقاليد . فعروة وعفراء حين حال المال بينهما فى الحياة يتعانقان بعد الموت فى هيئة شجرتين ملتفتين (٦) . وعتبة وريا حين حالت العادات بينهما وبين اكمال عرسهما ، نبتت على قبرهما شجرة عليها الوان من الورق يقال لها شجرة العروسين (٧) .

وقد اهتم الباحثون بدراسة الناحية العاطفية عند العرب ، فهناك من درس الغزل كالدكتور أحمد الحوفى وهناك من درس الحياة العاطفية كالدكتور غنيمى هلال ، وهناك من درس الحب العذرى كالدكتور موسى خليل سليمان والدكتور أحمد عبد الستار الجوارى ، وهناك من درس حب ابن أبى ربيعة وشعره كالدكتور زكى مبارك .

وهناك جانب أريد أن أهتم به ، وهو قصص العشق النثرية ، وهو جانب لا يقل أهمية عن الجوانب السابقة التى اهتم بها الباحثون وهو فى الوقت نفسه يقوم دليلا عمليا أمام الاتهامات التى اتهم بها العرب وأنهم جنس أدنى من الجنس الآرى ، لا يعرفون القصة ولا الخيال المبتكر .

(٢)

وأعنى بتلك القصص ، هذه الأخبار التى كانت تدور حول فريق من العشاق منهم من هو معروف مشهور كالمجنون ، ومنهم من هو

---

(٥) تزيين الأسواق ١ – ٣٧
(٦) ذم الهوى ص ٤١٨
(٧) تزيين الأسواق ١ – ١٠٣

مجهول أو مغمور كان يكون أعرابيا . وهذه الأخبار أو الأحاديث أو القصص ، كانت معروفة منذ العصر الجاهلى ولكنها فى العصر الأموى ازدهرت وانتشرت بين عامة الشعب ، فقد كانت حلية المجالس وأحاديث السمر ، بجانب الغناء والشعر ، وكان لها رواتها وقصاصها ، ولها مستمعوها وطالبوها .

وهذه النظرة الى هذه الأخبار ، وأنها شىء لا يتحرى الدقة التاريخية ، وأنها حكايات شاعت بين الناس ، فتزيدوا فيها ، كما قال ابن ذريح وهو يعتذر لقيس أمام ليلى ، فان قيسا قال انه رأى ليلى ليلة الغيل فقط ، ولكن الناس قد تزيدوا فى ذلك ـ هذه النظرة تفسر الاضطراب فى الروايات التى قد تسند خبرا الى قيس . ثم نراه مسندا الى جميل . أو شعرا الى عروة ثم نراه منسوبا الى ابن ذريح ... الخ وهذه النظرة تنتشل فريقا من الباحثين من حيرتهم أمام هذا التزيد والاضطراب ، كما احتار الدكتور الجوارى أمام هذه الأخبار (٨) .

(٣)

على أن هناك فريقا من الباحثين ، نظر الى هذه الأخبار تلك النظرة ، وذلك فى أبحاث جزئية لم يستقل بها كتاب ، أو تنفرد بها رسالة .

فالأستاذ بروكلمان تحدث عن قصص الحب التى شاعت فى العصر الأموى فذكر أن أخبار الحب ، قد استولت على خيال الشعب العربى ، حتى صنع منها قصة غرام ، وأخذت مواد هذه القصة تتكاثر وتتزايد حتى حمل السرور والاعجاب بها على انشاء حلقات من القصص الغرامية . ثم رأى أن أول من ينطبق عليه ذلك هو قيس بن الملوح ،

---

(٨) الحب العذرى ص ٥٨

وقد ساق صاحب الأغانى أخباره فى اطـار من البواعث الضعيفة فى احكامها الفنى · ثم رأى أن ما ساقه الرواة من أخبار ابن ذريح أعلى درجة من أخبار المجنون · ثم تحدث عن عروة بن حزام وأنه بطل قصـة غرامية · ثم ختم الحديث بوضاح اليمن ، وأنه بطل من أبطال القصص الغرامية ، وأن البواعث التى ذكرتها القصة فى نهاية حياته ، موجودة الى الآن عند أهل مهرة فى قصة ذكرها « يان » (٩) ·

والدكتور عبد العزيز عبد المجيد حين استعرض أدب القصـة عند العرب ، منذ عصر ما قبل الاسلام حتى منتصف القرن التاسع عشر ، تحدث عن قصص الحب «The love story» ورأى أنها ترجع الى عهد الأمويين ، وأن مؤلفيها مجهولون ، وأنها تخـاطب غرائـز الجنس والشر ، وعواطف الحب والشهامة ولذلك التصقت بذاكرة الشعب ، يقول : F.C. Bortlet « نجحت فى احداث التأثيرات الدرامية على عقول الشعب ، وفى خلق الدهشة والاستغراب » (١٠) ·

والأستاذ موسى خليل سليمان عقد فى كتابه « الأدب القصصى عند العرب » فصـلا للقصص الاخبارى (١١) ، وعنى بهـا الحكايات القصيرة ، والأسمار الكثيرة ، والنوادر الظريفة ، والأخبار المشـتتة هنا وهناك ، لا يجمعها كتاب واحد من كتب الأصول ، لأنها لم تدون فى مكان واحد معين ، ولم يكتبها كاتب واحد معروف ، لغـرض من الأغراض الأدبية ·· الخ · ثم رأى أن أهم ما يلفت النظر فى هذه الحكايات لونان : الحكايات الغنائية ، والحكايات الحبية · ولكنـه فى هذا الكتاب اكتفى بدراسـة الحكايـات الغنائية · ولم يدرسـها دراسة أدبية ، بل عرض للغناء ، وترجم لأشهر المغنين والمغنيات · ثم

---

(٩) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ١ ـ ١٩٩ ـ ٢٠٢
(١٠) The Modern Arabic Short Story, P. 45.
(١١) الأدب القصصى عند العرب ص ٢٢

ذكر أن لها فوائد تاريخية ، واجتماعية ، وأدبية ، ولكنه لم يطنب فى ذكر هذه الفوائد ، ولا ننتظر منه أن يطنب فى جزء من كتاب ، تحدث عن الأدب القصصى بوجه عام الدخيل منه والموضوع ٠ على أنه فى كتابه « يحكى عن العرب » أورد نماذج للقصص العربى ، وذكر ـ فيما ذكر ـ نماذج للحكايات الحبية (١٢) ، فعرض لقصة مجنون ليلى ، وقيس ولبنى ، وعروة وعفراء ٠٠٠ الخ ٠ وكان يعقب على كل حكاية بالدرس والتحليل والأسئلة ، وكان فى تحليله لا يتعمق تعمقا كبيرا ، مما يرشح هذا الكتاب لطلاب المدارس الثانوية ، وقد ذكر المؤلف فى مقدمة الطبعة الأولى أنه من الحرام أن يمر الطالب مرورا عابرا بهذا التراث القصصى الضخم ، ولهذا عرض تلك النماذج خدمة للطالب العربى ٠٠٠ الخ ٠

والأستاذ محمد مفيد الشوباشى ، خصص جزءا من كتابه « القصة العربية القديمة » لدراسة قصص الحب العذرى (١٣) ٠ وعرض ـ فيما عرض ـ قصة جميل وبثينة ، وقصة قيس ولبنى ٠ ورأى أن العرب فى ذلك ، أو بعضهم على الأقل ، قد ضارعوا المبرزين من مؤلفى القصص العصرية ، فى ابتداء الأحداث والمشكلات ، واماطة اللثام عن كنهها ومضمونها ٠

وخير من تعرضوا لهذا الموضوع هو الدكتور طه حسين ٠ فقد رأى أنه اكتشف فنا أدبيا ظهر بعد الاسلام وهو فن القصص الغرامى ٠ ثم بحث أسباب نشأة هذا الفن ، وتعرض لطائفة من هذه القصص ، وأظهر ما فى بعضها من تكلف وسخف وما فى البعض الآخر من جودة واتقان (١٤) ٠

---

(١٢) يحكى عن العرب ٢ ـ ٦٠
(١٣) ص ٧١
(١٤) حديث الأربعاء ١ ـ ٢٢٧ ـ ٣٥٩

هذه هى أهم البحوث التى دارت حول هذا الموضوع • ورسالتى سارت فى ذلك الطريق الذى بدأه هؤلاء السادة الأفاضل • وأننى أرجو — وقد اقتصرت على هذا الموضوع ، فلم أجعله جزءا فى كتاب ، بل تناولته تناولا واسعا مفصلا — أن أقطع قدرا من الشوط ، وأن ألقى شعاعا من الضوء •

(٤)

وقد مهدت لها بتمهيد ، تحدثت فى جزء منه عن « القصة عند العرب » فتتبعت — فى المامة سريعة — القصة العربية منذ العصر الجاهلى ، حتى العصر الحديث • وفى جزء آخر تحدثت عن « القصة فى العصر الأموى » فبينت أسباب ازدهار القصة بوجه عام ، ثم تحدثت عن أنواع القصة فى العصر الأموى ، وأشرت الى أشهر القصاص ، والى مناهجهم فى القصص والرواية • وفى الجزء الأخير بينت « المقصود بقصص العشاق النثرية » وأشرت الى ايثارى لكلمة « قصة » مع أن كلمة خبر ، أو حديث أو غيرهما ، قد تؤدى المراد نفسه من مفهوم القصة فى ذلك العصر ، الا أن كلمة « قصة » أقرب الى مفهوم الأدب من كلمة خبر أو حديث • وهى فى الوقت نفسه ، كانت فى العصر الأموى كثيرة الدوران على ألسنة المفسرين ، والشعراء ، والرواة • ثم قسمتها الى بابين ، وخاتمة •

تحدثت فى الباب الأول عن « نشأة قصص العشق » فذكرت فى فصل « مصادر قصص العشق » وبينت أنها عربية أصيلة ، وأن تأثرها بالتيارات الخارجية كان ضئيلا • ومع أنها قد عرفت فى العصور الجاهلية الا أنها قد ازدهرت فى العصر الأموى ، وكان لابد لهذا الازدهار من عوامل ، هى موضوع الفصل الثانى والأخير من هذا الباب •

أما الباب الثانى ، فقد خصصته « للفن فى قصص العشق » . وبينت بادىء ذى بدء ، أننى لا أقصد بالفن ذلك المعنى المفهوم فى أذهان المعاصرين عن القصة الفنية الحديثة ، وانما أقصد معنى قريبا من المعنى العام للقصة فى العصور القديمة ، وهو معنى أقرب الى « الأسلوب القصصى » منه الى « الفن القصصى » بالمفهوم الحديث . واذا كنت قد وضحت غرضى ، وأننى أدرس هذه القصص دراسة أدبية فنية وليست دراسة تاريخية محققة ، كان لابد لى من الحديث فى الفصل الأول – من هذا الباب – عن « أغراض قصص العشق » . ثم أشرت فى الفصل الثانى الى « معالم قصص العشق » فرسمت هيكلها ، وكشفت عما فى بعضها من صراع ، أو تشويق ، أو خيال .. الخ . والفصل الثالث درست فيه تطور هذه القصص وبيان أثرها وتأثيرها . وعرضت فى الفصل الرابع والأخير « نماذج من قصص العشق » حللتها ودرستها وقارنتها بغيرها .. الخ .

أما الخاتمة فقد عرضت فيها أهم نقاط البحث ، وأشرت الى الجديد الذى أضافته هذه الرسالة الى تراثنا العربى . ثم أنهيتها بمقترحات ، راجيا أن تجد العناية من المسئولين والمهتمين .

(٥)

ولم أجد مصدرا من المصادر القديمة ، قد جمع هذه القصص فى مجموعة واحدة ، بل كانت هذه القصص متناثرة فى بطون الكتب الأدبية والتاريخية وتحت عناوين مختلفة . ولست أبالغ اذا قلت ان نصف الجهد ، ونصف الزمن على الأقل ، قد أنفقا للبحث عن هذه القصص ، وتجميعها ، وكم كتاب قرأته من الدفة الى الدفة ، ثم خرجت منه صفر اليدين ، غير قابض على شىء يخدمنى فى بحثى .

وأمر آخر قد استهلك منى الجهد الكثير ، اذ أن معظم هذه

القصص شعبية مجهولة المؤلف ، تدور حول الأعراب ، أو أناس مغمورين من عامة الشعب ، وقليل منها نستطيع أن نرده الى العصر الأمـــوى ، وذلك مثل القصص التى كانت تدور حول أبطال معروفين كابن ذريح وابن الطثرية . وهنا تدركون مدى الجهد الذى بذلته لمحاولة التعـلق بشىء يوصلنى الى نسبة هذه القصص الى العصر الأمـــوى ، وخاصـــة ان سلاسل الرواة ، التى كان يذكرها بعض المؤلفين لم تكن وافية ، فقد يقتصر على جزء من اسم الرواى ، أو يذكر لقبا له ، أو شيئا غير محدد ، كان يقول : انه رواها عن عمه عن أبيه . فمثلا صاحب المصارع يعـبر تعبيرات غير واضحة عن الراوى . فمرة يقول : ذكر أبو عمر محمد ابن العباس الخزاز (١٥) . وثانية يقول : ذكر أبو عمر محمد بن العباس ابن حيوه (١٦) . ومرة يقول : ان أبا بكر محمد بن خلف المحـولى هو الذى حدث أبا عمر بن العباس (١٧) ، وثانية يقول ان الذى حدثه هو أبو بكر محمد بن خلف (١٨) . فهل هما شخص واحد ؟ وهل هما أو هو يختلف عن أبى بكر محمد بن خلف المرزبان ، الذى ذكر الخطيب البغدادى أن محمد بن العباس المعروف بابن حيوة قد سمع عنه (١٩) . أولا اختلاف وأن هذه الأ سماء الثلاثة لشخص واحد ؟ أشياء تحتاج الى جهد وتحقيق .

ولابد من ضرب مثل يوضح الصعوبة الشاقة التى لقيتها ، فالقصة التى ذكرتها فى الفصل الأخير ، تحت عنوان « ماساة عاشق » . قرأتها فى مصارع العشاق ، فاذا سلسلة الرواة هكذا « ذكر أبو عمر بن الخزاز ، ونقلته من خطه ، أن أبا بكر محمد بن خلف حدثهم ، حدثنى أبو أحمد

---

(١٥) مصارع العشاق ص ٢٢٩
(١٦ ، ١٧) المرجع السابق ص ٢٤٩
(١٨) المرجع السابق ص ٢٢٩
(١٩) تاريخ بغداد ٣ ـ ١٢١

عبد الله بن محمد الطالقانى ، حدثنى محمد بن الحارث الرازى ، اخبرنى احمد بن عمر الزهرى حدثنى عمى عن أبيه قال : خرجت فى نشدان ضالة لى ، فاوانى المبيت الى خيمة اعرابى ... » وكان لابد من الرجوع الى الكتب التى تؤرخ للرواة ، فرجعت الى « تاريخ بغداد » ولكن لم أصل الى النتيجة المرجوة . وكل ما استطعت أن اعرفه أن محمد ابن العباس بن محمد بن زكريا بن يحيى ، أبو عمر الخزاز المعروف بابن حيوه ، وأنه ولد سنة ٢٩١ هـ وتوفى سنة ٣٨٢ هـ ، وأنه سمع عن جماعة ، ذكر منهم محمد بن خلف بن المرزبان (٢٠) . فرجعت الى الجزء الذى يتحدث عن ابن خلف ، فعرفت انه توفى سنة ٣٠٩ هـ (٢١) وبعد ذلك عييت أن أصل الى شىء محدد عن بقية الرواة . فرجعت الى القصة فى تزيين الأسواق ، فاذا به يذكرها فى القسم الثانى : فيمن جهل اسمه ، أو اسم محبوبته ، أو شىء من سيرته ، أو مآل حقيقته ، فقال : « ومنهم مارواه اعرابى او هو جبلة بن الأسود » حتى اتيح لى أن ارجع الى هذه القصة فى الموشى ، ففرحت انه نسبها الى جميل ابن معمر ، وأنه قصها أمام عبد الملك بن مروان . ومثل آخر تلك القصة التى ذكرها صاحب المصارع عن فتى يقال له بشر ، ويعرف بالأشتر ، فمن الصعب معرفة عصرها على حسب روايته (٢٢) . وقد رجعت اليها فى التزيين ، فاذا به يذكرها فى القسم الثانى ، فيمن جهل اسمه .. الخ ، واذا به يسمى هذا الفتى : بشيرا وليس بشرا (٢٣) . حتى رجعت الى المحاسن والاضداد ، فاذا به يذكر قصة شبيهة بهذه القصة ، قصها طريح بن اسماعيل الثقفى ، حين قدم من عند الوليد ابن يزيد ، يريد الطائف . وبعد قصة طريح يقول « وحدث بهذا

---

(٢٠) المرجع السابق ٢ – ١٢١
(٢١) المرجع السابق ٥ – ٢٣٧
(٢٢) مصارع العشاق ص ٢٥٢
(٢٣) تزيين الأسواق ١ – ١٠٩

الحديث محمد بن صالح ... بسر من رأى سنة أربعين ومائتين ، وكان حمل من البادية الى المتوكل ... قال : كان منا فتى ، يقال له الأشتر بن عبد الله ... (٢٤) » مما يدل على أن هذا الحديث كان شائعا منذ عصر الوليد بن يزيد ، وظل متداولا فى أيام المتوكل .

وكم من قصة أعجبتنى ، فظللت أدور وراءها فى المراجع ، وأبحث عن عصور رواتها ، ثم اذا بى أصدم فى النهاية أنها رويت فى عصر متأخر عن العصر الأموى . وكم من قصة ظننت أنها وردت فى العصر الأموى بسبب علم فيها ، وسرت على هذا الظن ، وبنيت عليها دراسات وتحليلات ونتائج ، ثم تبين لى بعد كل هذا أنها لاتنسب للعصر الأموى ، وأن هذا العلم جاء فقط للاستشهاد بشعره . ولكننى لا أخفى أننى احتفظ بقصص كثيرة ونافعة ، عجزت عن أن أرجعها الى العصر الذى أنا بصدده .

(٦)

على أن هذه الصعوبة انما جاءت من تقييدى نفسى بفترة تاريخية ، ومن تحديدى بحثى بالعصر الأموى . وكان خيرا لى أن أتخطى سيئات هذا التقييد ، وأن أكون حرا طليقا ، فأدرس هذه القصص دراسة واسعة على مختلف العصور . وخاصة أن الظاهرة الأدبية ليست شيئا ماديا يمكن تحديده ببداية ونهاية ، بل هى شىء معنوى ، قد تكون له مقدماته فى الفترة السابقة على الفترة المحددة له ، وقد يبقى له أثره بعد تلك الفترة . فكيف اذا عرفنا أن هذه القصص أقرب الى الروح الشعبى الذى لايدقق فى الزمان ، ولا يحقق فى المكان .

ولكنى مع هذا ، لست ذلك الانسان الذى يستطيع أن يدرس هذه

---

(٢٤) المحاسن والاضداد ١٩٧ — ٢٠٠

القصص على مختلف العصور . فقد يوقعنى هذا فى أحكام سريعة مبتسرة ، ولذلك قنعت بهذا التقييد ، حتى أستطيع أن أصل فى حدود طاقتى وامكانياتى الى نتائج مدروسة ناضجة .

ومع ذلك ، فقد تحايلت على هذا التحديد ، بذلك الفصل الذى حاولت فيه أن أبحث عن مصادر هذه القصص فى العصور السابقة ، وبذلك الفصل الذى تتبعت فيه تطور هذه القصص وأثرها وتاثيرها ا.

وكنت أحيانا أقنن هذه القصص ، وأرى ما فيها من قرب أو بعد عن المقاييس الفنية الحديثة ملتمسا لها العذر بظروفها التاريخية ، وبظروف عصرها البعيد . وكنت أحيانا أقارن القصة بشبيهات لها ، وبذلك أكون قد جمعت بين المنهج الذى يقيس الشىء بما ينبغى أن يكون ، وبين المنهج الذى يصف الشىء كما هو كائن .

(٧)

وقد رجعت الى كل ما أتيح لى حول هذا الموضوع من كتب مؤلفة أو مترجمة ، مطبوعة أو مخطوطة ، عربية أو أجنبية ، قديمة أو حديثة ، ومن مجلات وصحف ، وقد ذكرت ثبتا فى آخر الرسالة بكل هذا ، وكنت أضطر فى بعض الأحيان الى الرجوع الى أكثر من طبعة للمرجع ، وعلى هذا فاذا كانت الطبعة التى رجعت اليها موحدة فى جميع الرسالة ، لم أجد داعيا الى ذكر الطبعة وتاريخها فى هوامش الرسالة ، اكتفاء بذكر ذلك فى قائمة المراجع واذا كنت قد اضطررت الى الخروج عن هذه الطبعة الموحدة مرة أو مرتين او ثلاثا ، فاننى سأذكر فى الهامش الطبعة وتاريخها ان وجد ، فى المرات القليلة التى خرجت فيها عن الطبعة الموحدة ، أما اذا كنت قد اضطررت الى الرجوع الى طبعات مختلفة ، فلابد لى فى هوامش الكتاب من ذكر كل طبعة وتاريخها .

تمهيـــد

القصـة عند العرب

القصة عمل فنى معقد ، يحتاج الى عقلية تحليلية ، تستطيع المزج بين عناصر القصة المختلفة ، وتقدر أن توائم بين الشخصيات فى علاقة بعضها مع الآخر ، وتلائم بين الشخصية وحوارها ومسلكها ... ثـم توجه كل هذه العناصر لخدمة غرض معين وهدف فى ذهن الكاتب .

وهى عمل يحتاج الى خيال مبتكر خلاق ، يحاكى الطبيعة فى صنع الأحداث ، ويشاكل الحياة فى ابتكار العلاقات .

وقد أنكر بعض المعاصرين على العرب قدرتهم على خلق قصـة وحكموا بخلو الأدب العربى من هذا الفن الممتاز .

فالأستاذ الزيات يؤمن بقصور العرب فى القصص ، ويرى أن هذا القصور استمر حتى « وضح ابن المقفع الفارسى مناهج النثر ، وفكـر فى تدوين شىء من القصص ، فكان ماترجمه هو وأمثاله من نحـو « كليلة ودمنة » و « هزار أفسانة (ألف خرافة) » « ودارا والصـنم المذهب » حديا للعرب ، ونموذجا لهم فى وضع ما وضعوه منها (١) »

ويجمل الأسباب التى أدت الى هذا القصور ، فى أن مزاولة القصة تقتضى الروية والفكرة ، والعرب أهل بديهة وارتجال ، وتتطلب الالمام بطبائع الناس ، وهم قد شغلوا بأنفسهم عن النظر فيمن عداهـم ، وتفتقر الى التحليل والتطويل ، وهم أشد الناس اختصارا للقـول واقلهم تعمقا فى البحث ، وقد قل تعرضهم للاسفار البعيدة ، والاخطار الشديدة ، وحرمتهم طبيعة أرضهم ، وبساطة دينهم ، وضيق خيالهم . — كثرة الأساطير ، وهى أغزر ينابيع هذا الفن .. الخ (٢)

---

(١) تاريخ الأدب ص ٣٧٩ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٦ .

والاستاذ توفيق الحكيم * يرى أن الادب العربى – فى الفتـره السابقة للاسلام – خلق فنى ناقص التكوين ، فـاذا تـأملت الاداب القديمة وجدت أنه قــد عاصرتهــا فنون كبرى ، فالمعابد العظيمة ، والتماثيل الرائعة فى مصر القديمة ، والهند ، والاغريق ، خليق أن يعاصرها أدب عظيم مثل الملاحـم والتمثيل والقصـص ، ولكن الادب العربى نشأ فى بيئة قاحلة فكان أقصى ما عاصر لغـة امـــرىء القيس ، أو لبيد ، أو زهير ، تلك المسوخ والتهاويل لالهة من الحجر اطلقـوا عليها الهبل ، واللات والعزى (٣) ٠

والدكتور أحمد أمين ، يعتقد فى تقصير العرب فى هذا النوع من القول ، وان كان يخفف الأمر ، فيرى أن هذا الضرب أحد مظـاهر الخيال لامظهر الخيال كله ، فالفخر والحماسة ، والغزل ، والوصف ، والتشبيه والمجاز – كل هذا ونحوه مظهر من مظاهر الخيال ، والعرب قد أكثروا القول فيه كثرة تسترعى الأنظار ، وان كان الابتكار فيــه قليلا ، كذلك ما ملىء به شعر العربى من الغزل ، وبكاء الاطـــلال ، وذكر الأيام والحوادث ، وما وصف به شعوره ووجدانه ، وما صور بـــه التياثه وهيامه – لايمكن أن يصدر عن عواطف جامدة ، ولكنه يجمـــن رأيه فى عربى الجاهلية بأن « خياله محدود ، وغير متنوع ، وقلمـــا يرسم له خياله عيشة خيرا من عيشته ، وحياة خيرا من حياتــه يسعى وراءها ، لذلك لم يعرف المثل الأعلى لأنه وليد الخيال ، ولم يضع له فى لغته لفظة واحدة دالة عليه ، ولم يشر اليه فيما نعرف من قوله ، وقلما يسبح خياله الشعرى فى عالم جديد يستقى منه معنى جديدا ، ولكنــه فى دائرته الضيقة استطاع أن يذهب كل مذهب » ٠٠ (٤)

---

(٣) زهرة العمر ص ١٣٨ ٠
(٤) فجر الاسلام ص ٧٧ ٠

وغير هؤلاء كثيرون ممن يؤمنون بضيق الخيال العربى ، وعدم توفيقه فى انشاء القصة أو خلق الأساطير (٥) .

ولعل هؤلاء وغيرهم متأثرون بما احتفى به بعض الباحثين فى القرن التاسع عشر وما بعده ، من مناداة بالفروق بين الأجناس البشرية أو بنظرية « العروق » كما يسميها الدكتور « غوستاف لوبون » . ويلخص هذه النظرية ــ كما أقرتها العلوم الحديثة ــ فيقول : « تقسم الجماعات البشرية المنتشرة فى مختلف أقطار الأرض الى عروق ، وكان يظن أن الفروق بين العروق البشرية أقل مما هى عليه بين أنـواع الحيوان ، بيد أن العلم الحديث أثبت أن عروق البشر مفترقة فى أخلاقها افتراق أنواع الحيوانات المتقاربة ، فيجب عد كلمة « عرق » بالنسبة للانسان مرادفة لكلمة « النوع » ، ويمكن تعريف العرق أو النوع البشرى بأنـه يدل على جماعات ذات أخلاق مشتركة ، تنتقل اليها بالوراثة المنتظمة ، ثم يرى أن أثر البيئة أو التوالد ، يكاد يكون معدوما فى العروق العريقة فقد دلت حوادث التاريخ على أن العرق اذا ما استقرت أخلاقه وسجاياه

---

(٥) مثل الدكتور محمد ضيف الذى يرى أن الاسلوب القصصى جاء الى لغة العرب مما نقل اليها من الفارسية أو الهندية أو غيرهما ، بـل يرى أن سبب انتشار القصص العامية يرجع الى الاعاجم الذين اندسوا بين العرب أيام الدولة العباسية ، وكانوا يحملون الاخبـــار الغريبة ، والاخيلة العجيبة فذاع أثر هذه القصص بين عامة الناس حتى امتلأت اللهجة العامية (انظر المقتطف فبراير سنة ١٩٣٥ . ص ١٤٦) . ومثل الاستاذ عباس محمود العقاد اذ يقول عن العرب أنهم « كانوا قبائل رحلا يؤمون المدن فى مواسم تتقسمها العبادة والتجارة والخطابة . فائتمر التاريخ والاقليم واللغة على أن يكون العرب أمة بلا خيال » [الفصول ص ١٤٠] . ومثل الاستاذ عبد العزيز البشرى الذى يقول : « ولقد بقيت القصة مقصورة فى الجملة على الشعر ، ولكن بالقدر الذى أسلفنـــاه عليك، حتى اذا كان عهد الدولة العباسية التفت الناس للقصص وترجم ابن المقفع كليلة ودمنة » (المختار ١ / ٢٥) .

بالوراثة وبلغ من الكبر عتيا ، عجزت البيئة عن التاثير فيه ، وصار أهون عليه أن ينقرض من أن يتحول (٦) ٠

وشرع بعض الباحثين يبوبون الصفات العقلية والوجدانية لكل جنس فهذا جنس آرى ممتاز ، وذلك جنس سامى أقل منه ، هذا جنس آرى قد منحه الله الدهشة نحو العالم ، وأفاض عليه العاطفة المشبوبة ، والخيال الواسع ، فأخرج للانسانية القصص الرائعة ، والمسرحيات الذائعة ، وذاك جنس سامى لم يوسع الله عليه ، فحرمه الخيال المبتكر ، والعاطفة الخلاقة ، فلم يبتكر قصة ولم يخلق مسرحية (٧)

ويتحدث دى بور عن النظر العقلى عند الساميين فيقول : لم تكن للعقل السامى قبل اتصاله بالفلسفة اليونانية ثمرات فى الفلسفة وراء الالغاز والأمثال الحكيمة ٠ وكان هذا التفكير السامى يقوم على نظرات فى شئون الطبيعة ، متفرقة ، لا رباط بينها ، ويقوم بوجه خاص على النظر فى حياة الانسان ، وفى مصيره ٠ واذا عرض للعقل السامى مايعجز عن ادراكه لم يشق عليه أن يرده الى ارادة الله التى لايعجزها شىء ولاتدرك مداها ولا أسرارها ، ونحن نعرف هذا الضرب من الحكمة فى العهد القديم ، ويدل على تكونه لدى العرب ماجاء فى التوراة من

---

(٦) حضارة العرب ص ٧٧ ٠ وانظر أيضا « الادب المقارن » للدكتور محمد غنيمى هلال ، فقد لخص رأى تين عن الجنس والاستعدادات الفطرية التى تميز مجموعة من الناس عن غيرها (ص ٥٢ الى ٥٧ ٠ الطبعة الثانية) ٠

(٧) أن أردت التفصيل فى هذه النقطة فارجع الى :

١ ـ فجر الاسلام والمراجع المبينة به ص ٣٣ ٠

٢ ـ ثورة الادب للدكتور محمد حسنين هيكل ص ٩٢ ٠

٣ ـ مقال لى نشر بمجلة الرسالة (١٢ شعبان سنة ١٣٨٣ هـ) ٠

٤ ـ فن كتابة السيرة الشعبية ص ٦٠٨

قصة ملكة سبأ ومايحكى عن شخصية لقمان الحكيم ، مما هو وارد فى المأثورات العربية » (٨) .

وأعتقد أن هذه الاراء كانت بسبب الغرور الذى أصاب أوربا فى القرن التاسع عشر وما بعده بسبب حركاتها الاستعمارية ، وقوتها الصناعية وانتصاراتها العلمية ، فخيل اليها — وهى فى تلك النشوة المثملة — أنها جنس ممتاز ، ودم فريد ، من حقه ، بل من الواجب عليه ، أن يتولى أمور الأجناس الأخرى ، وأن يتملك زمامها . وقد وقع الأستاذ جب Gibb على سبب شبيه بهذا ، وهو يعلل لبعد العقل الغربى فى القرن التاسع عشر عن استيحاء الشرق فى آدابه . اذ « شغلت الغرب يومئذ آراؤه الفلسفية الحديثة ، ومبادئه السياسية الجديدة ، والتطور الصناعى العظيم الذى شمله فلم يعد بحالة يستطيع فيها الاصغاء الى الشرق ، بله العمل فى صبر وأناة على تفهم الروح الشرقى ، وقضى الشعور بالوطنية على ذلك المثل الأعلى الذى كان يراه جوته فى وجود أدب عالمى » (٩) ..

ومن الطريف أن هذه النظرة الاستعلائية تصيب — كما يدل التاريخ — كل قوم أقيمت على أيديهم حضارة كبيرة . فالمصريون القدماء كانوا يسمون الشعوب الأخرى « بالبربر » والعلماء والكتاب اليونانيون يسمون كل من عداهم من الشعوب « بالبربر » لايستثنون المصريين ، ولا الكلدانيين ، ولا الفينيقيين ، ولا الفرس ولا غيرهم (١٠) .

وحين أتيح للحضارة الاسلامية أن تزدهر ، أصاب الغرور العرب أيضا ، فرأوا أنهم أفضل الأمم ، وأن حكمتهم أشرف الحكم (١١) .

---

(٨) تاريخ الفلسفة فى الاسلام ص ١١ .
(٩) تراث الاسلام . فصل الادب ص ٢١١ .
(١٠) « على هامش التاريخ المصرى القديم » ص ٦٩
(١١) العمدة ١ / ٤ .

واكثر من هذا انهم أولوا نظرة المساواة التى جاء بها الدين الاسلامى ،
فاذا احتج اهل التسوية (الموالى) على العرب بقول النبى عليه السلام
فى حجة الوداع « أيها الناس : ان الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية
وفخرها بالآباء كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، ليس لعربى على عجمى
فضل الا بالتقوى» وبقول اللهتعالى :« ان أكرمكم عندالله أتقاكم (١٢)» .
اذا فعل أهل التسوية ذلك فان ابن قتيبة يرد عليهم بأن المساواة التى
أرادها النبى ، انما تكون فى الأمور الاخرة ، أما أمور الدنيا ، فالناس
لايتساوون فيها ، فالنبى ﷺ يقول : « اذا أتاكم كريم فاكرموه »
ويقول عن قيس بن عاصم « هذا سيد الوبر » (١٣) .

وكما ان دعوى الاوربيين ـ فى العصر الحاضر ـ استطاعت ان تجد قبولا عند أشخاص ليسوا أصلا من أوربا : فرددوها وآمنوا بها ، كما رأيت فى أول هذا الكلام ، فقد استطاعت دعوى العرب ـ قديما ـ أن تؤثر ايضا على أشخاص ليسوا أصلا من العرب ، فآمنوا بدعوى العرب ورددها ، فسهل بن هارون وهو فارسى الأصل يربط اللغة العربية بنظام الكون ، فحروفها ثمانية وعشرون حرفا على عدد منازل القمر ، وغاية ما تبلغ الكلمة منها مع زيادتها سبعة أحرف على عدد النجوم السبعة ، وحروف الزوائد اثنا عشر حرفا على عدد بروج الاثنى عشر ، ومن الحروف ما يدغم مع لام التعريف وهى أربعة عشر حرفا مثل منازل القمر المستترة تحت الأرض ، وأربعة عشر حرفا ظاهرا لاتدغم مثل بقية المنازل الظاهرة ، وجعل الاعراب ثلاث حركات . لأن الحركات الطبيعية ثلاث : حركة من الوسط كحركة النار وحركة الى الوسط كحركة الأرض ، وحركة على الوسط كحركة الفلك (١٤) .

---

(١٢) العقد الفريد ٢ / ٦٩ .
(١٣) نفسه ص ٧١ .
(١٤) الفهرست ص ١٥.

وسواء أكان ابن هارون يقول هذا على أساس أنه حقيقه ، أم يقوله من باب التأول الطريف ، والاتفاق الظريف ، كما يعلق صاحب الفهرست على هذا النص ـ سواء أكان هذا ، أم ذاك ، فـان روح النص تومىء الى تمجيد العربية وتفضيلها . وقد سال ابن المقفع وهو فارسى جماعة كانوا معه أى الأمم أعقل ؟ فجعلوا يقولون لـه مـرة فـارس ، وثانية الروم ، وثالثة الصين ، ورابعة الهند ، وخامسة السودان ، وسادسـة الترك ، وسابعة الخزر . وابن المقفع لايرضى بهذا ... وأخيرا يخبرهم بأن اعقل الأمم هم العرب وجعل يعدد مزاياها (١٥) .

والحق أن هذه الآراء التعصبية ـ سواء كانت من جانب الأوروبيين أو من جانب العرب ، أو من جانب غيرهما ـ ينقصها التمحيص العلمى الدقيق والنظرة التاريخية الكلية .

أما النظرة التاريخية الكلية ، فانها ترى أن الحضارات الانسانية لم تكن وقفا على جنس دون آخر وان كل حضارة هى مرحلة تطورية ترضع مما سبقها من حضارات ، وترضع ما لحقها من حضارات .

فالحضارة المصرية القديمة ، لم تكن منبتة عن لاحقتها الحضارية اليونانية ، فقد أثبت البحث الحديث وجود اقتباس وأحيانا نقل فى الياذة هو ميروس وأوديسته ، فالعالم الفرنسى Victor Berard وهـو من المتفرغين للآداب اليونانية ، أثبت أن هوميروس اقتبس كثيرا من آداب المصريين ومعتقداتهم . والعالم M.W. Crolenicheff وهو من علماء المصرولوجيا فى روسيا يكتشف أن فصلا من فصول الأوديسـا منقول عن قصة ، وجدها فى ملف من أوراق البردى المحفوظة فى أحدى مكتبات بترو غـراد ، وتوصـل الى هـذه النتيجة غير هـذين من

(١٥) العقد الفريد ٢/ ٤٣

العلماء (١٦) ، والحضارة العربية الاسلامية افادت كثيرا من الحضارة اليونانية فى فلسفتها ونحوها ومعتقداتها ، وعلومها ٠٠٠ الخ (١٧) ٠ وحملت الحضارة العربية الأمانة بصدق واخلاص وسلمتها الى سليلتها الحضارة الاوروبية « وللحضارة العربية أهمية خاصة عند دارسى التراث الانسانى بصفة عامة ، ولهؤلاء الذين يهتمون باظهار تكامل الجهود الانسانية مرة أخرى فى وجه الأقطار الوطنية والعلمية لأن الحضارة العربية ، كانت ـ ولا تزال ـ قنطرة ، وقنطرة رئيسية بين الغرب والشرق ، فعبرها أخذت طريقها الى أوربا الاعداد والعلوم الهندسية من الهند ، والحرير والورق والخزف من الصين » (١٨) ٠

وفذلكة الموضوع أن الحضارة الانسانية قاسم مشترك بين أبناء نوح ، ساميهم وحاميهم يسهم فيها كل بمقدار ماتتيح ظروفه ٠

أما التمحيص العلمى الدقيق ، فقد هال الأمم المتحدة خطورة هذه الفكرة التعصبية فأصدرت بيانين عن « طبيعة الجنس والاختلافات الجنسية » ٠ وضع البيان الأول ـ بصفة رئيسية ـ علماء الاجتماع من مختلف الدول فى دار اليونسكو بباريس فى ١٨ من يوليه سنة ١٩٥٠ ٠ أما البيان الثانى فقد وضعه علماء الانثروبولوجيا الجسمية وعلماء

---

(١٦) على هامش التاريخ المصرى القديم ٧٣ ـ ٨٣ ٠

(١٧) انظر لتوضيح هذه النقطة : تاريخ الفلسفة فى الاسلام (الفصل الثالث من الباب الاول ، الباب الثانى ، الباب الثالث والباب الرابع .) ٠

(١٨) مقال مقتطف من كتاب « المرشد الى تاريخ العلم » تأليف جورج سارتون ترجمة عزت قرنى ، نشر بمجلة « المجلة » ص ١١١ (عدد يوليه سنة ١٩٦٣) وان أردت المزيد فانظر :

١ ـ من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده للاستاذ محمد خلف الله ص ٢ ٠

٢ ـ أثر العرب فى الحضارة الأوربية للاستاذ عباس محمود العقاد ٠

الوراثة ، فى دار اليونسكو بباريس يوم ٢٨ يونيه سنة ١٩٥١ ومما جاء فى المادة / ١٣ ، والمادة / ١٤ من البيان الأول ما يأتى :

« ١٣ ـ فيما يتعلق باختلاط الأجناس تشير الدلائل بما لا يتطرق اليه الشك الى أنه ظل مستمرا منذ أقدم العصور ، بل ان طريق العمليات الرئيسية لتكوين الأجناس ، واندثار الأجناس وامتصاصها ، تتم عن طريق التهجين بين الأجناس ، أو المجموعات الأثنولوجية . »

« ١٤ ـ لابد من التمييز بين الجنس كحقيقة بيولوجية ، والجنس كأسطورة من الاساطير ، الجنس من جميع الوجوه الاجتماعية العلمية ليس ظاهرة بيولوجية ، بقدر ماهو أسطورة اجتماعية ، وقد خلقت أسطورة الجنس قدرا هائلا من الضرر الانسانى والاجتماعى ٠٠ وليس فى ذلك أكثر من ادراك ما كتبه عالم بيولوجى عظيم فى عام ١٨٧٥ م « بينما يتقدم الانسان فى مضمار الحياة ، وتتوحد القبائل الصغيرة فى مجتمعات أكبر ، يوحى أبسط التفكير لكل فرد بأن عليه أن يمد غرائزه الاجتماعية ، ومشاركته الوجدانية لجميع بنى قومه ، رغم أنه لايعرفهم معرفة شخصية ، واذا ما بلغ هذه النقطة ، فلن يحول الا حاجز صناعى ، دون أن تمتد مشاركته الوجدانية الى الناس من كل الأمم والأجناس » هذه كلمات تشارلزداروين فى كتابه The Descent of Man الطبعة الثانية عام ١٨٧٥ ، صفحات ١٨٧ ـ ١٨٨ » (١٩) ٠

بعد هذا الاستطراد الذى كان لابد منه لهدم الاساس الذى بنى عليه من رمى الأدب العربى بالجدب ، وعدم التنوع فى الأفانين الأدبية ـ أعود على بدء الى المنكرين للقصة فى الأدب العربى فأعرض عليهم دليلا أقوى مما سبق ، وهو واقع الأمة العربية التاريخى ٠

---

(١٩) ماهو الجنس ص ٧٩ ٠

فالحقيقة أن القصة واكبت الأمة العربية فى سيرها التاريخى ، وفى كل عصر كانت أداة فنيــة ، تعبر عن حاجـات العرب ، وتشـف عن ظروفهم التى كانوا يمرون بها ٠

فالصحراء العربية صحراء رهيبة ، يشعر أمامها العربى بالضآلة فاذا ماهجم الليل ، لف العربى وخيمته ، فلا يستطيع أمامه مهربا كما يومىء النابغة الى ذلك وهو يعتذر للنعمان ، والعربى أمام الصـحراء وليلها يشعر بالرهبة والجلال ، يحيط به هزيع الرياح ، وتتطلع اليــه نجوم كأنها عيون ذات شرر وتتساقط عليه شهب كالقصر ٠ فماذا يفعل العربى ـ فى تلك الفترة المبكرة ـ أمام هذه المظاهر الرهيبة ؟ ٠ لقـد جسدها وأضفى عليها الكثير من القصص ٠ فهناك الجان التى تتلصص على الملكوت الأعلى ، وتحاول أن تخترق الحجب عسى أن تجد تفسيراً لهذه المتناقضات التى تحيط بالعربى فى صحرائه ، وقد جــاء القرآن بابطال هذا الصنيع ، فقد امتلأت السماء حرسا شديدا وشهبا تمنع الجن من الوصول الى أسرار الغيب « وأنا لمسنا السماء فوجدناهـا ملئت حرسا شديدا وشهبا ٠ وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا » (٢٠) ٠ والعربى فى ضعفه أمام مظاهر الصحراء يلجأ الى الجن ، « فكان الرهط من العرب فى الجاهلية اذا أمسوا فى واد أو قفر وخافوا من الجن ـ لجئوا الى الاستعاذة بعظيم الجن المسود فيهم فيقولون : نعوذ بسيد هذا الوادى من سفهاء قومـه ، ثـم يبيتون آمنين (٢١) » وقد أشار القرآن الى هذه العقيدة فى قوله « وأنه كـان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن ، فزادوهم رهقا (٢٢) » ٠

---

(٢٠) سورة الجن ، الايتين ٨ ، ٩ ٠ وفى رسالة الغفران يلتقى ابن القارح فى جنة العفاريت بجنى هو أبو هدروش فقص عليه قصة الرجم وايمان طوائف من الجن « ١ / ٩٤ » ٠

(٢١) تفسير جزء تبارك للشيخ عبد القادر المغربى ص ١٥٠

(٢٢) سورة الجن الآية ٦ ٠

وقد حيكت اقاصيص كثيرة حول الجن ، فهناك رجال من الانس يتزوجون من الجن ، وهناك عشاق من الجن للانس ، وقد ذكر ابن النديم ستة عشر كتابا فى أسماء عشاق الانس للجن وعشاق الجن للانس (٢٣) .

وهناك رجل من بنى عذرة يقال له « خرافة » سبته الجن ، وكان معهم ، فاذا استرقوا السمع أخبروه فيخبر به أهل الأرض فيجدونه كما قال (٢٤) وقد كان أبرهة ذو المنار من أجمل الناس وجها فعشقته امرأة من الجن ، ثم تزوجت منه ، ولدت له ولدين : العبد ذا الاشرار ، وعمرا ذا الاذعار (٢٥) وكان العبد اذا أضل طريقه استنجد بالجن فتعينه (٢٦)

وقد استغل الكهان هذه العقيدة ، فاشاعوا بين الناس أن مع كل واحد منهم رئيا من الجن مثل حازى جهينة ، وظريفة الحجورية التى اتاها آت فى المنام ، فخيرها بين العلم والولد فاختارت العلم (٢٧) وورث العلم (٢٨) من بعدها سطيح وشق (٢٩) . وحكوا الاساطير حول هذه الشخصيات الجنية ، فشق نصف آدمى ، له يد واحدة ورجل

---

(٢٣) الفهرست ص ٤٢٨ .
(٢٤) العقد الفريد ١ / ٢٥١ .
(٢٥) التيجان ص ١٢٧ وأخبار عبيد بن شرية ص ٤٠٦ .
(٢٦) التيجان ص ١٣٠ .
(٢٧) التيجان ص ٢٦٥ .
(٢٨) المرجع السابق ص ٢٨٠ .
(٢٩) البيان والتبين ١ / ١٥٩ . ولاخبار شق انظر : الحيوان ٦ / ٢٠٦ « طبع الحلبى وتحقيق عبد السلام محمد هارون » ، وسيرة النبى لابن هشام ص ١٢ « كتاب التحرير العدد ٥٢ » ، ولاخبار سطيح انظر : العقد الفريد ٣ / ٢٨ « مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر » ونهاية الأرب فى فنون الأدب ٣ / ١٢٤ « طبع دار الكتب » .

واحدة وعين واحدة (٣٠) وليس له مفصل ولا عظم يخرج ممسوخا ، وماله راس ولا عنق (٣١) . أما سطيح فقد عمر حتى بلغ ثلاثمائة سنة ، وجهه فى صدره ولد هو وشق فى يوم واحد ، لاعظم فيه الا الجمجمة ، لايقدر على الجلوس الا اذا غضب ، له سرير يوضع فيه اذا أريد نقله من مكان الى مكان ، واذا أريد استخباره عن المغيبات فانه يحرك كما يحرك سقاء اللبن ، فينتفخ ويمتلىء ويعلوه النفس ، فيسأل ، فيخبر عما سئل عنه وهو الذى تنبأ بظهور محمد (ص) وبغلبة العرب (٣٢) .

وقد علل المسعودى لهذه الأساطير التى شاعت بين العرب تعليلا منتزعا من البيئة ، ومن موقف العربى ازاء هذه البيئة فقال : « وقد تنازع الناس فى الهواتف والجان ، وان ما تذكره العرب وتنبىء به من ذلك انما يعرض لها من التوحد فى القفار ، والتفرد فى الأودية ، والسلوك فى المهامه الموحشة لأن الانسان اذا سار فى المهامه روع ووجل وجبن ، واذا هو جبن ، داخلته الظنون الكاذبة ، والاوهام المؤذية السوداوية الفاسدة ، فصورت له الاصوات ومثلت له الاشخاص ، وأوهمته المحال ، كما يعرض لذوى الوساوس ، لأن المتفرد المتوحد يستشعر المخاوف ، ويتوهم المتالف ، ويتوقع الحتف لقوة الظنون الفاسده على فكره ، وانغراسها فى نفسه ، فيتوهم مايحكيه من هتف الهواتف به واعتراض الجان له (٣٣) » .

---

(٣٠) الحيوان ٦ / ٢٠٦ « طبع الحلبى » .

(٣١) التيجان ص ٢٨٠ .

(٣٢) العقد الفريد ٢ / ٢٨ « طبع دار الكتب » ، نهاية الارب ٣ / ١٢٤ « طبع دار الكتب » ، التيجان ص ٢٩٢ .

(٣٣) مروج الذهب ١ / ٣٢٦ . وقد عرض الدكتور أحمد الحوفى فكرة الجن عند العرب عرضا علميا مستمدا من الأخبار والنصوص الأصلية انظر « الحياة العربية من الشعر الجاهلى ٤٥٩ ـ ٤٨٣ من الطبعة الرابعة » وفى الجزء الرابع من قصص العرب قصص « عن الجان وما يدل على خيال العرب ... » .

والعرب – فى معظمهم – قبائل تنتجع الغيث والكلأ . وما اكثر أن تشح السماء ، فلا تمطر نباتا الا فى بقع قليلة ، يتقاتل عليها العرب وتدور بينهم الحروب ، ولذلك يعدد المؤرخون « أيام العرب » (٣٤) .

وقد روى الرواة حول هذه الأيام قصصا ، وسواء اكانت واقعية أم فيها شىء من المبالغة فانها تعتبر من التراث القصصى ، وبعض هذه القصص تعد مآسى انسانية رائعة ، كقصة « حرب البسوس » ، فكليب ابن ربيعة بغى وطغى ، وداخله الغرور على قومه ، حتى انه كان يحمى مواقع السحب ، ويجير على الدهر ، ويجير الوحش فى فلواتها ولاتورد ابل مع ابله ، ولا توقد نار مع ناره ، وفى يوم تسربت ناقة « للبسوس » يقال لها « سراب » ووردت الحوض مع ابل كليب فأرداها بسهم ، فاستغاثت بابن اختها « جساس بن مرة » ، فأحمسته ، وتسارعت فيه عواطف النجدة والنخوة والدفاع عن اقربائه المقربين ، والتحرر من هذا الطغيان فركب فرسا له ، مغرورا به ، وأخذ آلته ، وتبعه عمرو ابن الحارث ، حتى دخلا على كليب الحمى فقتلاه ... وهنا تتأزم الأمور وتدور المعارك المهولة بين بكر وتغلب ابنى وائل ، تلك المعارك التى امتدت رحاها الى كثير من القبائل العربية ، وأصبحت وكأنها ملحمة ، يشعر فيها الشعراء ويقص حولها القصاص ، ووسط هذا الضجيج ، كانت هناك نفس انسانية تحولت الى ميدان من المتناقضات ، تلك هى جليلة بنت مرة ، زوج كليب المقتول وأخت جساس القاتل ، فهى بين نارين من حبها لأخيها ، وحبها لزوجها ولجات الى الأشعار عسى أن تخفف من حسرة هذا التناقض ... وأخيرا لحقت أو ألحقت بقومها (٣٥) .

---

(٣٤) العقد الفريد ٣ / ٤٨ – ٩٣ « أيام العرب ووقائعها » .
(٣٥) المرجع السابق ٣ / ٧٤ .

وهناك ضرب من القصص انتشر بين العرب ، وكان هذا الضرب يهدف الى اظهار تجربة والكشف عن عظة ، وهو تلك القصص التى تجد فى ثناياها أمثالا سائرة بين الناس ، فيها خلاصة التجارب التى تنير للأجيال ، فما المثل – فى اعتقادى – الا جملة قد اقتطعت من حكاية ، فهذه الجملة تحمل مغزى القصة ، اكتفى – تمشيا مع ميل العرب العام للايجاز (٣٦) – بهذه العبارة لتكون رمزا للقصة كلها ، وليس عبثا أن يتكلم البيانيون (٣٧) عن مورد المثل ، وعن مضرب المثل ، فما مورد المثل الا القصة الأصلية التى حكيت للعبرة والعظة ، وما مضرب المثل الا الجملة التى اقتطعت من القصة والتى أصبحت تحمل معنى القصة الأصلية ، وتداولها الناس ليفيدوا منها فى حالات مشابهة للحالة الأولى التى ورد فيها المثل . جاء فى تفسير المنار ما يلى : « والمثل فى اللغة الشبه والشبيه ، وضربه عبارة عن ايقاعه وبيانه ، وهو فى الكلام أن يذكر لحال من الأحوال ما يناسبها ويشابهها ، ويظهر من حسنها أو قبحها ما كان خفيا ، ولما كان المراد به بيان الأحوال كان قصة وحكاية ... هذا ما قاله الأستاذ الامام » (٣٨) .

والقصص التمثيلية أنواع (٣٩) منها القصص التى ترد على ألسنة

---

(٣٦) الايضاح فى علوم البلاغة للخطيب القزوينى ٥ / ١٣٥ « خفاجى » ، والفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ٣٧ .
(٣٧) الايضاح ٥ / ١٣٥ « خفاجى » .
(٣٨) تفسير المنار ١ / ٢٣٦ .
(٣٩) أنظر :
١ – مجمع الأمثال للميدانى .
٢ – جمهرة الأمثال للعسكرى .
٣ – المستقصى للزمخشرى .
٤ – العقد الفريد ١ / ٢٤٨ « المطبعة الوشرية » .
٥ – قصص الحيوان فى الادب للدكتور عبد الرازق حميدة .

الحيوان ، ومنها القصص التى دارت حول شخصيات انسانية ، أسطورية أو واقعية ٠

فمن النوع الثانى تلك الأمثال الثرية التى دارت حول شخصية « لقمان ابن عاد بن عاديا (٤٠) » ، ونكتفى منها بهذا الموقف الانسانى الفياض « كان لقمان بن عاد بن عاديا ، الذى عمر سبعة أنسر ، وابتلى بالنساء ، وكان كلما يتزوج امرأة تخونه ، حتى تزوج جارية صغيرة ، لم تعرف الرجال ثم نقر لها بيتا فى سطح جبل ، وجعل لها درجة بسلاسل ينزل بها ويصعد ، فاذا خرج رفعت السلاسل ، حتى عرض لها فتى من العماليق ، ووقعت فى نفسه ، فاتى بنى أبيه فقال : والله لأجنين عليكم حربا لا تقومون لها قالوا : وما ذاك ؟ قال امرأة لقمان بن عاد هى أحب الناس الى ٠ قالوا : فكيف نحتال لها ؟ قال : اجمعوا سيوفكم ، ثم اجعلونى بينها وشدوها حزمة عظيمة ، ثم ائتوا لقمان فقولوا : انا أردنا أن نسافر ونحن نستودعك سيوفنا حتى نرجع ٠ وسموا له يوما ٠ ففعلوا واقبلوا بالسيوف فدفعوها الى لقمان ٠ فوضعها فى ناحية من بيته ، وخرج لقمان وتحرك الرجل فخلت الجارية به ، فكان ياتيها ، فاذا أحست بلقمان ، حملته بين السيوف ، حتى انقضت الأيام ، ثم جاءوا الى لقمان فاسترجعوا سيوفهم فرفع لقمان رأسه بعد ذلك ، فاذا نخامة تنوس فى سقف البيت ، فقال لامرأته : من نخم هذه ؟ قالت : أنا : قال : فتنخمى ، ففعلت فلم تصنع شيئا ، فقال : يا ويلتاه ، السيوف دهتنى ٠ ثم رمى بها من ذروة الجبل ، فقطعت قطعا ، وانحدر مغضبا ، فاذا ابنة له يقال لها صحر ٠ فقالت : ياأبتاه ما شأنك ؟ قال : وأنت أيضا من النساء فضرب رأسها

---

(٤٠) أنظر لحديث لقمان :
١ ـ التيجان ص ٨٢ ٠ ٢ ـ تزيين الأسواق ١ / ١٣ ٠
٣ ـ المحاسن والأضداد ص ١٧٨ ٠

بصخرة فقتلها ، فقالت العرب : ما أذنبت الا ذنب صحر ، فصــــارت مثلا (٤١) ٠

ومن المدهش أن نجد القصة منتشرة فى العصر الجاهلى ، انتشارا واسعا « فلم يكن الشاعر وحده هو الذى تهفو له النفوس ، وتسمو اليه الأعين عند عرب الجاهلية ، بل كان القاص يقوم أيضا مقاما مهما الى جانب الشاعر فى سمر الليل ، بين مضارب الخيام لقبائل البدو المتنقلة وفى مجالس أهل القرى والحضر (٤٢) ٠ وانتى أقترح أن ترجع الى ما ذكره وهب بن منبه فى كتاب « التيجان » عن ذى القرنين (٤٣) ، فستدهش لهذا الخيال الخلاق الذى يكاد يكافىء أقوى الأخيلة المعاصرة ، وارجع - بنوع خاص - الى تلك الرؤية العجيبة التى كان يراهـــا ذو القرنين (٤٤) ٠ أو الى ما ذكـره عن أرض الملائكـة حين أشرف ذو القرنين على دار مفردة بيضاء ، فيها بيت واحد ، وعلى باب الدار رجل أبيض واقف ٠ وعلى سطح الدار رجل مبيض واقف ، قد أخـذ شيئا كمزمار ، فحبسه فى فمه وأمسكه بيديه جميعا : وعيناه تشخصـــان الى السماء ٠٠٠ الخ (٤٥) ٠ أو الى ما ذكره عن أرض قطربيل ، اذ أنها أشبه بالمدينة الفاضلة التى نادى بها الفلاسفة ، فأهلها : « لاغنى فيــهم ولا فقير ، ولا قاض فيهم ولا أمير ، ولا ناه فيهم ولا آمر ، ورأى مواشيهم بلا رعاة (٤٦) ٠٠٠ « وانظر الى العوالم العجيبة التى كان يلتقى بها ذو القرنين ، فمرة يلتقى بقوم « آذانهم كبار من أعلى رأس أحدهــم

---

(٤١) مصارع العشاق ص ٣٨ ٠
(٤٢) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ١ / ١٢٨ ٠
(٤٣) التيجان ٨١ - ١٢٦ :
(٤٤) المرجع السابق ٨٢ ٠
(٤٥) المرجع السابق ص ١٠١
(٤٦) المرجع السابق ص ١٠٣

الى ذقنه ، فاذا رقد وضع شقا عليها ، وغطت الأخرى الشق الأعلى (٤٧) » ومرة يلتقى بقوم « صغار الأعين ، صغار الوجوه ، مشعرين ، وجوههم كوجوه القردة ، وهم لا يظهرون فى النهار ، وانما يظهرون فى الليل . يختفون فى حر الشمس فى المغارات والكهوف فى الجبال (٤٨) » وغير ذلك من عوالم عجيبة تشبه مـا نقرؤه فى رحـــلات جوليفر من غرائب ومدهشات .

وان الأمر ـ بعد ـ يحتاج الى رسالة مطولة فى ميثولوجيا العرب وقصصهم (٤٩) ولكن يكفى ـ فى هذا التمهيد اليسير أن اقول :

ان القصة فى العصر الجاهلى ، كان لها اثر كبير على قلوب عامة العرب حتى ان القرآن الكريم اعتنى بالقصص عناية فائقة ، فهنـاك سورة تسمى باسم « القصص » ، وهناك سور تقص قصص الأنبيـــاء وغيرهم ، وتسمى بأسماء شخصيات وردت فى هذه القصص مثل : سورة ابراهيم ، وسورة هود ، وسورة يونس ، وسورة آل عمران ، وســورة

---

(٤٧) المرجع السابق ص ٨٨

(٤٨) المرجع السابق ض ١٠٦

(٤٩) أنظر : فى طريق المثولوجيا عند العرب وهو بحث يقول لنا مؤلفه أنه مسـهب فى المعتقدات والأساطير العربية قبل الاســلام . والدكتور عبد العزيز عبد المجيد يرد على أرنست رينان ومن ذهب مذهبه فى أن الجنس السامى أدنى من الجنس الآرى ، وان هذا الانحطاط هو المسئول عن عدم وجود أساطير فى اللغة العربية ـ يرد عليهم ويبين أن هذه النظرية وجدت لأسباب سياسية واجتماعية ، وأنه لا توجـــد براهين علمية لاثباتها : ولكنه يسلم بانه لا توجد أســاطير خاصـــة بالعرب ، كمـا هو الحال عند الاغـريق ، والمصريين ، والبابليين ، والكلـدانيين ، ويرجـــع ذلك الى بيئة العـرب الطبيعية المتكـــررة المملولة ، التى عبرت عن نفسها بالنظام القبلى والتفكير غير الفلسفى ، والخيال الضحل (The Modern Arabic short PP. 28, 30).

يوسف وسورة الكهف .. الخ . ووردت مادة قصص فى القرآن أكثر من سبع وعشرين مرة (٥٠) .

وقد صادفت هذه القصص حاجة فى نفوس العرب ، فاقبلوا عليها اقبالا هال زعماء الشرك فأراد النضر بن الحارث أن يصرفهم عنها بقصص أخرى ، فتحدث عن رستم واسفنديار ، فاذا قام محمد ﷺ من مجلسه يجلس فيه النضر فيحدثهم عن متلقفاته ، ثم يقول : بالله أينا أحسن قصصا ، أنا أو محمد (٥١) .

وقد بعثت قصص القرآن نهضة عظيمة فى القصص العربى ، حتى ليصعب على الذهن متابعة هذا الطوفان من القصص ... فهناك قصص حول الانبياء ، عمل فيها الخيال عمله ، وافتن فيها العقل الاسرائيلى ما أمكنه الافتنان ، وان أردت المزيد من التوسعة ، فارجع الى الكتابين الذين الفا فى هذه القصص ، وهما : كتاب « الثعالبى » (٤٢٧ هـ) (٥٢) فى قصص الأنبياء المسمى بالعرائس ، وكتاب الكسائى (من مواليد القرن الخامس) فى قصص الأنبياء أيضا .

وانما ساكتفى هنا بضرب مثل عما حيك حول الآية « وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ، وما يعلمان من أحد حتى يقولا انما نحن فتنة ، فلا تكفر .. » . ففى تفسير الطبرى « أنه كان من أمر هاروت وماروت ، أنهما طعنا على أهل الأرض فى أحكامهم ، فقيل لهما : انى أعطيت ابن آدم عشرا من الشهوات ، فيها يعصوننى ،

---

(٥٠) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، مادة « قصص » .

(٥١) تفسير القاسمى ٨ / ٢٩٨٤ « تعليق محمد فؤاد عبد الباقى » الآية ٣١ من سورة الانفال ، وكذا تفسير البيضاوى ٩ / ٢٣٩ « مطبعة صبيح سنة ١٣٦٦ » .

(٥٢) هو ابو اسحاق أحمد بن محمد بن ابراهيم الثعالبى النيسابورى . يقال له الثعلبى والثعالبى ، توفى سنة سبع وعشرين وأربعمائة . (وفيات الأعيان ١ / ٦١)

قال هاروت وماروت : ربنا لو أعطيتنا تلك الشهوات ، ثم نزلنا لحكمنا بالعدل ، فقال لهما : انزلا ، فقد أعطيتكما تلك الشهوات العشر فاحكما بين الناس ، فنزلا ببابل دنيا وند ، فكانا يحكمان حتى اذا امسيا عرجا ، فاذا أصبحا هبطا ، فلم يزالا كذلك حتى أتتهما امرأة تخاصم زوجها ، فاعجبهما حسنها ، واسمها بالعربية « الزهرة » ... فقال أحدهما لصاحبه : أنها لتعجبنى ، قال الآخر : قد أردت أن أذكر لك فاستحييت منك . فقال الآخر : هل لك أن أذكرها لنفسها ؟ قال : نعم ، ولكن كيف لنا بعذاب الله قال الآخر : انا نرجو رحمة الله . فلما جاءت تخاصم زوجها ، ذكرا لها نفسها ، فقالت : لاحتى تقضيا لى على زوجى فقضيا لها على زوجها ، ثم واعدتهما خربة من الخرب يأتيانها فيها ، فأتيا لذلك ، فلما أراد الذى يواقعها قالت : ما أنا بالذى يفعل حتى تخبرانى بأى كلام تصعدان الى السماء ، وبأى كلام تنزلان منها ؟ فأخبراها فتكلمت فصعدت . فانساها الله ما تنزل به ، فبقيت مكانها ، وجعلها الله كوكبا .. فلما كان الليل أرادا أن يصعدا فلم يستطيعا فعرفا الهلك . وفى رواية عن مجاهد : أنهما بعد الخطيئة عرجا فردا ، ولم تحملهما اجنحتهما فاستغاثا برجل من بنى آدم ، فدعا لهما ، فاستجيب له فخيرا بين عذاب الدنيا والآخرة فاختارا عذاب الدنيا ... وزعم أنهما معلقان فى الحديد مطويان ، يصفقان بأجنحتهما (٥٣) » .

وبعد تلك الخطوة القرآنية ، تدفق سيل القصص وتنوع (٥٤) ، فابن النديم يذكر فنا فى أخبار المسامرين والمخرفين ، وأسماء الكتب

(٥٣) تفسير الطبرى ٣ / ٤٣٤ « طبع دار المعارف وتحقيق محمود محمد شاكر »

(٥٤) فاذا كان الاسلام لم يشجع قصص الآلهة الوثنية ، ولا قصص المسرات الدنيوية أو قفل بابا من أبواب الالهام للأدب القصصى بموقفه المعادى من تصوير الشكل الانسانى كما يقال The Modren Arabic short story P. 34 فانه فتح أبوابا عدة للالهام القصصى .

المصنفة فى الاسمار والخرافات ، وذكر اكثر من ستة ومائة كتاب ، ألفت فى أسماء العشاق وفى أسماء الحبائب المتظرفات ، وفى عجائب البحر وغيره ... الخ (٥٥) والجاحظ يعدد تحت عنوان « ذكر القصاص (٥٦» أسماء القصاصين ، فيذكر نحوا من ثمانية وعشرين اسما . وقرب الخلفاء القصاصين ، فعثمان بن عفان يقرب أبا زيد الطائى وهو من رواة ملوك العجم ، وكان عالما بسيرها وقد قص على عثمان قصته مع الأسد حين خرج يريد الحارث بن أبى شمر الغسانى ملك الشام ، وجعل يفيض فى الوصف حتى قال له عثمان « أسكت ، قطع الله لسانك ، فقد رعبت قلوب المسلمين (٥٧) » . وهناك أسر تتوارث هذا الفن أبا عن جد » كان الفضل (وهو الفضل بن عيسى الرقاشى) من أخطب الناس ... وكان قاصا مجيدا ، وهو رئيس الفضلية واليه ينسبون وكان عبد الصمد بن الفضل أغزر من أبيه ... حدثنى أبو جعفر القاص قال : « تكلم عبد الصمد فى خلق البعوضة ، وفى جميع شأنها ثلاثة مجالس تامة » وكان يزيد ابن أبان عم الفضل بن عيسى بن أبان الرقاشى يتكلم فى مجلس الحسن ، وكان زاهدا عابدا وعالما فاضلا ، وكان خطيبا ، وكان قاصا » (٥٨) .

وحملت القصة العربية الأمانة فى مختلف العصور ... وهى فى كل عصر مرآة صادقة تعكس الظروف التى يمر بها المجتمع . ففى العصر الأموى حين مر الحجاز بظروف خاصة ، شاعت قصص العشاق ، واتخذت لها لونا فى الحاضرة مغايرا للون الذى ظهرت فى البادية .

وفى العصر العباسى ، حين ظهرت فلسفة مانى ، واباحية مزدك ، وسفر الفجور والظرف ، وكثرت الخلاعة والمجون ، وتزايد الشذوذ

---

(٥٥) الفهرست ٤٢٢ - ٤٢٨ .
(٥٦) البيان والتبيين ١ / ١٩٥ - ١٩٧ القاهرة ١٣٣٢ هـ
(٥٧) طبقات الشعراء ص ٢١٠ « صبيح »
(٥٨) البيان والتبيين ١ / ١٦٧ (القاهرة سنة ١٣٣٢)

والانحراف ، شفت القصة عن تلك الحالة فظهرت كتب من قصص الأدب الصريح ، ككتاب أخبار الغلمان وكتاب حسين اللوطى ، وكتاب عاشق الصورة ، وكتاب عاشق الكف ، وكتاب المخنث والفتاة التى عشقته (٥٩) .

ولما تعقد العقل العربى ، وغذته موارد الفلسفة ، وهذبته طرائق الصوفية - استطاعت القصة العربية أن تلبس ثوبا جديدا مناسبا لهذا العقل المركب ، فالف ابن سينا (٩٨٠ - ١٠٣٧ م) رسالة فلسفية ، سماها قصة حى بن يقظان . ثم ألف الفيلسوف ابن طفيل (١١١٠ - ١١٨٥) رسالته التى يعدها نقاد أوربا خير قصة فى العصور الوسطى (٦٠) . وبعده جاء السهروردى (قتل سنة ١١٧٣ م) فالف قصة عنوانها الغربية الغربية » .

وحين طغى على الأدب العربى الشكل اللفظى والافتنان بالماحكات الأسلوبية - كان للقصة من ذلك نصيبها الأوفى « فطفحت المقامات بالاستعراضات اللغوية ، وامتلأت بالألفاظ القاموسية » (٦١) .

---

(٥٩) الفهرست ص ٤٢٦ - ٤٢٧ .

(٦٠) أنظر : الادب المقارن للدكتور محمد غنيمى هلال ص ٢٣٥ الطبعة الثالثة » .

(٦١) الباحثون أمام المقامات طوائف : منهم من ينكر أن تكون قصة ، ومنهم من يرفعها الى أرقى المستويات القصصية ، ومنهم من يقف مترددا مضطربا فالدكتور شوقى ضيف ينكر أن تكون قصة (المقامة ص ٨ - ٩) . والدكتور مصطفى الشكعة يعتبر محاولة البديع فى مقاماته أول محاولة عرفت فى العربية للكتابة القصصية ، ثم أخضع بعض مقامات البديع لقواعد فن القصة الحديثة (بديع الزمان : رائد الأقصوصة فى الادب العربى (ص ٢٧٩ - ٢٨١) أما الدكتور محمد يوسف نجم فيرى أن العنصر القصصى فى المقامات ضعيف (القصة فى الادب العربى الحديث ص ٣٣٠) أما الاستاذ محمود تيمور فيقول : « ولعل أول عمل أدبى يشعرنا بروح القصة الخالصة هو « المقامات » اذ أن فيها

ففى هذه العصور الوسطى كانت القصة العربية مزدهرة ، وقــد أوضح الأستاذ جب GIBB مدى تأثير النثر العربى فى الآداب الأوربية ، وأن هذا التأثير يؤلف مظهراً من مظاهر حركة فكرية عامة ، شــملت تلك العصور ، فلقد كانت النظم الدينية العنيفة التى اقتنعت بها العصور الوسطى لاتتسع للحضارة اللاتينية • وبات الناس يتشوقون الى معــرفة مسائل ، كانت الى هذا الحين تمليها السلطات العليا ، فيقبلونها فى غير مشقة ، ولما لم يجدوها فيما لديهم من الآداب اللاتينية ، على ضــيقها وجدبها وافتقارها الى قوة الابداع ، كان لابد لهم أن يولوا وجوههم شطر جهة أخرى ••• ولقد كانوا الى ذلك الحين يعترفون على مضض بتفوق العالم الاسلامى فى الناحية الحربية فحسب ، ولكنهم لم يلبثوا يومئذ أن لاحظوا فى شىء من الخجل أنه يبزهم فى الحياة العقلية أيضا ثم أخذ « جب » يحدد النواحى التى أثرت فيها القصة العربية فى القصــة الأوربية فى ذلك الحين (٦٢) •

وسارت الحضارة سيرها ، واختارت فى هذه المرة أن تشرق فى أوروبا وكان لابد للقصة العربية أن تواكب الحضارة ، وأن تسترد الدين من القصة الأوربية ، وأن تأخذ منها فى هذه المرة ، كما أعطتها من قبل •

وليس هذا يعنى أن القصة العربية المعاصرة ، هى بنت القصــة الأوروبية لحما ودما ، كما يرى الكثيرون •

عنصر الخيال والابتكار ، ولكنه بدائى ضعيف الاثر ، فقد كان هــدف المقامة التفنن البلاغى والمطارحات الشعرية ، والالغاز النحوية واللغوية (فن القصص ص ٢٧) • والدكتور عبد العزيز عبد المجيد يرى أن المقامة Assembly أول شكل حقيقى للاقصوصة فى اللغة العربية ثــم يشرح الاسباب التى أدت الى عدم تطورها :

The Arabic Modren short story P. 38

(٦٢) أنظر : تراث الاسلام ، فصل الأدب ١ / ١٧٧ — ١٩٥

لست أعنى هذا ، وانما الذى أعنيه أن القصة العربية سـارت سيرها الطبيعى ، فأفادت من الآداب الأوربية ، وامتصت ما هو صالح لها ولظروفها . فأضاف اليها ذلك دما جديدا ، امتزج بالدم العربى الأصيل فكان منهما خلق جديد ، ذو ملامح خاصة ، فيه الكثير من دماء أجداده ، وفيه أيضا عناصر أخر بسبب التهجين الجديد .

فالقصة المعاصرة ابتدأت كتطوير للمقامات العربية ، فما هى الا مقامات جديدة ، أفادت من النهضة الأوربية فى تنويع المناظر ، وفى تعميق التحليل النفسى والعناية بالمشكلات المعاصرة ونقدها ، وغير ذلك . ومن أمثلة ذلك : « حديث عيسى بن هشام . لمحمد المويلحى و « ليالى سطيح » لحافظ ابراهيم و « شيطان بنتاؤر » لأحمد شوقى ..

ثم أخذت القصة العربية تتطلع الى أختها القصة الأوربية ، فكانت تقتبس منها الموضوع فقط ثم تحور فيه ماتشاء ، وتضيف اليه أشياء مناسبة لجمهورها ، وتحذف منها مالا يصلح لها ، ومن أمثلة ذلك مصطفى لطفى المنفلوطى فقد عرب – واقصد المعنى الحقيقى لكلمة « عرب » – قصة بول وفرجينى وسماها الفضيلة . وحول – وأستعير منه هذا اللفظ الذى استعمله (٦٣) – مسرحية سيرانودى برجراك للشاعر الفرنسى : ادمون روستان ، من القالب التمثيلى الى القالب القصصى .

وارتوت القصة العربية كثيرا من القصة الأوربية ، اما عن طريق الترجمة الدقيقة ، أو عن طريق المشافهة الحقيقية ، حتى قدر لها أن تستقل بنفسها فاتجهت الى بيئتها الأصلية ، تلتمس منها الموضوع ، وتبحث فيها عن المشكلة ، وهى فى الوقت نفسه لا تأنف من استيراد هواء جديد من أوربا ، ومن أمثلة تلك الأعمال الناضجة التى استوحت بيئتها المحلية ، قصص نجيب محفوظ التى عالجت شخصيات وأجيالا

(٦٣) أنظر مقدمة « الشاعر » ص ٥

مصرية متعاقبة ، كالثلاثية (بين القصرين ، قصر الشوق ، السكرية) وخان الخليلى ، وزقاق المدق ، ومثـل عـودة الروح لتوفيق الحكيم ، ومثل الأرض لعبد الرحمن الشرقاوى .

وهكذا نجد أن القصة العربية مخلوق حى على مدى العصـور التاريخية ، أحيانا يتأثر بالآداب الأخرى ، كالآداب الفارسية أو الهندية أو الاوربية ، وأحيانا يؤثر فى تلك الآداب كمـا حـدث فى العصـور الوسطى .

وربما كان عذر المنكرين لوجود القصة فى الأدب العربى القديـم أنهم نظروا الى ذلك الأدب ، وفى ذهنهم القصة الحديثة بمعناها الفنى المعاصر .

وهذا أمر فيه كثير من الظلم ، فان القصة الفنية لم تعرف ـ سواء فى الآداب العربية فى الآداب الأوربية أو غيرها ـ الا فى ذلك العصر .

وقد قرر بروفسور Baldwin بعد استقصاء شامل مجهد للمائة قصة التى ألفها بوكاشيو (١٣١٣ ـ ١٣٧٥ م) فى الديكاميرون Boccaccios Decameron قرر أن قصتين فقط من قصص هذه المجموعة ، همـا اللتان حققتا معنى القصة القصيرة بالمفهوم النقدى ، وهما القصة الثانية من اليوم الأول ، والقصة السادسة من اليوم السابع (٦٤) .

وحينما استحال الشاعر الصغير « والترسكوت » قصاصا كبيرا ، خجل من عمله الجديد وكتب يقول : « لم أنسب ويفرلى الى نفسى ، فلست على ثقة من أنه يليق بمن كان مثلى من رجال القانون أن يكتب القصص . فقد كان القصص يعد فى أيامه فرعا منبوذا من فروع دوحة الشعر ، اذ كان يمثل الابن البغيض فىالأسرة الأدبية » (٦٥) .

(٦٤) Encyclopeadia Britanica (shrot story)

(٦٥) أنظر مقدمة « أعلام الفن القصصى » والترسكوت ولد سـنة ١٧٧١ م وتوفى سنة ١٨٣٢ م ، أنظر المرجع نفسه ص ٨٤ ،

وحين بشر Poe السيد الأول للقصة القصيرة الحديثة ـ كما تلقبه دائرة المعارف البريطانية ـ بنظريته عن الوحدة Totality في القصة القصيرة وذلك بصدد آرائه الشهيرة عن حكايات ناثانيال ـ هاوثورن Nathanial Hauthorn (١٨٤٢ م) ـ لم تلق آراؤه آذانا صاغية الا بعد مرور أربعين عاما ، حين أصدر Brander Mathews مقاله الشهير عن « فلسفة القصة القصيرة » وشبهها فيه بالمسرحية الفرنسية الكلاسيكية من حيث مراعاة الوحدات الثلاث ، اذ يجب أن تقتصر القصة القصيرة على بطل واحد ، وحادثة واحدة وانفعال واحد أو سلسلة من الانفعالات ترتبط بموقف واحد (٦٦) ٠

وهكذا لو نظرنا الى العرب نظرة تاريخية منصفه ، لا نتطلب منهم سبق الأحداث ، نجد انهم لم يقصروا فى فن القصة « زاول العرب جميع انواع الادب فضلا عن الشعر ، فللعرب روايات فى المخاطر والحب والفروسية ٠٠ وترى فى رواياتهم العربية ـ مع قلة اعتنائهم بنفسية الأشخاص ـ فوائد كبيرة لاشتمالها على ضروب المخاطر العجيبة ، فالعرب قد جملوا بخيالهم الساطع كل شئ لمسوه ٠٠ وهم الذين ابتدعوا روايات الفروسية ، قال سيديو : « كان خيال الشعراء يتجلى فى الروايات والاقاصيص ، فالحق أن أتباع محمد كانوا من أكبر المحدثين على الدوام ، فكانوا يجتمعون مساء تحت خيامهم ليسمعوا بعض الأقاصيص العجيبة ، التى تتخللها الموسيقى والغناء » (٦٧) ٠

ومع ذلك ، ومع كل هذا التراث الضخم الثرى ، فان النقاد العرب لم يولوا هذا الفن العناية الكافية ، ولم ينظروا الى تلك القصص نظرتهم الى الشعر ٠

---

(٦٦) Encyclopeadia Britaniea (short story).

(٦٧) حضارة العرب ص ٥٤٢ ٠

فقد شغلهم الشعر ــ أوكاد ــ عن كل ماعداه ، فاهتموا به الاهتمام الكبير ، وانطلق غير واحد يتحدث عن طبقات الشعراء ، وعن سرقات الشعراء ، وعن أجود ما قاله الشعراء وعن الوساطة بين الشعراء ، وعن المفضليات ، وعن المعلقات ... الخ ، وصار الكثيرون منهم يبحثـــون عن جوانب فضل الشعر على النثر « لأن كل منظوم أحسن من كل منثور من جنسه فى معترف العادة ، الا ترى أن الدر أخو اللفظ ونسيبه ، واليه يقاس ، وبه يشبه ، اذا كان منثورا لم يؤمن عليه ، ولم ينتفع بـــه فى الباب الذى له كسب ومن أجله انتخب ، وان كان أعلى قـــدرا وأغلى ثمنا . فاذا نظم كان أصون له من الابتذال ، وأظهر لحسنه مع كـــثرة الاستعمال (٦٨) . « انه ليس شىء يقوم مقامه فى المجالس الحـافلة والمشاهد الجامعة ... اذا قام به منشد على رؤس الاشهاد ... ولا يفوز أحد من مؤلفى الكلام بما يفوز به صـاحبه من العطايـا الجزيلة ... ولا يهتز ملك ولا رئيس لشىء من الكـلام كمـا يهتز له ، ويرتـــاح لاستماعه » (٦٩) .

وان درسوا النثر فانهم يدرسون ألوانا أخرى بعيدة عن القصة ، يدرسون الخطابة والكتابة ، والوصاية والحكم ، والأمثال لا على أنهـا قصة وانما لما فيها من بيان ولفظ ولما فيها من سمو معنى وصدقه .

حتى الجاحظ الذى كان يهتم بنوادر العوام وملح الحشوة والطغام ، ويرى أن تحكى كما رواها أصحابها (٧٠) ، والذى تحدث عن الطبقات الشعبية : كالبخلاء ، والظرفاء ، والنوكى ــ حتى الجاحظ فى كتابه العظيم

---

(٦٨) العمدة ١ / ٤ « باب فى فضل الشعر » وكذلك الصفحات ٩ ، ١١ ، ٣٧ ، ٥٠ .

(٦٩) الصناعتين ص ١٠٣ .

(٧٠) البيان والتبيين ١ / ٨١ (القاهرة سنة ١٢٣٢ هـ) .

« البيان والتبيين » الذى اعتبره ابن خلدون واحدا من أربعة دواوين تمثل أصول فن الأدب وأركانه وما سواها فتبع لها وفرع عنها (٧١) .

تحدث الجاحظ فى هذا السفر الذى يبلغ ثلاثة أجزاء عن الخطب والخطباء (٧٢) وعن الشعر والشعراء (٧٣) ، بل وعما دق وصفه كالعصا ، والشجرة ، والهراوة ، والسراج ، والدبوس ، والقضيب ، الخ ، ولكنه مع ذلك لم يدرس القصص دراسة أدبية تعترف بما لهذا الفن من خطورة . حقا انه نص على « ذكر القصاص (٧٤) » ولكنه تحت هذا العنوان اكتفى بتعداد اسماء القصاص ، وذكر شىء يسير من أخبارهم ، وتلمح فى تلك الأخبار اليسيرة أنه يريد القصاص الذين هم أشبه بالوعاظ ، بل تلمح فى كلامه السخرية من القصاص ، فمرة يتحدث عن جهلهم (٧٥) وأخرى عن نوادرهم (٧٦) وثالثة عن فلسهم (٧٧) .

اهتم النقاد والعلماء بهذه الألوان الأدبية ، وربما كان الدافع الى هذا نفعيا أكثر منه خدمة الفن ، فالشاعر « حماية لأعراضهم وذب عن احسابهم ، وتخليد لمآثرهم ، واشادة بذكرهم .. وكانوا لا يهنئون الا بغلام يولد ، و شاعر ينبغ فيهم ، أو فرس تنتج (٧٨) » . وكان الشعر فى عهد الملوك والخلفاء وسيلة للكسب السريع فلا يفوز أحد من

---

(٧١) المقدمة ص ٥٥٣ .
(٧٢) مثلا فى ٢/٢ – ٣٢ .
(٧٣) مثلا فى ٢/٥ .
(٧٤) ١ / ١٩٥ – ١٩٧ .
(٧٥) ٣ / ٩٢ .
(٧٦) المرجع السابق .
(٧٧) ٢ / ٨٩ . وتحت عنوان « مجانين القصاص » سخر ابن عبد ربه من القصاص فأورد حكايات عن جهلهم وعن نوادرهم (العقد الفريد ٣ / ٢٤٠) .
(٧٨) العمدة لابن رشيق ١ / ٣٧ وكذلك ١ / ٥٠ .

مؤلفى الكلام بما يفوز به صاحبه من العطايا الجزيلة ... ولا يهتز ملك ولا رئيس لشىء من الكلام ، كما يهتز له ويرتاح لاستماعه ... أمـــا الخطابة والكتابة ، فما يعرف أيضا من أمرهما ، انهما مختصان بأمر الدين والسلطان وعليهما مدار الدار وليس للشعر بهما اختصاص . أما الكتابة فعنيها مدار السلطان ، والخطابة لها الحظ الأوفر من أمور الدين » (٧٩) .

ولعلى لا أخطىء لو قسمت الأدب العربى القديم - فى جملته - الى قسمين : أدب ارستقراطى وجه - فى معظمه - لخدمة الملوك والرؤساء وخضع للسلطة القائمة . وأدب شعبى اهتم « بميثولوجيا » العامة وأحلامهم ، وترجم عن أحوالهم ، وتحدث عن أخبارهم .

وقد طغى القسم الأول على القسم الثانى أو كاد ، فنال معظم الاهتمام وجل العناية . ولم يبحث القسم الثانى على أنه يدخل فى فنون الأدب ، ولذلك لم يقومه النقاد ولم يذكروا ما فيه من جمال أو ما ينبغى له من فن ، وانما كان يذكر فى بطون الكتب على أنه مجرد أخبار ومجرد تاريخ ، ومجرد حكايات ، قد يقصد بها التسلية وازجاء الفراغ (٨٠) .

---

(٧٩) الصناعتين ص ١٠٣ . وحين أراد ابن القارح دخول الجنة جعل يمدح رضوان بأبيات من الشعر ، فلم يفهم رضوان منه شيئا فقال له ابن القارح عن الشعر : « وكان أهل العاجلة يتقربون به الى الملوك والسادات » . ثم يكرر هذا مع ملك آخر يقال له زفر فلما لم يستجب له يقول : « رحمك الله ، كنا فى الدار الذاهبة نتقرب الى الرئيس أو الملك بالبيتين و الثلاثة فنجد عنده ما نحب » (رسالة الغفران ١ / ٥٦ - ٥٧) .

(٨٠) يقول الدكتور محمد غنيمى هلال : « ان الذى يحل اشكالنا فيما يخص القصة فى الأدب العربى ، أنه كان لها مفهوم خاص لم ينهض بها لتكون ذات رسالة انسانية أو غير انسانية ، فضلا عن أنها

وقد آن الأوان – وفى هذا الوقت بالذات الذى أصبحنا نهتم فيه بالطبقات الشعبية – أن نوفى اهتمامنا لهذا التراث الضخم ، اذا ربما كان هذا الجانب أقوى دلالة على نفسية العرب وأصدق ترجمة لحياتهم وأوفى قضاء لحاجتهم الفنية .

لم تكن جنسا أدبيا أو فنا من فنون الأدب ، كالشعر والخطابة والرسائل مثلا بل كان يتخلى عنها كبار الادباء لغيرهم من الوعاظ وكتاب السير والوصايا » (الأدب المقارن ص ٢١٩) . ويقول الاستاذ نعيم حسن اليافى : « فان القصة ظلت بشتى طرق سياقها وصور سردها ، جنسا متخلفا عن بقية أجناس الادب كالشعر والخطابة والرسائل بل لم يكن يعد من جوهرها على الأطلاق .. .» (رسالته للماجستير ص ٨ من المدخل) .

القصـــة في العصر الأموى

رأينا ـ فى الجزء السابق من التمهيد ـ ولـع عـــرب الجاهلية بالقصة ، فقد عرفوا الوانا عديدة منها ، فمن قصص تحكى حول الجان وما شابهه ، ومن حكايات تحاك حول الأمثال ، ومن أخبار تنسج عن الأيام ٠

فلما نزل القرآن ضرب على هذا الوتر ، فاتخذ القصة قالبا لبث أفكاره ، وتبليغ أغراضه ، وانبثت فى القرآن ألوان من القصص ، فمن قصص يحكيها الهدهد والنمل ، ومن قصص تقص حول الانبياء والمرسلين ومن قصص تحكى عن أخبار الماضين ، كأصحاب الكهف ويأجوج ٠ الخ ٠

ويبدو أن النبى عليه السلام كان يجلس الى تميم الدارى ، ويسأله عن خبر الجساسة والدجال ، فيقصه عليه (١) ٠ وكان يصاحب الدعوة المحمدية الكثير من القصص التى ترغب فى الاسلام وتنفر من عبـــادة الأصنام ، كتلك القصة التى يقصها رجل من أهل نجران من بنى الحارث ابن كعب عن سبب اسلامه (٢) ٠

ثم كان العصر الاموى ـ وهو عصر ملىء بالأحداث والمفاجـــآت فازدهرت فيه القصة ازدهارا كبيرا ، تفوقت فيه على ما كانت عليه فى العصر الجاهلى ٠٠٠ وفى صدر الاسلام ٠

وقد كانت هناك أسباب وعوامل لهذا الازدهار ٠٠ وذلك التفوق ٠

---

(١) الاصابة ١ / ١٩١ ٠

(٢) راجع التيجان ٢٠٣ ـ ٣٠٩

(أ) فالحكام والقادة الأمويون كانوا ذوى اتجاهات جاهلية ، ونزعات عربية ﻉ

كانوا يتشوفون الى أحوال آبائهم فى الجاهلية ، روى أن الحجاج قال للفرزدق وجرير وهو فى قصره بجزيرة البصرة ائتيا فى لباس آبائكما فى الجاهلية ، فجاء الفرزدق وقد لبس الديباج والخز ، وقعد فى جبة . وشاور جرير دهاة بنى يربوع فقالوا : مالباس آبائنا الا الحديد (٣) ...

ومن هنا أبدأ فأقول : ان شيوع القصة فى العصر الأموى ، كان امتدادا لشيوعها فى العصر الجاهلى . وان الأمويين قد حافظوا – فى هذه الناحية – على تراث أجدادهم الجاهليين .

(ب) ثم كانت القصص التى فى القرآن ، وفيها اشارات مجملة عن ناقة صالح ، وعن هدهد سليمان ، وعن معجزات موسى ، وعن أحوال عيسى وزكريا ويحيى وعن أخبار أهل الكهف ... الخ .

وكان لابد أن تخترع القصص والحكايات ، لترضى هذه الحاجة الناشئة وأن تلتمس هذه القصص أحيانا من أخبار أهل الكتاب ، وأحيانا من الخيال المحض ، يحكى السيوطى فى حديثه عن العلوم المستنبطة من القرآن قول أبى الفضل المرسى فى تفسيره : « وتلمحت طائفة ما فيه من قصص القرون السالفة ، والامم الخالية ، ونقلوا أخبارهم ، ودونوا آثارهم ووقائعهم حتى ذكروا بدء الدنيا ، وأول الأشياء ، وسموا ذلك بالتاريخ أو القصص » (٤) .

واشتهر العصر الأموى بأسماء قصاص حاولوا أن يشبعوا هذه النزعة الجديدة مثل كعب الاحبار ، وهو يهودى من اليمن ، وينسب اليه كتاب

---

(٣) طبقات الشعراء ١٥٧ « صبيح »
(٤) الاتقان ٢ / ٢١٥ « الطبعة الثالثة

فى حديث ذى الكفل (٥) ٠ وعن كعب هذا أخذ عبد الله بن عباس وهذا يعلل مافى تفسيره من اسرائيليات (٦) ، وعبيد بن شرية ، وله من الكتب كتاب الأمثال وكتاب الملوك وأخبار الماضيين ٠ (٧) ووهب ابن منبه ، وكانت له معرفة بأخبار الاوائل وقيام الدنيا وأحوال الانبياء وسير الملوك ٠ (٨) وقال فيه السخاوى انه كثير الخرافات (٩) ، وله كتاب الاسرائيليات وله كتاب قصص الأنبياء (١٠) ٠

(جـ) ونجىء الى منبع آخر من منابع ازدهار القصة ٠٠٠٠ وهو الحديث الشريف ، وذلك لأن الخصومات السياسية بين على ومعاوية ، وبين الحسين ويزيد وبين ابن الزبير وعبد الملك ، وبين المختار الثقفى مرة مع الأمويين ومرة مع الزبيريين ـ هذه الخصومات دعت البعض الى أن يضع حكايات يؤيد بها وجهة نظره ، أو يدحض بها وجهة نظر مخالفه ، ثم رأى أن يكسب حكاياته قوة فينسبها الى النبى عليه الصلاة والسلام ، وما حديث المهدى والسفيانى وما يحدث بينهما من قتال ـ عنا بخاف ٠

(د) ثم كانت غزوات الرسول ﷺ مجالا خصبا ، لافتنان المفتنين وخيال المتخيلين ، فنعرف أن العرب فى جاهليتها كان يستهويهم حديث الأيام ، وما يحاك حول أبطالها من قصص ، وما ينشد فيها من أشعار وما يكمن فيها من خلق يعبر عن المثل الأعلى عند العرب ، فلما جاء الاسلام نهى عن العصبية والقبلية ووحد العرب ، فوجد العرب فى مغازى الرسول فرجة يعيدون فيها الحديث الذى يشبه حديث أيام العرب ،

---

(٥) تاريخ الأدب العربى لبركلمان ١ / ٢٥٢
(٦) فجر الاسلام ١٩٠
(٧) معجم الأدباء لياقوت ١٢ / ٢٨ وبروكلمان ١ / ٣٥٢
(٨) وفيات الاعيان ٥ / ٨٨
(٩) الاعلان بالتوبيخ ٤٨
(١٠) بروكلمان ١ / ٢٥٢

ولو رجعت الى الأيام فى الجزء الثانى من العقد الفريد مثلا ، والى المغازى فى الجزء الأول والثانى من تاريخ الطبرى مثلا ، لوجدت بينهما تشابها ، فالرسول هو البطل الذى تدور حوله الأحداث ، كما كانت تدور حول أشخاص أيام العرب ، والأشعار تطرح فى المغازى كما تطرح فى الأيام ، والخلق العربى كالشهامة والتضحية والشجاعة ، ظاهر فى المغازى كما هو ظاهر فى الأيام .

وفى العصر الأموى لمعت أسماء تقص أخبار المغازى وتؤلف فيها ، فخالد ابن عبد الله القسرى طلب من محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى أن يكتب السيرة له (١١) ، ونسب اليه السخاوى كتابا يسمى « مشاهد النبى » ، وقد روى عنه المغازى حجاج بن أبى منيع (١٢) . واذا أخذنا رأى الاستاذ فيك Fuck من أن كتاب محمد بن اسحاق (توفى ١٥٠ هـ) الذى رواه عنه ابن هشام ، لم يؤلفه فى بغداد أو الحيرة أو بأمر من الخليفة المنصور ، بل ألفه فى المدينة قبل اقامته لدى العباسيين ، بدليل أن فيه بعض الأحداث التى لايرضى عنها العباسيون ، كاشتراك العباس فى بدر الى جانب الكفار ، وأسر المسلمين له (١٣) اذا أخذنا بهذا الرأى فاننا نعتبر الكتاب من التراث التاريخى فى العصر الأموى . وعروة بن الزبير كان يحكى الكثير من هذه الغزوات ، مما تستطيع أن تلتمسه فى ابن اسحاق والواقدى والطبرى ، وقد روى عنه المغازى أبو الاسود والزهرى (١٤) ، وكان يسارع الى ارضاء حاجة السائلين « حدثنا هشام بن عروة عن عروة أنه كتب الى عبد الملك بن مروان فانك كتبت الى فى أبى سفيان ومخرجه ، تسألنى كيف كان شانه ؟ كان من شانه ... » (١٥) .

---

(١١) الاغانى ١٩ / ٥٩ « طبعة ساسى » .
(١٢) الاعلان بالتوبيخ ٨٨ .
(١٣) نشأة التدوين التاريخى ٤٨ .
(١٤) الاعلان بالتوبيخ ٨٨ .
(١٥) تاريخ الطبرى ١ / ٢٦٧ .

وكان المسلمون يحرصون على أحاديث المغازى ، ويقربون العارفين بها ، فعن سعيد بن المسيب قال : بينما نحن عند مروان بن الحكم ، اذ دخل عليه حاجبه ، فقال : هذا أبو خالد حكيم بن حزام · قال : ائذن له فلما دخل حكيم بن حزام قال : مرحبا بك ، ياأبا خالد ، أدن · فحال له مروان عن صدر المجلس حتى كان بينه وبين الوسادة · ثم استقبله مروان فقال : حدثنا حديث بدر » (١٦) ·

(هـ) وربما كانت طبيعة المفاخرة قد أدت الى ازدهار هذا النوع من القصص ، التى كانت تدور حول شخصية النبى عليه الصلاة والسلام ، فاهل الكتاب حين أسلموا أكثروا من الحديث عن أنبيائهم « وقد تتبعنا فى تفسير ابن جرير كثيرا من الآيات التى وردت عن بنى اسرائيل فاذا بطل الرواية فيها وهب بن منبه ، وقد ذكرنا من قبل أنه كان من يهود اليمن وأسلم ، فكان يعكس ماجاء فى كتب اليهود من غير تحر دقيق · كما تتبعنا كثيرا من الآيات التى وردت عن النصارى فاذا كثير مما يرويه الطبرى عن ابن جريج ، ويقول عنه الذهبى فى تذكرة الحفاظ انه من اصل رومى ، فهو نصرانى الأصل ، ويقول عنه بعض العلماء : انه كان يضع الحديث ، وأنه تزوج تسعين امرأة زواج متعة ··· » (١٧) وازاء · هذا الطوفان من مبالغات اليهود والنصارى ، اندفع بعض المسلمين الى الحديث عن نبيهم أيضا ، فاذا اطنب ابن منبه فى الحديث عن موسى ، وأسرف بن جريج فى الكلام عن عيسى ، لم يبق أمام قصاص المسلمين الا أن يكثروا من الحديث عن محمدد ﷺ ، ليعارضوا أهل الكتاب بهذا · عقد السيوطى فصلا لأكاذيب العرب ، ختمه بهذه العبارة « وحدثنى الثورى قال : سألت أبا عبيدة عن مثل هذه الأخبار من أخبار العرب ،

---

(١٦) المرجع السابق ٣ / ٢٧٨
(١٧) فجر الاسلام ٢٤٢

فقال : ان العجم تكذب أيضا فتقول : كان رجل نصفه من نحاس ، ونصفه من رصاص فعارضها العرب بهذا وما أشبهه » (١٨) .

وعلى هذا فالقصص التى وردت عن أنبياء وشخصيات سابقة على الاسلام وتنبىء بظهور الدعوة المحمدية والترقب لها ـ موضوعة لتمجيد السيرة النبوية والتنويه بها ، كقصة الحارث بن مضاض الجرهمى التى يقول فيها لرفيقه « يابنى هل ولد فى بنى مضر مولود اسمه محمد ، قلت له : لا . قال : انه ولد ، والا فسيولد ويأتى حينه ويعلو دينه » (١٩) .

(و) وتؤثر طبيعة المفاخرة فى نوع آخر من القصص ، وهى تلك القصص التى حكاها عبيد بن شرية الجرهمى أمام معاوية ، فاعتقد أن عبيدا كان يخلق الأحداث التى تمجد ملوك قحطان ، أو على الأقل يبرز تلك الأحداث ويفيض فيها ، ويلفت النظر اليها ، ليفتخر بأمجاد ملوك اليمن وحضارتهم الغابرة ، أمام أمجاد قريش وحضارتهم الطارئة ، بل انه يرجع أمجاد العدنانيين الى يعرب بن قحطان ، فهو أول من تكلم العربية ، ولنترك عبيدا يكمل افتخاره ... « حتى كان اسماعيل .. ونقله ابراهيم (ص) من بلاده فأنزله بمكة ، فكنا نحن جرهم أهل البلد ، فمشى اسماعيل فينا وتكلم بكلام العربية ، وتزوج منا فجميع ولد اسماعيل من بنت مضاض بن عمرو الجرهمى ، واسماعيل وأبوه منا ، وأنتم ياقريش منا ، والعرب بعضها من بعض ... » وقد تنبه معاوية لهذه النبرة فقال : كأنك تحدث عن حديث الجاهلية » فيستدرك عبيد ويقول : لك فى الاسلام مايغنيك عن ذلك فقد محق الاسلام ما كان قبله كما محقت الشمس ضوء القمر (٢٠ » . بل ان معاوية يثور أمام تلك اللهجة من عبيد ، وذلك بعد قول عبيد لمعاوية : انك لتكلفنى أقوال

---

(١٨) المزهر فى علوم اللغة وأنواعها ٣ / ٣١٤

(١٩) التيجان ١٨٧ .

(٢٠) أخبار عبيد بن شرية الجرهمى ص ٢١٤ .

قوم قد ذهبوا . كانوا ملوكا فاذا قالوا صغروا غيرهم لقدرتهم وعظمتهم » فيرد معاوية .. لم تكن حمير كما ذكرت ، فقد أورثنا الله ذلك من ملكهم فهو لنا اليوم . فانتزعه الله لنبيه محمد (ص) وهو منا فنحن أسرته وخير الناس بعده ، ولولاه لم نكن شيئا وجعل حمير لنا والحمد لله الذى أكرمنا بنبيه وأورثنا أرض أعدائه الجبابرة العتاه » (٢١) :

(ز) ثم ان الحياة فى العصر الأموى تعقدت من نواحيها السياسية والاجتماعية ، فالمسلمون قد أسقطوا دولة فارس ، وقضوا على جزء كبير من دولة الروم . فرأوا حضارات جديدة لم يعهدوها من قبل فى صحرائهم فمن حكمة الهند ، الى فلسفة اليونان ، الى آداب للفرس .

حقيقة ان الترجمة لم تنشط فى هذا العصر ، كما نشطت فى العصر العباسى الأول ، ولكن هذا لايمنع أن القائمين على هذه الدولة ، قد راعتهم الأمور الجديدة والطريفة فى الممالك فشرعوا يتتبعون اخبار هذه الممالك ، ويبحثون عن سير هؤلاء الملوك ، عسى أن يجدوا فيها حلا لمشكلاتهم الجديدة ، التى نشأت بسبب تعقد الحياة وتشابكها ، فيحكون أن معاوية كان يستمر الى ثلث الليل فى أخبار العرب وأيامهم وملوكها وسياستها لرعيتها ، وسائر ملوك الأمم وحروبها ومكايدها وسياستها لرعيتها ، وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة ... ثم يدخل فينام ثلث الليل ثم يقوم ، فيقعد ، فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد ، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون ، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها ، فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات » (٢٢) .

وربما كان نتيجة للحضارة وتعقدها أن تخصص بعض الناس فى

---

(٢١) المرجع السابق .. ص ٤٧٢ .
(٢٢) مروج الذهب ٣ / ٧٢ (طبع عبد الرحمن محمد بمصر) .

حكايات معينة ، فالغاضرى وأشعب تخصصا فى خلق النوادر والحكايات الغريبة لاضحاك أهل المدينة وتسليتهم (٢٣) . ويبدو أن محمد بن بشير الخارجى تخصص فى الحكايات التى تتعلق بالصيد . فالجاحظ يذكر أن نسوة أردن أن يختلين بسليمان بن عبد الله الأسلمى وابن أخ له فأرسلن اليهما « انما خرج أزواجنا للصيد ، وقد بلغنا أن لكم صاحبا يعرف من طلب الصيد مالا يعرفه غيره ، فلو طرح لهما شيئا من ذكره لأسرعوا اليه وتخلفتم وتحدثتم ماشئتم يعنين به محمد بن بشير » . قال محمد : فصرت اليهم وذكرت لهم الصيد فخرجوا معى ، فمازلت أحدثهم بالصدق حتى أخذت فى الكذب مما يضارع الصدق حتى أفنيته . فأقمت معهم ثلاثة أيام ولياليها ثم انصرفوا فقلت فى ذلك :

انى انطلقت معى قوم ذوو حسب ما فى خلائقهم زهو ولا حمق
أنى لأعجب منهم كيف أخدعهم أم كيف آفك قوما مابهم رهق
أظل فى الأرض ألهيهم وأخبرهم أخبار قوم ما كانوا ولا خلقوا (٢٤)

(ح) ويبدو أن الخلفاء الأمويين كانوا يميلون الى السمر والمنادمة ، والى القصص والحكايات ، فحين ولى معاوية بن أبى سفيان الخلافة ، وانتظمت اليه الأمور ، استحضر ليلة خواص أصحابه ، وذاكرهم وقائع أيام صفين (٢٥) ، وكان من أخلاقه أنه اذا صلى الفجر يجلس للقاص حتى يفرغ من قصصه (٢٦) ، وكان أفضل لذاته فى آخر عمره المسامرة وأحاديث من مضى . ومن أجل ذلك استدعى عبيد بن شرية الجرهمى ،

---

(٢٣) العقد الفريد ٣ / ٣٤٧ وزهر الآداب للحصرى على هامش العقد الفريد ١ / ١٥٧ — ١٥٨ .
(٢٤) المحاسن والاضداد ص ٢٠٣
(٢٥) التحفة البهية ص ١٧٩
(٢٦) مروج الذهب ٢ / ٧١

واتخذه سميره يقص عليه وقائع العرب وأخبارها وأشعارها ، وأمـــر أهل ديوانه وكتابه أن يوقعوه ويدونوه فى الكتب (٢٧) . وعبد الملك ابن مروان قبل أن تفضى اليه الخلافة كان يجلس فى ظل الكعبة أيـــام الموسم مع قبيصـة بن ذئيب » وعـروة بن الزبير ومـالك بن عمـارة اللخمى ، فلما افضت اليه الخلافة جعل يحادث مالك بن عمارة عشرين ليلة يسأله مرة عن العراق ، وأخرى عن الحجاز (٢٨) ، ولما أفضى الأمر الى عبد الملك تاقت نفسه الى محادثة الرجال والأشراف فى أخبـــار الناس ، فلم يجد من يصلح لمنادمته غير الشعبى » (٢٩) . وكان جليسه ومضحكة روح بن زنباع (٣٠) ، وقد رأى منه روح مرة اعراضا ، فشكى حاله لابنه الوليد ، فقال « احتل له فى حديث تضحكه به ، كما احتال مرزبان نديم سابور ملك فارس » وأخبره أمر مرزبان ، اذ ظهـــرت له من سابور جفوة ، فتعلم نباح الكلب ، وعى الذئب ، ونهيق الحمير ، وزقاء الديوك ، وشحيح البغل ، وصهيل الخيـل ، حتى اسـتطاع أن يضحك الملك ضحكا شديدا وأن يرضى عنه فى النهاية ، وقد عمل روح بنصيحة الوليد ، واخترع قصة عن ابن عمر وابن أبى عتيق ، « فضحك عبـد الملك حتى فحص برجله ، وقـــال لـــه : قـاتلك الله ، ماأطيب حديثك (٣١) .. ثم عاد الى أحسن حالاته » . وسليمان لايجد لـــذة تعدل لذة القصص والحكايات والمنادمة والمسامرة ، فيقول : « قد أكلنا الطيب ولبسنا اللين وركبنا الفاره ، ولم تبق لذه الا صديق ، اطرح معى فيما بينى وبينه مؤونة التحفظ (٣٢) » . « وقيل للوليد بن يزيد : مابقى من لذاتك ؟ قال : محادثة الاخوان فى الليالى القمر ، على الكثبان

(٢٧) أخبار عبيد ص ٣١٢
(٢٨) التحفة البهية ص ١٨٩
(٢٩) مروج الذهب ٢ / ١٠٩
(٣٠) ثمرات الاوراق ص ٧٦
(٣١) مروج الذهب ٢ / ١٢٩ والتاج للجاحظ ص ١٣٠
(٣٢) مروج الذهب ٢ / ١٦٣

العفر • وبلغ الوليد بن يزيد : عن شراغة •• حسن عشرة ، وحلاوة مجالسة ، فبعث فى احضاره » (٣٣) •

وسار القادة والرؤساء على الدزب نفسه ، فخالد بن عبد الله القسرى كان يبحث عمن يحدثه حديثا يستريح اليه قلبه ، فانبرى له قاص ، جعل يقص بعض أخبار بنى عذرة (٣٤) • وقد اتخذ الحجاج له سميرا هو سيرة بن الجعد • فلم يك يطلب شيئا من الحديث الا وجد عنده منه علما (٣٥) • وأرق ذات ليلة ، فبعث الى ابن القرية ، فقال : « انى أرقت ، فحدثنى حديثا يقصر على طول ليلى ، وليكن من مكر النساء وفعالهن فقص عليه قصة مشوقة ذكرها الجاحظ ، وعقب عليها الحجاج بقوله : « لله درها ما أحسن ما احتالت لاستخراج حقها » (٣٦) •

وهكذا نجد الحضارة ، وطبيعة الترف والملك ، يدفعان بالقصة والحكايات الى منافسة الشعر لدى الخلفاء والقواد • وكل هذا وغيره يدل على مدى أثر الحضارة ، واشتباك الأمور ، وتعقد الأشياء فى المسامرة ، وما يتبع المسامرة عادة من حكايات وأقاصيص ، قد يراد منها مرة تعرف ما عليه الملوك الآخر من عادات وسياسات ، كما كان حال معاوية مع غلمانه ، وقد يراد منها ثانية مجرد الاضحاك والتسلية كما فعل روح مع عبد الملك ، وقد يراد منها ثالثة العبرة والعظة والاقتداء بأحوال الغير كتلك القصة التى قصها مسامر الوليد بن يزيد (٣٧) •

(ط) ثم ان الأمويين كانوا على جانب كبير من المكر والدهاء السياسى فحين وجدوا أن القصص تروج لدى العامة ، ويقبلون عليها ،

---

(٣٣) المرجع السابق ٣ / ١٨٦ •
(٣٤) أخبار النساء ص ٧٢
(٣٥) مروج وذهب ٢ / ١٣٨
(٣٦) المحاسن والاضداد ١٧٥
(٣٧) راجع : ثمرات الأوراق ص ٧٦

راوا أن يستغلوا هذه الناحية فى تثبيت أركانهم وتدعيم سلطانهم ، فقد روى أن معاوية حين بلغه أن عليا قنت فدعا على قوم من أهل حربه ، أمر رجلا يقص بعد الصبح ، وبعد المغرب ، يدعو له ولأهل الشـام ، قال يزيد وكان ذلك أول القصص (٣٨) بل ان معاوية لبعد نظره جعل ذلك من المناصب الرسمية المهمة التى تضاهى القضاء ، « ثم ولى سليم ابن عنز التجيبى على القضاء فى أيام معاوية بن أبى سفيان . وجعـل اليه القص والقضاء جميعا ، وكان يقص على الناس ، وهو قائم ... وهو من العباد المجتهدين . وكان يختم القرآن فى الليل مرات » (٣٩) . ولعل ابن عمر يعنى هذا الجانب الرسمى فى القصص حين قال : « لم يقص فى زمن رسول الله (ص) ، ولا أبى بكر ولا عمر ولا عثمان ، وانما كـانت القصص فى زمن معاوية » (٤٠) ، وربمـا كانت رواية ابن عمر ، أو روايـة يزيـد بن حبيب هى التى جعلت الرافعى يعمم فيقول : « ولـم يكن القصـص فى زمن النبى (ص) ، ولا فى زمن أبى بكر وعمر ، لاجتماع كلمة المسلمين ... وانما أحدثت القصص فى زمن معاوية ، حين كانت الفتنة بين الصحابة » (٤١) .

هذه هى أهم الأسباب التى أدت الى ازدهار القصة ـ بوجـه عام ـ فى العصر الأموى ، أما الأسـباب التى أدت الى ازدهـار قصص العشق فى هذا العصر فسأفرد لها فصلا مستقلا .

بقى أن أتحدث الآن عن أنواع القصة فى العصر الأموى :

بعض قصص هذا العصر امتداد لقصص العصر الجاهلى مع تحوير

---

(٣٨) خطط المقريزى ٣ / ٣٥٢ .
(٣٩) حسن المحاضرة ٣ / ٩٦ وخطط المقريزى ٢ / ٢٥٣
(٤٠) خطط المقريزى ٣ / ٣٥٥
(٤١) تاريخ آداب العرب ١ / ٣٩٧

يسير يناسب الظروف .. وبعضها امتداد لحركة قصصية جاهلية ، ولكنها فى العصر الأموى لبست ثوبا جديدا وتركزت حول موضوع جديد .. وبعضها كان له أصل فى العصر الجاهلى ، ولكنه فى هذا العصر تشعبت فروعه وتنوعت أفانينه .

وسأتحدث بالتفصيل عن كل نوع من هذه الأنواع :

١ – فمن القصص التى كانت موجودة فى العصر الجاهلى ثـم استمرت فى العصر الأموى « قصص الحيوان » . ففى العصر الجاهلى وجدت حكايات تحاك حول قنزعة الهدهد ، أو حول مشية الغراب ، أو حول فرخ نوح (٤٢) واستمر هذا اللون فى العصر الأموى ، وكان القصاص يلجئون اليه أحيانا للتعبير عن معنى خلقى . كهذه الحكـاية التى ساقها وهب بن منبه للرياء « نصب رجل من بنى اسرائيل فخا ، فجاءت عصفورة فنزلت عليه ، فقات : مالى أراك منحنيا ؟ قال : لكثرة صلاتى انحنيت . قالت : فمالى أراك بادية عظامك ؟ قال : لكثرة صيامى بدت عظامى . قالت : فمالى أرى هذا الصوف عليك ؟ قال : لزهادتى فى الدنيا لبست الصوف . قالت : فما لهذه العصا عندك ؟ قال أتوكأ عليها وأقضى حوائجى . قالت : فما هذه الحبة فى يدك ؟ : قال قربان ان مر بى مسكين ناولته اياها . قالت : فانى مسكينة . قال : فخذيها . فدنت فقبضت على الحبة ، فاذا الفخ فى عنقها ، فجعلت تقول : قعى قعى . تفسيره لا غرنى ناسك مراء بعدك أبدا » (٤٣) .

٢ – ومن القصص التى كانت موجودة فى العصر الجاهلى . ثم لبست ثوبا جديدا فى العصر الأموى « أيام العرب » فقد دارت فى العصر الأموى حول الحروب الاسلامية ، واتخذت من مغازى النبى عليه الصلاة والسلام مسرحـا لهـا وانظر سـيرة ابن هشـام ، أو تـاريخ الطبرى ،

---

(٤٢) بلوغ الأرب ٣ / ٣٦٤

(٤٣) العقد الفريد ١ / ٢٤٩ .

أو غيرهما ، فستجد أنهم كانوا يحيطون هذه الغزوات بكثير من القصص البطولية (٤٤) ٠

٣ – ومن تلك القصص الأساطير التى نسجت حول شخصيات فى العصر الأموى ، للنيل منها أو لتمجيدها ، فيزعمون أن الحجاج ابن يوسف ولد « مشوها لا دبر له ، فثقب عن دبره ، وأبى أن يقبل ثدى أمه وغيرها فأعياهم أمره ، فيقال أن الشيطان تصور لهم فى صورة الحرث بن كلدة (وكان زوجا لأم الحجاج فطلقها ثم تزوجها من بعده أبو الحجاج يوسف بن عقيل الثقفى) فقال ما خبركم فقالوا : بنى ولد ليوسف من الفارعةوكاناسمها ، وقد أبى أنيقبلثدىأمه فقال : اذبحواجديا أسود وأولغوه دمه ، فاذا كان فى اليوم الثانى ، فافعلوا به كذلك ، فاذا كان اليوم الثالث فاذبحوا له تيسا أسود وأولغوه دمه ، ثم اذبحوا له أسود سالخا فأولغوه دمه واطلوا به وجهه فانه يقبل الثدى فى اليوم الرابع ٠ قال : ففعلوا به ذلك ، فكان بعد لا يصبر عن سفك الدماء لما كان منه فى بدء أمره » (٤٥) وحين قتل الحجاج سعيد بن جبير « لم يعش بعده الا خمس عشرة ليلة حتى وقعت فى جوفه الأكلة ، فمات من ذلك ، ويروى أنه كان يقول بعد مقتل سعيد : ياقوم ، مالى ولسعيد ابن جبير ، كلما عزمت على النوم أخذ بحلقى » (٤٦) ٠ ويحكون عن بسر بن أرطاة العامرى الذى قتل عبد الرحمن وقثما ، ابنى عبيد الله ابن العباس ، أنه خرف « حتى ذهل عقله واشتهر بالسيف ، فكان لا يفارقه ، فجعل له سيف من خشب ، وجعل فى يديه زق منفوخ ، كلما تخرق أبدل ، فلم يزل يضرب ذلك الزق بذلك السيف حتى مات ذاهل العقل ، يلعب بخرئه ، وربما كان يتناول منه ثم يقبل على من يراه فيقول ٠ أنظر ٠ أنظر ، كيف يطعمنى هذان الغلامان ابنا عبيد الله ،

---

(٤٤) راجع مثلا : تاريخ الطبرى ٢ / ٢٨٣ ٠
(٤٥) مروج الذهب ٢ / ١٣١
(٤٦) المرجع السابق ٢ / ١٥٦

وكان ربما شدت يداه الى ما وراء منعا من ذلك ، فانجى ذات يـــوم فى مكانه ثم أهوى بفيه فتناول منه ، فبادروا الى منعه فقال : أنتـم تمنعونى وعبد الله وقثم يطعمانى » (٤٧) وشبيب الخـارجى مشـهور بالشجاعة ، وقد دوخ الحجاج ، ولما مات شق الحجاج بطنه ، واستخرج قلبه « فاذا هو كالحجر ، اذا ضربت به الأرض نبا عنها ، فشق فاذا فى داخله قلب صغير كالكرة ، فشق فأصيب علقة الدم فى داخله » (٤٨)

ولعل السر فى انتشار هذه الأساطير ، أنها كانت « كأحلام اليقظة » تعكس رغبات الشعب ومكنوناته ، فقد منى بشرذمة من الطغاة وقد عجز عن أن ينتقم منهـم فى واقعه ، فـلا أقـل من أن ينتقم منهم فى خياله وأحلامه ، ومن أن يمجد الشـجعان الذين خرجـوا عليهم . فالحجاج مصاص دماء ، وبسر يتحول الى صورة شبيهة بصورة « دون كيشوت » يلاعب طواحين الهواء ، وشبيب بطل عملاق قلبه من حجر .

وهناك شخصية حيكت حولهـا الأساطير ، فبدت كتلك القصص التى تسمعها عن مصارعى روما وعمالقتها ، كهرقل وشمشون ... فقد روى أبو الفرج الأصفهانى خوارق عن هلال بن الأسعر من شعراء الدولة الأمويـــة ، فيحكى هـــلال عن نفســه : « جعــت مـــرة ومعى بعيرى فنحرتــه ، وأكلتــه الا مـا حملت منه على ظهرى » (٤٩) . وحدث عنه ابن العلاء أنه لم ير أطول منه (٥٠) . « وقد مر به رجلان وكانا أشد تميمينبطشا ، وهو مضطجع ، فدنا أحدهما منه وأهوى على عجزه بالسوط ، فتناول هلال يده ، فاجتذبه اليه ورماه تحت فخذه ، ثـــم تنـــاول الآخرورمــــاه تحت فخـــذه الأخـــرى ، ثـــم أخـذ برقـــابهما فجعـــل يصـــك برءوســـهما (٥١) وقتـــل مرة جلانيا

---

(٤٧) المرجع السابق ٢ / ١٥٥
(٤٨) المرجع السابق ٢ / ١٤١
(٤٩) الاغانى ٣ / ٦٨ « دار الكتب »
(٥٠) المرجع السابق ٣ / ٧٠
(٥١) المرجع السابق ٣ / ٥٤

كـان قـد استجار بمعـاذ ، ثـم هرب فتبعه معاذ وأخـوته التسـعة وابن عمتهم وكانوا أمثال الجبال ، ومعهم عشرة غلمان اقوياء ، وجعلوا يرمونه بالحجارة ويضربونه بالعصى ، فما استطاعوا أن يأخذوه ، حتى كسروا من احدى يديه ثلاث أصـابع ، ومن الأخـرى أصبعين ، ودقوا ضلعين من أضلاعه وأكثروا الشجاج فى رأسه ، ثم أخذوه ووضعوا فى رجله أدهم ، ثم دفعوه الى الجلانيين ، فانطلقوا به الى بلادهم ، ولكنه فى الطريق تبرز هلال كما يصنع وفى رجله الأدهم كأنه يقضى حاجـــة ووضع كساءه على عصاه فى ليلة ظلماء ثم اعتمد على الأدهم فحطمه ، ثم طار تحت ليلته على رجليه وفر الى اليمن » (٥٢) ٠

٤ ـ أما القصص التى كانت موجودة فى العصر الجاهلى ، ولكنها فى العصر الأموى تنوعت ودخلت فيها موضوعات جديدة لم تعرف فى العصر الجاهلى ، وبعض هذه الموضوعات كان بسبب الدعوة الاسلامية الجديدة ، فمنها تلك القصص الدينية التىدارت حول الأنبياء والشخصيات المقدسة ٠

فقد عرفت الجزيرة العربية قصصا أشاعها أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، ثم نـزل القرآن وفيـه اشـــارات عن موسى وعيسى ٠٠٠ الخ ٠ وحين أراد المفسرون أن يرضوا حاجة المستمعين الى القصص ، وتفصيل الاشارات المجملة ، لجأ فريق منهم الى الاسرائيليات ، والى ما أشاعه أهل الكتاب من قصص وحكايـــات ٠ ويذكر ابن خـــلدون « أن العرب كانوا اذا تشوقوا الى معرفة شىء مما تشوق اليه النفوس البشرية ، فانما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ، وهم أهل الكتاب من اليهود ، ومن النصارى ٠ وأهل التوراة الذين بين العرب أهل باديـــة مثلهم ولا يعرفون من ذلك الا ما يعرفه العامة من أهل الكتاب ، ومعظمهم

---

(٥٢) المرجع السابق ٣ / ٥٨

من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية ، فلمـا أسلموا بقوا على مـا كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التى يحتاطون لها » (٥٣) .

ولم يكن يراد بهذه القصص الحقائق ، اذ فيهـا من المبالغـات والخوارق مالا يستطيع العقل أن يتصور وقوعه ، ولعل هؤلاء القصاص كانوا يقصدون جذب قلوب العامة الذين أصبحوا يتطلعون الى مزيد من تفصيلات القصص القرآنى ، وقد أحس ابن جرير بهذا ، فتبرأ من العهدة وقال فى مقدمة كتابه : « فما يكن فى كتابى هذا من خبر ذكرنـاه عن بعض الماضيين ، مما يستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه ، من اجل أنه لم يعرف وجها فى الصحة ولا معنى فى الحقيقة ، فليعلم أنه لـم يؤت ذلك من قبلنا وانما أتى من قبل بعض ناقليه الينا ، وانما أدينا ذلك على نحو ما أدى الينا » (٥٤) .

ولعل الدكتور أحمد أمين يقصد هذا النوع من القصص ـ الذى تأثر فى كثير منه بالقرآن ـ حين يرى أن القصص استحدثت فى صدر الاسلام « روى عن ابن شهاب أن أول من قص فى مسجد رسول الله ﷺ تميم الدارى ، استأذن عمر أن يذكر الناس فأبى عليه ، حتى كان آخر ولايته ، فأذن له أن يذكر الناس فى يوم الجمعة قبل أن يخرج عمر ، فاستأذن تميم عثمان بن عفان فأذن له أن يذكر يومين فى الجمعة ، فكان تميم يفعل ذلك . وفى رواية أخرى عن الحسن أنه سئل : متى احداث القصص ؟ قال : فى خلافة عثمان . فسئل : ومن أول من قص ؟ قال : تميم الدارى » (٥٥) .

وكان أكبر فرسان هذا الميدان : كعب الأحبار ، ووهب بن منبه ، وعبيد بن شرية الجرهمى . وسأتعرض لهؤلاء الفرسان الثلاثة ، وسأضرب

---

(٥٣) المقدمة ص ٤٣٩

(٥٤) تاريخ الطبرى ١ / ٥

(٥٥) فجر الاسلام ٨٧ ، وانظر خطط المقريزى ٢ / ٢٥٢

أمثلة من قصصهم ، وأبين مناهجهم ، وسنرى من كل ذلك أن هـؤلاء لم يكونوا يقصدون الحقيقة والتاريـخ ، بقـــدر مـــا يقصـدون التفنن والتشويق .

أما كعب الأحبار ، فهاك نموذجا صغيرا لبيان أسلوبه القصصى قال : « ذكرت الملائكة أعمال بنى آدم ، وما يأتون من الذنوب فقيـل لهم اختاروا منكم اثنين ، فاختاروا هاروت وماروت ، فقيل لهمـــا . انى أرسل الى بنى آدم رســلا ، وليس بينى وبينكـم رسـول ، أنزلا ، لاتشركا بى شيئا ، ولا تزنيا ، ولا تشربا الخمر ، قـــال كعب . فوالله ما استكملا يومهما الذى أنزلا فيه حتى عملا ما حرم الله عليهما . » (٥٦)

ولا تعقيب لى على نموذج كعب القصصى ، الا أن أستعير قـــول ابن كثير : « فهذا أظنه من صنع الاسرائيليين ، وان كان قد أخرجه كعب الأحبار ، وتلقاه عنه طائفة من السلف ، فذكروه على سبيل الحكاية ، والتحدث عن بنى اسرائيل . وقال أيضا « واذا أحسنا الظن قلنا هــذه من أخبار بنى اسرائيل كما تقدم من رواية ابن عمر عن كعب الأحبار ، ويكون من خرافاتهم التى لا يعول عليها » (٥٧) .

أما وهب بن منبه ، فقد كان ذا قدرة قصصية عجيبة ، يمده ذلك الفيض من كتب الأولين التى قرأها ، فقد روى أنه قرأ اثنين وسبعين كتابا من كتب الله تعالى (٥٨) ، ويرفعها بعضهم الى ثلاثة وتســعين كتابا مما أنزل على الانبياء (٥٩) ، وكان أكثر قصصه تدور حـــول

---

(٥٦) تفسير الطبرى ١ / ٤٢٩ « تحقيق شاكر » .
(٥٧) تاريخ ابن كثير ١ / ٨٧ ٨٨ مطبعة السعادة بمصر ســنة ١٣٥١ هـ .
(٥٨) وفيات الأعيان ٥ / ٨٨ .
(٥٩) التيجان ص ٢ .

اليهود (٦٠) ، فقد كان من يهود اليمن وكان مصدره الأول هو التوراة ، أنظر اليه يحكى قصة آدم والحية التى :غوته « لما أسكن الله تعالى آدم وزوجته الجنة ، ونهاه عن الشجرة ، وكانت شجرة غصونها تتشعب بعضها فى بعض ، وكان لها ثمر تأكله الملائكة فيخلدهم ، وهى الثمرة التى نهى عنها آدم وزوجته ، فلما أراد ابليس أن ينزلهما دخل فى جوف الحية ، وكان للحية أربعة قوائم كأنها بختية من أحسن دابة خلقها الله ، فلما دخلت خرج من جوفها ابليس ، فأخذ من الشجرة التى نهى الله عنها آدم وزوجته وجاء بها الى حواء فقال : انظرى الى هذه الشجرة ، ما أطيب ريحها وأطيب طعمها ، وأحسن لونها ، فأكل منها آدم ، فبدت لهما سوءاتهما ، فدخل آدم فى جوف الشجرة فناداه ربه : يا آدم ، أين أنت ؟ قال : أنا هنا يارب . قال : الا تخرج ؟ قال : استحى منك يارب . قال : ملعونة الأرض التى خلقت منها لعنة حتى تتحول ثمارها شوكا .. ثم قال : ياحواء أنت التى غررت عبدى ، فانك لاتحملين حملا الا حملته كرها . فاذا أردت أن تضعى ما فى بطنك ، أشرفت على الموت مرارا . وقال للحية : أنت التى دخل الملعون فى بطنك حتى غر عبدى . ملعونة أنت لعنة حتى تتحول قوائمك فى بطنك ولا يكون لك رزق الا التراب . أنت عدوة بنى آدم ، وهم أعداؤك ، حيث لقيت أحداً منهم أخذت بعقبه ، وحيث لقيك شدخ رأسك » (٦١) .

أما عبيد بن شرية ، فهو الذى وصفه عمرو بن العاص لمعاوية لما رأى شوقه الى المسامرة فقال له : « لو بعثت الى الجرهمى الذى بالرقة من بقايا من مضى ، فانه أدرك ملوك الجاهلية ، وهو أعلم من بقى اليوم فى أحاديث العرب وأنسابها ، وأوصفه لما مر عليه من تصاريف الدهر ، فبعث اليه معاوية ... « فاذا هو شيخ كبير السن ، صحيح

---

(٦٠) أنظر تفسير الطبرى وخاصة ١ / ٢٠٩ – ٢١١و١ / ٢٥٧ دار المعارف .

(٦١) تاريخ الطبرى ١ / ٥٤ .

البدن ، ثابت العقل منتبه ، ذرب اللسان كأنه الجذع (٦٢) » . وقد أصاب فى قلب معاوية شيئا فكان يرتاح اليه ويبدى اعجابه . فمرة يقول له : « زادك الله علما وفهما وزادنا بك رغبة ، وعليك حرصا ، فانا لا نخفى اياديك ، فزادك الله فضلا الى فضل ، وهدى الى هدى (٦٣) ... » واخرى يقول له : « ياعبيد أنك لتحدثنى عجبا ، ما شفانى عنهم وعن أخبارهم وما كان منهم أحد غيرك (٦٤) » ....

ومنهج عبيد فى قصصه متزن الى حد ما ، فهو لا يشطح مع الخيال كما يفعل وهب ، وهو لا يحابى معاوية فى قصصه . وقد صرح بمنهجه قبل أن يبدأ فى القص أمام معاوية وخاصته ، اذ قال لمعاوية : يا أمير المؤمنين ، لك فى غير هذا الحديث ما يقصر ليلك ، وتلذبه فى نهارك فان فيه ماتهوى ، ومالا تهوى ، ومغضبة وشغفا للملوك ، ونعش المودة » ولكن معاوية أصر على الحديث واعطاه هو وخاصته الأمان (٦٥) .

ولعله من الطريف أن نقارن بين تيجان وهب ، وأخبار عبيد — جمعهما الناشر فى مجلد واحد — فالكتابان يشغلان موضوعا واحدا ، اذ التيجان فى ملوك حمير ، والاخبار فى اليمن . وأدنى تصفح للكتابين يلفتنا الى أن عبيدا لم يكن مجنح الخيال ولا غريب الأخبار ، كما هو الشأن عند صاحبه وهب . ولعل السبب فى هذا ان عبيدا كان فى ادراكه انه يقص أمام معاوية وخاصته ، ومعاوية كان عالما بسير العرب وأخبارها ، وأكثر من مرة كان يحاور عبيدا فى أخباره ويسأله .

هؤلاء هم أشهر المفسرين الذين نزعوا نزعة قصصية ، وأمثال

---

(٦٢) أخبار عبيد ص ٣١٤ .
(٦٣) المرجع السابق ص ٣٩٦ .
(٦٤) المرجع السابق ص ٤٨١ .
(٦٥) المرجع السابق ص ٣١٤ .

هؤلاء المفسرين هم الذين وصف ابن خلدون كتبهـــم ومنقولاتهم بانهـــا تشتمل على الغث والسمين ، والمقبول والمردود ، لانهم رجعوا فيها الى أهل الكتاب الذين كانوا يسكنون البادية ، ولا يعرفون من ذلك الا ماتعرفه العامة ، ولم يتحرج المفسرون فى الاخذ عنهم لانها أمور لا تعلق لهـــا بالاحكام الشرعية التى يحتاطون لها مثل : أخبار بدء الخليقة ، ومايرجع الى الحدثان والملاحم ... الخ (٦٦) . فالامر لا يعدو ناحية قصصية يراد بهـا الوعظ والتذكير . قـال داود بن أبى هنـد للفضل بن عيسى الرقاشى : « لولا أنك تفسر القرآن برأيك ، لاتيناك فى مجلسك . قال : فهل ترانى أحرم حلالا وأحل حراما ؟ وانما كان يتلو الآية التى فيها ذكر النار والجنة والحشر والموت وأشباه ذلك » (٦٧) .

وهذا القصص الدينى قد ارتبط بالوعظ ، لدرجة أن المؤلفين بعد ذلك كانوا يعنونون الوعظ والقصص بعنوان واحـــد ، يقول الحصرى « فقر من كلام المتصوفة والزهاد والقصاص (٦٨) » . ويبدو من كـــلام بعض المؤلفين أن كلمة « قصة » قد أصبحت ترادف عندهم كلمة « وعظ » قص قاص فقال : اذا مات العبد وهو سكران ، ودفن وهو سكران ، حشر وهو سكران (٦٩) » . والفضل هو الذى يقول فى قصصه : « سل الارض فقل من شق أنهارك وغرس أشجارك ، وجنى ثمـارك فان لـم تجبك حوارا اجابتك اعتبارا (٧٠) » . فمن هذين النموذجين نرى أن كلمة « قاص » تعنى كلمة واعظ ، وأن كلمة « قصصه » تعنى « وعظه » . ولهذا لم يبعد الدكتور شوقى ضيف حين جعل هذا النوع من القصـص يدخل فى الخطابة الدينية ، فقـــد تكلم عن أنواع الخطـابة فى العصر

(٦٦) المقدمة ص ٤٣٩ .
(٦٧) البيان والتبيين ١ / ١٦٠ (القاهرة سنة ١٣٣٢) .
(٦٨) زهر الاداب على هامش العقد الفريد ٣ / ١١٣ .
(٦٩) أخبار الظراف والمتماجنين ص ٩٠ .
(٧٠) البيان والتبيين ١ / ١٦٧ (القاهرة ١٣٣٢) .

الأموى ، وأن نوعا يسمى « الخطابة الدينية » ، وتعتمد على القصص والوعظ ، وأخذت فى الظهور منذ عهد عثمان اذ كان تميم الدارى يجلس فى المسجد الجامع ، فيحاضر الناس بهذا اللون من القصص والوعظ (٧١) ·

وانتشرت قصص الوعظ فى العصر الأموى انتشارا واسعا ، فتحت عنوان « ذكر القصاص » يورد الجاحظ أسماء كثيرة ، ألاحظ فيها كثرة الأعلام التى وجدت فى العصر الأموى مثل : الأسود بن سريع ، وهو الذى قال :

فان تنج منها تنج من ذى عظيمة والا ، فانى لا اخالك ناجيا

والحسن وسعيد أبى الحصن ، وجعفر بن الحسن ، وهو أول من اتخذفى مسجد البصرة حلقة وأقرأ القرآن فى مسجد البصرة ، وابراهيم التميمى وقد جلس اليه عبد الله بن عمر ، وقد أقرته كذلك عائشة ولم تنكر عليه ، ثم من هذيل مسلم بن جندب وكان قاضى مسجد النبى بالمدينة ، وكان امامهم وقارئهم وفيه يقول عمر بن عبد العزيز · « من سره أن يسمع القرآن غضا فليسمع قراءة مسلم بن جندب » (٧٢) وهناك أسر اشتهرت بهذا النوع من القصص ، كالأسرة الفضلية التى تنسب الى الفضل ابن عيسى الرقاشى وقد قال عنهم أبو عبيدة : « وكان أبوهم خطيبا ، وكذلك جدهم ، وكانوا خطباء الأكاسرة ، فلما سبوا وولد لهم الأولاد فى بلاد الاسلام ، نزعهم ذلك العرق » (٧٣) ·

والدكتور شوقى ضيف يرى أن الخطابة الدينية التى تعتمد على القصص والوعظ ، نمت فى هذا العصر ، ولكن لا فى المدينة ، وانما

---

(٧١) الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ٢٢ ·
(٧٢) البيان والتبيين ١ / ١٩٥ « القاهرة سنة ١٣٣٢ » ·
(٧٣) المرجع السابق ١ / ١٦٧

فى العراق والشام ، أما العراق فتجد فيه الحسن البصرى ومعبدا وواصل ابن عطاء ، ويزيد بن أبـان الرقاشى وابن أخيـه الفضـل بن عيسى ، وأما الشام فاشتهر منها غيلان والأوزاعى (٧٤) ثم يرى أن العراق اشتهر بهذا النوع أكثر من الشام الذى « قلما عنى بالوعى الدينى ، وقد قتل هناك غيلان الواعظ ، ولم يخلف تلاميذ ولا حركة تشبه حركة البصرى نظيره فى العراق » (٧٥) ، ويعلل لاشتهار العراق بذلك الجانب ، بأن الناس فيه يائسون من حياتهم لكثرة حروبهم وهم يائسون من أملهم فى الملك والخلافة ، وهـو يأس أعـد لارتفاع هـذه النغمة الواعظـة الزاهدة » (٧٦) .

على أنا اذا اتخذنا اليأس من الحياة ومن الأمل مقياسا ، فـان المدينة أحرى بأن تعانى هذه النغمة الواعظة الزاهدة ، فهى اشد يأسـا من العراق – الذى انتشرت فيه الأحزاب السياسية المعارضة – فقد كانت مركز الحكم الاسلامى ثم انتزعتهمنها الشام قهرا واستبدادا ، واستعملمعها الامويون افانين العذاب والاضطهاد والقتل . وبالفعل عـرف الحجاز – بالنسبة لتلك الظروف – اليأس وانتشرت فيه النغمة الواعظة الزاهدة . وقد ذكر هذا أيضا الدكتور شوقى ضيف نفسه فى نهاية كتاب آخر لـه هو « الشعر الغنائى فى الأمصار الاسلامية » (٧٧) . على أنه اذا كان عدد اسماء القصاص والوعاظ فى اقليم العراق ، فاننى من جانبى أذكر بعض أسماء القصاص والوعاظ فى اقليم الحجاز ، مثل : عبيد بن عمير الليثى الذى جلس اليه ابن عمر ، واقرته عائشة ، ومسلم بن جندب وكان يلقى فى مسجد النبى عليه الصلاة والسلام ، وقد أخذ عنه طاووس ابن كيسان التابعى ، وهو من الأبناء وتوفى سنة ١٠٦ هـ وورث الرواية عنه ابنه عبد الله (٧٨) .

---

(٧٤) الفن ومذاهبه فى النثر العربى من ٢٢
(٧٥) المرجع السابق ص ٢٣
(٧٦) المرجع السابق ص ٧٣
(٧٧) الشعر الغنائى فى الامصار الاسلامية ١ / ٣٠٦
(٧٨) البيان والتبيين ١ / ١٩٥ القاهرة سنة ١٣٣٢

على أن بعض القصاص انحرف بهذا اللون من الوعظ ، استهواء لقلوب العامة ، فقد كانوا يفصلون في القصص التى تثيرهم وتستهويهم ، كقصة داود الذى أحب امرأة أوريا فبعثه الى القتال ، حتى قتل وتزوج امرأته . وكان القصاصون يذكرونها حين الحديث عن الآية « ان هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحـــدة » (٧٩) ويروون عن الأعمش المحدث (توفى سنة ١٤٨ هـ) أنه كان يلجأ الى الغرائب ليجذب قلوب العامة ، فكان يقلب الفرو ويلبسه حتى يكون صوفه الى خارج ، ويطرح على عاتقه منديل الخوان مكان الرداء . وسأله رجـل مرة عن اســناد حديث ، فأخذ بحلقه وأسنده الى الحائط وقـال . هــذا اسناده ... والأعمش هو القائل فيمن كانوا يسمعون منه « والله لا يأتون أحـــداً الا حملوه على الكذب » (٨٠) .

وبعض هؤلاء القصاص كان يتخذ هذه القصص وسيلة للكسب ، ويشبهون ما كنا نراه من عهد قريب فى ريفنا المصرى ، فقد كنا نـــرى المداحين يطوفون حـول البيوت ، يسـتجدون الناس ، ويحدثونهم عن معارك « أبو زيد الهلالي » وبطولة « الزناتى خليفة » ... الخ . وقد سخر الجاحظ من هؤلاء القصاصين تحت عنوان « باب أن يقول كـل انسان على قدر طبعه وخلقه » فقد قال : وقيل لطفيلى : كم اثنين فى اثنين ؟ قال . أربعة . وقال الفلاس القصاص . كان أصحاب رسول الله ﷺ يوم بدر ثلثمائة وستين درهما » (٨١) .

وقد تتابع القصاصـون الذين كانوا يعمدون الى الكذب والاختلاق فغير بعيد أن « أبو على الأسوارى » كا نيلجأ الى مخيلته ، لأنه ــ كما يقول الجاحظ ــ كان يفسر آية واحدة فى عــدة أسـابيع (٨٢) ، ولى

(٧٩) سورة « ص » آية ٢٣
(٨٠) تاريخ آداب العربى للرافعى ١ ــ ٣٥٩
(٨١) البيان والتبيين ٢ / ٨٩ (طبعة القاهرة سنة ١٣٣٢) .
(٨٢) المرجع السابق ١ / ١٩٧

يستطيع هذا الا اذا كان ذاخيال واسع . وحين دخل سفيان بن حبيب البصرة ، وتوارى عند مرحوم عطار (من أصحاب الحديث ، وكان فى أواخر القرن الثانى) (٨٣) قال له مرحوم : هل لك أن تأتى قاصا عندنا ، فتتفرج بالخروج والنظر الى الناس والاستماع منهم ، فأتاه على كره كأنه ظنه كبعض من يبلغه شأنه ، فلما أتاه وسمع منطقه وسمع تلاوته للقرآن وسمعه يقول : حدثنا سعيد عن قتادة وحدثنا قتادة عن الحسن ـ رأى بيانا لم يحتسبه ، ومذهبا لم يكن يدانيه ، فاقبل سفيان على مرحوم فقال : « هذا ليس قاصا ، هذا نذير » (٨٤) .

بعد هذا أستطيع أن أفرق بين نوعين من القصص : قصص العامة وقصص الخاصة . ومن الروايات السابقة يمكننى أن أقول : ان قصص العامة هى ذلك النوع الذى كان يراد به استهواء قلوب العامة ، وكـان يتخذ وسيلة للكسب فيكثر فيه الحديث عن الغرائب ، والأمور التى تجذب أفئدة العامة وخاصة ما يتصل بحديث الحب والقلب ، كحب داود لامرأة أوريا ، ولم يكن القاص فيه يتقيد باسناد أو حقيقة ، بل كان همه ارضاء العامة والتأثير عليهم والعامة ـ كما يقول المسعودى ـ « لا تراهم الدهر الا مرقلين الى قائد دب ، وضارب بدف على سياسة قرد ، ومتشوقين الى اللهو ، أو مختلفين الى مشعبذ منمس مخرف ، و مجتمعين الى قاص كذاب » (٨٥) .

وقال الليث بن سعد : هما قصصان قصص العامة وقصص الخاصة ، فأما قصص العامة فهو الذى يجتمع اليه النفر من الناس يعظهم ويذكرهم فذلك مكروه لمن سمعه ولمن استمعه . وأمـا قصـص الخاصـة فهو الذى جعله معاوية ، ولى رجـلا على القصص فـاذا سلم من صـلاة الصبح ،

(٨٣) المرجع السابق ١ / ١٩٧
(٨٤) المرجع السابق ١ / ١٩٧
(٨٥) مروج الذهب ٢ / ٧٤

جلس وذكر الله عز وجل وحمده ومجده ، وﷺ ودعا للخليفة ولأهـل ولايته ولحشمه وجنـوده ، ودعـا على أهـل حربـه وعلى المشركين كافة (٨٦) ٠

وقد نفر الخاصة من هذا النوع ، يذكرون أن عليا كرم الله وجهـه دخل مسجد البصرة ، يتعرف ماذا يقول القصاص ، فلما جاء الى حلقة « الحسن البصرى » أعجب به وجاز له أن يتحدث ، وأقصى عن المسجد من لم يره أهلا للقص على الناس (٨٧) ٠ ويعلق الكشاف على قصص العامة وعلى ما يروى من شأن داود مع امرأة أوريا بقوله : « فهـذا ونحوه مما يقبح أن يتحدث به عن بعض المتسمين بالصلاح من أفنـاء المسلمين ، فضلا عن بعض أعلام الأنبياء ٠ وعن سعيد بن المسيب والحرث الأعور أن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصـاص جلدته مائـه وستين وهـو حـد الفرية على الأنبياء » (٨٨) ٠

٥ ـ ومن القصـص التى كانت موجـودة فى العصر الجاهلى ، ولكنها تنوعت ودخلت فيها عناصر جديدة ، قصص الحب والعشق ٠

فقد عرفت هذه القصص ، فى العصر الجاهلى ، ولكنها فى العصر الأموى ـ ولظروف اجتماعية واقتصادية وسياسية ـ تنوعت وملأت الحجاز حواضره وبواديه ٠

وفى هذا العصر اشتهر كثير من القصاص ، يقصون قصص الحب ويرجع اليهم الناس فى أخبار العشاق وحكايات المحبين ٠

---

(٨٦) خطط المقريزى ٢ / ٢٥٣
(٨٧) احياء الغزالى ١ / ٣١
(٨٨) تفسير الكشاف للزمخشرى ٢ / ٢٤٧

فعمر بن بى ربيعه كان قصاصا ، كما يبدو فى ديوانه ، وفى مذهبه الشعرى الذى اتخذه فى قصائده (٨٩) ، وكما يتضح من الحلقات التى كان يجلس إليها يقص أخبار العذريين (٩٠) ، ومن القصص التى كان يرسلها دعاية لفنه وترويجا لشعره (٩١) · وجميل يساله عبد الملك أن يحدثه أحاديث عذرة ، فانهم أصحاب أدب وغزل ، فيقص عليه قصة عذرية (٩٢) · والفرزدق كان قصاصا فى أدبه وراوية للقصص ، وتبدو النزعة القصصية فى شعره ، وفى الحكايات التى كان يرويها كحكاية يوم الغدير التى قص فيها على نسوة حديث دارة جلجل (٩٣) ، وكحكايته عن بنت الضحاك مع عمرو (٩٤) ، وشهاب ابن حرقة السعدى يقص على الحجاج قصة عاشق يسكن الصحراء بعيدا عن الناس ، فيعفو عنه الحجاج ، وكان قد أزمع على قتله لخروجه عليه (٩٥) ، وعروة بن الزبير يسال رجلا من بنى عذرة أن يحدثه أحاديث عذرة ، لأن فيهم رقة وغزلا (٩٦) ·

---

(٨٩) أنظر : الشعر الغنائى فى الامصار الاسلامية « مكة » ص ١٧٧
(٩٠) العقد الفريد ٦ / ٤٥٦ « مطبعة دار الكتب »
(٩١) المحاسن والاضداد ص ٢٢٢
(٩٢) أخبار النساء ص ٣٤
(٩٣) الاغانى ١٩ / ٢٧ « ساسى »
(٩٤) الزهرة ص ١٦١
(٩٥) المحاسن والاضداد ص ٧١
(٩٦) أخبار النساء ص ٣٥

قصص العشـاق النثرية

لست أعنى بالقصة ذلك المعنى الذى أراده « بو » ـ السيد الأول للقصة القصيرة الحديثة كما تلقبه دائرة المعارف البريطانية ـ بصـدد حديثه عن حكايات ناثانيال هاوثورن (١٨٤٢) فقد قـال : « علينـا ألا نكتب أى عبارة ـ بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ـ منبثقة عن ميـل لم يكن موجودا فى التخطيط المبدئى ، فتقدم الفكرة كما هى مرتسـمة فى الذهن ، واضحة المعالم ، غير مهزوزة ٠٠ والقصة القصيرة كالشعر ، من حيث اننا نبتعد فيها عن الايجاز المخل ، والاستطراد الذى لاضرورة له ، وأكده بعد مرور أربعين عاما براندرماتيوس فى بحثه المشـهور عن فلسفة القصة القصيرة ، قال فى الجزء الثانى من هذا البحث « ان القصة الخليقة بأن تكون قصة شىء آخر أسمى من أن يعتبر مجرد قصة ذات حجم قصير ، القصة القصيرة الجديرة بهذا الاسم تختلف عن الرواية أساسا فى الوحدة العامة للانطباع ، بعباره دقيقة وموجزة ٠٠٠ ومن الجدير بالملاحظة أن القصة القصيرة غالبا ماتتحقق فيها الوحدات الثلاث الأساسية التى تتحقق فى الشكل المسرحى الفرنسى الكلاسيكى والذى يظهر فى فعل واحد ، فى مكان ، وزمان واحد ٠ القصة القصيرة تقتصر على بطل واحد ، وحادثة واحدة ، وانفعال واحـد أو سلسلة من الانفعالات ترتبط بموقف واحد » (١) ٠

لست أقصد هذا المعنى ، اذ أنه لم يكن معروفا في العالم عامة قبل

(١) أنظر : Encyclopeadia Britanica (short story).

القرن التاسع عشر (٢) . وانما اقصد ذلك المعنى الذى جـاء فى القواميس العربية لهـذه المـادة . وأعنى تلك الطبيعة الخلصة للقالب القصصى العربى .

ففى السان : « والقصة الخبر وهو القصص ، وقص على خبـره يقصه قصا وقصصا أورده ، والقصص الخبر المقصوص بالفتح وضـع موضع المصدر حتى صار أغلب عليه ، والقصص بكسر القاف جمع القصة التى تكتب .... وتقصص كلامه حفظه ، وتقصص الخبر تتبعه ، والقصة الامر والحديث ، واقتصصت الحديث رويته على وجهه ... والقص والبيان والقصص بالفتح الاسم ، والقاص الذى يأتى بالقصة على وجهها كانه يتتبع معانيها والفاظها .. وقص آثرهم تعقبهـا قصـا وقصـصا ، وتقصصا تتبعها بالليل ، وقيل هو تتبع الأثر أى وقت كان ...

قال الأزهرى : القص اتباع الأثر ويقال خرج فلان قصصا فى أثـر فلان وقصا وذلك اذا اقتص أثره . وقيل القاص يقص القصص لاتبـاعه خبرا بعد خبر وسوقه الكلام سوقا ... » (٣) .

ذلك هو ما يتعلق بموضوعنا من المعنى اللغوى لهـذه المـادة ، فمعناها « المتابعة » فقص آثارهم تتبعها بالليل أو فى أى وقت كان ، وتقصص الخبر تتبعه .

ولا نطلب من اللغويين أكثر من هذه المعانى العامة للكلمة ، فان مهمة أصحاب اللغة هى الاشارة الى ماتثيره هذه الكلمة من صـور ذهنية عند أصحاب اللغة ، وليس من مهمتهم التحديدات الفنية لاستعمال

---

(٢) انظر المرجع السابق . وانظر فنون الادب لتشارلتن ص ١٥١ ، ومقال الدكتور محمد مندور (الجمهورية ١٣ نوفمبر سنة ١٩٦٣) . وثورة الأدب ص ٨٧ .

(٣) مادة « قصص » ٨ / ٣٤٦

الكلمة ، فان كلمة « بديع » مثلا فى اللغة غير المعنى المراد لها عند أصحاب البلاغة ٠

واذن فمن حقنا أن نلوم أصحاب البلاغة على تجاهلهم التحديد الفنى لمعنى القصة ، وكان هناك أكثر من مناسبة تتيح لهم الحديث عن معنى القصة ، فمثلا كان يمكنهم ذلك فى أثناء شرحهم للاستعارة التمثيلية ، وأنها قد تكون بتشبيه حالة حاصلة بحكاية قد حصلت وضرب فيها مثل كان تضرب المثل « الصيف ضيعت اللبن » فى حالة تشابه حكاية المرأه مع الرجل العجوز الذى طلب منها الزواج ففضلت عليه شابا ، ثم حدث أن احتاجت اليه فى أمر فقال لها هذه الجملة التى صارت مثلا ٠

ومن حقنا أيضا أن نلوم أصحاب الكتب الأدبية ، كالجاحظ مثلا وكان ذا عقلية قصصية شعبية اذ لم يتعرض لمعنى القصة ولا لتحديدها

وهذا التجاهل فرع من القضية الكبرى وهى ازورار أصحاب البلاغة الفصحى ، وعلماء الأدب الفصيح عن هذا اللون المهم من الأدب ٠

أمر نحمده لهؤلاء المفسرين ، فقد حددوا معنى القصة ، اثناء تفسيرهم للآيات التى وردت فيها هذه الكلمة ، وهذا المعنى ملائم لاتجاههم وللغرض الذى يريده اصحاب الدين من القصة ٠

يقول الرازى رحمه الله عند تفسيره للآية « ان هذا لهو القصص الحق ٠٠ الخ » مايلى :

« والقصص هو مجموع الكلام المشتمل على مايهدى الى الدين ويرشد الى الحق ويأمر بطلب النجاة » (٤) ٠

---

(٤) التفسير الكبير ٣ / ٤٧٤

بل ويتقدم المفسرون خطوة اكثر من هذا ، فتحدثوا عن عناصر القصة ، فلا مانع لديهم من أن يكون فى القصة عناصر ليست صادقة صدقا خارجيا ، بل هى أمور خيالية يؤتى بها للتوضيح والتمثيل .

جاء فى الكشاف « فان قلت مامعنى ذكر النعاج ، قلت كان تحاكمهم فى نفسه تمثيلا ، وكلامهم تمثيلا لأن التمثيل أبلغ من التوبيخ لما ذكرنا ، وللتنبيه على أمر يستحى من كشفه عنه ، فيكنى عنه ، كما يكنى عما يستسمج الافصاح به ، وللستر على داود عليه السلام والاحتفاظ بحرمته ... الخ . فان قلت الملائكة عليهم السلام كيف صح منهم أن يخبروا عن انفسهم بما لم يلتبسوا منه بقليل ولا كثير ولاهو من شأنهم ، قلت هو تصوير للمسألة وفرض لها ، فصوروها فى أنفسهم وكانوا فى صورة الأناس كما تقول فى تصوير المسائل : زيد له اربعون شاة ، وعمرو له اربعون وأنت تشير اليها ، فخلطاها وحال عليها الحول كم يجب فيها ؟ وما لزيد وعمرو سبدو لا لبد ، وتقول أيضا فى تصويرها لى أربعون شاة ولك أربعون فخلطناها ، ومالكما من الأربعين أربعة ولا ربعها » (٥) .

فالزمخشرى يرى أن القرآن قد يلجأ الى عنصر التمثيل ، يوضح به قصصه ، ويكشف به احداثه . وكان النيسابورى اصرح فى الاشارة الى هذا العنصر ، فقد قال : « ونحن نرى ان الانسان يذكر معنى فلا يلوح كما ينبغى ، فاذا ذكر المثال اتضح وانكشف ، وذلك ان من طبع الخيال حب المحاكاة ، فاذا ذكر المعنى وحده أدركه العقل ولكن مع منازعة الخيال ، واذا ذكر معه ادركه العقل مع معاونة الخيال ، ولاشك أن الثانى يكون أكمل ، واذا كان التمثيل يفيد زيادة البيان

---

(٥) الكشاف ٣ / ٣٢٣ ـ ٣٢٤ (مطبعة مصطفى محمد بمصر ـ الطبعة الاولى سنة ١٣٥٤ هـ) .

والوضوح ، وجب ذكره فى الكتاب الذى انزل تبيانا لكل شىء » (٦) ٠

نعم ، وجب ذكر التمثيل فى الكتاب ، لان القصص القرآنى لابد وان يتحقق فيه الأثر البلاغى ، ذلك الأثر الذى يظهر الحقيقة فى ثوب من الخيال قريب الى النفوس وسريع الى القلوب ، قال الزمخشرى مشيدا بهذا الجانب من الفن « ولا ترى بابا فى علم البيان أدق ولا أرق ولا ألطف من هذا الباب ، ولا أنفع وأعون على تعاطى تأويل المشتبهات من كلام الله تعالى فى القرآن وسائر الكتب السماوية وكلام الأنبياء ، فان اكثره وعليته تخيلات قد زلت فيها الأقدام قديما وما أتى الزالون الا من قلة عنايتهم بالبحث والتنقير ، حتى يعلموا أن فى عداد العلوم الدقيقة علما لو قدروه حق قدره ، لما خفى عليهم أن العلوم كلها مفتقرة اليه وعيال عليه » (٧) ٠

ويخطو الزمخشرى – رحمه الله – خطوة أخرى فيتحدث عن أثر القصة ، وما تفعله فى نفوس النشء فيقول : « فان قلت : لم جاءت على طريق التمثيل والتعريض دون التصريح (وذلك بصدد حديثه عن تمثل الملائكة فى صورة أناس ودخولهم محراب داود عليه السلام يختصمون اليه فى أمر النعاج ويلمحون بذلك الى أمر داود مع أوريا وامرأته) قلت : لكونها أبلغ فى التوبيخ من قبل أن المتأمل اذا أداه الى الشعور بالمعرض به ، كان أوقع فى نفسه وأشد تمكنا من قلبه ، وأعظم أثرا فيه ، وأجلب لاحتشامه وحيائه ، وأدعى الى التنبه على الخطأ فيه ، من أن يبادره صريحا ، مع مراعاة حسن الأدب بترك المجاهرة ألا ترى الى الحكماء ، كيف أوصوا فى سياسة الولد اذا وجدت منه هنة منكرة ، أن يعرض له بانكارها عليه ولا يصرح ، وأن تحكى له حكاية ملاحظة لحاله ، اذا تأملها استسمج حال نفسه ، وذلك أزجر له ، لأنه ينصب ذلك

---

(٦) غرائب القرآن ١ / ١٩٩ « مطبعة بولاق سنة ١٣٢٣ هـ »
(٧) الكشاف ٢ / ٢٧٠ (مطبعة بولاق سنة ١٣٢٣ هـ) ٠

مثـالا لحـاله ، ومقياسـا لشأنه ، فيتصـور ماوجـد فيه بصورة مكشوفة مع أنه صون لما بين الوالد والولد من حجاب الحشمة » (٨) .

كنا نود أن يتلقف أصحاب البلاغة هذه التلميحات ، فتدفعهم الى البحث عن القصة وعناصرها التى تكون لهـا الجمال الفنى الرائـع ، ولكنهم وقفوا عند هذا ، وكأن الأدب لا يعرف من أنواع القصة الا القصة الدينية ، وكأن المفسرين هم المسئولون فقط عن هذه القصص .

وغلبة المعنى الدينى على القصص نلمحه أيضا فى المعاجم العربية ، فلو وفقها الله وأرادت أن تتوسع فى الحديث عن القصص ، فانها تتكلم عن القصص الدينية ، جاء فى اللسان « وفى الحديث لا يقص الا أمير أو مأمور أو مختال » أى لاينبغى ذلك الا لأمير يعظ الناس بما مضى ليعتبروا ، واما مأمور بذلك يكون حكمه حكم الأمير ولا يقص مكتسبا ، أو يكون القاص مختالا يفعل ذلك تكبرا على الناس ، أو مرائيا يرائى الناس بقوله وعمله ، لايكون وعظه وكلامه حقيقة . وقيل أراد الخطبة ، لأن الأمراء كانوا يلونها فى الأول ، ويعظون الناس فيها ، ويقصـون عليهم أخبار الأمم السالفة . وفى الحديث القاص ينتظر المقت لمـا يعرض فى قصصه من الزيادة والنقصان ، ومنه الحديث أن بنى اسرائيل لما قصوا هلكوا ، وفى رواية لما هلكوا قصوا » (٩) ...

ويخيل للقارىء فى كتب المفسرين ، وفى المعاجم ، وفى كتب الأدب ، أن كلمة « قصة » قد تخصصت بعد نزول القرآن ، فبعد أن كانت عامة تطلق ــ فيما تطلق ــ « على الأمر والتى تكتب » كما يقول صاحب القاموس (١٠) ، أصبحت ترادف كلمة « وعظ » ، أى الأمـر الذى يلين قلوب الناس بما يقصه عليهم من أخبار الأمم السابقة ، حتى

---

(٨) الكشاف ٣ / ٣٢٢ (طبع مصطفى محمد سنة ١٣٥٤) .
(٩) مادة « قصص »
(١٠) القاموس المحيط مادة « قصص »

أن الزمخشرى يجعل من المعانى الحقيقية لهذه المادة ، ذلك المعـــنى الذى تستطيع أن تلمحه من قوله : « والقصاص يقصون على النـــاس ما يرق قلوبهم » (١١) .

على أى حال عرف العصر الأموى ألوانا مختلفة من القصص ، وقد وردت هذه الكلمة فى أشعارهم وفى أخبار العشاق منهم .

فمن أشعارهم قول هدبة بن خشرم :

فقصوا عليــه ذنبنا وتجـــاوزوا   ذنوبهم عنــد القصـــيصة والأثر

أى عند القصة وللحكاية (١٢) .

ومن أخبار عشاقهم تلك القصة التى قصتها بثينة وأنها بينا تسير فى هودج لها اذا بهاتف ينشد شعر جميل ، فجعلت تنادى المنشـــد ما وراءك ؟ وهى تحسب أن جميلا قضى نحبه ، فلم يجبها ثم أخـــذ ينشد مرة ثانية ، وأخذت هى تساله ،ولكنه لم يجبها ، ولما أنشد مرة ثالثه اقبلت نحو الصوت ، فاذا شيخ كانه من رجال الحى وأخبرهـــا بموت جميل وتكمل بثينة القصة فتقول « وصرخت صرخة آذيت منهـــا الحى ، وسقطت بوجهى فاغمى على ، فكان صوتى لم يسمعه أحد ، فبقيت سائر ليلتى ، ثم افقت عنـــد طلـــوع الفجر ، وأهلى يطلبوننى فلا يقفون على موضعى ، ورفعت صوتى بالعويل والبكاء ، ورجعت الى مكانى ، وقال لى اهلى : ما خبرك وما شانك ؟ فقصصت عليهم القصة فقالوا : يرحم الله جميلا » (١٣) ...

وقد كثر استعمال هذه المادة « قصة » ، وخصوصا بعد نزول القرآن

---

(١١) أساس البلاغة مادة « قصص »
(١٢) أساس البلاغة مادة « قصص »
(١٣) الاغانى ٨ / ٣٠٢ (دار الكتب)

ولجوئه الى القصص كوسيلة للتاثير على القلوب ، وقد استخدم القرآن هذه المادة فى آياته أكثر من سبع وعشرين مرة (١٤) .

فاستخدام هذه المادة فى القرآن ، وورودها فى نصوص أموية جعلانى أفضلها عنوانا للرسالة أكثر من غيرها من الألفاظ الأخرى فقلت « قصص العشاق » ولم أقل مثلا : حكايات العشاق ، أو أخبارهم أو أحاديثهم ، أو خرافاتهم ، أو سمرهم .

ومن ناحية ثانية ، فان هذه الألفاظ الأخرى غير مناسبة ـ مناسبة كلمه القصة ـ لاطلاقها على هذا النوع من القصص ، فان « السمر » يعنى ـ فيما يعنى ـ الليل وحديثه (١٥) ، والأسمار تدل بصفة خاصة على الأحاديث . والقصص التى يسمر بها الناس فى حياة الصحراء (١٦) .

أما الخرافة فانها وان كان مصدرها أن رجلا من عذرة ـ القبيلة التى اشتهر فيها العشاق الذين نحن بصددهم ـ استهوته الجن فكان يحدث بما رأى ، فكذبوه وقالوا : حديث خرافه (١٧) ، فمع أن مصدرها رجل من عذرة لكنها تطلق على « حديث مستملح كذب (١٨) » ، ثم تطور مدلولها فأصبح لا يدل الا على الأساطير المستحيلة ، اذ قوبلت بغيرها من الحكايات التى يقبلها العقل ، وان كانت من نسج الخيال (١٩) .

---

(١٤) المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم مادة « قصص »
(١٥) القاموس مادة « سمر »
(١٦) دائرة المعارف الاسلامية مادة « الحكاية » .
(١٧) القاموس مادة « خرف » .
(١٨) القاموس مادة « خرف »
(١٩) دائرة المعارف الاسلامية مادة « الحكاية »

أما الخبر والحديث فيطلقان فى المعاجم على المعنى العام لهاتين المادتين ، فالحديث هو الخبر (٢٠) وعن ابن سيدة أن الخبر هو النبأ (٢١) ، ثم أصبح لهاتين الكلمتين معنى خاص ، وهو اصطلاح الأصوليين اذ يعنى ما ينسب الى النبى عليه الصلاة والسلام من قول أو فعل أو تقرير (٢٢) .

فيستحسن – اذن – ترك هاتين المادتين للمعنى الاصطلاحى الذى يسرع الى الذهن بمجرد التلفظ بهما ، ويبحث عن مادة اليق بالفن وأدخل فيه .

وأما كلمة « حكاية » فلم تستعمل فى « اللسان »بمعنى القصة ، فمما جاء فيه بصدد الحديث عن هذه المادة : « الحكاية كقولك حكيت فلانا وحاكيته ، فعلت مثل فعله ، أو قلت مثل قوله سواء لم أجاوزه ... والمحاكاة المشابهة ، تقول فلان يحكى الشمس ويحاكيها بمعنى » (٢٣) وتلخص دائرة المعارف الاسلامية ، المعانى التى كانت تطلق على الحكاية فى القرون الأربعة الأولى ، فتقول : انها أولا تأتى بمعنى المحاكاة ، رغبة فى التسرية ، والحاكية المحترف هو الذى يقلد أيضا ثم ترد بمعنى رواية القول ، فنقول « حكيت عنه الحديث حكاية » . وقد تدل على مجرد المشابهة كما لو كان شىء يحاكى آخر لشبه بينهما (٢٤) » واذا صح ما جاء فى هذه الدائرة من أن الحكاية لم يكن من معانيها القصة ، فى

---

(٢٠) لسان العرب مادة « حدث »

(٢١) المرجع السابق والمادة السابقة

(٢٢) المرجع السابق مادة « خبر » ، انظر أيضا دائرة المعارف الاسلامية « حديث » فقد جاء فيها « ثم أصبح لها معنى خاص هو ماورد عن النبى وصحابته من قول أو فعل » .

(٢٣) لسان العرب ، مادة « حكى » .

(٢٤) دائرة المعارف الاسلامية « الحكاية » .

القرون الأربعة الأولى على الأقل ، فان الرازى حين يقول . « وانما سميت الحكاية قصة لأن الذى يقص الحديث يذكر تلك القصة شيئا فشيئا (٢٥) » يجعل الاخبار التى تروى عن الأمم السالفة حكايات ، ثم أطلق عليها لفظ « قصة » لأن الحكايات يتبع بعضها بعضا ، مع أن العكس هو الصحيح ، اذ أن تلك الاخبار يسميها القرآن «قصصا » ، ثم أطلق على تلك القصص - فى وقت متأخر ، يحدده بعضهم بعصر الحريرى (٢٦) - حكايات ، لأن الذى يقص القصص - على ما أعتقد - يحاول أن يحاكى فى قوله الاصل الذى وقعت فيه ، وهذا التعليل يصدق ان كان للحكاية أصل تحاول أن تقلده ، أما اذا كانت بنت القريحة ، فاننى أعتقد أن لفظ الحكاية أطلق على القصة التى لها أصل ، ثم أصبح تدخل فى مدلوله - من باب الغلبة - القصة التى لا أصل لها .

وفذلكة الموضوع أن الكلمات خبر وحديث وحكاية وقصة ، تفيد معنى واحدا ، ففى تزيين الاسواق عقد عنوانا « أخبار المجنون وصاحبته ليلى (٢٧) » ، ويقول فى اثناء هذه الأخبار « وسيجىء ذكر ما رأى له من الأشعار أو رده آخر القصة » (٢٨) . وفى كتاب « قصص الأنبياء » أورد الكسائى كل قصة تحت عنوان « حديث » (٢٩) ، وابن المقفع

---

(٢٥) التفسير الكبير ٥ / ١٠١ (المطبعة الخيرية بجمالية مصر سنة ١٣٠٨ هـ) .

(٢٦) دائرة المعارف الاسلامية « حكاية » . والواقع أن هناك نصوصا تثبت أن الحكاية تعنى القصة فى وقت سابق على الوقت الذى حددته دائرة المعارف ، ويرجع الى ما قبل منتصف القرن الثانى الهجرى ففى كليلة ودمنة ، وردت هذه العبارة « وحكى أن ربعة من العلماء ضمهم مجلس ملك » (ص ٢٥) ، وعلى أى حال فان اطلاق كلمة « قصة » على أخبار الامم السالفة أسبق من اطلاق كلمة « حكاية » .

(٢٧) تزيين الاسواق ١ / ٦٢

(٢٨) المرجع السابق ١ / ٧٥

(٢٩) مثلا ص ١٢٨ (حديث ابراهيم عليه السلام) .

يستعمل كلمة « حكى » لما اورده من احدى القصص (٣٠) ٠

ولكن مع ذلك أوثر كلمة « قصة » على غيرها ، لأنها اقرب الى محيط الادب ، ولأنها كانت شائعة فى العصر الأموى ٠ وقد وردت فى نصوص أدبية ودينية وأخبار تاريخية ، ولأن كلمة خبر أو حديث ، غلب عليهما المصطلح الدينى ، ولأن كلمة « حكاية » لم تستعمل بمعنى القصة فى العصر الاموى ، أو على الأقل لم تشتهر بهذا المعنى ٠

على أننى أعود فأكرر أننى لا أعنى بالقصة ، ذلك المعنى الذى قال به « بو » اذ لا أطالب الاقدمين بشىء قد اخترعه المحدثون ، وخاصة أن فن القصة فن سريع النمو ، وانه لتشتنا تلك المذاهب السريعة التلاحق والكثيرة التشعب ، فمن كلاسيكية ، الى رومانتيكية ، الى واقعية ، الى عبثية ... الخ ٠ وكل مذهب من هذه المذاهب وغيرها له فهم خـــاص للقصة ، يتمشى مع نظرته وبنائه الفلسفى ٠

وانما اعنى معنى يتفق وطبيعة القصة العربية ٠ وسيتضح ــ فيما بعد حين اتكلم عن معالم قصص العشق ــ المعنى الذى يتفق وطبيعة هـــذه القصص ٠

أما ما أعنيه بكلمة « عشق » فهو المعنى العام الذى أرادته لهـــا القواميس ، العشق والمعشق كمقعد عجب المحب بمحبوبه ، أو افراط الحب ، ويكون فى عفـاف وفى دعـارة ، أو عمى الحس عن ادراك عيوبه ، أو مرض وسواس يجلبه الى نفسه لتسليط فكره على استحسان بعض الصور » (٣١) ٠

فاحمد الله على أن هـــذه الكلمة تتسـع لكل انـواع القصص التى

---

(٣٠) كليلة ودمنة ص ٢٥

(٣١) القاموس المحيط مادة (عشق) ٠

سأتحدث عنها فى هذا العصر ، فهى تتسع لقصص الحضر التى فيها عجب بمحاسن المحبوبة ، وهى لا تضيق بقصص الدعارة والتبذل ، وهى تشمل قصص البادية التى فى معظمها عفة وزهد ، بل وتمتد الى الحب المفرط الذى هو أشبه بمرض يستولى على صاحبه فينسيه كل شىء .

على أن كلمة « عشق » غلبت على ذلك النوع من الحب الذى فيه افراط وقوة والذى يكثر فى البوادى .

وجاء فى لسان العرب . « فالعشق فرط الحب وقيل هو الحب عجب المحب بالمحبوب ... وسمى العاشق عاشقا لأنه يذبل من شدة الهوى كما تذبل العشقة اذا قطعت ، والعشقة شجرة تخضر ثم تدق وتصفر » (٣٢) .

وكلمة « حب » غلبت على ذلك النوع من القصص الذى يكثر فى الحواضر « وسئل أبو العباس أحمد بن يحيى عن الحب والعشق أيهما أحمد ؟ فقال : الحب ، لأن العشق فيه افراط » (٣٣) . وربما هذا ما جعل ابن داود يجعل العشق فى مرتبة أقوى من مرتبة الحب ، فالمحبة تقوى وتصير خلة ، ثم تقوى الخلة فتوجب الهوى ، ثم يقوى الهوى فيصير عشقا (٣٤) .

بقيت كلمة أخيرة ، اذ أن دراستى عن « قصص العشاق » ستوسع المعنى الضيق الذى تصوره الباحثون لأنواع النثر فى العصر الأموى ، فهم فى دراستهم وفى كتبهم يتحدثون عن الخطابة والخطباء ، وعن

---

(٣٢) لسان العرب مادة (عشق) قال الجاحظ « كل عشق يسمى حبا وليس كل حب يسمى عشقا ، لأن العشق اسم لما فضل عن المحبة كما أن السرف اسم لما جاوز الجود ... » (ذم الهوى ص ٢٩٥) .

(٣٣) لسان العرب مادة « عشق » .

(٣٤) الزهرة ٣.

الرسائل والكتاب ، وغير ذلك من أنواع النثر التى فيها تأنق وصناعة « وارستقراطية » ٠

وفاتهم أن هناك نوعا من النثر فيه شعبية وديمقراطية ، كان يجرى على السنة العامة فى يسر وسلاسة من التأنق والصناعة ٠

وربما كان هذا النوع من النثر أصدق دلالة على نفوس منشيئه ومتلقيه ، من هذا النوع الذى نشأ - معظمه - فى بلاط الخلفاء ، وفوق اخشاب المنابر ٠

وبملاحظة هذا النوع من النثر لا نبيح لأنفسنا تلك النظرة الضيقة، التى نظرها مثلا الدكتور عبد الرازق حميده اذ قال عن النثر فى العصر الأموى «وأما النثر فكان ساذجا ، وكان لخدمة السياسة والادارة ، وكانت الكتابة العربية ضيقة الميدان لقلة الكتاب ، واقتصار الموضوعات على الناحية السياسية ، ووضع النظم التى يجب أن يسير عليها الولاة والامراء ٠ ولم يكن ظهر فى ذلك الوقت من ينشىء الأدب لذات الأدب » (٣٥) ٠٠٠

والحق أننا فى حاجة الى تخطيط جيد لدراسة النثر فى ادبنا العربى ، يتسم بالنظرة الكلية التى تلتفت الى ادب الشعب بجانب ادب الخاصة ، ويتخلص من تلك الدائرة الضيقة التى حصر فيها الباحثون انفسهم ، الأمر الذى دعا البعض الى اتهام الأدب العربى بالعقم والتكلف ٠

وهذا الاهمال لذلك الجانب الحيوى - من النقاد والمثقفين - أدى الى ان هذه القصص الشعبية ان صح هذا الوصف ، أخذت تنمو فى بطء وبعد عن الرعاية والتخطيط والدراسة الرائدة ٠

---

(٣٥) قصص الحيوان فى الادب العربى، ص ١٢٢

الباب الأول

نشأة قصص العشاق

ربما كان من أصعب الأشياء على أن أتبين نشأة هذا النـوع من القصص .

فهذه القصص ذات صبغة شعبية ، وليس من السهل أن أعرف متى انتشرت بين الناس ؟ أو من أين عرفها الناس ؟ وكيف جاءوا بها ؟ .

ثم انها تشتبك مع البواعث الانسانية عند كل الأمم ، ففى كل أمم الأرض نسمع عن قصص حب وحكايات عشق . ومادام الجنس البشرى واحدا ، والغرائز والعواطف واحدة ، فليس بعجيب أن نسمع عن أمثال حكايات روميو وجوليت ، وليلى وقيس ، وحسن ونعيمه ، عند كل الطبقات وبين كل الناس .

ثم ان الفرس ، وهم أكثر الناس التصاقا بالعرب بعد الاســـلام حتى انهم استطاعوا فى أوائل القرن الثانى أن يقيموا خـــلافة عباسية ظاهرها عربى وباطنهـــا فارسى ـ هـؤلاء الفرس ، قـد فقدت لغتهم الساسانية ، فلم يصلنا منها الا نقوش وآثار ضئيلة ، وهى اللغة القديمة ، قبل أن يتخذ الفرس لغتهم الجديدة التى نشأت فى حضانة الاســلام ، واستعارت الحروف العربية ، فقـدت هـذه اللغـة أو معظمها ، وهـــذا زاد الأمر صعوبة ، فى معرفة مصادر قصص العشق العربية .

على أننى حاولت جهدى أن أصل الى رأى فى هذا الموضوع .

فتتبعت ـ أولا ـ قصص العشاق من أين صدرت ، وكيف نشأت ؟ .

واختبرت ـ ثانيا ـ العوامل التى أدت الى ازدهارها فى العصر الأموى .

فكان هذان الفصلان المكونين للباب الأول .

الفصل الأول

مصادر قصص العشق

علاقة العرب بغيرهم قبل الاسلام

الجزيرة العربية تحيط بها مياه وبحار من جوانب ثلاث ، فمن الشرق الخليج العربى ونهر الفرات ، ومن الجنوب البحر العربى ومن الغرب البحر الأحمر ، ولو أتيح لتلك البلاد أن تحيط بها مياه من الشمال ، لكان اطلاق كلمة « جزيرة (١) » على هذه البلاد حقيقيا ، ولما احتجنا الى بحث عن تفسير ، أو لجوء الى مجاز نبرر به هذا اللقب الشائع ٠

وهذه المياه وراءها عمران وحضارات مختلفة ، فوراء البحر العربى حضارة الهند ومايجاورها ، وحول الخليج العربى ووادى النهرين تزدهر حضارة الفرس ، وغربى البحر الأحمر ، تقبع حضارة الفراعنة شمالا ، وحضارة الحبش جنوبا ، أما فى الشام ـ شمالا ـ فتنتشر حضارة الاغريق والرومان ٠

وبحكم امتداد العمران وانتشاره ، لابد أن تتطلع كل حضارة الى أختها ولابد أن تتبادل فيما بينها المنافع ، والثقافات ٠ فحضارة العراق وأهل فارس ، تتشوف الى ماعند الشام ومصر ، وتقترض وتقرض مايجاورها ، بل ان الهند تلقى نظرة بعيدة تمتد حتى الشام ومصر ٠

---

(١) صفة جزيرة العرب للهمدانى ص ٤٧ ٠

وحكمت الظروف على الجزيرة العربية أن تقوم بدور الوسيط بين كثير من هذه الحضارات ، فكانت — فى كثير من الأحيان — حلقة اتصال بين حوض بحر الروم ، وحوض المحيط الهندى « وساعد على ذلك أن طريق الموصل الى الشام كان مقفلا ، بسبب الحروب المستمرة بين الفرس والروم ، وأيضا فان الملاحة فى البحر الأحمر ضعفت بسبب كثرة القراصنة فيه ، فلم تعد هناك وسيلة للصلة بين الشمال والجنوب ، ونقل توابل الهند وعروض اليمن ، سوى هذه القوافل التى امسكت بزمامها (٢) ».

وكان لابد ان تتساقط اشياء من هذه الحضارات فى بلاد العرب وتؤثر فيها .

ولم يكتف العرب بصفة الوسيط بين هذه الحضارات ، تعرف حضارة بأخرى ، ثم تكتفى بالفتات المتساقط ، بل كانوا يحتكون بهذه الحضارات ، ينقلون منها لأنفسهم فاتصلوا بحضارة الفرس ، واحتكوا بحضارة الاغريق ، واتصلوا بأسباب من الديانتين اليهودية والنصرانية .

وسأتكلم — بايجاز — عن علاقة العرب بغيرهم ، فى الجوانب التى تهمنى فى هذا البحث .

الغنـــاء

سأذكر — فيما بعد — انه كان لانتشار الغناء أثره الواضح فى ذيوع قصص العشق ، التى كان بعضها يحاك تفسيرا لأبيات غناها أحد المغنين فشاعت وذاعت ، واختلقت حولها القصص والحكايات .

وقد كان للفرس أثرهم الذى لايخفى على الغناء فى العصر الجاهلى فالتاريخ يحدثنا أن الحارث بن كلدة ، قد تعلم العزف على العود

---

(٢) التطور والتجديد فى الشعر الأموى ص ١ .

بفارس واليمن ، ثم قدم مكة وعلم أهلهـا (٣) • ويحدثنـا أيضـا أن بشر بن عمرو ، حين هرب من النعمان ، كانت معه قينتان ، تسـمى احداهما هريرة والأخرى خليدة (٤) •

وأمراء الحيرة يتشبهون بملوك فارس فى مجالس أنسهم وانشادهم فالحارث بن حلزة أنشد عمرو بن هند من وراء سبعة ستور (٥) • وعادة احتجاب الملوك عن الندماء عادة فارسية ، اذ « كانت ملوك الأعـــاجم كلهـا من لـدن آردشـير بن بابـك الى يزدجـر تحتجب عن الندمـاء بستارة » (٦) •

وكان للروم أيضا أثرهم فى اشاعة بعض مظاهر الترف والغناء بين العرب الملتصقين بهم • فمثلا يصف حسان بن ثابت مجلسا من مجالس الغناء عند جبلة بن الأيهم ، وصفا يدل على الترف الذى اقتبسه العرب من الروم ، ويقول حسان انـه سـمع عشر قيـان يغنين ، منهن خمس روميات يغنين بالبرابط ، وأخذ يصف مجلس جبلة ، اذا جلس للشرب وصفا يدل على الترف والبذخ (٧) •

وقد كثرت القيان المحترفات بالغناء فى العصر الجاهلى (٨) •• وقد كن غير عربيـات ، لأن صـناعة الغنـاء « من عمل الامــاء دون الحرائر » (٩) ، ولأن العربيات « اما مكفولات الرزق برجالهن ، وامـا كافيات رزقهن بأعمال غير الغناء ، وما من شك فى أن الغناء يقتضى من

---

(٣) عيون الابناء ٣ / ١٣
(٤) الاغانى ٨ / ٧٧ « ساسى »
(٥) العمدة ١ / ٢١
(٦) التاج ص ٢٨
(٧) لاغانى ١٦ / ١٤ « ساسى »
(٨) المرأة فى الشعر الجاهلى ص ٤٤٣
(٩) لسان العرب « قين »

المرأة المغنية أن تتزين للسامعين ، وأن تكون مناط أنظارهم ، ومجمع اشتهائهم ، كما تحدث الشعراء بذلك ، وما يرضى رجل عربى أن تكون ملتقى الأنظار والشهوات امـرأة تربطهـا به صلة · ولاتجرؤ عربية أن تشذ عن بنات جنسها ، فتمثل هذا الوضع المخصص للاماء » (١٠) ·

وكانت القيان جميلات ، جذابات ، ماهرات · وانظر الى طرفة يصف قينة ، أنها طيعة ، تلبى رغبات السامعين ، وأنها جميلة ، جمالا يبدو فى تفتر عينيها وتكسر نظراتها ، فيقول :

ندامای بیض کالنجوم وقينــة تروح علينا بين برد ومجســـد

رحيب قطاب الجيب منها رفيقـة بجس الندامى ، بضـة المتجرد

اذا نحن قلنـا اسمعينا انبرت لنا على رسلها ، مطروفة لم تشـدد

اذا رجعتفى صوتها خلت صوتها تجاوب أظآر على ربع ردى(١١)

فلا غرو اذن أن يعشقهن بعض الشعراء ، ويعلل الجاحظ لقوة أثر القيان فيقول « ولأنهن يجمعن للانسان من اللذات مالا يجتمع فى شىءعلى وجه الأرض ، واللذات كلها انما تكون بالحواس ··· فاذا جاء باب القيان اشترك فيه ثلاث من الحواس ، وصار القلب لها رابعا ، فللعين النظر الى القينة ، وللسمع منها حظ الذى لا مئونة عليه ، ولا تطرب آلتــه الا اليه ، وللحس فيها الشهوة ، والحواس كلها رواء للقلب ، وشـــهود عنده » ··· (١٢)

وفى كتب الأقدمين أخبار عن حب الشعراء للقيان والتغزل بهن ،

---

(١٠) المرأة فى الشعر الجاهلى ص ٤٤٥
(١١) شرح ديوان طرفة ص ٢٨
(١٢) رسالة القيان ص ٦٩

والأعشى يتغزل فى هريرة ، وله فيها شعر ، وذكر أبو الفرج أبياتا له يتغنى بها ، منها :

هريـرة ودعهـــا ، وان لام لائـــم
غداة غد ، أم أنت للبين مزاحم (١٣)

وهريرة هذه هى التى قدم بها بشر بن عمرو من الحيرة (١٤) .

القصص والأسـاطير :

(أ) كان للفرس أثر فى اشاعة قصص وأساطير بين العرب .

فابن هشام يذكر أن النضر بن الحارث كان من شياطين قريش ، وممن يؤذون النبى عليه الصلاة والسلام ، وكان قد شخص الى الحيرة ، وتعلم أحاديث ملوك الفرس ، وقصة رستم واسفنديار ، فكان الرســول اذا جلس مجلسا ، وذكر فيه بالله ، وحذر قومه ما أصـــاب الطغـاة من قبلهم ، خلفه النضر فى مجلسه اذا قام ، وقال : يا معشر قريش ، أنا والله أحسن منه حديثا ، فهلموا الى ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس وعن رستم وأسفنديار ، وهو الذى قال « سأنزل مثل ما أنزل الله » ، وفيـه نزلت ثمانى آيات من القرآن الكريم ، منها قوله تعالى : « اذا تتلى عليه آياتنا ، قال أساطير الأولين » (١٥) .

وقصة رستم واسفنديار التى كان يشيعها النضر بين قريش قصـة قديمة ذكرها الفردوسى فى الشاهنامة ، وتدور حول الحرب التى نشبت بين رسـتم واسفنديـــار وقـــد دارت بينهمـا طويــلا وانتهت بقتـل اسفنديار (١٦) .

---

(١٣) الاغانى ٩ / ١٢٧ « دار الكتب »
(١٤) الأغانى ٨ / ٧٧ « ساسى »
(١٥) السيرة ١ / ٣٢٠ وتفسير القاسمى ٨ / ٧٩٨٤ والبيضاوى ٩ / ٢٣٩
(١٦) الشاهنامة ص ٣٥١ وتيارات مذهبية ص ٦١ .

وقد كان لعرب الحيرة وما جاورها ، ولامرائهم وتاريخهم ، أثر كبير فى اشاعة بعض الحكايات مثل أحاديث جذيمة وأساطير الزباء ، والخورنق وسنمار بانى الخورنق ، والأمثال التى ضربت حوله ، ويومى النعمان ٠

وقد ذكر الدكتور أحمد أمين أن قصة شريك مع المنذر ، التى تروى أن المنذر أتاهفى يوم بؤسه ، رجل يقاله حنظلة ، فأرادقتله ، فطلب منه أن يؤجله سنة ، فأجله بعد أن كفله شريك بن عمرو ٠ فلما كان من القابل جلس فى مجلسه ينتظر حنظلة ، فلم يأت ، فامر بشريك ، فقرب ليقتله ، فلم يشعروا الا براكب قد طلع عليهم ، فتبينوه فاذا هو حنظلة فلما رآه المنذر عجب من وفائهما وأبطل تلك السنة ـ ذكر الدكتور أحمد أمين أن لتلك القصة أصلا يونانيا معروفا (١٧) ولكنه لم يذكر هذا الأصل المعروف ، ولا المرجع الذى يمكن أن نستقيه منه مع أن هذه القصة قريبة الى الخلق العربى الذى يمجد الوفاء والمروءة (١٨) ٠

وتذكر كتب الأدب أخبارا عن حب بعض الشعراء ٠ لنساء ملوك الحيرة فالنابغة كان يهوى المتجردة زوج النعمان بن المنذر ، وكانت أكمل أهل عصرها جمالا ، فبلغ النعمان ، فهم بقتله ولكنه هرب الى الشام (١٩) ٠ وكان بينها وبين المنخل عبث لا حد له ، وقد دخل عليهما النعمان مرة فوجدها معه ، وقد ألبسته أحد خلخاليها وشدت رجله الى رجلها (٢٠) ٠ ويبدو أنه كان هناك تنافس بين النابغة

---

(١٧) فجر الاسلام ص ٨٠

(١٨) عقد الدكتور الحوفى بابا عن « الحياة الخلقية من الشعر » وذكر فيه صفات العربى الخلقية ومنها الوفاء والايمان بالكلمة التى ينطقها (الحياة العربية ص ٢٦٥) ٠

(١٩) المحاسن والأضداد ص ١٩٠

(٢٠) تزيين الاسواق ١ ـ ١٧٠

والمنخل على حب المتجردة ، فقد قيل انهما كانا جالسين يوما عند النعمان ، وكان دميما أبرش قبيح المنظر ، وكان المنخل من أجمل العرب ، ويحدث العرب أن ابني النعمان من المنخل . فقال النعمان : يا ابا أمامة ، صف المتجردة فى شعرك ، فقال قصيدة وصفها فيها فلحقت المنخل من ذلك غيرة ، وقال النعمان ما يستطيع هذا الا من جرب ، فوقر ذلك فى نفسه (٢١) .

وكانت أخبار ملوك الحيرة وتاريخ سنيهم مودعة فى بيع الحيرة ، وقد قال هشام بن محمد الكلبى : « كنت استخرج أخبار العرب ، وانساب آل نصر ابن ربيعة ، ومبالغ اعمار من عمل منهم ، وتاريخ سنيهم من بيع الحيرة ، وفيها ملكهم وأمورهم كلها (٢٢) .

(ب) ومن ناحية أخرى ، امتلأ الأدب العربى بالقصص والاساطير وحكايات الحب والغرام ، التى قيلت حول الغساسنة وملوك الروم ، كالذى ذكروا من حكاية امرىء القيس ، وايداعه مائة درع عند السموءل ، فطلبها ملك من ملوك غسان ، فابى أن يعطيها اياه (٢٣) . أو كقصة حب امرىء القيس لبنت قيصر ، فحين خرج الى قيصر ، يساله النصرة على من قتل اباه « ارسل الى بنت قيصر ، وأراد أن يختدعها عن نفسها ، وبلغ ذلك قيصرا ، واراد أن يقتله فتذمم من ذلك ، وأمر بقميص ، فغمس فى السم ، وقال لامرىء القيس : البس هذا القميص ، فانى احببت أن اوثرك به على نفسى لحسنه وبهائه ، فعمل السم فى جسمه ، وكثرت فيه الجروح ، فمات منها فسمى ذا القروح » (٢٤) .

---

(٢١) الاغانى ٩ / ١٥٩ « ساسى »
(٢٢) تاريخ الطبرى ٢ ــ ٣٧ « المطبعة الحسينية بالقاهرة »
(٢٣) الاغانى ٩ ــ ٩٦ « دار الكتب »
(٢٤) المحاسن والاضداد ص ١٦٠ وتزيين الاسواق ١ ــ ٣٨

(جـ) وكانت الأديار المنتشرة حول الجزيرة العربية ، منبعا لكثير من قصص الحب والعشق .

والعرب عرفوا كثيرا من هذه الأديار ، منها دير هنـد الصغرى بالحيرة (٢٥) ودير هند الكبرى بالحيرة أيضا (٢٦) ، وديرلبى الى جانب الفرات (٢٧) ، ودير اللج بالحيرة (٢٨) ، ودير « أبو حنظلة الطائى » ، وكان قد تنسك فى الجاهلية وبنى هذا الدير بالحيرة (٢٩) . وهناك بالقرب من الموصل دير العذارى وكانت به نساء عذارى قد ترهبن وأقمن للعبادة . وقد بلغ بعض الملوك أن فيه نساء جميلات ، فـامر بحملهن اليه ، فدعون عليه فطرقه طارق أتلفه (٣٠) .

وكان الدير مبعث حب وغزل ، فقد كانت الفتيات يشخصن اليه مزدانات ، وكان الحبيب يحل به كالغزال الجميل ، حلو النغم اغن ، قال الشاعر :

سقى الله دير اللج غيثا ، فـانه ... على بعـده منى الى حبيب
يهيج ذكـراه غـزال يحـله ... اغن سـحور المقـلتين ربيب
اذا رجع الانجيل واهتز مائـدا ... تذكر محـزون وحـن غريب
وهاج لقلبى عند ترجيع صـوته ... بلابـل أسـقام بـه ووجيب (٣١)

---

(٢٥) معجم البلدان ٢ ـ ٧٠٧
(٢٦) معجم البلدان ٢ ـ ٧٠٧
(٢٧) المرجع السابق ٢ ـ ٦٩٠
(٢٨) معجم البلدان ٢ ـ ٦٩١
(٢٩) المرجع السابق ٢ ـ ٦٥٥
(٣٠) المرجع السابق ٢ ـ ٦٧٩
(٣١) معجم البلدان ٣ / ٦٩١

ويشكو مرار الفقعسى من أرقه بسبب حبيبته التى فى الدير ، فيقول :

أحقا يا جريــر الرهـن منكــم   فلا أصفاد منــك ولا قفــولا
تصيح اذا هجعــت بديــر توما   حمامات يزدن الليل طولا (٣٢)

وهناك قصص غرامية كانت الأديار مسرحها ، ومنها قصة لعب الفتى الأول فيها عدى بن زيد وقد مثل دورين ، دور العاشق الولهان من ناحية ، ودور المحبوب المرغوب فيه لحسنه وجماله من ناحيــة ثانية ، ومثل الدور الأول مع هند بنت النعمان ، ومثل الدور الثانى مع أمة لهند ، فقد قدم عدى بن زيد بهدية من كسرى الى المنذر ، فرأى هندا تدخل البيعة فى خميس الفصح فهويها ، وكانت هناك أمة لهند تحبه ، وهو لا يدرى ، فلما عرفت حب عدى لهند ، احتالت لهمــا على الاجتماع ، على أن تقضى حاجة مع عدى ، ثم خطبها الى النعمان فأجابه وزوجه ، ومكثت عنده حتى قتله النعمان ، فترهبت وحبســت نفسها فى الدير المعروف بدير هند (٣٣) .

(د) وعلى أرض الجزيرة العربية كان هناك تنافس بين الديانتين اليهودية والنصرانية ... يطلعنا القرآن على بعض مظاهره ، كحركـة اضطهاد للنصارى فى نجران التى أشارت اليها سورة البروج .

ولم يقتصر التنافس على تلك الحركات الاضطهادية ، بل تعداه الى تنافس من نوع خفى ، فكان كل منهما يروج لثقافته ، فاليهـــود يتحدثون عما فى التوراة من قصص ، فتكلموا عن قصص موسى وأخيه ، وعن أخبار داود وسليمان وعن هــاروت وماروت ... الـخ . ويتحدث النصارى عن الجانب القصصى الذى يهمهم فذكروا قصــة عيسى وأمه ، والمسيح وصلبه ... الخ .

---

(٣٢) المرجع السابق ٦ / ٦٥٠
(٣٣) الأغانى ٢ / ٣٠ « ساسى »

وشاعت هذه القصص بين العرب ، فكانوا اذا أرادوا أن يرضوا حاجتهم لجأوا الى أهل الكتاب ، فيسألونهم عما يريدون ، فيخبرهم هؤلاء ، ولايتحرون الدقة التاريخية فى أخبارهم . يقول ابن خلدون : « ... والسبب فى ذلك أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم ، وانما غلبت عليهم البداوة والأمية واذا تشوقوا الى معرفة شىء مما تتشوق اليه النفوس البشرية فى أسباب المكونات وبدء الخليقة ، وأسرار الوجود ، فانما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ، ويستفيدون منهم ، وهم أهل التوراة من اليهود ، ومن تبع دينهم من النصارى . وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم ، ولا يعرفون من ذلك الا ما يعرفه العامة من أهل الكتاب ، ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية الخ » (٣٤) .

وقد التقط الشعراء ما هو متطاير فى الجو من هذه القصص ، وعكسوه فى شعرهم ، وأضرب المثل بأميه بن أبى الصلت ، ففى أشعاره كثير من قصص اليهود والنصارى التى شاعت بين عرب الجاهلية ، وأشير هنا الى مثلين يتحدث فى أحدهما عن حمامة السلام التى أنقذت ركاب سفينة نوح ودلتهم على اليابسة ، فصاغوا لها طوقا تورثه بنيها (٣٥) كما هو مفصل فى التوراة ، أما المثل الآخر فيخاطب فيه النصارى ، ويقص ما جاء فى دينهم على حد تعبيره ، من قصة مريم وولادة المسيح عليه السلام (٣٦) .

ولم يقتصر التنافس بين اليهود والنصارى فحسب ، بل امتد الى التنافس بين أهل الكتاب وبين من يسمون بالحنفاء . وهم قوم من العرب عبدوا الله على ملة أبيهم ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين .

---

(٣٤) مقدمة ابن خلدون ص ٤٣٩
(٣٥) ديوان أمية بن أبى الصلت ص ١٨
(٣٦) المرجع السابق ص ٥٨

واعتقد أن قصة اعتناق زيد بن عمرو بن نفيل لدين الحنفاء ، يراد منها الغض من شأن اليهود ومن شأن النصارى ، وفى الوقت نفسه اعلاء دين الحنفاء « روى أن زيد بن عمرو خرج الى الشام يسأل عن الدين ، فلقى عالما من اليهود فسأله عن دينهم ، وقال : لعلى أدين بدينكم . فقال اليهودى انك لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله ، فقال زيد : ما أفر الا من غضب الله ، ولا أحمل من غضب الله شيئا وانا أستطيع ، فهل تدلنى على دين ليس فيه هذا ؟ قال : لا أعلمه الا أن يكون حنيفا . قال وما الحنيف قال : دين ابراهيم . فخرج من عنده وأتى عالما من علماء النصارى فقال له نحوا مما قاله لليهودى . فقال النصرانى : انك لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله . قال : لا أحمل من لعنة الله ولا من غضبه شيئا ابدا وانا أستطيع ، فهل تدلنى على دين ليس فيه ، فقال له : لا أعلمه الا أن يكون حنيفا . فخرج من عندهما ، وقد رضى بما أخبراه واتفقا عليه من دين ابراهيم عليه السلام . فلما برز رفع يديه وقال : اللهم انى على دين ابراهيم » (٣٧) .

ومن المنطقى أن يكثر الحنفاء الحديث عن أبيهم ابراهيم وعن حفر زمزم ، وعن بناء الكعبة ، وعن اسماعيل جد العرب ، وأن ينسب بعضهم فضل الفداء اليه ، حتى ينافسوا بذلك اليهود الذين كانوا ينسبون الفداء الى جدهم اسحاق (٣٨) . وقد شاعت قصة الفداء على ألسنة العرب حتى رأيناها تتجدد بصورة أخرى فى حادثة عبد الله والد النبى

---

(٣٧) الأغانى ٣ / ١٧ « ساسى »

(٣٨) تعرض العقاد لمسألة الفداء ، وبين الأسباب التى تكون وراء نسبة الفداء الى اسماعيل أو اسحاق ، وأورد نصا ليهودى اعترف به أن الذبيح هو اسماعيل وقال فيه « ان اليهود لتعلم ذلك ، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على ان يكون ابوكم الذى أمر الله بذبحه ، ويزعمون أنه اسحاق لأن أسحاق أبوهم » (أبو الانبياء ص ١٠٤) .

عليه السلام ، الذى لم يفده أبوه بذبح عظيم فحسب ، بل فداه بمـــائة من الابل العظام .

ولم يقتصر تأثير اليهود ولا النصارى على هذا الجانب القصصى فقط ، بل وعلى جانب أكثر التصاقا بما نحن فيه .

فاننى عتقد أنه كان لهم تأير فى قصص العشق ، فقد كان بعضهم أبطالا لقصص غرامية ، فقد تزوج بعض العرب يهوديات ونصرانيات ، بل ومجوسيات ، وقد افرد أبـو الحسن المـدائنى كتابـا فيمن تزوج مجوسية (٣٩) وغير مستبعد أن تحدث قبل الزواج قصص ، أو تعاصره قصص ، والتاريخ يحدثنا عن قصص غرامية لم تكن بين أزواج وزوجاتهم . بل كانت بين عشاق وعشيقات كتلك المنافسة التى كانت بين النابغـــة والمنخل حول المتجردة امرأة النعمان .

وأكثر من هذا يروون قصة عن فطيون اليهودى ، ويلخص هذه القصة الدكتور أحمد الحوفى ، نقلا عن مصادر أصيلة ، فيذكر أن فطيون كان ملكا على يهود المدينة ، وكان يفتض العرائس قبل أزواجهن ، سواء كن عبريات ام عربيات . فلما تقوى الأوس والخزرج تزعمهـــم مالك ابن العجلان وتزوجت اخته الفضلاء ، أنفت أن يفعل بها مـا يفعـــل بغيرها ، واستثارت اخاها فاشتمل على سيفه وتنكر مع النساء ، ودخل على الفطيون فقتله . واخيرا يرى الدكتور الحوفى ان هذه القصة تغاير « ما كان العرب يأخذون انفسهم به من الأنفة والغيرة على النســـاء وحماية العرض بالمهج والأرواح فليس بمعقول أن يصبروا على عهـــارة الملك وفجوره ببناتهم حينا من الدهر ، حتى يقيض الله رجـلا منهـم يتنكر ليغتال الملك العاهر » (٤٠) .

---

(٣٩) الفهرست ص ١٠٢ .
(٤٠) المرأة فى الشعر الجاهلى ص ٢٨٤ .

وربما كانت الرواية التى ذكرت فى المحاسن والاضداد ، لاتغاير الخلق العربى ، فان فطيون هذا كان ملك تهامة والحجاز ، وقد امـــر « الا تزف من اليهود فى مملكته امرة الا بدعوة بها ، فلبث عدة أحوال ، حتى زوجت امرأة من اليهود من ابن عم لها ، وكانت ذات جمال رائع ، وكانت اخت مالك ابن عجلان من الرضاعة ، فلما ارادوا ان يهدوها الى زوجها خرجت الى نادى الأوس والخزوج ، رافعة ثوبها الى سرتها ، فقام اليها مالك بن عجلان ، فقال : ويحك ، ما دهاك ؟ ، فاخبرته القصة فأنف من ذلك انفا شديدا ، وتنكر حتى استطاع ان يقتل الفطيون ، ثم اثار اليهود عليه وعلى جنوده فقتلوهم عن آخرهم » (٤١) .

ربما كانت هذه الرواية اقرب الى الخلق العربى ، اذ هى لا تنافى غيرة العرب ولا حميتهم ، ففطيون كان يوقع ببنات من اليهود ، ولم تذكر القصة ان كان يفعل فعلته مع بنات من العرب ، حتى بطلة القصة كانت يهودية اخت مالك من الرضاعة ، ومع ذلك انف مالك انفا شديدا كما تقول الرواية ، وتزعم اليهود ضد فطيون وجنوده .

---

(٤١) المحاسن والاضداد ١٨٥

علاقة العرب بغيرهم بعد الاسلام ·

كانت هذه صلات الحجاز بغيره فى العصر الجاهلى ، فلما جاء الاسلام اصبحت هذه الصلات أظهر عمقا ، واشد ايجابية ، وأكثر تشعبا ·

فقد فتح العراق ، وكان يسكنه بعض قبائل عربية ، وبعض الفرس ، وكان فيه نصارى وزرادشتيه ومزدكية ·

وفتحت فارس ، وكان يسكنها الفرس ، وبعض الروم الذين أسروا فى الحروب الفارسية الرومانية ، وقد تداولته عقائد شتى كالزرادشتية والمانوية والمزدكية ، وكان فيه أيضا نصارى أكثرهم من النساطرة ، وقد ترجموا كثيرا من المؤلفات الاغريقية ·

وفتح الشام ، وكان يسكنه أهل البلاد الأصليون ، وبعض قبائل عربية من أشهرها غسان ، وكان يسكنه اليهود ، وكانوا يفرون الى الصحراء كلما وقع لهم اضطهاد ، ويسكنه بعض الروم اذ كان اقليما رومانيا ، وكان فيه أيضا نصارى يدين معظمهم بالمذهب اليعقوبى ، وقد تعاقبت على الشام مدنيات مختلفه من فينيقيين وأموريين وكنعانيين ··· الخ ·

وفتحت مصر ، وكان يسكنها المصريون ، ومزيج من أمم أخرى كاليهود والرومان ، وهى الوارثة لحضارة قدماء المصريين واليونان والرومان ، وبها الاسكندرية مجمع المذاهب الفلسفية ، وملتقى الآراء الشرقيه والغربية ·

وفتحت بلاد المغرب من برقة وتونس والجزائر ومراكش الى مضيق جبل طارق ·

سببت هذه الفتوحات عملية اختلاط ومزج،فلم يعد الاتصال مقصورا على أشياء تلتقط من هنا أو من هناك ، بل اصبح امتزاجا قويا وتفاعلا شديدا .

فالفاتحون العرب ومن معهم من أسرهـــم ، كـانوا يقطنون ، هذه البلاد فيتصلون بأهلها ويتزوجون منهم . فمثلا أبو عبيدة أسـكن مدينة فارس حين فتحها جماعة من العرب (٤٢) . وكانو يحملون معهم نساءهم فى الحروب (٤٣) .

ومن أهل هذه البلدان من كانو يدخلون فى الاسلام ، فعظيم الخزر حين بلغه مـا عليـه المسلمون من قـوه وعـدد ، أظهر الاسـلام ووادع مروان (٤٤) وقد أجاب بعض أهل قنسرين حين دعاهم أبو عبيدة الى الاسلام (٤٥) .

ومما ساعد على عملية المزج والاختلاط كثرة الرقيق ، فمعاوية أرسل الى عمر رضى الله عنهما أربعة آلاف من سبى قيسـارية ، فقسـمهم على يتامى الأنصـار وجعل بعضـهم فى أعمـــال المسلمين (٤٦) . والزبير ابن العوام مات عن الف عبد وأمة (٤٧) .

وقد كان لهؤلاء الرقيق أثر كبير فى نقل حضـارتى الفرس والروم الى العرب ، وقد تنبه ابن خلدون لهذا ، وفى الفصل الذى عقده بعنوان « انتقال الدولة من البداوة الى الحضارة (٤٨) » . بل كان لهم اثـــر

---

(٤٢) فتوح البلدان ص ١٧٨
(٤٣) المرجع السابق ص ١٩٨
(٤٤) المرجع السابق ص ٢٤٥
(٤٥) المرجع السابق ص ١٧٣ .
(٤٦) المرجع السابق ص ١٦٨ .
(٤٧) مروج الذهب ٤ / ٢٥٤ .
(٤٨) مقدمة ابن خلدون ص ١٧٢

كبير على الثقافة العربية ، ويعقد ابن خلدون فصلا « فى أن حملة العلم فى الاسلام أكثرهم من العجم » (٤٩) ٠

وقد ظهرت بواكير الترجمة والنقل من هذه الحضارات منذ العصر الأموى فخالد بن يزيد بن معاوية أمر باحضار جماعة من فلاسفة اليونان ، وأمرهم بنقل الكتب فى الصنعة من اللسان اليونانى والقبطى الى العربى (٥٠) ٠ « وقال ابن جلجل الاندلسى : ان ماسرجويه كان سريانيا ، يهودى المذهب ، وهو الذى تولى فى أيام مراون فى الدولة المروانية تفسير كتاب اهرن القس بن أعين الى العربية (٥١) » ٠

وفى هذا العصر ابتدأ العرب يحولون الدواوين الى اللغة العربية فالديوان الفارسى نقله الى العربية أيام الحجاج ، صالح ابن عبد الرحمن (٥٢) ، أما ديوان الشام وكان بالرومية فقد نقله فى زمن هشام أبو ثابت سليمان بن سعد (٥٣) ، أما ديوان الخراج فى مصر فقد نقل فى خلافة الوليد بن عبد الملك (٥٤) ٠

تلك الفتوح ، وهؤلاء الموالى علماء وغيرهم ، وهذه الترجمة والنقل ـ كان لها أثرها الكبير على المجتمع العربى ، وسأكتفى هنا بالاشارة الى الجوانب التى تهمنى ٠

١ ـ ظهر من نسل الفرس شعراء كثيرون فى العهد الأموى ، كزياد الأعجم ، وأسرة ابن يسار النسائى ٠ وهى أسرة فارسية ، اشتهر منها

---

(٤٩) مقدمة ابن خلدون ص ٥٤٤
(٥٠) الفهرست ص ٣٣٨
(٥١) تاريخ الحكماء للقفطى ص ٣٢٤
(٥٢) الفهرست ص ٣٣٨
(٥٣) المرجع السابق ص ٣٣٩ وفتوح البلدان ص ٢٣٠
(٥٤) خطط المقريزى ١ / ٥٨

اسماعيل بن يسار ، ومحمد وابرهيم وموسى شهوات . وقد كان لبعض هؤلاء الشعراء أخبار غرامية كالخبر الذى ذكر عن موسى شهوات وانه هوى جارية بالمدينة ، فطلب اهلها عشرة آلاف درهم ، فعاونه أصحابه على جمع المال فلم يستطيعوا ، فأتى سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان ابن عفان ، فاعتل عليه ، ثم أتى سعيد بن خالد بن عبد الله ابن أسيد . فاشترى له الجارية واعطاه مائة دينـار وملحفة فراشـه ، فقال فى ذلك شعرا (٥٥) .

٢ ـ ولقد كان للأعاجم اثرهم على الغناء وما يتصل به :

فيذكر أبو الفرج أن سعيد بن مسجح أول من نقل غناء الفرس الى العرب وأنه رحـل الى الشـام ، فأخـذ الحـان الروم والبربطيـة والأسطوخية ، وانقلب الى فارس ، فاخذ غناء كثيرا وتعلم العزف ، ثم قدم الحجاز ، وقد أخذ محاسن تلك النغم ، والقى ما استقبحه وغنى على هذا المذهب (٥٦) . ويذكر أن ابن محرز أصلة من الفرس ، وكان يشخص الى فارس فيتعلم ألحان الفرس وغناءهم ، ثم يسير الى الشـام فيتعلم الحان الروم وغناءهـم ، وقـد اسقط مـالا يستحسن وأخـذ المحاسن ، ومزج بعضه ببعض ، وألف منها الأغانى التى صنع فى أشعار العرب فأتى بما لم يسمع مثله (٥٧) . ويذكر ـ ثالثا ـ أن سائب خاثر الفارسى الأصل كان مولى لعبد الله بن عامر ، ثم قدم رجل فارسى اسمه نشيط فغنى ، فأعجب به عبد الله ، فقال له سائب : أنا أصنع لك مثـل هذا الغناء الفارسى بالعربية ، ثم غدا عليه ، وقد صنع « لمن الديـار رسومها قفر ... الخ » . وقد أخذ عن سائب ابن سريج ، وجميلة ، وعزة الميلاء ، وكثير من أصواته منحولة الى معبد » (٥٨) .

(٥٥) الاغانى ٣ / ١١٥ « ساسى »
(٥٦) المرجع السابق ٣ / ٨١
(٥٧) المرجع السابق ١ / ١٤٥
(٥٨) المرجع السابق ٧ / ١٧٩

فمن هذه الروايات نعرف الأثر الكبير للفرس أو الروم على الغناء العربى فى عصر الاسلام ، ونرى أن فحول الغناء كانوا أصلا من الفرس ٠

وكان هؤلاء المغنون يلحنون اشعارا ، لشعراء أصلهم من الفرس ، قا لموسى شهوات لمعبد : قد قلت فى حمزة بن عبد الله بن الزبير ، فغن فيه ، حتى يكون أجزل لصلتينا ، ففعل ذلك معبد (٥٩) ٠

وقد مثلت بعض المغنيات طرفا ثانيا فى حكايات غرامية ، حدثت فى العصر الأموى ، فقصة عشق عبد الرحمن بن أبى عمار القس لسلامة قصة مشهورة (٦٠) وخبر غرام الوليد بجاريته حبابة وسلامة ، والتنافس بينهما على كسب قلب الوليد ، خبر معروف (٦١) ٠

والتـاثير تعـــدى الى المنادمة ، ومجــالس الغناء ، وآداب تلك المجالس ٠

فقد كان الأمويون يحاكون الفرس فى تقريبهم مسامرين ، يقصون عليهم الحكايات المضحكة ، ففى يوم رأى روح بن زنباع جليس عبد الملك منه اعراضا فشكى روح الى الوليد ، وكان الابن خبيرا بنفسية أبيه ، فقال لروح : احتل له فى حديث تضحكه به ، كما احتال مرزبان نديم سابور ملك فارس » ٠ وبالفعل اختلق لــه حكايــه مضــحكة ، فضــحك عبد الملك حتى فحص برجله (٦٢) ٠

والحكم الأمويون قلدوا ملوك الأعاجم الذين كانوا يحتجبون عن الندماء بستارة (٦٣) ٠ وقال الجاحظ « قلت لاسحاق بن ابراهيم : هل

---

(٥٩) الاغانى ٣ / ١١٧ « ساسى »
(٦٠) المرجع السابق ٨ / ٣٣٤ « دار الكتب »
(٦١) المرجع السابق ٨ / ٣٣٤ « دار الكتب »
(٦٢) مروج الذهب ٢ / ١٢٩
(٦٣) التاج ٢٨

كانت الخلفاء من بنى أمية تظهر للندماء والمغنيين ؟ قال : أما معاوية ومروان وعبد الملك وسليمان وهشام ومروان بن محمد ، فكان بينهم وبين الندماء ستارة ، وكان لا يظهر أحـــد من الندماء على ما يفعله الخليفة ... فاما الباقون من خلفاء نبى أمية فلم يكونوا يتحاشـــون أن يرقصوا ويتجردوا ويحضروا عراة بحضرة الندماء والمغنيين » (٦٤) .

٣ – ولقد تأثر العرب – كما ذكرت – بثقافة الأمم المفتوحة :

(ا) فلقد أثرت الثقافة الهيلينية على الحركة القدرية عند العرب . فالمدرسة العقلية التى أسست فى البصرة ، والتى كانت تقول بحرية الارادة والاختيار ، وكان من اهم دعائمها الحسن البصرى ، يوجد بينهـا وبين مدارس الناصرة اللاهوتية التى انتشرت فى فارس شبه كبير ، ولعـل هذا ما جعل دى مور يقول : « هناك دلائل متفرقة على ان طائفة من المسلمين الأولين الذين قالوا بالاختيار تتلمذوا لاساتذة مسيحيين (٦٥) » ويؤيد هذا ما يروى أن « اول من تكلم فى القدر رجل من اهل العراق كان نصرانيا فاسلم ، ثم تنصر (٦٦) » . وقد تعاطف راهبان قدما الى البصرة مع الحسن ، اذ لما نظرا اليه ، قال أحدهما لصاحبه : « مل بنا الى هذا الذى كان سمته سمت المسيح » (٦٧) .

ومن ناحية ثانية يلاحـظ فون كريمر أثر الثقـافة الهيلينية على المدارس التى ترعرعت فى الشام ، فيقول : « وبهذا الطريق وحده يجب أن نفسر التشـابه البين الذى نلاحظه فى مظاهـر المسـيحية البيزنطية الأساسية والتعاليم الاسلامية ، وان البحث فى كنه الله وصفاته هو اول شىء له المقام الأول فى كتابات كل من آباء الكنيسة الاغريق ، واقدم

---

(٦٤) التاج ص ٣١
(٦٥) تاريخ الفلسفة فى الاسلام ص ٤٩
(٦٦) سرح العيون ص ٢٠١
(٦٧) الكامل للمبرد ١ / ٥٢

علماء الدين عند العرب ، فاقدم علماء المسلمين يشغلون انفسهم الى حد كبير بالأبحاث التى تدور حول القضاء والقدر والارادة ، مثلهم فى ذلك مثل آباء الكنيسة الشرقية » (٦٨) ٠

وسواء اكان القول بالقدر قد نشأ فى العراق (٦٩) ، أم نشأ فى الشام ، متأثرا بمن كان يسكنها من النصارى (٧٠) ٠ فانه ـ على أى حال ـ قد تأثر الى حد كبير ، بالثقافة الهيلينية التى انتشرت على يد النساطرة فى العراق ، واليعاقبة فى الشام ٠

(ب) وجانب مهم أثر فيه الفرس ، وهو جانب التشيع لعلى وأهل بيته ، فقد وجد الشيعة أرضا طيبة فى العراق وفارس ، ربما لأن أهل الفرس يؤمنون بتوارث الملك أبا عن جد ، وقد قالت عجوز لبهرام وكانت لا تعرفه وقد سألها عن بهرام الذى نازع كسرى : « جاهل أحمق يدعى الملك وليس من أهل بيت المملكة (٧١) » ثم أن المجتمع الفرسى مجتمع طبقى ، فالجاحظ يذكر طبقات الناس عند الفرس ، ثم يذكر قول ازدشير « ما شىء أسرع فى انتقال الدول وخراب المملكة ، من انتقال هـــذه الطبقات عن مراتبها ، حتى يرفع الوضيع عن مرتبة الشريف ، ويحـط الشريف الى مرتبة الوضيع » (٧٢) ٠

والعراق من قديم منبع الديانات المختلفة ، والمذاهـــب الدينية ، وكان فيه يهود ونصارى ، وزاد شتية ، ومزدكيه ، ومانوية ٠

وقد ظهرت فى الشيعة آثـار يهوديـة ، ونصرانية ، ومجوسية ٠

---

(٦٨) الحضارة الاسلامية ٦٦
(٦٩) سرح العيون ص ٢٠١
(٧٠) دائرة المعارف الاسلامية مادة « شام »
(٧١) الاخبار الطوال ص ٩٤
(٧٢) التاج ص ٢٥

فغالبية الشيعة كانوا يؤمنون برجعة على وبالتناسخ (٧٣) . ولعل ابن سبأ الذى أشاع هذه الفكرة ، قد اقتبسها من اليهودية ، فقد كان يهوديا (٧٤) وعند اليهود أن النبى الياس قد صعد الى السماء ، وأنه سيعود (٧٥) .

والنصرانية ظهرت فى التشيع فى قول بعضهم : ان نسبة الامام الى الله كنسبة المسيح اليه ، وكان الشيعة يرون أن اللاهوت قد اتحد بالناسوت فى الامام (٧٦) . والملكانية والنسطورية واليعقوبية — وهم عمدة فرق النصارى كما يقول ابن حزم — يرون ان فى المسيح عنصرا الهيا وعنصرا بشريا (٧٧) .

وتحت التشيع ظهـــر القــول بتناســـخ الأرواح وتجســـيد الله والحلول (٧٨) ، ونحو ذلك من الأقوال التى كانت معروفة عند البراهمة والمجوس قبل الاسلام .

---

(٧٣) الاغانى ٩ / ٥ « دار الكتب »
(٧٤) الملل والنحل للشهرستانى ص ٣٥٦ ودائرة المعارف الاسلامية « الياس »
(٧٥) دائرة المعارف الاسلامية « الياس »
(٧٦) الملل والنحل للشهرستانى ص ٢٨
(٧٧) الفصل فى الملل والنحل لابن حزم ١ / ٤٨
(٧٨) الملل والنحل للشهرستانى ص ٢٨٠

موقف قصص العشق من الحضارات الأخرى ·

بعد هذه المقدمة الصغيرة ، التى تبين منها أن العرب لم ينعزلوا عمن جاورهم من الامم ، وانهم عرفوا كثيرا من مظاهر الحضـــارات الأخرى ، والثقافات المختلفة ، وبعض هذه المظاهر له صلة وثيقة بقصص العشق ، كالغناء ، ومجالس المنادمة ، والقصص والحكايات ·

بعد هذه المقدمة أتساءل : ما موقف قصص العشق من هذا الاحتكاك الحضارى ؟

ا ــ هل نقلت قصص العشق من الأمم الأخرى ، كما نقلت بعض مظاهر الحضارة ، أو أنها نشأت نشأة عربية ، ومن داخل المجتمـــع العربى ؟ ·

ب ــ ثم هل تأثرت فى عنصر من عناصرها بثقافة أو بتيار أجنبى ؟ ومامدى هذا التأثر ؟ هــل يبلغ حدا عميقا كهــذا التــأثر الذى نراه فى الغناء ، أو أنه تأثر ضئيل ·

جـ ــ وما هى الأسباب التى أدت الى هذا الموقف ؟ ·

كان لابد من هذه الأسئلة ، وقـــد رأينا الاحتكـاك بين العــرب وغيرهم ، وخاصة أننا نجد بعض المظاهر أو العناصر ، تتشابه فيهـــا قصص العشق بتيارات ومظاهر أجنبية ·

فالحب العذرى الذى هو سائد فى القصص العذرية ، يتشابه مع الحب الافلاطونى الذى يرى فلاسفة اليونـــان أن ينبغى أن يســـود جمهوريتهم ، وأن يسن فى شريعتها « أنه ــ مع أن المحب يلاحق محبوبه ، ويرافقه ، ويقبله قبلة الأب لابنه لسبب جماله اذا ارتضى المحبوب منه ذلك ــ يجب أن تنظم علاقاته على وجه لا يأذن بتجاوز هذا الحــد الى

ما وراءه ، والا عزل لفظاظته وعدم ذوقه » (٧٩) . ويرون أن العفاف مبدأ من المبادىء الأربعة التى يجب أن تسود المدينة (٨٠) وأن الدولة الجديدة تدعى سيدة نفسها اذا سادها العفاف ، وضبط النفس سيادة العنصر الصالح ، العنصر الردىء فى الانسان (٨١) .

والقدر الذى يسود كثيرا من المسرحيات الاغريقية ، ويجعل موقف البطل موقف العاجز أمام الارادة العليا ، كموقف أوديب فى المسرحية التى كتبها سوفو كليس مثلا ـ يتشابه مع موقف العذرى ازاء عاطفته التى يعتبرها شيئا قد كتب عليه (٨٢) .

وكثير يتشيع ، ويحب آل البيت ، ويحترم كبارهم ويعطف على صغارهم (٨٣) ، فهل كان فى موقفه هذا متأثرا بتيار أجنبى ؟ وهل لهذا الموقف أثر على قصص العشق ؟ .

وفعلا ... قال فريق من الباحثين باشياء شبيهة بهذا .

فماسينيون Louis Massignon يرى أن فكرة الحب العذرى Udhri Love ترجع الى فكرة الحب الافلاطونى Platonic love والى فكرة الحب العفيف Amour Courtois التى سادت فى العصور الوسطى عند المسيحيين الغربيين (٨٤) .

وباسيه R. Basset يزعم ان قصة عروة بن حزام العذرى أساسها ما رواه الشعراء الفرنسيون القدماء فى قصة «Floire et Blancheleur» (٨٥) .

---

(٧٩) جمهورية أفلاطون ص ٧٩
(٨٠) المرجع السابق ص ١٠٤
(٨١) المرجع السابق ص ١٠٣
(٨٢) الاغانى ٨ / ١٤٩ (دار الكتب)
(٨٣) المرجع السابق ٩ / ١٠٦
(٨٤) The Encyclopeadia of Islam (udhri).
(٨٥) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ١ / ٢٠١ .

ولابد من الاجابة على الأسئلة التى طرحتها سابقا :

(ا) أما الاجابة على السؤال الأول ، فاننى أزعم أن قصص العشق بشطريها العذرى والحسى ــ قد نشأت نشأة عربية ٠

فمن الطبعى ان يوجد فى كل مجتمع هذان اللونان من الحب ، فالنفس الانسانية بحكم تركيبها مستعدة لكل منهما ، ومن الطبعى أن تحاك حكايات حول هذين اللونين ٠

فالقصص الحسية تمتد خيوطها من عصر الى عصر ، وقد كانت موجودة فى العصر الجاهلى ، وكانت تنسج حول شخصيات عربية جاهلية ، وقبل أن تتعمق صلة العرب بغيرهم ٠

فالمنصور يحكى حكايات عن عروة الصعاليك ، ذلك الشجاع الفتاك فقد نهب مرة ابلا فتتبعه غلام ، وكان عروة شجاعا لايقهر ، ولكن هذا الغلام لحقه ، وأمسك بعروة وضرب به الأرض ، فوقع قائما ، فيدهش عروة ، ثم يتبين له أن هذا الغلام ابنه ، فقد مر يوما بامرأة جميلة ، وزوج لها شيخ كبير ، وكانا يريدان سوق ذى المجاز ، فاستطرفت المرأة عروة ، فكان هذا الغلام ٠ وقد عرض عروة على الغلام ان يتبعه ويترك هذا الشيخ ولكنه أبى ، لأن للشيخ عليه حقا وبعد هلاك الشيخ لحق به (٨٦) ٠

ووجدت هذه القصص فى العصر الاسلامى ، وأشهر أبطالها عمر بن أبى ربيعة والعرجى ٠ ويذكر الأغانى قصة طريفة كان بطلها العرجى ، فقد كان يتعرض لأم الاوقص ، ولكنها كانت تتستر منه فتحايل ولبس ثياب أعرابى وركب قعودا ، ثم أقبل على نسوة ، بينهن أم الأوقص ، فطلبن منه اللبن فأعطاهن وجعل يتأمل أم الأوقص وينظر

---

(٨٦) الاغانى ٢ / ١٨٩ « سامى » ٠

أحيانا الى الأرض كانه يطلب شيئا . فقالت له امرأة منهن : أى شىء تطلب يا أعرابى فى الأرض ؟ هل ضاع منك شىء ؟ قال : نعم ، قلبى . فلما سمعت أم الأوقص كلامه عرفته ، فوثبت وسترها نساؤها وطلبن من العرجى ان ينصرف عنهن . فمضى (٨٧) .

وهذه القصة تشبه قصة كان بطلها عمر بن أبى ربيعة ، وأمثـال هذه المشابهة هى التى جعلت أبا الفرج يقول عن العرجى انـه « نحـا نحو عمر بن أبى ربيعة ، وتشبه به ، فأجاد » (٨٨) .

فأمثال هذا الحب ، وأمثال تلك الحكايات يمكن أن تنشأ فى أى مجتمع انسانى ، لاتحتاج الى أن تنقل من شرق ولاغرب ، فان التركيب الانسانى لايتغير فى شرق ولا فى غرب ، وقـد أدرك هـذه الحقيقة ابن حزم ، فرأى أن الله عز وجل ، ركب فى الانسان طبيعتين متضادتين : احداهما : لاتشير الا بخير ، ولاتحض الا على حسن ... وهى العقل : والثانية : ضد لها لاتشير الا الى الشهوات ولاتقود الا الى الردىء ، وهى النفس . ثم بين أن هاتين الطبيعتين جبلتان فى الانسان ، وضرب أمثلة من واقع عصره ، لنسوة انحرفن ولرجال انحرفوا ، ثم استدل ايضـا بقصة يوسف بن يعقوب ، وداود بن ايش فما اورد الله علينا قصتهمـا الا « ليعلمنا نقصاننا ، وحاجتنا الى عصمته ، وان بنيتنا مدخـولة ضعيفة » (٨٩) .

أما قصص العشق العذرية ، فقد تتابعت فى تاريخ العرب بـدون انقطاع وبكثرة لافتة للنظر ، فهى وجدت منذ الفترة التى يسميهـا المؤرخون بالعرب البائدة ، وقصص هذه الفترة ـ وان لم تكن صـادقة

(٨٧) الأغانى ١ / ٣٩٦ « دار الكتب » .
(٨٨) المرجع السابق ١ / ٣٨٥ .
(٨٩) طوق الحمامة ص ١٢٢ ـ ١٤٢ .

تاريخيا – فهى صادقة فى انهـا تعكس الروح العربى ، وتشـف عـن نفسيته .

بين يدى قصة حدثت فى هذه الفترة ، وكنت أود أن انقلها بنصها فانها قصة رائعة ومؤثرة ، تقوم دليلا على أن العرب لم يحرموا من القصص ولـم يعدموا الخيـال الابتكـارى ، ولكن المقـام يضـيق عن ذكرها (٩٠) ، وهى قصة مضاض ومى ، وقد حكاها الحارث وهو فى غربته وتيهه ، فقد مر على موضع يسمى « موطن الموت » فجعل الحارث يشرح سبب هذه التسمية ، وان مضاضا ابن اخيه عشق ميا بنت عمـه وعشقته ، وبارك أهلها هـذا الحب ، ووافقوا على الزواج ، وانتظروا مرور رجب حتى يزفوهما ، ثم تدخل قبيس الجرهمى وكان يحـب ميا ، وهى لاتعلم . فوشى بين الحبيبن واخبر ميـا أن مضاضـا يحب اخرى وانه يراعيها وينشد فيها الشعر ، وترد عليه بالشعر . فاخذتهـا الحمية والانفة وكذلك اخـذت اباهـا الغيرة الشديـدة ، فعزموا على الارتحال . وبلغ الامر مضاضا فخرج يريد قتل قبيس فهرب فى البيداء وابتعلته الارض ، ثم رجع يستعطف ميا ، ويعتذر لها وينشدها الاشعار ، ويجرى وراءها ، ولكنها أبت لان كرامتها وكرامة أبيها قد جرحتا ، ولما احس باليأس منها عزم على الا يذوق الشراب حتى يموت ، واوصى أن يدفنه عمه الحارث بين الدوحتين . اما مى فقد عرفت الحقيقة وانهـا كانت سيئة الظن بمضاض ، وان الشعر منحول عليه ، فبعثت الى مضاض ولكنه نعى اليها فآلت على نفسها الا تشرب الماء ، حتى غشيها المـوت فى اليوم الثالث واوصت اباها أن يدفنها بالدوحتين بجوار مضاض ، فسمى ذلك الموضع « موطن الموت » ..

وشاعت هذه القصص فى عهد الجاهلية السابقة على الاسـلام ، ونلاحظ اسماء كثيرةلعشاق عذريين ، كعبد اللهبنعجلان وصاحبته هندوقد

---

(٩٠) انظرها كاملة فى التيجان ص ١٨٨ / ١٩٧ .

ضرب بحبه المثل (٩١) ، وعنترة وعبلة (٩٢) ، ومسافر بن عمر بن أمية وهند بنت عتبه (٩٣) .

وقصة عبد الله بن علقمة وصاحبته حبيشه تحدث فى العهد الجاهلى وتستمر الى أوائل الهجرة النبوية ، فقد خرج مع امه لتزور جارة لها ، فلما رأى ابنتها حبيشه وقعت فى نفسه ، وكرهت أمه أن تزوجه منها ، وجعل يراسلها حتى علقته كما علقها ، فلما بلغ خبرهما أهلها حجبوها عنه مدة ، وهو يزيد غراما بها فقالوا لها : عديه السرحة ، فاذا أتاك فقولى : نشدتك الله ان كنت أحببتنى ، فما على وجه الأرض أبغض الى منك . فوعدته وجلسوا قريبا يسمعون . فلما دنا منها عبد الله دمعت عيناها ، والتفتت الى حيث أهلها جلوس فعرف انهم قريب ؛ فرجع . ولما فتح الرسول عليه السلام مكة بعث الى قوم عبد الله يدعوهم الى الاسلام ، واستطاعت سرية أن تأسره وكان بينه وبين معشوقته شعر رائع وهو اسير « فضربنا عنقه فتقحمت الجارية من خدرها ، حتى أهوت نحوه . فالتقمت فاه ، فنزعنا منها رأسه ، وانها لتكسع بنفسها حتى ماتت مكانها » (٩٤) . ولما أخبروا الرسول بمقتله قال : أما كان فيكم رجل رحيم ؟ (٩٥) .

وقبل الايغال فى العصر الأموى وجد شاعر مخضرم ، أدرك صدر الاسلام وأوائل العصر الأموى (٩٦) : ذلك الشاعر الذى ضرب بعشقه الأمثال (٩٧) هو عروة بن حزام .

---

(٩١) تزيين الاسواق ١ / ٩١
(٩٢) الاغانى ٨ / ٢٣٨ « دار الكتب » .
(٩٣) المرجع السابق ٩ / ٥٠ .
(٩٤) الاغانى ٧ / ٢٦ « ساسى » .
(٩٥) تزيين الاسواق ١ / ٩٨ .
(٩٦) المرجع السابق ١ / ٨٦
(٩٧) المرجع السابق ١ / ٩١ و ١ / ٨٦ والموشى ٢ / ٦٩

وقصة عروة تتشابه فى أشياء كثيرة مع قصة المرقش الأكبر التى حدثت فى العهد الجاهلى ، فعروة قد أحب عفراء ، وخرج يطلب المال مهرا لها وفى غيابه تزوجها رجل أموى وحملها الى الشام ، وعمد عم عروة الى قبر عتيق فجدده ولما عاد عروة أخبره عمه أنها قد ماتت ، فجعل يختلف الى ذلك القبر ، حتى أخبرته جارية الخبر ، فركب يريد الشام ، ثم طرح خاتمه فى قعب اللبن فعرفته عفراء وأخبرت زوجهاالأموى فزاده اكراما (٩٨) . أما المرقش فقد أحب أسماء وخرج ينال الجوائز ، وفى غيابه تزوجها رجل من مراد وحملها الى بلاده . وعمد أخوته فذبحوا كبشا ، ولفوا عظامه فى ملحفة وقبروها ، ولما عاد أخبره أخوته أن هذا قبر أسماء ، فجعل يختلف اليه حتى عرف الخبر من صبيين كانا يلعبان . فرحل فى طلبها الى المرادى ، ثم اتصل براعيه وأعطاه خاتمه وطلب منه أن يلقيه فى اناء أسماء ، فتعرفت أسماء على الخاتم وأخبرت زوجها فزاده اكراما (٩٩) .

وهكذا نجد خيوط هذا النوع من القصص تتصل بدون انقطاع ، قال صاحب التزيين ، وقد تقدم فى أحوال العشق أنه من الأحوال القديمة ، حتى ورد فيه ما سمعت من الأخبار والآثار (١٠٠) .

فهذه القصص عربية ، نشأت نشأة طبعية لاتحتاج الى أن تنقل من فرس أو روم ، ولو نظرت الى كتاب « الزهرة » لوجدته يحوى خمسين بابا فى العشق وما يتصل به ، وفى كل باب مائة بيت على الأقل ، لشعراء مختلفين منهم الجاهلى ومنهم الأموى ، ومنهم العباسى ، مما يدل على أن هذا الباب ، كان يتبع فيه بعض الشعراء أثر البعض الآخر ، محتذين فى المعانى مقتدين فى الخواطر ، فهم يقلدون بعضهم البعض ، ولا ينتظرون حتى تأتيهم نماذج أجنبية فيقلدونها وينشئون على مثالها .

---

(٩٨) الأغانى ٢٠ / ١٥٢ « ساسى » .
(٩٩) المرجع السابق ٥ / ١٧٩
(١٠٠) تزيين الأسواق ١ / ٣٥

وكان بعض العشاق يضرب المثل بمن سبقه من صرعى هذه العاطفة يقول الوشاة « وقد ضرب فى عروة بعشقه المثل ، لأنه كان اطولهم صبوة واكثرهم فى العشق كثرة » . ثم ذكر بعد ذلك الأبيات التى فيها ضرب المثل بعشق عروة وهى أبيات لأبى وجرة السعدى ، وكثير وجرير والأحوص وجميل ومروان بن أبى حفصة وعمرو بن قنان (١٠١) . وقد ذكر المجنون أن حاله اسوأ من عروة الذى دارت قصته على كل لسان والتى تتوارثها الأجيال فقال :

عجبت لعروة العذرى اضحى　　احاديثا لقوم ، بعد قوم

وعروة مات موتا مستريحا　　وها انا ميت فى كل يوم (١٠٢)

والتشابه لا ياتى فى مجرد الخواطر والمعانى الجزئية فحسب ، بل أحيانا نجد تشابها قويا بين هيكل القصتين ، كهذا التشابه الذى رأيناه بين قصة عروة والمرقش او كهذا الذى نراه بين قصة عبد الله بن العجلان وصاحبته هند ، وبين قصة قيس بن ذريح وصاحبته لبنى .

فقد رأى عبد الله هندا على ماء غسان ، فاسره جمالها . وشكا الى صديقه ، فاخبره أن يكتم ما به ، ويخطبها الى ابيها ، ففعل ، وتزوج بها ، وظل اسعد الناس بها حتى فرق أبوه بينهما ، وذلك لأن هندا كانت عاقرا لم تلد لعبد الله ، وكان العجلان سيدا فى قومه ، ولم يكن له غير عبد الله ، فأمر ابنه أن يطلق هندا ويتزوج بأخرى تلد له . والح عليه حتى طلقها ، فاسف أسفا شديدا . ولما علم بزواجها من بنى نمير دنف وسقم ، وعرضوا عليه فتيات الحى فابى ، وما زال يقول الشعر ويبكيها حتى مات أسفا (١٠٣) وكذلك قيس أحب لبنى حين ذهب الى خيامها يستسقى ماء ، ثم تزوجها بفضل تدخل الحسين ، وسعد بها

---

(١٠١) الموشى ١ / ٦٩
(١٠٢) الاغانى ٢ / ١٢ « ساسى »
(١٠٣) تزيين الاسواق ١ / ٩٢ والاغانى ١٩ / ١٠٢ « ساسى »

وقد الح عليه أبوه وكان سيدا فى قومه ولا ولد له غير قيس ، فى أن يطلق لبنى فأجاب ، ولكنه أسف وركبه الندم (١٠٤) ٠

والخلاصة أن كلا من قصص الحب الحسى والعشق العذرى ، قد نشأ نشأة طبعية ومن داخل المجتمع العربى ، ولا تحتاج الى نقل من مصادر أجنبية ، أو أخذ من روافد غير عربية ، وانما هى النفوس التى خلقها الله ، بعضها تغلب عليه اللذات الحسية ، فيحب حبا حسيا ، وبعضها لا يحب هذه اللذات ، فيعشق عشقا عذريا ، وحول الحب الحسى دارت حكايات حسية ، وحول العشق العذرى دارت قصص عذرية ، ولعله من المفيد أن نذكر فى تلك الساعة قصة المرقشين ، فهما من دوحة واحدة ، اذ أن الأصغر ابن أخ للأكبر ، وكان كل منهما شجاعا ٠ فقد أبليا فى حروب قبيلتهما بكر من بنى تغلب ومع ذلك فقد عشق الأكبر عشقا عذريا ، وأحب الأصغر حبا حسيا ٠

وقد عرفت فيما سبق قصة الأكبر ، أما الأصغر فقد كان « أجمل الناس وجها وأحسنهم شعرا » وكان يأتى الى بنت عجلان وليدة لفاطمة بنت الملك المنذر ، ويبيت معها ٠ وقد كانت فاطمة هذه لها قصر بكاظمة وعليه حرس ، وكان الحرس ينثرون كل ليلة التراب حول القصر ويجرون عليه ثوبا حتى يستوى ، فلا يدخل عليها الا ابنة عجلان ، فاذا كان الغد بعث الملك بالقافة فينظرون أثر من دخل عليها ، ويعودون فيقولون : لم نر الا ابنة عجلان ٠ حتى رأت فاطمة يوما مرقشا من فوق القصر ، فاعجبت به وطلبت من ابنة عجلان أن تدخله عليها فمضى معها ، وقد حملته على ظهرها وحزمت على بطنها بثوب ، فادخلته اليها ، فبات معها ، فلما أصبح الملك قال له القافة : قد رأينا آثار ابنة عجلان وهى مثقلة ٠ فمكث كذلك حينا يدخل عليها حتى عرف صدق ذلك الأمر ، فقال له : لا أرضى عنك ولا أكلمك أبدا ، أو تدخلنى عليها ، وحلف على ذلك فانطلق مرقش الى المكان الذى كان يواعد فيه

---

(١٠٤) الاغانى ٩ / ١٨٠ « دار الكتب »

ابنة العجلان ، فاجلسه فيه وانصرف ، وكانا متشابهين ، فاتته ابنة عجلان فاحتملته وأدخلته اليها ، فلما أراد مباشرتها استنكرته فاذا هو يرعد فدفعت صدره ، وقالت . « قبح الله سرا عند المعيدى » (١٠٥) .

ومع أن العرب عرفوا الحب الحسى ، والعشق العذرى ، الا أننى أقول : ان العرب بذوقهم وطبيعتهم كانوا يميلون الى العشق العذرى ، فهو العشق المشروع الذى يمتدح به الفرسان ويفتخر به الرجال ، وكانوا يضعون فيه الكتب ، يتناقلون أخبارها ، ويروون أحاديثها « حدثنا دعبل بن على الخزاعى ، كان بالكوفة رجل من بنى أسد ، عشق جارية لبعض أهل الكوفة فعظم أمره وأمرها ، فكان يقول فيها الشعر . وذكر بعض أهل الكوفة أنه مات بحبها ، وصنعوا له كتابا فى ذلك مثل كتاب جميل وبثينة ، وعفراء وعروة ، وكثير وعزة » (١٠٦) .

فالعشق العذرى هو العشق المشروع المبارك ، ولهذا كانوا يكرهون الوشاة والعذال ، ويحبون المساعد من الاخوان . عقد ابن حزم بابا سماه « باب العاذل » (١٠٧) جعل فيه العذل آفة من آفات الحب ، ثم عقد « باب الرقيب » ووصفه بأنه حمى باطنة ، وبرسام ملح ، وفكر مكب . ثم تكلم عن الواشى وأنه السم الزعاف . أما المساعد من الاخوان « فمن الأسباب المتمناة فى الحب ، أن يهب الله عز وجل ، صديقا مخلصا ، لطيف القول » . وكذلك فعل ابن داود ، فقد تكلم عن « من وفى له الحبيب ، هان عليه الرقيب » ، وعن « من أحبه أحبابه ، وشى به أترابه » وذكر أشعار الشعراء فى الضيق بالرقيب وكراهة الواشى .

والكتب التى فلسفت هذه العاطفة ، اهتمت بهذا العشق العفيف ، فلو القيت نظرة على موضوعات كتاب « الزهرة » ، لوجدتها حول هذا العشق مثل : « من كثرت لحظاته ، دامت حسراته ــ العقل عند الهوى

---

(١٠٥) الاغانى ٥ / ١٨٥ « ساسى »
(١٠٦) مصارع العشاق ص ٣٢٤
(١٠٧) طوق الحمامة ص ٤٧ .

أسير ، والشوق عليهما أمير ــ التذلل للحبيب من شيم الأديب ــ من كان ظريفا ، فليكن عفيفا ــ من منع من كثير الوصال ، قنع بقليل النوال ــ قل من سلا الا غلبه الهوى ــ ما خلق الفراق ، الا لتعذيب العشاق ــ من فاته الوصال نعشه الخيال » .

أما ابن حزم ، فقد سار فى الدرب نفسه ، فهو حين يتكلم فى « طوق الحمامة » عن ماهية الحب ، يكتفى بالحديث عن الحب العفيف « الذى ليس بمنكر فى الديانة ، ولا بمحظور فى الطبيعة ، اذ القلوب بيد الله عز وجل . وقد اختلف الناس فى ماهيته وأطالوا ، والذى اذهب اليه أنه اتصال بين اجزاء النفوس المعشوقة فى هذه الخليقة » وهو حين اذ يتحدث عن علامات الحب ، يذكر علامات الحب العفيف مثل : البهت ، والروعة التى تبدو على المحب عند رؤية من يحب ، أو الاضطراب الذى يبدو عليه عند رؤية من يشبهه ، أو عند سماع اسمه فجاة ، ومثل الجزع الشديد ، والزفير ، وقلة الحركة ، والتأوه . ولا ينسى أن يختم كتابه ببابين : قبح المعصية ، وفضل التعفف .

والعرب ــ منذ الجاهلية ــ يحبون العفة ويتباهون بها ، ويعتبرونها من فضائل الفرسان . قال هرم بن قطبة لعلقمة « بأى شىء أنت أسود من عامر ؟ قال : أنا بصيروهو أعور ، وأنا أبو عشرة وهو عقيم ، وأنا عفيف وهو عاهر (١٠٨) » . وكانت النساء أكثر عفة وتصونا ، حتى لقد عجبت هند بنت عتبة ، وهى تعاهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، من أن يعاهدهن على ألا يزنين ، وقالت « وهل تزنى الحرة يارسول الله » (١٠٩) .

والحب الحسى ــ على الرغم من وجوده ووقوعه ــ حب كريه ، تمقته القبيلة ، ولا ترضى عنه الجماعة ، وكان الخليع مهانا عند

---

(١٠٨) اخبار النساء ص ٩٨
(١٠٩) الاصابة ٨ / ٢٠٥

العرب ، فقيس بن الحدادية ـ على الرغم من أنه كان شجاعا شاعرا ـ كان ممقوتا عند قومه لخلاعته ، فقد لقيه جماعة يريدون الغارة ، فقالوا : استاسر . فقال : وما ينفعكم منى اذا استاسرت وانا خليع ، والله لو أسرتمونى ، ثم طلبتم من قومى عنزا ما اعطيتموها » (١١٠) .

حتى اذا أظلهم الاسلام رغبهم اكثر واكثر فى هذه الصفة الحميدة ، وجعل القرآن يتلو على أسماعهم عفة يوسف ، وحزمه أمام المغريات ، وصرف الله عنه السوء والفحشاء ، وكان يأمر المؤمنين بغض الأبصار وحفظ الفروج « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم » (١١١) . ويأمر المؤمنات بالتصون : « ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن » (١١٢) وقد نهى الاسلام نهيا قاطعا عن قذف المحصنات واشاعة قالة السوء قال تعالى : « ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات ، لعنوا فى الدنيا والآخرة ، ولهم عذاب عظيم (١١٣) » . وجعل حد القذف ثمانين جلدة ، فقال تعالى : « والذين يرمون المحصنات ، ثم لم يأتوا بأربعة شهداء ، فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ، وأولئك هم الفاسقون » (١١٤) .

فالعشق العذرى عشق مرغوب فيه يباركه المجتمع والدين ، والحب الحسى حب ظلامى يطارده المجتمع والدين .

والبيئة العربية تساعد على نمو هذا النوع من الحب ، فهى بيئة صحراوية يتلألأ فيها القمر وتصفو فيها النجوم ، فتساعد على السمو بالعواطف .

---

(١١٠) الاغانى ١٣ / ٢ « ساسى »
(١١١) سورة النور من الآية ٣١
(١١٢) سورة النور من الآية ٣١
(١١٣) سورة النور الآية ٣٢
(١١٤) سورة النور الآية ٤

وكان العرب فى هذه البيئة يملكون وقت فراغ كبير ، يتيح لهم التعايش مع هذه العاطفة وتقليبها . وقد جعل داود الانطاكى « أشد الغرام ما كان عن فراغ ، فأخف الناس عشقا الملوك ، ثم من دونهم لاشتغالهم بتدبير الملك وقدرتهم على مرادهم ، ومن دونهم أفرغ له لقلة الاشتغال حتى يكون المتفرغون له هم أهل البادية ، لانهم غير مشغولين بعوائق ، ولذا فهم أكثر الناس موتا بالحب » (١١٥) .

وكانت المرأة - فى هذه البيئة الصافية الفارغة - تملأ على العربى حياته ، فطالما تقرب لها الشعراء وخطبوا ودها (١١٦) . وطالما شجع الرجال وكرسوا مرضاة لها (١١٧) . وطالما أشهدها الابطال على بلائهم ومفاخرهم (١١٨) ، وكانوا يعترفون بقدرها ويحترمونها ، ويعتبرونها مثل الرجال وشقت منهم ، فلهن مثل ما عليهن من الحقوق (١١٩) .

فلهذه الاسباب لا أبعد لو قلت : ان العربى يميل بطبعه وبيئته الى العشق العذرى ، وأن الحب الحسى قليل ومحارب من المجتمع . ولهذا كثرت قصص العشق العذرى ووضعت فيها الكتب والتآليف ، أما حكايات الحب الحسى ، فهى قليلة ، سريعة ، لم توضع لها كتب مستقلة ، مثل الكتب التى وضعت عن عفراء وعروة وكثير عزة ... الخ .

حتى الحب الحسى الذى كان معروفا عند العرب ، لم يخرج - فى معظمه وحتى العصر الذى نحن بصدده - العربى عن حده ، ولم يكن حبا ماجنا مستهترا بكل القيم والعادات . بل كان من هذا النوع الذى

---

(١١٥) تزيين الاسواق ١ / ٩
(١١٦) المرجع السابق ص ٩٨
(١١٧) المرجع السابق ص ٩٤
(١١٨) المرجع السابق ص ١٠٤
(١١٩) مجمع الامثال ١ / ٢٥

يسميه العرب « ظرفا » ويكون فيه الظريف وعاء لكل لطيف (١٢٠) . وابن أبى ربيعة ـ فارس هذا النوع ـ كان يذهب مذهب ابن أبى عتيق ، فابن أبى عتيق كان من أهل الطهارة والعفاف ، ومن سمع كلامه توهم أنه من أجرأ الناس على الفاحشة (١٢١) .

ولم يعرف العرب المجون والاستهتار ، ولم تنشأ بينهم ، ومن واقعهم ، ومن بيئتهم ، أمثال تلك المذاهب الاباحية التى عرفها الفرس مثلا ، فقد عرف الفرس رجلا يقال له . مزدك ، دعا أن تكون الأموال والنساء مشتركا بين الناس ، ودخل قباز ملك الفرس فى دينه . وذكر أن أم أنو شروان ، كانت يوما بين يدى زوجها الملك قباز ، فدخل عليهما مزدك ، فلما رأى أم أنو شروان أعجبته ، وقال للملك : ادفعها الى ، فقال . دونكها » (١٢٢) .

ولهذا أشك فى كثير من القصص التى لا تتمشى مع طبيعة الخلق العربى ، والتى رواها الرواة على أنها حدثت للعرب القدامى .

أشك مثلا فى كثير من الحكايات التى حيكت حول لقمان .

فقد قيل انه خرج يجول فى قبائل العرب ، فنزل بحى من العماليق فلما ظعن القوم ظعن معهم ، فسمع امرأة تقول لزوجها : لو حملت سفطى هذا حتى تجاوز به الثنية ، فان فيه من متاع النساء مالا بد لهن فيه ، ولعل البعير يقع فيتكسر . فاحتمله على عاتقه ، فلما انحدر وجد بللا فى صدره ، فشمه فاذا هو ريح بول قد جاء من السفط ، الذى على رأسه ، ففتح السفط فاذا هو بغلام قد خرج منه يعدو (١٢٣) .

ثم أتى قبيلة أخرى ، واذا هو بامرأة تذهب الى الخلاء ،فتبعها

---

(١٢٠) أخبار الظراف ص ١٢
(١٢١) نوادر الجاحظ ص ٨٠
(١٢٢) الاغانى ١ / ٧٨ « دار الكتب »
(١٢٣) المحاسن والاضداد ص ١٧٨ والتيجان ص ٧٣

لقمان ، فعارضها رجل ، فمضيا جميعا ، ثم وقع الرجل عليها ، وقضى حاجته منها ، فقالت المرأة : هل لك أن أتماوت على أهلى ، فانما هى ثلاثة أيام أكون فى رجمى ، ثم تجىء فتستخرجنى فنتمتع . فقـال الرجل : افعلى وكان اسمه الخلى ، وزوج المرأة اسمه الشجى فقال لقمان ويل للشجى من الخلى ، ففعلت ، وأخذها الرجل وظلت معه ، الى أن تعرفت عليها صغرى بناتها (١٢٤) .

أو قصته مع الفتاة التى حبسها فى بيت من الجبل ، ومع ذلك تسلل اليها رجل من العرب فى حزمة من الحطب ، وخانت لقمان فى غفلة منه (١٢٥) .

فهذه القصص لاتتفق مـع الطبيعة العربية ، فالمـرأة العربية لـم تكن بهذه الصنعة اذ لم تكن خائنة مخادعة ، تستغفل زوجها ، وتبيـع بناتها ، وتضحى بسـمعتها . والرجـل العربى لـم يكن بهذه الغفلة ، ولا بهذا الحمق ، وفى بعض هذه القصص ما يدعو الى نفى صـدقها التاريخى ، فما الداعى لأن تطلب المرأة من زوجها أن يحمل السفط كما جاء فى المحاسن ، أو التابوت كما يقول وهب ، هل هى ترغب فى اذلال زوجها ... وكفى ؟ ولم تعرض نفسها للفضيحة ؟ وما الداعى الذى يجعل الرجل يحمل السفط أو التابوت على كتفه ؟ لم لا يركب بعيره ويحمله معه ؟ وما الداعى الذى جعل الغلام يبول فى ذلك الوقت بالذات ؟ ... الخ .

اننى أشك فى هذه القصص من الناحية التاريخية ، وأعتقد أنهـا حكايات قد وضعت وتدوولت ، وكان المقصود منها بيان مكر المرأة ، وقدرتها على الخداع والحيلة ، ولهذا أحسن صاحب المحاسن والاضداد حين ذكرها تحت عنوان « مساوىء مكر النساء » .

ولعلى بهذا أكون قد أجبت على السؤال الأول : فقصص العشـق

---

(١٢٤) المحاسن والاضداد ص ١٧٨
(١٢٥) التيجان ص ٧٣

فقد نشأت نشأة شعبية عربية لم تنقل من فرس ولا روم . ولكن القصص العذرية هى القصص التى باركها المجتمع ، وافتخر بأبطالها ، أما الحكايات الحسية ، فهى حكايات ظلامية مطاردة من المجتمع .

ب ـ أما الاجابة على السؤال الثانى ، فانه من أصعب الأشياء أن أتبين التأثير الخارجى فى هذه القصص ، وخاصة أن العلماء العرب ـ على ما اعتقد ـ كانوا يستعيرون اسماء فارسية بقصد التحلية ، واثارة الانتباه ، ولو رجعت الى « أمثال أكثم بن صيفى ، وبزرجمهر الفارسى » وقد ذكرها ابن عبد ربه (١٢٦) ، دون أن يسند المثل الى صاحبه لما عرفت : هل المثل لأكثم أو لبزرجمهر ، ولرأيت عليها جميعا مسحة عربية ، مما يدل على أن اسم بزرجمهر اجتلب لغرض فى نفس المؤلف . بل وأحيانا تجد القصة تدور حول أعلام فارسية ، ثم تلاحظ أن اسلوبها اسلامى ، كتلك القصة التى رويت عن كسرى ابرويز ، فحين أعياه أمر خاله بسطام ، اتفق على تدبير مؤامرة بوساطة امرأة بسطام ، فقد أغراها بقتله ، على أن يتزوجها ويجعلها سيدة نسائه ، وكتب لها كتابا قال فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب لكردية بنت بهرام جسناسب ، كتبه لها كسرى أبرويز بن هرمز ، ان لك عندى عهد الله وذمة أنبيائه ورسله ، ان أنت قتلت بسطاما وارحتنى منه ، أن اتزوجك واجعلك سيدة نسائى ، وأبلغ من كرامتك مالا يبلغ معك ملك من الملوك ، وأشهد على ذلك ، وكفى بالله شهيدا » ومن هذا الجزء الذى اقتبسته من القصة وهى طويلة (١٢٧) ، الاحظ أن اسلوب كسرى أسلوب اسلامى وفيه عبارات قرآنية مثل : بسم الله الرحمن الرحيم » « وكفى بالله شهيدا » .

---

(١٢٦) العقد الفريد ١ / ٢٥٠
(١٢٧) المحاسن والاضداد ص ٦٨

ولكن لابد وقد عرفنا أن العرب لم يكونوا قفلا أمام الحضارات الأخرى ، وأن صلتهم بهذه الحضارات قد توثقت ، بعد أن اسقطوا فارس ، وفتحوا كثيرا من ممالك الروم ــ لابد أن تتأثر القصص بمؤثرات خارجية ، فبعض أبطال هذه القصص لم يكونوا عربا ، فقد كان منهم الفارسى كوضاح اليمن على أحد الأقوال (١٢٨) ومنهم الحبشى كزوج بريرة (١٢٩)

وقد كان من العادات الاجتماعية الشائعة عند العرب أن يجلسوا داخل خيمة أو بجانب نار ، ويستمعون الى شخص يسرد عليهم القصص ، وبعض هذه القصص كانت فارسية أو بيزنطية ، أو بابلية الأصل (١٣٠) ٠

ولعلى لا أبعد لو قلت : ان القصص التى تحمل رأى لقمان فى المرأة ، وأنها ماكرة ، مخادعة لا ترعى حرمة الزوجية ، ولا تصون واجبها نحو أبنائها ــ لعلى لا أبعد لو قلت : ان هذه القصص قد اجتلبت اليهم من الخارج ، فلو كان واضعها رجلا عربيا لكان على وضعه مسحة عربية ولكن العرب لا ينظرون الى المرأة هذه النظرة ، بل يحترمونها وتحترم هى نفسها عن أمثال هذه المخاتلات (١٣١) ، وصورة المرأة هنا أقرب الى صورة المرأة اليهودية التى تستخدم المكر والخديعة والخيانة (١٣٢) ٠

وعلى أى حال فالتاثير فى قصص العشق حتى العصر الأموى ، كان

---

(١٢٨) الاغانى ٦ / ٣١ « ساسى »

(١٢٩) مصارع العشاق ص ١٧٥

(١٣٠) The modern Arabic Short Story, p. 18

(١٣١) انظر مقالا لى عن « المرأة فى قصص القرآن » بمجلة منبر الاسلام ص ١٨٦ (٩ اغسطس سنة ١٩٦٤) وقد تعرضت فيه لنظرة الاساطير الاغريقية للمرأة ، ثم لنظرة التوراة ثم لنظرة القرآن ٠

(١٣٢) انظر سفر أستير ٠ ومقالا لى بمجلة الرسالة (١١ ذو الحجة سنة ١٣٨٣) ٠

تاثيرا ضئيلا ، فلم يعد الشكل الخارجى واستعارة اسماء فارسية ، أو نقل بعض حكايات مشكوك فى نسبتها الى العرب ، ولم يصل هذا التاثير الى المحتوى الداخلى فيؤثر فى العاطفة نفسها أو فى طريقة الحب ، أو فى الافكار التى تحملها هذه القصص .

ولكن ما القول فى تلك المشابهة التى نراها بين بعض مظاهــر قصص العشق ، وبين بعض المظاهر الاجنبية ، كتلك المشابهة فى العفة بين الحب الافلاطونى والحب العذرى ، أو تلك المشـــابهة فى موقف العذرى أمام القدر ، وموقف الاغريقى فى بعض المسرحيات الاغريقية .

ان البحث الموضوعى لا يكتفى بمجرد وجود احتكاك بين حضارتين ثم بوجود مشابهة فى بعض المظاهر ، فيحكم بأن الحضارة الأخيرة ، قد استمدت من الحضارة السابقة . بل لابد من وجود وثائق تثبت أن تلك الظاهرة بعينها ، قد نقلت أو ترجمت الى الحضارة الاخرى ، ولابد من نظرة كلية عامة ، لا تكتفى بمجرد مشابهة فى جانب ، بـل تمتد الى الجوانب الأخرى لترى هل هـذه المشابهة تامة ، أو أنهـا مشـابهة فى جزئية ، ومفارقة فى جزئيات .

وأظن أن تلك المشابهة التى نلمحها جاءت بمحض المصادفة .

فاننا لـم نعرف أن العرب قد ترجموا المسرحيـات الاغـريقية ، أو اطلعوا على شىء منها ، بل حتى حين ازدهرت الترجمة نقلوا المنطق الارسطى وما شابهه ، ولم ينقلوا المسرحيات الاغريقية .

ولست أعتقد أن موقف العذريين من القضاء والقدر ، كان متاثرا بما أشاعه فقهاء الاسلام ومحدثوه ، من مسائل اثناء شرحهم لبعض آيات من القرآن كما يرى الدكتور غنيمى (١٣٣) . تمشيا مع مذهبه العام فى الأثر الكبير للاسلام على نشأة الحب العذرى ، فقد كان هـــذا الموقف معروفا عند العاشق الجاهلى .

---

(١٣٣) الحياة العاطفية ص ٣٣

وكل ما أظنه ــ وسيأتى شرح هذا فى الفصل الثالث ، من الباب الثانى ــ أن هذا الموقف موقف معتاد لرجل العامة ، وأن الأحداث التى ابتلى بها الحجاز فى العصر الأموى قد نمت من هذا الموقف .

ومن ناحية أخرى فان الحب الافلاطونى يختلف عن الحب العذري .

فالحب الأفلاطونى مجموعة أفكار فلسفية ، فقد اجتمع كبار الفلاسفة اليونان ، ورأوا أن يتناولوا موضوع الحب بالبحث والتحليل ، فأدلى كل منهم برأيه ، فمثلا فيدروس يوسع من دائرة الحب ، فيربطه بالجماعات ، فاذا ارتبطت فئة برباط المودة ، وكونت حكومة أو جيشا ، فلا ريب فى أن مابينهم من روابط المودة يدعوهم الى أداء مايجب حق أداء (١٣٤) . أما بوسانيوس فيقسم الحب الى أنواع ثم يميز بين النوعين من الحب الملازم ، لزهرة بانديموس ، وهو الحب الذى تعرفه العامة لما فيه من الشهوات الدنيئة ، والحب الملازم لزهرة أورانوس وهو الحب المذكر الذى يوحى بالاخلاص والنقاء ويهيم فيه صاحبه بالعقول الناضجة والنفوس الصحيحة (١٣٥) . واريسطوفانوس يذكر أن الانسان كان فى أول أمره شيئا واحدا ، ثم رأت الالهة أن تعاقبة فقسمته الى نصفين : الذكر والانثى ، فعندما يلتقى النصفان يرتبطان برابطة الحبه السابق (١٣٦) . أما سقراط ، فقد تحدثت اليه ــ فيما تحدثت ــ ديوتيما النبية عن مراحل الحب . فيبدأ المحب بحب شكل واحد جميل ، ثم يحب سائر الاشكال ، ثم يتخلص الى محيط الجمال العقلى ، حتى يصل الى الجمال العام (١٣٧) .

أما الحب العذرى ، فهو حب بعيد عن الفلسفة وتحليلاتها وتفاريعها ومراحلها . اذ هو حياة ، كان يعيشها فئة من العرب ، يعشق الواحد

---

(١٣٤) مائدة أفلاطون ص ٢٢٠
(١٣٥) مائدة فلاطون ص ٢٢٥
(١٣٦) المرجع السابق ص ٢٣٦ ــ ٢٣٩
(١٣٧) المرجع السابق ص ٢٦٠

منهم ابنة عمه أو أخرى ثم يريد أن يتزوج بها ، فيحال بينهما فيظل يتغنى بها فى شعره ، ويحلم بها فى وجدانه .

فالعلاقة بينهما علاقة واهنة ، كتلك العلاقة التى نلاحظها بين الفيلسوف والشاعر وبين العقل والعاطفة (١٣٨) .

وعلى ذلك حين يشير ابن داود الى الأسطورة الاغريقية ، التى ترى أن الانسان كان واحدا ثم قسم الى نصفين ، ثم يقول : « وقد قال جميل فى ذلك :

تعلق روحى روحها قبل خلقنا ... ومن بعد ما كنا نطافا وفى المهد

فزاد كما زدنا فاصبح ناميا ... وليس اذا متنا بمنتقض العهد

ولكنه باق على كل حالة

وزائرنا فى ظلمة القبر واللحد (١٣٩)

حين يفعل ابن داود ذلك ، لا أعتقد أنه يؤمن بأثر الاسطورة الاغريقية على جميل ، وانما يشير الى مجرد المشابهة بين شيئين . كما اننى لا اعتقد أن جميلا قد تأثر بفكرة اسلامية ، وهى أن محدثى الصدر الأول كانوا يؤمنون بيوم الميثاق ، ويرون أنه حق أخذه الله على الخلائق قبل أن يأتوا الى هذا العالم ـ كما يرى الدكتور غنيمى (١٤٠) تمشيا مع مذهبه العام . فقد كانت الفكرة التى جاءت فى شعر جميل موجودة عند شعراء جاهليين ، وابن داود قبل أن يذكر الاسطورة الاغريقية ذكر قول طرفة بن العبد :

---

(١٣٨) كثير من المفكرين ردوا على فكرة ماسينون ، أذكر منهم :
ـ الدكتور أحمد الحوفى (الغزل فى العصر الجاهلى ص ١٥٤) .
ـ موسى خليل سليمان (الحب العذرى) ص ٥١ .
ـ أحمد عبد الستار الجوارى (الحب العذرى ص ٤٥) .
ـ عبد اللطيف شراره (فلسفة الحب عند العرب ص ٩٣) .
(١٣٩) الزهرة ص ١٤ وانظر ذم الهوى ص ٢٩٧ .
(١٤٠) الحياة العاطفية ٣١٢ .

تعارف أرواح الرجال اذا التقوا   فمنهم عدو يتقى وصديق (١٤١)

فالحب العذرى فى العصر الأموى ، كان حياة يعانيها فريق من الشعراء وقد شغلتهم هـذه الحيـاة عن فلسـفة حبهم وتحليله وبيـان مصادره . حقا وبعد هذا العصر ، حين هدأت هذه العاطفة ونضج العقل العربى ، وغذته موارد الفلسفة الأجنبية – حين ذاك أصبحت هـذه العاطفة ، محور تفكير وفلسفة ، فالفت حولها الكتب والرسـائل مثـل رسالة العشق لابن سينا ، ورسائل اخوان الصفا . ومثل الكتب التى ألفها ابن داود وابن حزم والسراج وابن قيم الجوزية وابن ابى حجلة وداود الانطاكى ... الخ .

وفى بعض هذه الرسائل وتلك الكتب ، لا انكر وجود اثر للفلسفة الاغريقية ولكن هذا بحث آخر .

ولعلى بذلك أكون قد أجبت عن السؤال الثانى ، فقصص العشـق كان تاثرها بالحضارات الاخرى ضئيلا لايتجاوز الشـكل الخارجى . ولا يصـل الى المحتـوى الداخـلى فيؤثر على العـاطفة نفسـها أو على مقادير ابطالها .

جـ – اما الاجابة على السؤال الثالث ، فانني أعتقد ان الذى أدى الى هذه العزلة فى قصص العشق ، أسباب منها :

١ – كان حكام بنى أمية يتعصبون لكل ماهو عربى . وكان خيالهم يجنح الى حياة البادية ، ومثلهم العليا تلتمس من النماذج الصحراوية ، حكى ان عبد الملك بن مروان كان يعجب بأحاديث عروة بن الورد ، وهو فارس من فرسان الجاهلية واجودها ، وصعلوك من صعاليكها . وقد قـال عبد الملك مـرة : « ما يسرنى أحـد أنه ولدنى الا عـروة ابن الورد » (١٤٢) .

---

(١٤١) الزهرة ص ١٤ .
(١٤٢) الاغانى ٢ / ١٨٤ « ساسى » .

وسار الولاة على دين ملوكهم فكان الحجاج يتعلق بكل ماهــــو عربى ، ويطلب من جرير والفرزدق ان يدخلا عليه فى لباس آبائهما فى الجاهلية ٠

وسار الناس على دين الولاة ، فشغل معظم الرواة بالادب العربى واخبار الامة العربية ، اهتماما بما يروج لدى الرؤساء ومن وراءهم ٠

ولهذا نجد ان الموضوعات العربية هى الموضوعات الرائجة ، قال المسعودى : ان عبد الملك بن مروان ، يحب الشعر ، والفخر ، والتقريظ والمدح ٠ وكان عماله على مثل مذهبه » (١٤٣) ٠

حتى الشعراء الفرس مثلا ، لم يتجهوا الى الأدب الفارسى ليأخذوا منه موضوعاتهم ، بل قلدوا الطـرق العربية ٠ واقرأ مثلا أخبار زيـــاد الاعجم ، أو اسماعيل بن يسار ، فلن تجد فرقا بينهما وبين شـــاعر من أبوين عربيين ٠

على أن العرب أو فريقا منهم كانوا يميلون الى المحافظة ، أو الى أن يأخذ الخلف عن سلفه ، وكلنا يعرف ان رسم القصيدة الجاهلية ، ظل مسيطرا على الأدب العربى الى وقت قريب ٠ ويتحدث ابن رشيق عن طائفة من مشاهير الرواة تتعصب للقديم ، مثل أبى عمرو بن العلاء ، والأصمعى ، وابن الأعرابى ٠ فكان ابو عمرو يقول : « لقد أحسن هذا المولد ، حتى هممت أن آمر صبياننا بروايته » يعنى بذلك شعر جـرير والفرزدق ٠ فجعله مولـــدا ، بالاضـــافة الى الشـــعراء الجـــاهليين والمخضرمين ٠ وكان لا يعد الشعر الا للمتقدمين ٠ قال الأصمعى : جلست اليه ثمانى حجج ، فما سمعته يحتج ببيت اسلامى » (١٤٤) ٠

وقد انبهر المسلمون بالاسلام ، فقد نقلهم من حياة بادية ، الى

---

(١٤٣) مروج الذهب ٣ / ٣٦
(١٤٤) العمدة / ٥٧

حياة متحضرة ، ومن حالة كانوا يتسقطون فيها فتات الموائد ، الى حالة اصبحوا فيها سادة الموائد ، فاقبلوا على القرآن يتفهمونه ، ويدرسون هديه ومعانيه ، ووجدوا فيه مجالا خصبا ، يغنيهم عما سواه . قال ابن خلدون « ولما فتحت ارض فارس ، ووجدوا فيها كتبا كثيرة ، كتب سعد ابن أبى وقاص الى عمر ليستاذنه فى شانها وتنقيلها للمسلمين . فكتب اليه عمر أن اطرحوها فى الماء ، فان يكن مافيها هديا ، فقد هدانا الله باهدى منه . وان يكن ضلالا ، فقد كفانا الله . فطرحوها فى الماء أو النار ، فذهبت علوم الفرس عن أن تصل الينا » (١٤٥) .

فالتعصب للقديم ، مع ميل كثير من الرواة الى المحافظة ، والانبهار بالعقيدة الجديدة ، وروعة القرآن ـ كل هذا ساعد على الا تتاثر قصص العشق بالمؤثرات الاجنبية تاثرا كبيرا .

٢ ـ معظم قصص الحب والعشق ، نشأت داخل الجزيرة العربية وبنوع خاص فى الحجاز : حواضره وبواديه .

ولو القيت نظرة دقيقة على خريطة طبيعية للجزيرة العربية ، لوجدت انها ابتليت بالصحراء الشاسعة ، والجبال الكثيرة . فجبال السراة تمتد فى الحجاز شرقا وغربا . ونجد هى الصحراء الداخلية لجزيرة العرب ، ويمكن ان نميز فيها صحراء النفود التى تقع شماليها ، وتشتهر بكثباتها الرملية ، وجنوبى هذه الصحراء نجد جبلى طيىء أجا وسلمى ، وتضيق صحراء النفود كلما اتجهنا شرقا حتى تصل بوساطة برزخ ضيق الى صحراء الدهناء الشرقية التى تسقط سقوطا مباشرة نحو الخليج الفارسى . وفى جنوب الدهناء من ناحية الغرب ، نلتقى بصحراء كبيره تسمى الربع الخالى .

---

(١٤٥) مقدمة ابن خلدون ص ٤٨٠ ، ومع أننى اشك فى هذا فليس العرب قوما متعصبين ، وقد افادوا من الثقافة الفارسية وغيرها ، الا أن دلالة النص تبقى فى أن العرب قد شغلوا بالقرآن والعلوم الاسلامية كثيرا .

ويعيش معظم سكان هذه المناطق فى انتظار الغيث والكلأ . وينتقل العربى من مكان الى مكان فى طلب الكلا ، وكثيرا ما تقوم حروب حول هذه الأماكن ، والقوى من يستطيع ان يحمى اكبر قدر ممكن من هذه الأماكن ، ولذلك كانت حياة معظم العرب فى ضنك ، حياة لاتعـرف الاستقرار ولا الاطمئنان ، فهم فى انتقال من مكان الى مكان ، وهم فى حروب مع القبائل الأخرى من أجل لقمة العيش .

فهذا الجدب والجفاف ووعورة المسالك ، جعل تلك الأماكن تعيش فى عزلة نسبية عن العالم الخارجى ، فلم تتعاقبها مدنيات مختلفة الا اثارة قليلة تتساقط اليها . وتلك الطبيعة جعلت الفاتحين العظام ينصرفون عن احتلال الحجاز « فلم يعبث بحريته الملوك الفاتحون ، فى الوقت الذى عبث فيه كيرش وقمبيز وغيرهما من ملوك الفرس باستقلال كثير من الأمم ، كذلك ظل محافظا على استقلاله أيام الاسكندر المقدونى » (١٤٦)

فالصلة بين الحجاز ومن جاوره لم تكن ـ قبل الاسلام ـ عميقة تصل الى حد الازدواج ، وانما وصلت الى هذا الحد بعد الفتوحـــات الاسلامية .

ولا ننتظر ان تكون لهـذه الفتوحـات أثرهـا العميق فى العصر الأموى ، فقد كان المسلمون فى مرحلة الدهشة ، وكانوا مبهورين بكنوز الأرض وخيراتهـا ، ونشر الاســلام وتعاليمه عن ترجمة كتب الفرس والروم . حقا وجدت بواكير الترجمة فى هذا العصر ، ولكن الترجمة الكثيرة الواسعة انما كانت فى العصر العباسى . هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية ، فان الحجاز لم يحافظ على سطوته سنين طويلة ، فمـا ان يهل العقد الرابع من السنة الهجرية ، حتى ينتقل مركز الحكم الى الشام وينتقل مركز المعارضة الى العراق ، وقد حاولت دمشق ان تبقى

---

(١٤٦) تاريخ الاسلام ١ / ٤٤

الحجاز على عزلته وبعده عن المساهمة فى مقاليد الدولة ، وفعلت فى ذلك الافاعيل .

وهذه العزلة للحجاز ، جعلته يشتهر فى الاسلام بنوع خاص من العلم ، وهو العلم الدينى المطبوع بالطابع العربى ، كالتفسير والحديث والفقه واللغة والانساب بينما اشتهرت العراق والشام بالعلوم العقلية التى كانت أساسا لعلم الكلام ، كالجدل حول القضاء والقدر ، وصفات الله ، وغير ذلك من بحوث تاثرت بالثقافة الهيلينية كما سبق أن ذكرت .

ولهذا كان أبطـال العشـق الذى نجموا فى الحجـاز ، بمعزل عن التيـارات الثقافية أو الحزبية التى كانت سـائدة فى العصر الأمـوى ، فعمر بن أبى ربيعة وركبه ، كانوا مشغولين بمغامراتهم ومعاركهم الغرامية وانتصاراتهم الوهمية ، عن المساهمة فى صنع الحياة ، وفى الانتصار الفعلى لمذهب أو حزب ، والمجنون وثلته ، كانوا غارقين فى تهويماتهم وسبحاتهم ، عن مجابهة الواقع ، والصدام به .

ولم نجد لواحد منهم تحمسا لمذهب أو تيار ، فلم نجد منهـم خارجيا يشهر السلاح ، فى وجه الطغيان ، ولم نجد منهم معتزليا يرى أن من أصول مذهبه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولا حتى من أسهم مع بنى أمية أو مع بنى المهلب فى حروبهم .

بخلاف شعراء العراق والشام ، فمنهم من كان يتحمس للشـيعة كالكميت (١٤٧) ومنهم من كان خارجيا كالطرماح بن الحكم (١٤٨) . وكان بعضهم يحبذ مجلس علم على آخر ، فقد كان الفرزدق صـديقا للحسن البصرى ، وكان يفضل حلقته ويذهب اليها (١٤٩) .

---

(١٤٧) الاغانى ١٥ / ١٩ « ساسى » .
(١٤٨) المرجع السابق ١٠ / ١٤٩
(١٤٩) العقد الفريد ٦ / ١٢٥

حقا ، كان كثير شيعيا ، ولكنه فى تشيعه كان أشبه بالمشعوذ والمخرف ، وكانت معلوماته أقرب الى رجل العامة ، وحين سئل عن مصدر معلوماته قال بالتوهم (١٥٠) وكان فريق من آل البيت يعتقدون أن كثيرا بموقفه هذا ، يضرهم أكثر مما ينفعهم فعبد الله بن حسن خاصمه من أجل هذا ، وأقسم أنه لا يشهده ان مات ، ولا يعوده ولا يكلمه (١٥١) .

ولو قارنت بينه وبين شاعر آخر ، يحب الشيعة ويتعصب لهم ، وهو الكميت لأدركت أن الأخير ذا عقلية حسنة ، كما وصفه الفرزدق (١٥٢) ، وكان لايبدو فى هاشمياته الخبل والشعوذة . بل يحتج فيجيد الاحتجاج ، مما يدل على أن العلم قد صقل عقله وقوى موقفه ، وانظر قصيدته التى مطلعها :

طربت وما شوقا الى البيض أطرب

ولا لعبا مني ، وذو الجهل يلعب (١٥٣)

فستجد فيها الاحتجاج القوى الذى يصدر عن عقلية حسنة .

فعزلة الحجاز النسبية كان لها اثر ، فى أن تجعل تأثير الحضارات الخارجية على قصص العشق ، تاثيرا ضئيلا .

ولكن هذه العزلة ، وذاك الجدب والجفاف والوعورة ، وذلك التعصب والمحافظة والانبهار بالعقيدة الجديدة ، لم تمنع الغناء مثلا أن يتأثر بالتيار الخارجى تأثرا كبيرا ، فقد كان غناء العرب قديما كما يقول ابن رشيق ــ على ثلاثة أوجه : النصب والسناد والهزج ، حتى جاء الله بالاسلام ، وفتحت العراق وجلب الرقيق من فارس والروم ، فغنوا

---

(١٥٠) الاغانى ٩ / ١٦ « دار الكتب »
(١٥١) المرجع السابق ٩ / ١٧
(١٥٢) الاغانى ١٥ / ١١٩ « ساسى »
(١٥٣) الاغانى ١٥ / ١١٦ « ساسى »

الغناء المجزء المؤلف بالفارسية والرومانية وغنوا جميعا بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير (١٥٤) .

وهنا أصل الى السبب الثالث ، الذى اعتبره أهم الأسباب :

٣ ـ فالغناء ـ كما يرى ابن خلدون ـ يزدهر نتيجة الحضارة ، وهو مطلب كمالى لا يستدعيه « الا من فرغ من جميع حاجاته الضرورية والمهمة من المعاش والمنزل وغيره » . وقد كان العرب فى جاهليتهم أهل بداوة ، فلم يزدهـر لديهـم الغنـاء ، حتى جاءهـم الترف واتصلوا بحضارات الأمم الأخرى ، فازدهر الغناء وتنوع (١٥٥) .

بخلاف قصص العشق ، فانها قصص شعبية ، تداولها العربى منذ الجاهليه ، وكان يسمر بها فى الليالى المقمرة ، وفوق الكثبان العفر ، وحول النيران المتقدة ، وفى حلقات الانس والسمر ، وورث عنه العربى المسلم هذه العادة ، واخذت هذه الحكايات تقص بين العجائز والعامة ، وفى أوقات السمر والحديث ، والعامة ـ يومئذ ـ بعيدون عن المنـافذ الخارجية والتيارات الثقافية ، ولهذا لم يتح لهذه القصص تلقيح جديد أو دم آخر ، وانصرف عنها الأدباء والخاصة والنقاد ، واعتبروها لغوا من الحديث ، ونوعا من السمر لا يستحق الاهتمام ولا العناية .

فالقصص نوع من السمر الشعبى ، الذى لا يتفتح للمنافذ الخارجية ، بخلاف الغناء الذى اجتلب من الخارج نتيجة الحضارة وتعقدها .

ونهاية الفصل ، أن كلا من قصص الحب الحسى ، والعشق العذرى ، قد نشأ نشأة عربية خالصة ، فعرفها العرب منذ العهود البائدة وتتابع وجودها من عصر الى عصر . ولكنى ألاحظ أن هذه القصص قد ازدهرت وتكاثرت فى العصر الأموى . فالعشاق العذريون الأربعة المشهورون ،

---

(١٥٤) العمدة ٢ / ٢٤١
(١٥٥) مقدمة ابن خلدون ص ٤٢٧

تبغوا فى العصر الأموى « قال الفارسى فى تنزيه النفس : من لدن أدار الله الأفق على نظام التربيع ، حيث جعل دائرة العالم العلوى أربعة ، والعناصر والرياح والطبائع كذلك ، جعل المذاهب وطريقة الحقيقة يعنى مسالك الصوفية ، والعشاق كذلك . أما العشاق فهم : جميل بثينه ، ومجنون ليلى ، وكثير عـــــزة ، وقيس لبنى (١٥٦) » . والأستاذ جورجى زيدان أحصى شعراء العشق فى الجاهلية ، وفى العصر الأموى فاذا بهم فى الجاهلية ستة شعراء ، ثم صاروا فى العصر الأموى واحدا وعشرين شاعرا (١٥٧) .

ولابد إن لهذه الكثرة والازدهار أسبابا ، هى حديثى فى الفصـل المقبـــل .

---

(١٥٦) تزيين الأسواق ١ / ٣٨

(١٥٧) تاريخ آداب اللغة العربية ١ / ٢٤٨ . والدكتور أحمد الحوفى ذكر أكثر من عشرة شعراء ، عشـقوا عشـقا عذريا فى العصر الجاهلى (الغزل فى العصر الجاهلى ص ١٢٠) . وسواء أكانوا ستة أم أكثر من عشرة ، فانهم قد كثروا فى العصر الأموى كثرة واضحة ، قال رجل من عذرة لعروة بن الزبير « لقد خلفت فى الحى ثمانين مريضا ، دنفـا ، عشقا ما بهم غير الحب قد خامر قلوبهم » (الموشى ٨٥) .

الفصل الثانى

اسباب ازدهار قصص العشق في العصر الأموى

اختار الحسن بن على الحل الأسلم ، فسلم الأمر لمعاوية بن أبى سفيان سنة احدى واربعين من الهجرة وسمى العام عام الجماعة ٠

وبقيام الدولة الجديدة (الدولة الأموية) ، قام طراز جديد من الحكم يختلف فى كثير من مقاصده وأساليبه عما كان يقصد اليه الجيل السابق ، وتحقق قول الرسول ﷺ « الخلافة بعد ثلاثون سنة ثم تكـون ملكا عضوضا (١) ».

فمعاوية مؤسس هذه الأسرة الأموية يمثل الزعيم الذى خلقته الحياة الجديدة ٠ ولهذا اختلفت وسائله ، وأصبحت اكثر ملاءمة لتلك الحياة ، أعلن معاوية سياسته بوضوح حين قدم المدينة عام الجماعة ، فقـــال « ولقد رضت لكم نفسى على عمل ابن أبى قحافة ، وأردتها على عمل عمر ، فنفرت من ذلك نفارا شديدا ، وأردتها على سنيات عثمان فأبت على ، فسلكت بها طريقا لى ولكم فيه منفعة ، مؤاكلة حسنة ومشاربة جميلة ، فان لم تجدونى خيركم فانى خير لكم ولاية » ٠

وينشا جيل جديد لم يشاهد الرسول عليه السلام ولم يتم له أن يشهد عنفوان الدعوة ، فلم يجد غضاضة فى أن يتمتع بحياته وأن ينعم بأطايب العيش ، فبينما كان عمر رضى الله عنه يرقع ثوبه ، وكان على كرم الله وجهه يقول : يا صفراء ويا بيضاء غرى غيرى » وكان أبو موسى

---

(١) مروج الذهب ٢ / ٥٢

يتجافى عن أكل الدجاج (٢) ٠ بينما كان حال السابقين كذلك ، كان يزيد صاحب طـرب وجوارح وكـلاب وقرود وفهـود ومنـادمة على الشراب (٣) وكان عبد الملك يجلس بين جاريتين تميسان ، وبيد كل جـارية منهمـا مروحـة تروح عليه ، ومكتوب بالذهب عليها أشعار غزلية (٤) ٠

وهذا وغيره يدل على أن حياة جديدة قد ابتدأ يعيشـها الناس ، وملكا أساسه الترف والنعيم جاء اثر خلافة مبناها التقصى والتحرج ٠

ونظرة الى العصر الأموى يتبين لك أن هذا العصر قـد اشـتهر بالصراع والاضطراب ، فالثورات تمـلأ كل مكان ، والحروب تشـتد ، والعصبية بين القبائل قد بدأت تطفح ٠

ففى سنة ٤٢ هـ اجتمع الخوارج واعتزموا على القيام بثورة ، واختاروا زعيما لهم المستورد بن علقة الخـارجى ٠ فحاربهـم المغيرة ابن شعبة ، وأرسل اليهم جيشا على رأسه معقل بن قيس فانتصر عليهم وقتل المستورد (٥) ٠

وفى سـنة ٥٣ هـ نمى الى زيـاد بن أبى سـفيان أن جماعة من الشيعة ، على راسهم حجر بن عدى الكندى ، يجمعون الناس ويدعـون الى الحرب ، فبادر زياد الى القبض على حجر ومن معه ، ثم قتـل ثمانية من بينهم حجر (٦) ٠

ومن سنة ٧٤ هـ الى سنة ٧٧ هـ انشغل عبد الملك بن مروان بحربه الخوارج ، وانتدب لذلك قواده العظام مثل المهلب والحجاج ٠

---

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٤
(٣) مروج الذهب ٢ / ٩٤
(٤) العقد الفريد ٣ / ١٨٤
(٥) تاريخ الطبرى ٤ / ١٣
(٦) مروج الذهب ٢ / ٣٠٧

والناظر الى العرب فى العصر الأموى ، يجد أن كثيرا منهم قد عادوا الى حياة أشبه بحياة أجدادهم فى الجاهلية ، كالسلب والنهب بين القبائل والنزاع بسبب العصبية والتفاخر بالأشعار التى تسيل بسببها الدماء .

فالنزاع بين القبائل قد اشتد أواره فى مختلف الأقاليم ، ففى خراسان بين الأزد وتميم ، وفى الشام حرب بين اليمانية وكان هواهم مع الأمويين ، والقيسية وكانوا زبدية ، وحدثت أيام رهيبة كانت أهمها « مرج راهط » ، وفيه خرج عبد الملك بن مروان فى ثلاثة عشر ألفا ، وخرج الضحاك بن قيس فى ستين ألفا ، واقتتلوا بالمرج عشرين يوما .

كان هذا هو الأمر خارج الحجاز فى الأقاليم الاسلامية : ثورات وصراع واضطراب وهيجان .

أما فى الحجاز فقد وجد الأمويون أن الحجازيين يحقدون عليهم ، ولا يمكن أن يصفوا لهم ، ففى الحجاز يقطن معظم آل هاشم ، الأعداء التقليديين لآل أمية . والذين يعتقدون أنهم أصحاب الحق فى تولية أمور المسلمين ، فهم آل بيت محمد ﷺ صاحب الدعوة . وقد كانت المدينة مركز النشاط الاسلامى وعاصمة الدولة الاسلامية ، وموطن الأنصار الذين نصروا الدين وآزروه ، ويعتبرون من المؤسسين الأوائل للدعوة المحمدية .

ثم انتقل مركز النشاط ـ وعلى يد الأمويين ـ الى دمشق ، فأصبحت هى عاصمة المسلمين ، فيها يقطن الخليفة وخاصته ، واليها ترد السبايا والغنائم ، ومنها تصدر الأوامر والتعليمات .

وحاول الحجاز أن يسترد سلطته بمختلف الوسائل ، ولكن الأمويين استعملوا معهم وسائل ارهابية ، لا تعرف الشفقة ولا اللين ، حتى استطاعوا أن يكسروا شوكته ، وأن يقصفوا جناحه .

امتنع الحسين عن البيعة ليزيد وخرج يريد العراق ، حتى وصل الى الكوفة والتقى بجيش عبيد الله بن زياد والى الكوفة من قبل الأمويين بكربلاء ، والتقى الجيشان وقتل الحسين . ولنترك ابن قيس الشعبى يصف مقتل الحسين فيقول « فغدونا عليهم مع شروق الشمس ، فأحطنا بهم من كل ناحية ، حتى أخذت السيوف مأخذها من هام الرجال ، فجعلوا يلوذون منا بالآكام والحفر ، كما يلوذ الحمام من الصقر ، فلم يكن الا نحر جزور أو نوم نائم حتى أتينا على آخرهم ، فهاتيك أجسامهم مجزرة ، وهامهم مزملة ، وخدودهم معفرة ، تصهرهم الشمس ، وتسفى عليهم الريح بقاع سبسب ، زوارهم العقبان والرخم » (٧) .

ثم علا نجم ابن الزبير ، فملك الحجاز والعراق ، وبايعه أهل مصر ، ومعظم أهل الشام ، حتى ولى الأمر عبد الملك بن مروان فرماه بالحجاج الذى خرج يريد ابن الزبير فى الف وخمسمائة رجل ، وجعل عبد الملك يرسل اليه الجيوش رسلا بعد رسل ، حتى «هزموا ابن الزبير وقتلوه ، وقتلوا معه عبد الله بن صفوان وعمارة بن حزم وعبد الله بن مطيع ، وبعث الحجاج برءوسهم الى المدينة فنصبوها ، فجعلوا يقربون رأس صفوان الى رأس ابن الزبير ، كأنه يساره ويلعبون بذلك ، ثم بعثوا برءوسهم الى عبد الملك ابن مروان » (٨) .

وكان الحجاج طاغية سفاكا ، ممن يحكى التاريخ عنهم أنهم لا يرتوون من الدماء كهولاكو ونيرون ، ابتلى الله المدينة به ، فعبث بانسانيتها ، ولعب بأقدارها ، وهتك كبرياءها ، وأشاع فيهم الرعب والرهبة ، وجعلهم يكرهون حياتهم ، وقد وجد فى سجنه ثلاثة وثلاثون الفا ، ما يجب على أحد منهم قطع ولا قتل ولا صلب (٩) ، ومات فى

---

(٧) العقد الفريد ٣ / ٢٤٢
(٨) مروج الذهب ٢ / ١٠١
(٩) أخبار الظراف والمتماجنين ص ٦٨

حبسه خمسون الف رجل وثلاثون الف امراة ، وكان يحبس النســـــاء والرجال فى موضع واحد ، ولم يكن فى الحبس ستر يستر الناس من الشمس فى الصيف ، ولا من المطر والبرد فى الشتاء (١٠) .

وقد دافع الانصار عن حقوقهم ، واضمروا بغضا للامويين ، واندفع شاعرهم عبد الرحمن بن حسان بن ثابت ، يترجم عن حقد اهـــــل المدينة نحو معاوية واهل بيته ، فجعل يهجو معاوية ويتغزل فى ابنتـه رملة ، الى ان استعدى يزيد بن معاوية الاخطل على الانصار ، فجعل يهجوهم ويقول :

ذهبت قريش بالسـماحة والنـــدى واللؤم تحت عمائم الانصار (١١)

وخلاصة سياسة الامويين نحو الحجاز ، هى كسر شوكتها بكـــل وسيلة ، والقضاء على عنصر المقاومة ، وتمييع ارادتها وارغامها على الاستسلام ، فعبثوا بحرماتها ، وانتهكوا اعراضها ، واهانوا شيوخهـــا ، وقتلوا ثوارها ، واسرفوا على آل البيت الذين كانت لهم مكانة فى قلوب الحجازيين .

وقد أثمرت هذه السياسة ثمرات ، تختلف باختلاف نفسية الشخص ، وتختلف باختلاف الظروف التى تحيط بالشخص .

فمن الحجـازيين من اتجـه الى الزهـد والعبادة ، ومنهـم من استعرض بطولته فى العشق والتوله .

ويلوح للوهلة الاولى ان الزهد والعشق نقيضان ، لا يمكن ان يكونا ثمرة عصر واحد وظروف واحدة وبيئة واحدة . ولكن عند ارجاع الامور الى مصادرها الاولى ، نجد انهما نتيجة ظروف واحدة وبيئة واحـدة وثمرة عصر واحد .

---

(١٠) مروج الذهب ٢ / ١٥٨

(١١) الشعر والشعراء ١ / ٤٥٦

ففى الزهد نوع من الاستسلام ، والبعد عن الحياة العامة وعن الدنيا والخيرات الجديدة ، وفى العشق ايضا زهد فى الرياسة والجاه وانصراف عن مقاتلة الأقران وعزوف عن المجد والسلطان ، وفيه استعراض بطولة وهمية واظهار كفاءة خيالية ، يستغنى بها الشاعر المتيم عن البطولة التى يظهرها العراقى المعارض ، والمناضلة التى يبديها الشاعر المقاتل ٠

ليس هناك تناقض بين الزهد والعشق ، فازدهارهما فى الحجاز كان نتيجة ظروف واحدة متشابهة ، ولهذا لا نعجب حين نقرأ ان من الزهاد من كانوا عشاقا ، كعروة بن اذينة وعبد الرحمن القس ٠

ولكن العشق اتخذ الوانا فى حواضر الحجاز ، يختلف عن اللون الذى اتخذه فى بواديها ، ففى الحواضر انتشر الحب الحسى الذى يهتم بالجسد بالدرجة الأولى ، وفى البوادى ازدهر العشق العذرى الذى يتميز بالعفة والانشغال بالعاطفة ٠

ولابد ان يكون لذلك أسباب نحاول أن نكشف عنها ٠

عوامل ازدهار الحب الحسى فى حواضر الحجاز :

من المدينة خرجت جيوش المسلمين تفتح بلاد كسرى وقيصر ، والى تلك المدينة كانت تعود الجيوش من مواقعها بجر الحقائب بما حملته من مغانم وكنوز . وان العقل ليدهش أمام تلك الخبرات التى صبت فى حجور المسلمين صبا ، فيتحدث الطبرى عن الخيرات التى وجدها المسلمون لما فتحوا فارس ، فيذكر أنهم وقعوا على سفطين . وجد فى أحدهما فرس كله ذهب مسرج بسرج من فضة ، وعلى لببه الياقوت والزمرد ، وعليه فارس من فضة مكلل بالجوهر ، وفى الآخر وجدت ناقة من فضة عليها شليل من ذهب ، ولها زمام من ذهب ، وكل ذلك منظوم بالياقوت ، وعليها رجل من ذهب مكلل بالجوهر (١٢) .

وهذه الخيرات التى جلبت الى المدينة ، أضيفت لها خيرات أخرى فى العصر الأموى ، فقد كان من سياسة الأمويين ـ بجانب سياسة العنف ـ تدفق الأموال الى الحجاز ، يريدون بذلك استمالة الحجازيين اليهم من ناحية ، وشغلهم بالأموال والخيرات عن التطلع للسلطان والحكم من ناحية أخرى . فقد أهدى معاوية عبيد الله بن العباس وهو عنده من هدايا النوروز ، حللا كثيرة ومسكا وآنية من ذهب وفضة (١٣) . وقدم عبد الله بن جعفر على يزيد بن معاوية فقال له : كم عطاؤك ؟ فقال : ألف ألف . قال : قد أضعفناها لك . قال . فداك أبى وأمى ، وما قلتها لأحد قبلك . فقال : قد أضعفناها لك ثانية (١٤) . وكان مهر أم كلثوم بنت عبد الله بن جعفر حين زوجها من الحجاج ألفى ألف فى السر وخمسمائة ألف فى العلانية (١٥) .

هذه الخيرات التى تدفقت على شباب الحجاز ، بالاضافة الى

---

(١٢) تاريخ الطبرى ٣ / ١٢٨ .
(١٣) ثمرات الأوراق ص ٥٦ .
(١٤) العقد الفريد ١ / ١١٠ .
(١٥) المرجع السابق ١ / ١١٠ .

الأموال التى ورثوها عن آبائهم الفاتحين ، كونت طبقة ارستقراطيـة وبيوتات ذات ثراء عريض وصيت ذائع ، وقد ركنت هذه الطبقة الثرية الوارثة الى حياة الدعة والسكون ، لأنه اذا حصل الملك ـ كما يقـــول ابن خلدون ـ آثر الناس الراحة على المتاعب ، واستمتعوا بأحـــوال الدنيا • ومما ساعد هذه الطبقة الأرستقراطية على الاستمتاع انتشـــار الموالى والجوارى ، وهى طبقة كانت تقوم لسادتها بكل ماتحتاجه ظروف الحياة من كد وعمل وجهد ، فتتيح لها وقتا للتمتع •

الموالى والجوارى :

حملت الحروب الاسلامية كثيرا من الأسرى والسبايا الى المدينة ، وقد مات الزبير بن العوام وحده عن ألف عبد وأمة (١٦) •

وكانت الموالى ـ أو معظمهم ـ يمثلون الطبقة الخادمة ، التى لايحق لها أن تتطاول الى الطبقة العليا ، وكانوا ينهضون بالأعمـــال المهنية بدلا من سادتهـم الأشراف ، فكانـوا يقيمون الســوق ويعمرون الطوابق على حد قول معاوية (١٧) ، وكانوا يكسحون الطرق ويخرزون الخفاف ويحوكون الثياب على حد قول عامر بن عبد القيس (١٨) ، وقد أتاح هذا فراغا كبيرا للسادة ينفقونه فى بلهنية العيش وزخـــرف الحياة •

وامتلأت الحجاز بالجوارى ، روميات وفارسيات وشاميات وعراقيات ومصريات وحبشيات ومغربيات • وقد كان لهن أثر كبير فى اشاعة الحب الحسى فى الحجاز ، فلم يكن فيهن عفة العربيات ولا اباء الحرائر ، بل كن يتكشفن ولا يجدن فى ذلك غضاضة بحكم مركزهن الاجتماعى ، وقد اقبل عليهن الناس فانهم يجدون عندهن المتعة السهلة واللحظة السعيدة ،

---

(١٦) مروج الذهب ٤ / ٢٥٤ •
(١٧) العقد الفريد ٢ / ٧٣ •
(١٨) المرجع السابق ٢ / ٧٤ •

وهن أقرب أملا وأقل تحللا ، والظفر بهن أسرع من الظفر بربات الخدور والمحتجبات وراء الستور ، وانهن مزورات وأولئك معدومات (١٩) ٠

وكان معظم حب هؤلاء الجوارى حبا حسيا ، فهن قد جلبن من بلاد بعيدة ، الى بلاد لا تربطهن بها صلة رحم أو وطن أو قربى ، وكان العرب ينظرون اليهن نظرة طمع ، فهن جميلات طيعات ذليلات ، يتمتع بهن العربى ويجرب معهن أفانين اللذة ، وكن هن ينظرن الى العربى نظرة فيها حقد ، فهم قد فتحوا بلادهم واستولوا على خيراتها ، وساقوهن الى هذه البلاد سوق الأنعام ٠٠٠ وعلى فرض أنهن قد أحببن حبا صادقا ، فهل هؤلاء الفاتحون المتكبرون يرضون أن تربطهم بهن صلة سوى تلك الصلة الطارئة السهلة ، لاضير اذن من أن يحب هؤلاء الجوارى ، وأن يحببن حبا نفعيا يعتمد على المادة والمصلحة أولا وقبل كل شىء ، يقول الجاحظ « ان القينة لا تكاد تخالص فى عشقها ، ولا تناصح فى ودها ، لأنها مكتسبة ومجبولة على نصب الحبالة والشرك للمتربصين ليقعوا فى أنشوطتها ، فاذا شاهدها المشاهد رامته باللحظ ، وداعبته بالتبسم ، وغازلته فى أشعار الغناء مما ولهجت باقتراحاته ، ونشطت للشرب ، وأظهرت الشوق الى طول مكثه والصيانة لسرعة عودته ، والحزن لفراقه ٠٠٠ » (٢٠) ٠

الغنـــاء :

يبدو أن نوبة أصابت الحجازيين ، فجعلتهم ينسون أنفسهم فى الغناء ، يتقاتلون من أجله ، ويتحمسون له ، ويصرفون الوقت فى الثرثرة حوله ، وهذه النوبة لم تترك صغيرا ولا كبيرا ولا أميرا ولا حقيرا ، ولا رجلا ولا امرأة ، ولا جنا ولا انسا ، الا ومسته بعصاها السحرية ٠

فتحمس الفقهاء وأهل العلم والورع للغناء ، فمالك ابن أنس أراد

(١٩) الموشى ٢ / ١٢٧ ٠
(٢٠) نوادر الجاحظ ص ١٠ ٠

أن يلتمس الغناء ، وأن يسلك نفسه في سلك المغنين ، لولا أن أمـــه نصحته بأن يدع الغناء ويطلب الفقه فانه لا يضر معه قبح الوجه (٢١) .

والولاة والحكام ـ حتى الورع منهـم ـ أصـيب بهـذه النوبـة ، فعمر بن عبد العزيز كان يسمع الغناء هو أمير المدينة ، وكان ربما صفق بيديه ، وربما تمرغ على فراشه وضرب برجليه طربا (٢٢) .

ومست هذه النوبة الجمهور والعامة ، فتغنى صبابة لرجل لحنـا لابن سريج فيثب ويحجل ويقول : هذا وأبيكما مالا تعذلانى فيه حتى دنا من الشمعة فوضـع لحيته عليهـا فاحترقت وهـــو يصيح : الحريق ، الحريق (٢٣) .

ولم يكتف أهل الحجاز بأن تكون هذه النوبة بين الانس ، بـل أبوا الا أن يجعلوها تتعدى الى الجن أيضا ، فقد زعموا أن الجن افتتن بغناء الغريض (٢٤) .

وكان الأمويون يشجعون هذه النوبة ، فقد استغرقت الحجازيين حتى أنستهم المطالبة بحقوقهم ، فسليمان بن عبد الملك كان يضـــع المسابقات بين المغنين فى الحجاز ، ويمنح الفائز منهم جوائز كبيرة (٢٥) وحج مرة الوليد بن يزيد ، فاستمع الى الأبجر ، فأهداه فرسا وأربعمائة دينار وتحفا من ثياب ووشى (٢٦) .

أصابت هذه النوبة الحجاز ، فغرق فيها حتى أذنيه ، ولكن المدينة كانت أكثر رضا بهذه النوبة ، فهى عاصمة المسلمين السابقين ، وموطن المعارضة فى أول الأمر للأمويين ، والبلد التى صبت فيها كنوز كسرى وقيصر ، ووردت اليها آلاف العبيد والجوارى ، فهى أسبق المدن العربية

---

(٢١) الاغانى ٤ / ٣٩ .
(٢٢) التاج للجاحظ ص ٣٣ .
(٢٣) الأغانى ١ / ٣١٦ .
(٢٤) تزيين الأسواق ١ / ٤٤ .
(٢٥) الاغانى ١ / ٣١٧ .
(٢٦) الأغـانى ٣ / ٣١٠

آخذا بالحضارة الحديثة ، وهى فى الوقت نفسه أصيبت بخيبة أمل مريرة وفشل ذريع ، فلا أقل من أن تنسى آلامها فى تلك النوبة ، وأن تسكب أحزانهـا فيهـا ، ولا عجب أن الطبقة الأولى من المغنين ظهرت فى المدينة ، وبعدها ظهرت طبقة فىمكة وطبقة فى المدينة .

الغنـاء والشـعر :

وقد كان للغناء أثر على الشعر وموضوعاته ، فأدى الى انتشـار هذا النوع من الشعر الذى يتحدث عن قصة الحب ، وما فيها من لذة ومتعة أو هجر وصدود ، فامتلأ الحجاز بهذا النوع من الشعر الذى يدور حول قصة الحب ، وقد سأل الحارث أخاه عمر أن يترك هذا الشعر ، فقال : أما ما دمت بمكة فلا أقدر ، ولكنى أخرج الى اليمن (٢٧) . وكانت القصيدة هى القصيدة الأولى فى هذا الجو ، وقلت الأغراض الأخرى كالهجاء والمدح التى كانت تشيع فى العراق والشام ، فالحسن رضى الله عنه كان يكره الهجاء حتى فى ابليس ، وقد حاول الفرزدوق أن يسمعه هجاءه فى ابليس فأبى (٢٨) .

وقد استطاع الغناء أن يختصر القصيدة من أبيات كثيرة ، تـدور حول الرحلة ومشاقها ، وبيت الحبيبة وآثارها ، وصفة الممدوح وجوده ، الى مقطوعات قصيرة خفيفة راقصة ، تدور حول الحب ومسائله ، وغير ذلك من الصفات التى تجعلها سريعة الحفظ ، وسريعة العلوق بقـلوب الناس ، والدوران على ألسنتهم .

وأثر الغناء على الشعر فى شكله أيضا ، فمال الى اليسر والسهولة ، واختيار اللفظة البعيدة عن التكلف والاغراب ، بل والى التعبير الذى يقرب الى مدارك العامة ويفهمه الناس فى مجالسهم . ولو أن الشاعر

---

(٢٧) زهر الاداب ٣ / ٢٤٤ .
(٢٨) طبقات الشعراء ص ١٢٦ .

استخدم اللغة التى تميل الى الجزالة والفحولة والقوة والرصانة كما نرى فى لغة المعلقات ، لشاح عنها المغنى لانها بضاعة لا تروج بين الناس ولا تنفق عند عامتهم ، وخاصة أن المجتمع العربى قد أصبح مجتمعا خليطا ، وفيه غير العربى الذى لا يستسيغ لغة المعلقات ، بل ان معظم المغنين من الاعاجم ، فلابد أن يراعى الشاعر أن تكون لغته مالوفة لدى هؤلاء المغنين ومن ورائهم جمهور عريض . قال الجاحظ « ولأهل المدينة ألسنة ذلقة ، وألفاظ حبيبه ، وعبارة جيدة ، واللحن فى عوامهم فاش ، وعلى من ينظر فى النحو منهم غالب ، واللحن من الجوارى الظراف ، ومن الكواعب النواهد ، ومن الشواب الملاح أيسر ، وربما استحسن الرجل منهن ذلك ما لم تكن الجارية صاحبة تكلف ، ولكن اذا كان اللحن على سجية سكان البلد (٢٩) .

وقد أتاح الغناء للشعر شهرة واسعة واعطاه شعبية ، تصل به الى مختلف الناس فى المدينة ، واصبح مثله مثل الصحف السيارة فى أيامنا . تدخل الدور وتصل الى الكفور ، وهذا سر تكالب النساء على أن يذكرهن الشعراء فى غزلهم ، فان هذا سيتيح لهن فرصة للذيوع والذكر ، توسلت جارية الى نصيب أن يذكرها فى شعره ففعل فخطبت (٣٠) ، وطلب تاجر من الدارمى أن يعلن عن خمره ففعل فنفقت بعد أن كانت كاسدة (٣١) .

الغناء والشعر والقصص :

ومع انتشار الغناء والشعر انتشر الغرام والحب « لان سماع الغزل والغناء يصور فى النفوس نقوش صور ، فتحفر خميرة صورة موصوفة ، ثم يصادف النظر مستحسنا ، فتتعلق النفس بما كانت تطلبه حالة الوصف » (٣٢) . ولهذا ازدهرت القصص التى تروى حول أبطال العشق ، والتى تشبع تفسيرا لاشارات فى شعر الغزل .

---

(٢٩) البيان والتبيين ١ / ٨١ .
(٣٠) الاغانى ١ / ٣٣ .
(٣١) الاغانى ١ / ١٧٣ .
(٣٢) ذم الهوى ص ٢٩٦ .

وكما كان فى الحجاز مغنون فائقو الصيت ، وشعراء غزليون مشهورون ، كان هناك قوم أيضا حذقوا قصص العشق وحكايات المحبين ، فمعبد يحكى أنه جاء الى مكة ، وأنه التقى بالغريض ، فغنى معبد للغريض لحنا فى شعر جميل ، ثم غنى الغريض لمعبد لحنا فى شعر جميل ، ثم بعد ذلك أراد معبد أن يعرف خبر جميل وبثينه فقال : « ليتنى عرفت انسانا يحدثنى بقصة جميل وخبر الشعر ، فأكون قد أخذت بفضيلة الأمر كله فى الغناء والشعر » فسأل عن ذلك فاذا الحديث مشهور وقيل له : « ان أردت أن تخبر بمشاهدته فأت بنى حنظلة ، فان فيهم شيخا منهم يقال له فلان يخبرك الخبر » . فأتى الشيخ فسأله فقص على معبد قصة رائعة حدثت فى الربيع بين جميل وبثينه بمحضر من هذا الشيخ ، وأود أن ترجعوا الى هذه القصة الطويلة فى الأغانى ، فان المقام يضيق عن نقلها ، وانما نقلت هنا تعليق معبد على هذه القصة « فجزيت الشيخ خيرا وانصرفت من عنده ، وأنا والله أحسن حالا بنظرة من الغريض واستماع لغنائه ، وعلم بحديث جميل وبثينة فيما أنا غنيت به ، وغنى به الغريض على حق ذلك وصدقه (٣٣) » .

فاذن كانت هناك بجانب الشعر والغناء ، حكايات عن العشاق يطلبها الناس كما يطلبون الغناء ، ويجيدها بعضهم كشيخ بنى حنظلة ، وهذه الحكايات تأثرت بالشعر والغناء ، وبالظروف ألتى مر بها الحجاز فى ذلك العصر ، وكانت لها أساليبها الفنية تؤثر بها على الناس ، فيقبلون عليها ويرضون بها حاجتهم الفنية .

ففى ظل تلك الظروف المتحضرة ، لابد وأن تنشأ قصص حب حسية طائرة ، بنتهب فيها الفريقان اللذة على عجل ، ويساعد على هذا أن المجتمع العربى كان يأخذ بحظ من الحرية فى علاقة الرجال بالنساء ، ففتيات مكة كن يخرجن الى المتنزهات ومعسع كل واحدة

---

(٣٣) الاغانى ٣ / ١٣٩ « ساسى » .

هواها (٣٤) ، وبعض النساء كن يسفرن كعائشة بنت طلحة التى لاتريد أن تخفى الجمال الذى خصها الله به (٣٥) • وكانت هناك مواسم ينتهزها الشباب وينتظرونها للالتقاء بحبيباتهم والتحدث معهن ، ومن أشـــهر المواسم أيام الحج •

أيام الحج والطواف :

يعتبر المسلمون أيام الحج أيام عيد ، تصحبها البهجة والسرور • والعيد الكبير عند المسلمين يوافق أيام الوقوف بعرفات ، وقد أمر الرسول عليه السلام أبا بكر أن يدع الجاريتين تغنيان وتضربان بالدفوف لأن أيام منى أيام عيد (٣٦) •

وكان ظرفاء مكة وشعراؤها وعشاقها ينتهزون هذه الفرصة ، فكان عمـر بن أبى ربيعة « يعتمر فى ذى القعدة ويحـــل ، ويلبس الحلل والوشى ، ويركب النجائب المخضوبة بالحناء عليها القطوف والديباج ، ويسبل لمته ، ويتلقى العراقيات فيما بينه وبين عرق محرمات ، ويتلقى المدنيات الى مر ، ويتلقى الشاميات الى الكديد » (٣٧) وكان يستصحب معه ابن سريج المغنى ، وقد خرجا يوما على نجيبين ، رحالتاهمـــا ملتبسة بالديباج ، وقد خضبا النجيبين ولبسا حلتين ، فجعــلا يتلقيان الحاج ويتعرضان للنساء الى أن أظلم الليل (٣٨) وكتاب الأغانى ممتلىء بأخبار عمر أيام الحج مع نساء الطبقة العالية ومع غيرهن ، فكـــان يلتقى بأم محمد بنت مروان ، ويذهب الى خباء فاطمة بنت عبد الملك ، ويشبب بعائشة بنت طلحة ويتعرض لها ويطوف حولها ، وكان يراها

---

(٣٤) الاغانى ٢ / ١٧٣ ساسى
(٣٥) الاغانى ١١ / ١٧٦ ساسى
(٣٦) احياء الغزالى ٦ / ١٥٢
(٣٧) الأغانى ١ / ٢٢١ (دار الكتب) •
(٣٨) الاغانى ١ / ٢٥٨ •

سافرة وهى تستلم الركن أو وهى ترمى الجمار ولهذا لم يكن عجبا أن يتمنى عمر أن يكون الدهر كله حجا وعمرة : ـ

ليت ذا الدهر كان حتما علينا كل يومين حجة واعتمارا (٣٩)

وقد رد عليه ابن أبى عتيق ساخرا « لقد كلفت المسلمين شططا » فأجابه عمر « ياأبا محمد ، فى نفس الجمل شىء غير مافى نفس سائقه » (٤٠) .

وكان العرجى أيضا ينتهز هذا الموسم ، فيطلق العنان لغرامياته ، ويشبب بنساء المسلمين ، شبب فى جبرة المخزومية زوجة محمد ابن هشام فقال :

عوجى على ، فسلمى جبر فيم الصدود وأنتم سفر

مانلتقى الا ثلاث منى ماالدهر الاالحول والشهر (٤١)

الحول بعد الحول يجمعنا حتى يفرق بيننا النفر

وشبب بأم محمد بن هشام فقال :

عوجى علينا ربة الهودج انك ان لاتفعلى تحرجى

انى أتيحت لى يمانية احدىبنات الحارثمن مذحج

نلبث حولا كاملا كله مانلتقى الا على منهج

فىالحج ان حجت وماذامنى وأهله ان هى لم تحجج (٤٢)

---

(٣٩) الأغانى ١ / ١٦٧ .
(٤٠) مصارع العشاق ص ٣٥٨ .
(٤١) الأغانى ١ / ٤٠٨ (دار الكتب) .
(٤٢) الأغانى ١ / ٤٠٧ (دار الكتب)

كثرت المطارحات الغرامية اذن ايام الحج وكان بعض النسوة ينتهزن الفرصة ليظهرن قوة تأثيرهن ، قال العرجى :

من اللائى لم يحججن يبغين حسبة ولكن ليقتلن البرىء المغفلا (٤٣)

وقد هال خالد بن عبد الله القسرى وكان واليا على مكة ، مايحدث بين الرجال والنساء أيام الطواف ، عقد بلغه قول الشاعر :

ياحبذا الموسم من موقف وحبذا الكعبة من مسجد

وحبذا اللاتى تزاحمننا عند استلام الحجر الاسود

فقال خالد : أما أنهن لايزاحمنك بعدها أبدا ، ثم أمر بالتفريق بين الرجال والنساء فى الطواف (٤٤) ٠

وبعد ، فليس بعجيب أن يزدهر الحب الحسى فى ظل تلك الظروف حاضرة قد تدفق اليها المال ، وغزاها الترف ، وشعشعت فيها الحضارة ، وملأتها الجوارى الجميلات ، وانساب فيها الغناء ، وعطرها الشعر ٠

حاضرة شأنها هذا وقد أتيح لها نصيب من الحرية فى علاقات الرجال بالنساء ٠

ثم أريد لها أن تبتعد عن مسرح النشاط السياسى وأن تعزل عن الحياة العامة ومجريات الأمور ٠

وقد كانت صاحبة سلطان وحول وطول ، فاغتصب كل هذا منها اغتصابا ، وحاولت أن تسترد حقوقها ، فاصيبت بخيبة الأمل وبحسرة الندم ٠

حاضرة هذا شأنها ، لابد أن تعوض عن بطولاتها الماضية ببطولات جديدة ، مستمدة من ظروفها ومن واقعها وامكانياتها ٠

وقد كان ٠٠٠ فنجم فيها أمثال عمر بن أبى ربيعة ٠

---

(٤٣) الأغانى ١٢ / ٢٣١ ساسى

(٤٤) مروج الذهب ٢ / ١٦٢

عوامل ازدهار العشق العذرى فى البوادى الحجازية :

البيئــــة :

الصحراء بيئة لطيفة الهواء عليلة النسيم ، سماؤها صافية ونجومها زاهرة يتلألأ فيها القمر فيزيدها حسنا وبهاء ، وتجرى فيها الطبيعة على سجيتها ، فيحن فيها الطير الى اليفه ، ويسكن فيها الحيوان الى أنثاه ، ويتعاطف الانسان مع الطبيعة من حوله ، فيهفو الى أن يحـن الى الفه ويسكن الى أنثاه ٠

وهذا الجو النقى والطبيعة الفسيحة ، منحتا بنات البادية جمالا وصباحة ، وقد سئل كثير من العذريين عن سبب هذه العاطفة الجياشة ، فارجعوها الى مافى بناتهم من جمال وجاذبية ، قال رجل من بنى فزاره لرجل من عذره ٠ تعدون موتكم من الحب مزية ، وانما ذلك من ضعف البنية ووهن العقيدة ، فقال العذرى : أما لو أنكم رأيتم المحاجر البلج ، ترشق بالأعين الدلج ، من فوقها الحواجب الزج ، والشفاه الســـمر ، تفتر عن الثنايـا الغـر ، كأنهـــا سرد الـدر ، لجعلتموهـا الـــلات والعزى (٤٥) » ٠

ويبدو أن تلك الطبيعة تضفى على ابنائهـا الحســاسية واللماحية والتنبه لأدق الأمور ، وقد عقد ابن عبد ربه كتابا لكلام الأعراب (٤٦) ، ولو طالعت هذا الكلام فسيصافحك فيه ذكاء وحساسية ونفس وقـــادة تتنبه للأشياء الدقيقة وتتطلع الى المثال ، ومن ثم كانوا يتوقعون من العاشق العذرى أن يكون بعيدا عن التوافه والاشتغال بالأمور الدنيا ، عن المعنى السامى الدقيق ، فكانوا ينكرون عليه أن يكون بطنا يشغله الأكل عن تلك العلاقة السامية ، فقد أضاف جميل بثينة رجلا وخبز له خبزا ،

---

(٤٥) مصارع العشاق ص ١٦

(٤٦) العقد الفريد ٢ / ٧٥ ــ ١٠٣ ٠

فجعل الرجل يأكل ويتحدث عن بنت عم له يحبها حتى أتى على الخبزة ، فقال جميل ،

وقد رابنى من جعفر أن جعفرا يلح على قرصى ويبكى على جمل
فلو كنت عذرى العلاقة لم تكن
بطنا ، وأنساك الهوى كثرة الأكل (٤٧)

والبادية بما فيها من نظام قبلى يعتمد على السلب والنهب ، قد صبغت نفوس كثير من شبابها بصبغة الفارس ، ففتى البادية هو الفتى الشجاع الذى يسارع الى الدفاع عن القبيلة وصون أعراضها والذب عن أحسابها . والفارس – عادة – شهم صادق فى حبه مخلص لعواطفه ، قوى فى الحروب ومصاولة الأقران ، ولكنه ضعيف أمام معشوقته يذل ويتضرع لها ، ومن ثم نجد المرأة محترمة فى تلك البيئة فهى شقيقة الرجل ، (٤٨) وهى التى يستفتح بها الشاعر قصائده ، ويبكى عند آثارها ويستوقف أصحابه ليبكوا معه .

الفـــراغ :

وفى تلك البيئة لم يكن هناك مايملأ حياة العربى ويشغله فمعظمهم رعاة يقضون يومهم فى التسكع وراء الابل والأغنام ، وهذا يتيح لهم فرصة لكي يخلدوا الى أنفسهم ، ويملئوا حياتهم بالحديث عن المرأة وما تثيره من غرام ولوعة ، وقد أدرك ذلك خالد بن يزيد بن معاوية ، فقد حج مرة مع عبد الملك ، فبينما هو يطوف بصر برملة بنت الزبير فعشقها عشقا شديدا ، جعل عبد الملك يتعجب ويقول له « ماكنت أقول ان الهوى يستأثر منك » فقال خالد « وانى لأشد تعجبا من تعجبك منى ، ولقد كنت أقول ان الهوى لايتمكن الا من صنفين من الناس : الشعراء

(٤٧) مصارع العشاق ٢٠٤ .
(٤٨) مجمع الأمثال ١ / ٢٥ .

والأعراب . فاما الشعراء فانهم الزموا قلوبهم التفكر فى النساء والغزل ، فمال طمعهم الى النساء ، فضعفت قلوبهم عن دفع الهوى ، فاستسلموا اليه منقادين . وأما الأعراب فان أحدهم يخلو بامراته فلا يكون الغالب عليه غير حبه لها ولا يشغله شىء عنــه ، فضــعفوا عن دفـــع الهوى فتمكن منهم » (٤٩) .

فاذن بيئة بدوية ساذجة ، لايشغل أهلها ترف الحضارة ولا جعجعة المدينة ، وفتيات جميلات صبيحات ، وحساسية مرهفة تتنبه للامـــور الدقيقة السامية وتبتعد عن التوافه العارضة .

وقد اتيح لها قدر من الفراغ ، يجعلها تســكن الى نفســها وتقلب عواطفها ، بيئة هذ حالها لابد أن تتعلق بالمرأة وتهتم بها .

فاذا أضيفت الى ذلك تقاليد البادية كانت النتيجة ذلك العشــــق العذرى .

تقاليد البــادية :

فنظام البادية يقوم على المنعة والحفاظ والبقاء فيها للاقوى ، الذى يستطيع صيانة مايحميه ، ويستطيع الدفاع عن آهله وعشيرته من اعتداء المغيرين وسلب الناهبين .

والمرأة من أهم الأشياء التى يحرص عليها البدوى ، اذ هى عنوان قوته وشدة منعته ، فلو فرط فيها لكان معناه انه رجل مستباح ، لايرد كيد عدو ولا يدفع غارة مغير .

ولهذا حرص عليها العربى ، وحاول آن يدافع عن سمعتها مااستطاع ، فكانوا يمنعون بناتهم أن يتزوجن ممن شبب بهن وقال عنهن شــعرا ، وما مأساة المجنون وأمثاله الا بسبب شعرهم ، الذى أفصحوا فيه عن عواطفهم .

---

(٤٩) ذم الهوى ص ٦٧

هناك عوامل بيئية وغريزية دفعت البدوى الحساس ، الى أن يحب ويتعلق بمحبوبته ، ثم يريد أن يقضي معها وطرا ، فاذا به يصدم بقيود وتفرض عليه تقاليد ، تجول بينه وبين هواه ، وتفرض عليه الحرمان ، فيحاول البدوى أن يستعيض عن ذلك بالتغني بحبيبته وترديد اسمها ، ومخاطبة الحمام والجبال ، والشكوى والبكاء والاستبكاء ، عسى أن يصل الى شىء يخفف من حرارة الحب ويطفىء نار الوجد ، ولكن هيهات ، فان التقاليد التى تنبع من ظروف القبيلة ، تحول بينه وبين ذلك . فمن ثم اشتهرت البادية بالحب العفيف ، الذي يقنع – فى ظل تلك الظروف – بالقليل ، وأصبحت العفة عندهم دينا يجب الخضوع له ، وتقليدا ينبغى احترامه وعدم تخطيه ، قيل لأعرابى : ماتفعل ان ظرفت بمحبوبتك ؟ قال : أمتع عينى من وجهها ، وسمعى من حديثها ، وأسترمنها مايحرم كشفه الا عند حله » (٥٠) .

(٥٠) تزيين الأسواق ١ / ٩

الباب الثانى

الفن فى قصص العشق

القصة القصيرة الفنية من أصعب الأشكال الأدبية ، وتحتاج الى خبرة خاصة وذوق خاص .

وهى أشبه بالقصيدة الشعرية ، يجب أن تكون لها وحدة عضوية ، وأن تكون كالجسم الواحد للانسان ، يؤدى وظيفة واحدة . وكل جزء من أجزائه يؤدى اختصاصه ، مساهما بذلك فى الوظيفة الكلية للجسم ، فالألفاظ والأساليب اللغوية والحوار ، والتصوير كل يساعد على ابــراز المعنى الكلى للقصة .

والقاص ينتبه لأمور حيوية فى القصــة . تســاعد على نموهــا واكسابها الحركة ، كالتشويق ، والعقدة ، والصراع ... الخ .

والقصة القصيرة ، ينبغى أن يتحقق فيهــا مايســميه « بــــو » بالكلية Totality أى يكون لها أثر كلى ، ويترتب على ذلك مايسمى بوحدة الانطباع Unity of Impression أى أن يحس القارىء ــ بعد الانتهاء منها ــ باحساس واحد معين . ولهذا يرى بعض النقاد أن القصة القصيرة ، يتحقق فيها غالبا الوحدات الثلاث الأساسية التى تتحقق فى الشكل المسرحى الفرنسى ، والذى يظهر فى فعل واحد ، فى مكان واحد ، وزمان واحد ، والقصة القصيرة تقتصر على بطل واحد ، وحادثة واحدة ، وانفعــال أو سلسلة من الانفعالات ترتبط بموقف واحد (١) .

ولهذا يجب أن يحرص القاص على توفر عنصر التركيز ، فيجب أن تكون قصته مضغوطة فنيا ، وأن يكون لكل لفظة مكانها ومهمتها ، فاذا أمكن الاستغناء عنهــا ، يجب أن تطرح ، ولو كنت من المغرمين بالقواعد ، لقلت : كل مالا ينفع فى القصة فهو يضر .

والايجــــاز فى القصص الفنية ، ليس مجـــــرد اختصار أو عملية اختزال Brevity ، فلو أننى لجأت الى رواية طويلة Novel ولخصتها

---

(١) أنظر : Encyclopeadia Britanica (short story)

فى صفحة أو صفحتين فلن يعتبر هذا الملخص قصة قصيرة • وانمــا الايجاز هنا أمر تلقائى محض ، أى هو شىء من طبيعة القصة القصيرة ، ومن جوهرها ، ولابد للقاص فيــه فهــو نتيجة حتمية لمغنى الكلية فى القصة ، ولوحدة الانطباع ، ولاختيار موقف واحد من مواقف الحياة •

وقد ترددت كثيرا فى اطلاق كلمة « فن » على هذا النوع من القصص التى نحن بصددها •

فكثير من هذه القصص ، **مجرد اخبار واحاديث لا قيمة لها من** الناحية الفنية ، أو مجرد مجموعة مواقف ، أو اذا أردنا أن نقارب معنى القصة كما هى فى القواميس العربية مجموعة حالات أو امور • وليس هناك رابط لهذه الحالات ، الا ادماجها تحت اسم واحد ، هو قيس مرة ، وجميل ثانية ، وعروة ثالثة • فالشخصية هنا هى الوحدة التى تربط القصة •

وأشياء كثيرة محشورة فى هذه القصص من الممكن الاستغناء عنها ، ولافائدة منها ، كأن يقف القاص فى هذه القصص ، ليفسر كلمة لغوية ، أو يجره الاستطراد الى أمور أخرى ، ذات انطباع مخالف لانطباع الحادثة التى بدأ بها •

ولعل أقرب شىء الى هذه القصص ، هو أن نشبهها بالحوادث التى تنشر فى الصحف اليومية ، ولا يعنيها الفن فى شىء ، كما يعنيها القاء الخبر الى القارىء •

ترددت فى اطلاق كلمة « فن » على هذه القصص ، ولكن عنــد التريث وجدت أنه لا ينبغى أن تتطلب من قصص العشق العربية ، ذلك المعنى الذى نجده عندPoe ومن بعده ، فهذا قسر للتاريخ ، ومطالبته بما ليس من مقدوره •

وليس هذا الثوب الذى ظهرت به القصة فى العصر الحديث ، هو الذى فقط يرشحها للدراسة العلمية ، وللكشف عما فيها من جوانب فنية ،

فان العلم ليس ذا نزعة « ارستقراطية » يشترط مستوى معينا للدراسة ، بل تغريه كل المظاهر ، وتجذبه كل المستويات ، فهو ـ كما يدرس القصة المستكملة للشروط الفنية ـ يدرس ايضا القصص التى لم تستكمل هـذه الشروط ، ويبين مافيها من بذور فنية ، والاسباب التى قعدت بهـذه البذور عن النمو والتكامل .

وكما أن هناك دراسات كثيرة وقيمة حول فن الخبر الصحفى ، وما ينبغى أن يتحقق له من هيئة خاصة تؤثر على القارىء ، وتثير انتباهه وتجذبه الى الصحيفة ـ فلا مانع من أن تكون هناك دراسات ، يبذل فيها الجهد لبيان مافى قصص العشق من بذور فنية ، كالتشـويق والصراع والعقبة ، وغير ذلك مما كشف عنه الفصل الثانى من هـذا الباب .

ولعلى لا أبعد لو قلت : ان هناك نوعا من القصص ، له شـكله الخاص شاع بين الناس وحرصوا عليه ، وكان له قصاصه الذين يرجـع اليهم الناس ، وله كتبه الكثيرة التى ألفت فيه ، ودرس معظمها فـلم يصل الينا .

وقد حرص الناس على هذه القصص ، وأخذوا يفتشون عنهـا ، ويرجعون الى « أهل الذكر » ليفيضوا لهم فيها ، فعبد الملك بن مروان يسأل كثيرا عن أعجب خبر له مع عزة ، فيقص عليه قصة فيها غرابة وطرافة (٢) . ويدخل نصيب على يزيد بن عبد الملك ، فيقول لـه « حدثنى يانصيب ببعض مامر بك » فيقص عليه قصة حبه لجاريـة خطبها ، فأبت أن تتزوجه لسواده ، ثم رأت أن الشعر والمال يغطيان على السواد ، فتزوجته (٣) . ويدخل على عبد العزيز بن مروان ، فيسأله هل عشقت قط ؟ فيقص عليه قصةعشقة لأمة من بنى مدلج(٤) ويقف الناس

(٢) الأغانى ٩ / ٢٩ « دار الكتب » .
(٣) المرجع السابق ١ / ٥٤ .
(٤) المرجع السابق ١ / ٣٧٥ .

بباب بعض الولاة ، ويطول وقوفهم ، ويصيبهم الضيق ، واذا بأعـرابى ظريف يتغلب على هذا الضيق ، فينادى « من أراد أن يسمع العجائب ، فليدن منى » فيقص عليهم قصة حبه لأم جحدر (٥) ٠

فكثير ، ونصيب ، وهذا الأعرابى ، ماهم الا أفراد من تلك الفئة التى عندها كثير من هذه القصص ، يسألهم الناس عنها ٠

وهذا الباب متخصص فى الكشف عن هذه القصص ، وبيان مافيها من أغراض ، ومن بذور فنية ، كالتشويق والصراع ، وغير ذلك من عوامل قد تهيأت لها ٠

وقسمته الى أربعة فصول : تحدثت فى الفصل الأول عن أغـراض هذه القصص ، وما كانت تحمله من أشياء يريد القاص أن يوحى بها الى الناس ٠ ودرست فى الفصل الثانى هذه القصص دراسة جزئية ، فبينت معالمها ، وأشرت الى مافيها من بذور فنية ٠ والفصل الثالث كان لدراسة تطور هذه القصص ونموها ، والمقارنة بين القصص وابراز عنصر الأثر والتأثير ٠ والفصل الرابع كان بمثابة دراسة كلية لنماذج من هذه القصص ، أوردتها ، وحللتها ، وقارنتها بغيرها ٠٠٠ الخ ٠

وقد تعمدت أن أورد فى الفصل الأول ، وفى الفصل الرابع نماذج كاملة من هذه القصـص ، حتى يتبين القارىء هـذه القصص بنفسه ، ويضع عليها يده ، ويقتنع أن بعض هذه القصص لم تكن خبرا تاريخيا ، يراد منه أن يؤدى المعنى فى جملة أو جملتين ، بل كانت بعض هـذه القصص تطول ، وتريد أن ترضى حاجة أدبية ، اكثر مما تريد أن تكشف عن حالة تاريخية ٠

(٥ تزيين الأسواق ١ / ٣٧ ٠

الفصل الأول

اغراض قصص العشق

ربما كان لبعض هؤلاء العشاق وجود تاريخى ، فقد يكون التاريخ شاهد يوما عمر بن أبى ربيعة ، أو قيس بن ذريح .

على أن الذى أشك فيه هو تلك الحكايات والأساطير التى دارت حولهم ، فان عقل المؤرخ لايستطيع أن يضفى على هذه القصص ، صفة الصدق الواقعى والوجود التاريخى .

وكل ما هنالك أن هـذه الأسماء اشتهرت وذاعت ، فانتقلت من مجال الدلالة على شخصية بعينها ، الى مجال الرمز لأشياء ، يحكيها الناس ويقصون حولها الغرائب والمخترعات ، أنشد ابن المولى لنفسه .

وأبكى ، فلا ليلى بكت من صبابة الى ، ولا ليلى لذى الود تبذل
واخنع بالعتبى ، ان كنت مذنبا وان أذنبت ، كنت الذى اتنصل

فقال له أبو السائب ، وعبيد الله بن مسلم بن جندب : من ليلى هذه حتى نقودها اليك ؟ فقال لهما : ماهى والله الا قوسى هذه ، سميتها بليلى (١) .

وبعض الشعراء قد اعترف بأن هذه الأخبار من خياله واسترساله ، فحين وقفت ليلى الأخيلية ، على قول توبة :

فلما دخلت الخـدر أطـت نسوعه وأطراف عيدان شديد سيورهـــا

---

(١) الاغانى ٣ / ٢٨٩ « دار الكتب » .

غضبت وامسكت عن كلامه برهة ، فتوسل اليها ، وعرض عليها انه سيسقى نفسه السم ان لم تكلمه ، فجمعت ثلاثة من أهلها ، بحيث يخفون عليه ، فلما آنسته قالت : أى خدر دخلت معى ، حتى تقول ماتقول ؟ فقال : هذا استرسال شعراء ثم ذكر لها أمثال ذلك ، وتنصل ففرحت بسماع أهلها ذلك (٢) . ومعاوية ابن أبى سفيان كان يدرك أيضا تزيد خيال الشعراء والقصاص ، فحين شاعت قصة أبى دهبل مع عاتكة ، استدعاه معاوية وساله وعن ذلك فتبرأ منه ، فقال له معاوية ، أما من جهتى فلا خوف عليك ، لأنى اعلم صيانة ابنتى نفسها ، وأعلم أن فتيان الشعراء لم يتركوا أن يقولوا فى النسيب فى كل من جاز أن يقولوا فيه (٣) .

وكثير من القدماء لم يطمئنوا الى هذه الأخبار ، فداود الانطاكى يذكر ان بعض أخبار قيس لم تصح عنده ، مثل خبر قبضه على الجمر بكلتا يديه حتى احترقتا ، ومثل خبر ذهابه الى ليلى يقترض منها سمنا فخرجت اليه بنحى ، وجعلت تسكب فى وعائه ، وهما يتحادثان حتى غرقت أرجلهما ، وخبر مجيئه ليلى يقتبس نارا ، فكان يتحدث معها ويقطع من برد عليه ، يعلف النار ، وكلما احترقت قطعة أخذ أخرى حتى صار عريان (٤) . وأبو الفرج يذكر قصة حب لجارية ، التقى بها الأحوص ومعبد على غدير وكانت تنشد شعرا للأحوص ، ثم يعقب على ذلك بقوله : وليس يشبه الشعر شعر الاحوص ، ولا هو من طرازه (٥) .

وهذه الأخبار كان سبيلها الينا الرواية والرواة .

والرواة لم يكونوا يتحرون الدقة فى أمثال هذه الاخبار ، التى

---

(٢) تزيين الاسواق ١ / ١٧٧
(٣) الاغانى ٧ / ١٢١ « دار الكتب »
(٤) تزيين الاسواق ١ / ٦٦
(٥) الاغانى ٢١٨ ــ ٢ « ساسى »

يقصد بها الى التسلية والظرف واطراف العامة ، واليك مثالا على أنهم لم يكونوا يتحرون الدقة والتحديد ، فاننا نعرف أن قيسا لم يكن ابن عم لبنى ، بل ان اباه عارض فى تزويجه منها ، لانه يريد أن يزوجه احدى بنات عمه (٦) ، ولكننا نقرأ ما يفيد أن لبنى كانت ابنة عم قيس ، فقد دخل عليها زوجها ، وهى تمسك بغراب ، وتنشد شعرا فسألها عن ذلك ، فقالت : « دعانى أن ابن عمى وحبيبى قيسا ، امرهن بالوقوع فـلم يقعن » (٧) .

وكان الرواة حين أرادوا جمع اللغة ، ومعرفة أخبار العـرب ، يشافهون الأعراب ، وينقلون عنهم ، وكان الاعراب يعرفون شغف هؤلاء بهذه الاخبار وشدة ولعهم بها ، فكانوا يتزيدون عليهم ، ويختلقون لهم الحكايات ، ليروجوا بضاعتهم ، وليحسنوا فى أعين هؤلاء الرواة ، فحين ورد داود بن متمم بن نويرة الى البصرة جعل أبو عبيدة وابن نوح يسألانه عن شعر أبيه ، فلما فرغ داود من رواية شعر أبيه ، وكره أن تنقطع عنه الرواية ، أخذ يضع على أبيه مالم يقل (٨) ، وحماد الرواية كان يكذب ويتزيد فى أخباره (٩) .

على أن الأمر لم يقف عند تكذيب لأخبار قيلت حول فريق من الشعراء المشهورين ، بل تعداه الى نفى شخصيات بعينها ، حيكت حولها أخبار كثيرة .

فقيس ذلك المجنون الذى اشتهر أمره بين الناس ، ينكره فريق من الناس كالأصمعى (١٠) . وقد نفى عامرى أن يكون قيس من قبيلتهم

(٦) تزيين الاسواق ١ / ٥١
(٧) مصارع العشاق ص ٧٧
(٨) طبقات الشعراء ص ٢٣ « السعادة »
(٩) المرجع السابق ص ٢٤
(١٠) الاغانى ٢٢ « دار الكتب »

المعروفة بالجلد ، وانمـــا تموت من الحب هـــذه اليمانية الضعـــاف القلوب (١١) . ومن الرواة من يزعم أن هذا الشعر لفتى من بنى مروان كان يهوى ابنةعم له ، وكان يكره أن يظهر مابينهما فاستتروراء هذاالاسم ، ونظم كل الاشعار التى تنسب الى المجنون (١٢) والاصمعى يقـــول . « رجلان ما عرفا فى الدنيــا قط الا بالاســـم : مجنــون بنى عامـــر وابن القرية ، فانهما وضعهما الرواة » (١٣) .

واشتهرت هذه القصص بين الناس ، ولقيت رواجا واسعا عنـــد العامة فانطلق كثير من المؤلفين ، يرضون هذه الحاجة العارمة ، وجعلوا يكتبون كتبا عن هؤلاء العشاق ، فظهرت أسماء لمؤلفين ، الفوا حـــول هذه الأخبار مثل عيسى بن داب . وهشام الكلبى . والهيثم بن عدى . وغيرهم (١٤) .

وقد أورد ابن النديم ثبتا بتلك الكتب ، فذكر تحت عنوان « أسماء العشاق الذين عشقوا فى الجاهلية والاسلام وألف فى أخبارهم » ، نحوا من اثنين وأربعين كتابا . وذكر تحت عنوان « أسـماء العشـاق الذين تدخل احاديثهم فى السمر » نحوا من ثمانية وثلاثين كتابا . وذكر تحت عنوان « أسماء الحبائب المتظرفات » نحوا من اثنى عشر كتابا . وذكر تحت عنوان « أسماء العشـاق من سـائر النـاس » ، نحوا من ثمانية وعشرين كتابا . وذكر تحت عنوان « أسماء عشاق الأنس للجن وعشاق الجن للانس » ، نحوا من ستة عشر كتابا . ثم ختم هـذا بقول محمد ابن اسحاق : « كانت الأسمار والخرافات مرغوبا فيا مشتهاة ، أيـــام خلفاء بنى العباس : وسيما فى أيام المقتدر . فصنف الوراقون وكذبوا ، وكان ممن يفعل ذلك رجل يعرف بابن دلان . واسمه أحمد بن دلان ،

(١١) مصارع العشاق ص ١٧٨
(١٢) الاغانى ٢ / ٤ « دار الكتب »
(١٣) المرجع السابق ٢ / ٣
(١٤) الفهرست ص ٣٢٥

وآخر يعرف بابن العطار وجماعة (١٥) . ودعبل بن على الخزاعى يذكر أنه كان بالكوفة رجل من بنى أسد ، عشق جارية لبعض أهل الكوفة ، فتعاظم أمره وأمرها فكان يقول فيها الشعر ، وذكر بعض أهل الكوفة أنه مات من حبها ، وضعوا له كتابا فى ذلك ، مثل كتاب جميل وبثينة ، وعفراء وعروة ، وكثير عزة » (١٦) .

وكل ذلك لايهمنى فى شىء ، لايهمني أن يكون لهذه القصص صدق واقعى ووجود تاريخى ، فقد يهم هذا رجلا مؤرخا ، أما بحثى هذا فاننى أتجاوز ذلك الى أمر آخر .

وكل ما أريد أن أقوله : ان عصرا وجد ، له ظروف خاصة ، سياسية واجتماعية ، واقتصادية ، وان هذه الظروف اثرت فى الأدب العربى ، أثرت فى الشعر ، فكثر هذا النوع من الشعر الغنائى ، الذى يملأ أرجاء الحجاز ، وأثرت فى النثر فازدهر هذا النوع من القصص ، الذى انتشر بين العامة ، ووضع فيه المؤلفون الكتب والأوراق .

لايهمنى أن يكون قيس أو جميل أو عروة ، قد وجدوا تاريخيا ، وانما الذى يهمنى فى بحثى أنهم شخصيات قصصية ونماذج بشرية ، وأنهم نتاج بيئة واحدة ، وظروف متشابهة ، ولهذا تشابهت أخبارهم ، واختلف الرواة فى اسناد القصة لأى منهم ، هل هى لقيس بن الملوح ، أو قيس بن ذريح ، أو قيس بن جعد ، أو هل هى لعروة بن حزام ، أو عروة بن قيس . ولو أراحونا لذكروا أن هذه القصص - أو معظمها - لعاشق وجد فى بيئة الحجاز . وكاد بعضهم يقع على هذا التعريف الشامل حين صرح بأن المجنون « لم يكن أحد وانما امرؤ تعشق ، واستكبر عن أن يصرح باسمه واسم محبوبته ، فموه بالمجنون وليلى » (١٧) .

---

(١٥) الفهرست ص ٤٣٦ - ٤٢٨
(١٦) مصارع العشاق ص ٣٣٤
(١٧) تزيين الاسواق ١ / ٦٢

وبعضهم قرب من هذا فزعم أن هذا الشعر كان لفتى من بنى مروان ، وكان يهوى ابنه عم له ، فاستتر وراء هذا الاسم ونظم كل الأشعار التى تنسب الى المجنون (١٨) . ولو أن هذين تقدما خطوة أخرى ، فقالا ان هذه القصص الكثيرة لحجازيين ، عاشوا فى ظروف خاصة فاستتروا وراء هذا الاسم أو ذاك ، فكانت تلك القصص ـ لو انهما فعلا هذا لأصابا الأمر الذى أريده .

وخلاصة ما أعنيه أن اسم المجنون ، أو قيس لبنى ، أو عروة ، ماهى الا رموز تشف عن حالة خاصة . أما الاستدلال بأن أشعار قيس تدل على وجوده ، والاستعانة بأبحاث « فرويد » حول اللاشعور ، وبأن فى أشعاره مايقطع باستغراقه فى تجربته ، وأصالته فى تعمقه فى الصورة اللاشعورية ، التى تدل على صدق شخصيته ، واهتدائه الى معان دقيقة لايهتدى اليها الا من عاش مثل هذه التجربة القاسية التى وصفتها لنا أخباره وأشعاره ـ أما الاستدلال بأن هذا يدل على وجود قيس كما فعل الدكتور غنيمى (١٩) . فاننى أريد أن أوسع من دائرة هذا الاستدلال ، وأجعله يدل على وجود عاشق عذرى ، عاش فى العصر الأموى ، استتر وراء هذا الاسم أو موه بالمجنون وليلى ، ولا أريد أن أجعله يدل على وجود شخص بعينه ، أو بعبارة أكثر اختصارا : يدل على « شىء » منتشر ، لا على « شخص » معين .

وأكرر مرة أننى لن أسلك فى معالجة هذه القصص ، مسلك رجل التاريخ فاتطلب منها الصدق الواقعى ، والوجود التاريخى ، وانما أسلك مسلك باحث الأدب ، فانظر مافى هذه القصص من دلالات أدبية ، واشارات فنية .

وعلى ذلك فلن انظر الى كتاب « الاغانى » أو « تزيين الأسواق »

(١٨) الاغانى ٢ / ٤ (دار الكتب)
(١٩) الحياة العاطفية ص ٤٩

مثلا ، على انهما كتابا تاريخ أولا وقبل كل شىء ٠ بل سانظر اليهـــــا على انهما كتابا أدب أولا وقبل كل شىء ٠ وربما كانت هذه النظرة هى التى ارادها المؤلفان ، فالانطاكى يرى ان الغرض من كتابه هــو اراحة النفس بالأخبار ، ولطائف الحكايات والاشعار ، حتى تنشط وتعود الى المطلوب منها خفيفة من كل الوصب والنصب ، وأنه حين إغترب بمصر ، وأصبح لايجد ــ وهو الغريب ــ من يؤنسه ، رأى أن يريح نفسه فيمتطى غارب الأدب ، ووقع اختياره على اختصار أســواق الاشــواق (٢٠) ٠ وابو الفرج يتحدث فى مقدمة كتابه عن منهجه ، وأنه لم يرد ترتيب الكتاب على طبقات المغنيين ، أو طرائق الغنــاء « واذا كان هذا هكذا فما رتبناه احلى واحسن ، ليكون القارىء له بانتقاله من خبر ، الى غيره ، ومن قصة الى سواها ، ومن اخبار قديمة الى محدثة ، ومليك الى سوقة ، وجد الى هزل انشط لقراءته واشهى لتصفح فنونه » (٢١) ٠

فاذا كنت لاأريد من قيس أو غيره شخصيته التاريخية ، وانما أريد شخصيته القصصية الأدبية فاننى اطرح السؤال الآتى ٠

هل كان لهذه القصص أغراض ، أو أنها خبط عشواء تنبت كنبات الصحراء بدون غاية مرسومة ٠ أو هدف معلوم ؟ ٠

(٢١) الاغانى ١ / ٤ « دار الكتب »
(٢٠) تزيين الاسواق ص ٣

قصص لتفسير أبيات شعرية :

عرفنا فيما سبق أن الغناء تردد فى أرجاء الجزيرة العربية وأنـه ملأ أركانها ، فلم يدع شيخا ورعا ، ولا حاكما حازما ، أو امرأة محجبة ، الا وقد مسه هذا الطائف .

وقد أدى الغناء بدوره الى شيوع الشعر الغنائى ، الذى يبدىء ويعيد فى قصة الحب ، فغلب على الحجاز فى ذلك الحين هذا النوع من الشعر . ولم يترك مكانا مرموقا لشعر الهجاء ، أو نصيبا موفورا لشعر المديح أو لشعر السياسة ، حتى أن بعض المشايخ المحافظين كأبى الأسود الدؤلى وبعض الزهاد الورعين كالقس ، كانت لهم أشعار تغنى ، ويلحن فيها . وشاع هذا الشعر بين طبقات الشعب ، حتى رأينا عجوزا تحمل روث البهائم تنتقد أبياتا لكثير ، وتفضل عليه امرأ القيس فيرشوها بمطرفة .

وفى بعض هذه الأشعار بذور حكايات وقصص ، كأن يذكر الشاعر ليلة التقى فيها بحبيبته ، وملاقى من الصعاب . وحين انتشرت هذه البذور وتلك الاشارات ، أراد الناس أن يفسروها ويشرحوها ، فاختلقوا حولها القصص والحكايات التى تفسر الأبيات وتصل بعضها ببعض .

وهذا يكشف لنا عن السر الذى نلاحظه فى بعض القصص ، اذ يلاحظ أن أشعارها جيدة وقوية ، وأن هيكل الحكاية فى درجة أقـل جودة وقوة . وتفسير ذلك سهل ، وهو أن تلك الأشعار أنشدها شعراء معروفون ، قد وهبوا تلك الطاقة الشعرية ، ووقفوا أنفسهم على السمو بهذه الموهبة ، فهم من طبقة الخاصة أما واضعو بعض القصص فقد يكونون من طبقة العامة الذين اختصموا حول أشعار تلك الطبقة ، وأرادوا تفسيرها وشرحها :

أنشد كثير تلك الأبيات :

وقضين ماقضين ثم تركننى   بفيفا خريم قائمـا أتلدد

ناطرن حتى قلت لسن بوارحـــا وذبن كما ذاب السديف المسرهـد
اقـول لمـاء العين : امعـن ، لعله لما لايرى من غائب الوجد يشـهد
فلم أر مثل العين ضنت بمائهـــا على ، ولا مثلى على الدمع يحسد
وبين التراقى واللهـــــاة حرارة مكان الشجى ، ما أن تبوح فتبرد

قال كثير هذه الأبيات ، وشاعت بين الناس ، وفيها حـديث عن فيفا خريم وعن بكاء كثير صاحب عزة ، وعن خيبته وحسرته ، فلا أقل من أن يأخذ القاص أو الخيال الشعبى ، هذه المواد فيحوك حولها قصة .

« وخرج كثير الى مصر وعزة بالمدينة ، فاشتاق اليها ، فقـام الى بغلة له فاسرجها ، وتوجه نحو المدينة ، ولم يعلم به أحد . فبينا هو يسير فى التيه بمكان يقال له ، فيفا خريم ، اذا هو بعير قد اقبلت من ناحية المدينة ، فى أوائلها محامل ، فيها نسوة . وكثير متلثم بعمامة له ، وفى النسوة عزة ، فلما نظرت اليه عرفته وانكرها . فقالت لقـائد قطارها : اذادنا منك الراكب ، فاحبس . فلما دنا كثير حبس القـائد القطار ، فابتدرته عزة فقالت : من الرجل ؟ قال : من الناس . قالت : اقسمت قال : كثير . قالت : فأين تريد فى هذه المفازة ؟ قال : ذكـرت عزة وأنا بمصر ، فلم أصبر أن خرجت نحوها على الحال التى ترين . قالت : فلو أن عزة لقيتك ، فامرتك بالبكاء ، اكنت تبكى ؟ قال : نعم . فنزعت اللثام عن وجهها ، وقالت . أنا عزة فان كنت صادقا ، فافعل ماقلت . فافحم . فقالت للقائد . قد قطارك . فقاده وبقى كثير مكـانه لايحير ، ولا ينطق . حتى توارث . فلما فقدها ، سالت دموعه وأنشأ يقول . وقضين ثم تركننى ... الأبيات » (٢٢) .

وواضح أن هذه القصة موضوعة لتفسير تلك الأبيات ، والا فانظر

(٢٢) الشعر والشعراء ١ / ٤٩٢ .

الى تلك المصادفة العجيبة التى تجمع بين كثير وعزة فى التيه . والى هذا الطلب الغريب المضحك الذى طلبته عزة من كثير وماذا تجد فى بكاء كثير ؟ . والى كثير الذى لبث مكانه ، وترك حبيته تذوب كما ذاب السديف المسرهد وهو الذى سافر من مصر لأجلها . والى قسوة عزة ، التى سخرت من حبيب تحمل المشاق بسببها وتركته وانصرفت . والى تلك السذاجة التى تبدو فى خيال القاص الشعبى ، فكأن مصر ضاحية من ضواحى المدينة ، يتذكر الشخص أن له هوى بالمدينة ، فيقوم الى بغلته ويسرجها ويسرع نحو المدينة ، على حاله ، ولم يعلم به أحد .

قصص للتسـلية :

وقد عرفنا مما سبق أن الحضارة أظلت الحجاز ، وقد تبعها الوان من الترف واللذات ، فكثر الظرفاء وانتشر المضحكون · كل يقوم بدوره فى التنفيس عما أصاب الحجاز من ناحية ، واستجابة لما يتبع الحضارة عادة من تسرية وتسلية من ناحية أخرى ·

وقد قامت القصة بدورها فى التسلية فى مجتمع حضارى · وفى التسرية عن أهل الحجاز ·

يجتمع قوم يتنزهون بالعقيق ، ومعهم ابن عائشة ، وكان عنيـــدا لايغنى اذا طلب منه ذلك ، فأخذوا يتحدثون بأحـاديث كثير وجميل وغيرهمـا ، عسى أن يهيجوه فيغنى ، ولكن لم يفعـل · فقص يونس الكاتب قصة غرام هيجته ، وجعلته يغنى ، مما أمتع الناس وجعلهـــم يقضون يومهم فى فرح وسرور · ولنترك يونس الكاتب يروى لنا هـــذا الحديث « كنا يوما متنزهين بالعقيق ، أنا وجماعة من قريش فبينا نحن على حالنا اذ أقبل ابن عائشة يمشى ومعه غلام من بنى ليث ، وهو متوكىء على يده · فلما رأى جماعتنا وسمعنى اغنى ، فسلم ، وجلس الينا ، وتحدث معنا ، وكانت الجماعة تعرف سوء خلقه وغضبه ، اذا سئل أن يغنى ، فاقبـل بعضـهم على بعض يتحدثون بأحاديث كثير وجميل وغيرهما من الشعراء ، يستجرون بذلك أن يطرب فيغنى فلم يجـدوا عنده ما أرادوا · فقلت لهم : لقد حدثنى اليوم بعض الأعراب حديثا يأكل كل الأحاديث فان شئتم حدثتكم اياه ، قالوا : هات · قلت : حدثنى هذا الرجل أنه مر بناحية الربذة ، فاذا صبيان يتغاطسون فى غدير ، واذا شاب جميل منهوك الجسم ، عليه أثر العلة ، والنحول فى جسمه بين ، وهو جالس ينظر اليهم ، فسلمت عليه ، فرد على السلام وقال : من أين وضح الراكب ؟ قلت : من الحى · قال : ومتى عهدك به ؟ قلت : رائحا قال · وأين كان بيتك ؟ قلت : ببنى فلان · فقال : أوه · وألقى بنفسه

على ظهره وتنفس الصعداء ، فقلت : انه قد خرق حجاب قلبه ، ثـــم أنشا يقول .

سقى بلدا أمست سليمى تحله ... من المزن مايـروى بـه ويسيم
وان لم أكـن من قاطنيه فانه ... يحـل بـه شخص على كريم
ألا حبذا من ليس يعدل قربه ... لدى ، وان شط المزار ، نعيم

ثم سكن كالمغشى عليه . فصحت بالنسوة ، فاتوا بالماء ، فصببنه على وجهه فأفاق وأنشا يقول .

اذا الصب الغريب رأى خشوعى ... وأنفاسى تـــزين بالخشـــوع
ولى عين أضر بهـــا التفانى ... الى الاجراع مطلقة الدمـوع
الى الخلوات يأنس فيك قلبى ... كما أنس الغريب الى الجميع

فقلت له : الا أنزل فاساعدك ، أو أكر عودى على بدئى الى الحمى ، ان كانت لك فيه حاجة أو رســالة ؟ . فقال : جزيت خيرا ، وصـحبتك السلامة . امض لطيتك ، فلو أنى علمت أنك تغنى عنى شيئا لكنت موضعا الرغبة ، وحقيقا باسعاف المسألة ، ولكنك أدركتنى فى صبابة من حياتى يسيرة . فانصرفت ، وأنا لا أراه يمسى ليلته الا ميتا . فقال القوم : ماأعجب هذا الحديث . واندفع ابن عائشة يغنى فى الشعرين جميعا ، وطـرب ، وشرب بقية يومـه ، ولم يـزل مغنيـــا الى أن انصرفنا » (٢٣) .

وواضح أن هذه القصة موضوعة للتسلية ، فقوم يتنزهون بالعقيق فيتحدثون بأحاديث جميل وكثير ، وغيرهما مـ نالعشاق الذين يحلـــو

(٢٣) الاغـانى ٢ / ٧٢ « سـامى » و ٢ / ٢٣٠ « دار الكتب » والامالى ١ / ١٧ .

ذكرهم فى هذه الأويقات ، ويقص يونس الكاتب حديثا عـ نأعرابى يأكل كل الأحاديث ، فيهيج ابن عائشة ويغنى بالشعر الذى جاء فى القصـــة ويطربون ويشربون ٠

فالقصص فى هذا المجتمع الحضارى ، كانت تقوم بدورها ، وتنافس الشعر والغناء فى مجالس السرور والأنس ٠

ولم تقف قصص العشق عند حد اتخاذهـا وسـيلة لتفسير المواقف الغرامية التى جاءت فى شعر شعراء ، أو عند حد قيامها بدور وظيفى فى مجتمع حضارى ، بل استغلت لأغراض أخرى ، فاستخدمت لأغراض شخصية ، ولمرام شعرية ، ولأهداف دينية ٠

قصص للدعـــاية :

عرف كثير من الأذكياء قيمة القصة فى الدعاية لفنهم ، والترويج لشعرهم ، وخاصة أن هذه القصص تشيع بين العامة ، وتذيع وســط الشعب ، فاستغلوا القصص وحملوها ما يريدون أن يحملوا ، وجعلوها تنتقل وسط الناس ، لاهجة باسمهم ، مذكرة بهم ٠

قال حماد الراوية :

« أتيت مكة ، فجلست فى حلقة فيها عمر بن أبى ربيعة ، فتذاكروا العذريين وعشقهم وصبابتهم ، فقال عمر : أحدثكم عن بعض ذلك : انه كان لى خليل من عذرة ، وكان مستهترا بحديث النساء ، يشبب بهن ، وينشد فيهن ، على أنه لاعاهر الخلوة ، ولا سريع السلوة ٠ وكان يوافى الموسم كل سنة ، فاذا ابطأ ترجمت له الأخبار ، وتوقفت له الســـفار حتى يقدم ، وأنه راث عنى ذات سنة خبره ، وقدم وفد عذرة ، فأتيت القوم ، أنشد عن صاحبى ، فاذا غلام قد تنفس الصعداء ، ثم قــال : عن أبى المسهر تسأل ٠ قلت : عنــه نشــدت ، وايـــاه أردت ٠ قال : هيهات ٠ وأصبح والله ابو المسهر ٠ لامؤنسا منه فيهمل ، ولا مرجـــوا فيعلل ، اصبح والله كما قال :

لعمرك ما حبى لأسماء تاركى صحيحا ، ولا اقضى به ، فاموت

قلت : وما الذى به ؟ قال : به مثل الذى بك من طول انهماككما فى الضلال ، وجركما أذيال الخسارة ، كأن لم تسمعا بجنة ولا نار ٠ قلت : من أنت منه يابن أخى ؟ قال : أنا أخوه ٠ قلت ؟ : والله مايمنعك من أن تركب طريق أخيك التى ركبها ، وتسـلك مسلكه الذى سـلك ، الا أنك وأخاك كالوشى والبجاد ، لايرقعك ولا ترقعه ٠ ثـم انطلقت وأنا أقول ٠

أرائحة حجاج عذرة روحة ولما يرح فى القوم جعدبن مهجع

خليلين نشكو مانلاقى من الهوى فتىما أقليسمع ، وان قالأسمع

فلا يبعدنك الله خلا فاننى سألقى، كمالاقيتفىالحبمصرعى

فلما حججت ، وقفت فى الموضع الذى كنت أنا وهو نقف فيه بعرفات ، واذا أنا براكب أقبل حتى وقف ، وقد تغير لونه ، وساءت هيئته ، فما عرفته الا بناقته ، فأقبل حتى خالف بين عنق ناقتى وناقته ، ثم اعتنقنى وجعل يبكى . فقلت : ما الذى دهاك وما غالك ؟ فقال : برح العزل وطول المطل ، ثم انشأ يقول :

لئن كانت عديلة ذات بث لقد علمت بأن الحب داء

الم تنظر الى تغيير جسمى وانى لايزايلنى البكاء

وانى لو تكلفت الذى بى لعفى الكلم وانكشف الغطاء

واذا العذرى مات بحتف أنفه فذاك العبد ، يبكيه الرشاء

فقلت : يا أبا مسهر ، انها ساعة عظيمة ، وانك فى جمع من أقطار الأرض ، ولو دعوت كنت قمينا أن تظفر بحاجتك ، وأن تنصر على عدوك . قال : فجعل يدعو ، حتى تدلت الشمس للغروب ، وهم الناس أن يفيضوا ، وسمعته يهمهم فاصخت له مستمعا ، وهو يقول :

يارب كل غدوة وروحه من محرم يشكو الضحى ولوحه

أنت حسيب الخطب يوم الدوحه

فقلت له : وما يوم الدوحة ؟ قال : سأخبرك ان شاء الله ، انى امرؤ ذومال كثير من نعم وشاء ، وانى خشيت على مالى التلف ، فأتيت أخوالى من كلب ، فأوسعوا لى عن صدر المجلس . وسقونى بجمة

البئر ، فكانوا خير أخوال . حتى هممت بمواقعة ابل لى ، بماء يقال له الخرزات ، فركبت وتعلقت معى شرابا ، كان قد أهداه الى بعض الكلبيين ، وانطلقت حتى اذا كنت بين الحى ومرعى الغنم ، رفعت لى دوحة عظيمة . فقلت : لو نزلت تحت هذه الشجرة ، وتروحت مبـردا ، فنزلت ، فشددت فرسى بغصن من أغصانها ، ثم جلست تحتها ، فـاذا أنا بغبار قد سطع . فتبينت ، فبدت لى شخوص ثلاثة . فاذا رجـل يطرد مسحلا وأتانا . فلما قرب منى ، اذا درع أصفر ، وعمامة خز سوداء ، واذا هو تنال فروع شعره كتفيه . فقلت فى نفسى : غـلام حديث عهد بعرس فاعجلته لذة الصيد ، فنسى ثوبه وأخذ ثوب امراته . فما لبث أن الحق بالمسحل فصرعه ، ثم ثنى طعنته ، فصرعها ، ثـم اقبل ، وهو يقول :

نطعنهم سـلكى ومخلوجة كـرك اللامين على نابـل

قال : فقلت : انك قد تعبت وأتعبت ، فلو نزلت . فثنى رجله ، فنزل ، فشد فرسه بغصن من أغصان الشجرة ، ثم اقبل حتى جلس قريبا فجعل يحدثنى حديثا ذكرت به قول الشاعر :

وان حديثـا منك لو تبذلينـه
جنى النحل ، فى البان عوذ مطافل

قال : فبينا هو كذلك ، اذ حك بالسوط على تثنيته ، فرأيت والله يابن ربيعة ظل السوط بينهما ، فما ملكت نفسى ان قبضت على السوط . فقلت : مه . فقال : ولم ؟ فانى اخاف أن تكسرهما فانهمـا رقيقتان . قال : هما عذبتان ، ثم رفع عقيرته فجعل يغنى :

اذا قبل الانسـان آخر يشـتهى ثناياه لم يأثم ، وكان له أجرا
فاذا زاد زاد الله فى حسـناته مثاقيل يمحـو عنه بها الوزرا

ثم قال لى : ماهذا الذى تعلقت فى سرجك ؟ قلت : شراب أهـداه

الى بعض أهلك ٠ فهل لك فيه ؟ قال : وما اكرهه ٠ فاتيته به ، فوضعه بينى وبينه ٠ فلما شرب منه شيئا ، نظرت الى عينيه ، كانهما عينـــا مهاة قد أضلت ولدا ، أو ذعرها قانص ، فعلم أين نظرى فرفع عقيرته يغنى :

ان العيون التى فى طرفها مرض قتلننا ، ثم لم يحيين قتـلانا
يصر عن ذا اللب حتى لاحراك به وهن أضعف خلق الله أركانـــا

فقلت له : من أين لك هذا الشعر ؟ قال : وقع رجل منا باليمامة ، وانشدنيه ثم قمت لاصلح شيئا من أمر فرسى ، فرجعت وقد جر العمامة عن رأسه ، واذا غلام كأنه الدينار المنقوش ٠ فقلت : سبحانك اللهم ماأعظم قدرتك ، وأحسن صنعتك قال : وكيف قلت ذاك ؟ قلت : مما راعنى من نورك ، وبهرنى من جمالك ٠ قال : وما الذى يروعك من زرق الدواب ، وحبيس التراب ؟ ثم لاتدرى اينعم بعد ذاك ام يبأس ؟ ثـــم قـــام الى فرسه ٠ فلما اقبل ، برقت لى بارقة الدرع ، فاذا ثـدى كانه حـــق قلت نشدتك الله « أامرأه ؟ قال : أى والله ، امرأة تكره العهر وتحب الغـزل قلت : والله وأنا كذلك ٠ قال : فجلست تحدثنى ، ماأفقد من أنسها حتى مالت على الدوحة سكرا واستحسـنت والله يابن أبى ربيعـة الغـــدر ، وزين فى عينى ، ثم ان الله عز وجل عصمنى منه ، ثم جلست منهـــا حجرة ، فما لبثت أن انتبهت مذعورة ، فلاثت عمامتها برأسها ، وأخذت الرمح ، وجالت فى متن فرسهـا ، فقلت : أمـا تزودينى منك زادا ، فاعطتنى شباتها ، فشـممت منهـا كالنبات المطور ، ثـم قلت : اين الموعد ٠ فقالت : ان لى أخوة شرسين ، وأبا غيورا ، والله لئن اسـرك احب الى من أن أضرك ٠ قال : ثم مضت ، فكان هذا آخر العهد بهـــا الى يومى هذا ٠ فهى والله التى بلغـت بى ماتـراه من هـذا المبلغ ، وأحلتنى هذا المحل ٠ قال : فقلت : وأنت والله ــ يا أبا مسهر ــ ماستحسن الغدر الابك ٠ فاذا قد أخضلت لحيته بدموعه ٠ وقال : ما قلت والله لك هذا الا مازحا ، ودخلتنى له رقة ٠ فلما انقضى الموسم شددت على ناقتى ،

وشد على ناقته . وحملت غلاما لى على بعير . وحملت عليـه قبة آدم خضراء ، كانت لأبى ربيعة ، وأخذت معى الف دينار ومطرف خز . ثم خرجت حتى أتينا كلبا . فاذا الشـيخ فى نادى قومه ، فاتيتـه ، فسلمت عليه ، فقال : وعليك السلام ، من أنت ؟ قلت : عمر بن ابى ربيعة بن المغيرة المخزومى قال . المعروف غير المجهول ، فما الذى جاء بك ؟ فقلت جئت خاطبا . قال : أنت الكفء لايرغب عن حسبه ، والرجل لايرد عن حاجته . قال : قلت : انى لم آتك فى نفسى ، وان كنت موضع الرغبة ، ولكن أتيتكم لابن أختكم العذرى ، قال : والله أنه لكفىء الحسب ، كريم المنصب ، غير أن بناتى لم يقعن الا فى هذا الحى من قريش . قال : فعرف الجزع من ذلك فى وجهى . فقال : أما انى لم اصنع بـك شيئا ، لم أصنعه بغيرك ، أخيرهـا ما اختارت . قال : قلت لـه : والله ماانصفتنى . قال : وكيف ذلك ؟ قال كنت تختار لغيرى ، ووليت الخيار لى غيرك . فأوما لى صاحبى أن دعه يخيرها . قلت : خيرها . فارسـل اليها ، أن من الأمر كذا وكذا ، فارتأى رأيك . قال فارسلت اليـــه : ما كنت لأستبد برأى دون القرشى ، فخيارى ما اختار . قال : قد صيرت الأمر اليك : فحمدت الله تعالى وصليت على نبيه ، وقلت . قد زوجتها الجعد بن مهجع ، وأصدقتها هذه الآلف دينار ، وجعلت تكرمتها العبد والقبة ، وكسوت الشيخ المطرف ، فقبله وسر به . وسالته أن ينبى بهـا من ليلته ، فأجابنى الى ذلك ، وضربت القبة وسط الحى ، وأهديت اليه ليلا ، وبت عند الشيخ خير مبيت : فلما اصبحت ، عدوت فقمت بباب القبة ، فخرج الى ، وقد تبين الجذل فى وجهه . قال : فقلت له : كيف أنت من بعدى ؟ وكيف هى بعدك ؟ فقال : أبدت لى كثيرا مما اخفـت يوم رأيتها . فقلت : ماحملك على ذلك : فانشا يقول :

كتمت الهوى ، انى رأيتك جازعا . فقلت : فتى بعض الصديق يريـد
فان تطرحنى ، أو تقول : فتيـة يضربهـا برح الهـوى ، فتعـود
فوريت عما بى وفى الكبد والحشا من الوجد برح ماعلمت شديـــد

قال : فقلت : إقسم على أهلك ، بارك الله فيك ، وانطلقت الى أهلى (٢٤) .

ذكرت هذه القصة كاملة ، لأنها ثرية ، فيها الكثير من صفات القصص العربى التى ساكشف عنها فى فصل مقبل .

ولست أدرى : هل اخترع هذه القصة حماد الراوية الذى كان يكذب ويخترع فى روايته ، أو أنها من وحى خيال ابن أبى ربيعة ؟ لست أدرى لأن القصة تشف عن مزاج كلا الرجلين ، فقد كان كل منهما مستهترا ماديا . والمخترع يأبى هنا الا ان يلوث قصص العذريين بالخمر والسكر والغناء . ولم يوفق القاص فى رسم هذا الجو الذي يتنافى مع البيئة البدوية ، والنساء البدويات ، فهل فى البادية امرأة ، لها أب غيور ، وأخوه شرسون ، ثم تخرج للصيد ، وتفعل فعل الرجل الفارس ، ثم تلتقى بأجنبى ، فتجلس معه تحت ظل شجرة وتطارحه الغزل ، وتنشده لاشك فى أن مخترع القصة رجل عاش فى الحضر ، وشاهد الترف ، فتصور أهل البادية ، وكأنه يتصور أهل الحضر .

ومن مقدمة القصة ، يبدو لنا أن القاص قد اخترعها للتسلية وازجاء الوقت ، فقد اجتمع الناس فى حلقة ، وأخذوا يتذاكرون أخبار العذريين وعشقهم ، فقص عليهم القاص تلك الحكاية ، وقد أنصف ابن عبد ربه ، حين وضعها تحت عنوان « المضحكات » (٢٥) .

ولكن ابن أبى ربيعة ينتهز هذه الفرصة ، فيدس فى ثنايا القصة حديثا عن نفسه ، وافتخارا بأبيه ، وتغنيا بجوده وكرمه ، ودفاعا عن مسلكه ومذهبه . فهو شهم ، كريم ، يسمع عن مأساة صاحبه ، فيخرج معه ، ويشد على ناقته ، ويحمل معه قبة أبى ربيعة ، ويأخذ معه

---

(٢٤) مصارع العشاق ص ٥٠ .
(٢٥) العقد الفريد ٥ / ٣٥٥ .

ألف دينار ومطرف خز . ويخرج فيستقبله الأب استقبال المعروفين ، ويرحب به ، ويمدح فى حسبه وفى شخصه ، وتختاره الفتاة وكيلا لها ، فينتهى الموضوع كما يحب ويرجع الى أهله ، مفتخرا بنفسه :

كفيت الفتى العذرى ما كان نابه ومثلى لأثقال النوائب يحمل

أما استحسنت منى المكارم والعلا اذا صرحت انى أقول وأفعل(٢٦)

فهذا الفخر بابن أبى ربيعة وبحسبه ، وتلك الخاتمة التى تنتهى بهذه الأبيات ، يرجحان أن القصة من صنع عمر . ويبدو أن عمر كان ذكيا ، فقد أكثر من الدعاية لفنه ، والترويج لشعره ، مرة برشوة المغنين والمغنيات ، وثانية باشاعة هذا النوع من القصص الذى أكثر من اختلاقه وترويجه .

---

(٢٦) العقد الفريد ٣ / ٣٥٥ (المطبعة الشرقية) و ٦ / ٤٥٦ (دار الكتب) .

قصص ذات اغراض تعصبية :

ولم تستغل قصص العشق استغلالا شخصيا فحسب . بل استغلت أيضا لأغراض تعصبية .

فقد عرفنا ان العصر الأموى . كان عصر صراع بين السادة والعبيد وعرفنا طرفا من الثورات التى نشبت نتيجة لهذا الصراع . واستخدم كل فريق مايتيسر له من الأسلحة . فكانوا ينتحلون الشعر ، ويختلقون الأحاديث تدعيما لنزعاتهم وتاييدا لميولهم .

ونال القصص حظها من الانتحال والاختلاق .

كانت عند يزيد بن عبد الملك أم البنين . وكان لها من قلبه موضع فقدم عليه م نناحية مصر جوهر له قدر وقيمة . فدعا خصيا له وقال : اذهب بهذا الى أم البنين ، وقل : اتيت به الساعة ، فجئت به اليك . فاتاها ، فوجد عندهــا وضــاح اليمن ، وكـان من اجمــل العرب ، وأحسنهم وجها فعشقته أم البنين . فادخلته عليها ، فكان يكون عندها ، فاذا أحست بدخول يزيد أدخلته فى صندوق من صناديقها . فلما رأت الغلام قد اقبل ، ادخلته الى الصندوق ، فرآه الغلام ، ورأى الصندوق الذى فيه ، فوضع الجوهر بين يديها ، وأبلغها رسالة يزيد ثم قال : ياسيدتى هبى لى منه لؤلؤة . قالت . لا ولا كرامة . وغضب وجــاء الى مولاه ، وقال : ياأمير المؤمنين : انى دخلت عليها وعندها رجل ، فلما رآتنى ، أدخلته صندوقا ، وهو فى الصندوق الذى من صــفته كذا وكذا .

فقال يزيد . كذبت ، ياعدو الله جئوا عنقه . ثم قام ولبس نعله ، ودخل على أم البنين وهى تمتشط فى خزانتها . فجاء حتى جلس على الصندوق الذى وصفه الخادم ، فقال : يا أم البنين ، ما أحب اليك هذا البيت . قالت : ياأمير المؤمنين ادخله لحاجتى ، وفيه خزانتى . فما أردت من شىء ، أخذته من قريب . قال : فما فى هذه الصناديق التى

أراها ؟ قالت · حلى وأثاثى قال : فهبى لى منه صندوقا قالت · كلها يأمير المؤمنين لك · قال : لا أريد الا واحدا ، ولك على أن اعطيك زنته وزنة مافيه ذهبا · قالت : فخذ ماشئت · قال : هذا الذى تحتى · قالت : يأمير المؤمنين عد عن هذا ، وخذ غيره فان لى فيه شيئا يقع بمحبتى · قال : ما أريد غيره · قالت : هو لك · قال : فأخذه ودعا الفراشين ، فحملوا الصندوق فمضى به الى مجلسه ، فجلس ولم يفتحه ، ولم ينظر مافيه · فلما جنه الليل ، دعا غلاما له أعجميا ، فقال له : استأجر اجراء غرباء ليسوا من أهل المصر · قال : فجاءوا بهم وأمرهم فحفروا له حفيرة فى مجلسه حتى بلغوا الماء ، ثم قال : قدموا لى الصندوق · فالقى فى الحفيرة ، ثم وضع فمه على شفيره ، فقال · ياهذا ، قد بلغنا عنك خبر ، فان يك حقا فقد قطعنا أثره ، وان يك باطلا ، فانما دفنا خشبا · ثم أهالوا عليه التراب حتى استوى · قال : فلم ير الوضاح حتى الساعة · قال : فلاوالله مابان لها فى وجهه ولا فى خلائقه شىء ، حتى فرق الموت بينهما (٢٧) ·

وأعتقد أن هذه القصة ، ليس لها صدق واقعى · فهى تناقض خلق العربيات القائم على العفة ، أو التستر فى أمثال هذه الموضوعات · وتنافى خلق العربى القائم على الغيرة والأنفة والاندفاع فيما يمس الشرف · وانظر الى تريث يزيد حين دخل عليها ، وهو يساومها على أخذ الصندوق ويبذل لها زنته وزنة مافيه ذهبا · وانظر الى الحوار الهادىء الذى دار بينهما ، والى الصبر العجيب الذى جعله يضع الصندوق ولا يفتحه حتى يجنه الليل ، ثم الى هذا الوداع الهادىء الرزين الذى ودع به الصندوق حين ألقاه فى الحفيرة ·

ان هذا ليس من خلق العرب ، بل هذا شىء وضع على العرب · وان واضع هذا ليس من العرب أيضا والا كان قد تنبه لأهم شىء

(٢٧) مصارع العشاق ص ٢٧٦ · وانظر : تزيين الاسواق ١ / ١٦٩ وديوان الصبابة ٣ / وذم الهوى ص ٣٧٦ ·

عند العربى وهو اضطرابه الشديد ، وانفعالة البين ، فيما يمس العرض ويخدش الشرف ، فمن وضع هذا لم يوفق فى التزوير والتمويه ، فقد وصف العربى هنا وكانه يصف رجلا أجنبيا ٠

ولهذا أميل الى أن هذه القصة ٠ قد وضعت بسبب الشعوبية ٠ فقد أردوا أن يشهروا بنساء هذا الخليفة الأموى ، فاختلقوا هذه القصة التى تغض منه ومن نسائه ، فهم قد عرفوا أن ابن عبد الملك قد قتل وضاحا هذا ٠ لأنه شبب بامراته وباخته (٢٨) ٠ وهم قد عرفوا أن وضاحا هذا ، كان رائع الحسن وأنه كان يبرقع وجهه خوف الفتنة بحسنه (٢٩) ، وخوفا من العين وحذرا على نفسه من النساء (٣٠) ، فلا اقل من أن يبنى القصاص على هذه العناصر قصة غرامية ، تحط من قدر ام البنين ٠ ولا أقل من أن يختار لها شخصية قيل انها من أولاد الفرس ٠ وقيل : بل انه من حمير ٠ مات أبوه وهو طفل صغير فتزوجت أمه رجلا من أهلها من أولاد الفرس ، وشب وضاح فى حجر زوج أمه ، ولما كبر جاء أهل بيته من حمير يطلبونه ، فادعى زوج أمه أنه ولده فحاكموه فيه ، فحكم به الحاكم للحميريين ، ومسح على رأسه وأعجبه جماله ، وقال له : اذهب ، فانت وضاح اليمن لا من أتباع ذى يزن ٠ يعنى الفرس الذين قدم بهم ابن ذى يزن لنصرته (٣٦) ٠

وجد الشعوبية اذن عناصر قصة ، فبنوا عليها مايخدم فكرتهم ، وينصر قضيتهم ، ونسجوا قصة حول غرام أم البنين لرجل جميل من الفرس ، أو تربى فى حجر الفرس ٠

ولست أدعى أن هذا الرأى لى ٠ فقد ذكر ابو الفتوح عن خالد

---

(٢٨) الاغانى ٦٠ / ٣٢ (ساسى) ٠
(٢٩) تزيين الاسواق ١ / ١٦٩ ٠
(٣٩) ديوان الصبابة ٢ / ٧٨ ٠
(٣١) الاغانى ٦ / ٣١ (ساسى) ٠

ابن كلثوم ان هذه الحكاية قد وضعها بعض الشعوبية . لما تلاحى هـو وبعض ولد الوليد زوج أم البنين . وأن الحق هو الرواية الأولى والتى ترى أن الوليد قد قتله ، لأنه شبب بزوجه أم البنين (٣٢) .

من المعقول اذن أن اقبل أن عربيا قد قتل رجلا لأنه شبب بامرأته وبنسائه ، فأمثال هذا كثير فى التاريخ العربى ، وهو يوائم مـــزاج العربى ، ولكن ليس من المعقول أن اقبل هدوء العربى ، وتريثه ورزانته أمام مايمس عرضه وشرفه .

---

(٣٢) الاغانى ٦/ ٣١ (ساسى) .

قصص ذات أهداف دينية :

ولم تستغل قصص العشق للمنافع الشخصية ، أو النزعات الشعوبية أو الأهواء العصبية فحسب ، بل استخدمت أيضا لأهداف دينية .

« خرج أبو دهبل الجمحى يريد الغزو . وكان رجلا جميلا صالحا ، فلما جاء بجيرون جاءته امرأة فاعطته كتبا ، فقالت له : اقرأ له : هذا . فقرأه لها . ثم ذهبت ، فدخلت قصرا ، ثم خرجت اليه . فقالت له : لو بلغت معى الى هذا القصر ، فقرأت الكتاب على امرأة فيه ، كان لك اجران ان شاء الله ، فبلغ معها القصر . فلما دخل اذا فيه جوار كثيرة ، فاغلقن عليه باب القصر ، فاذا امرأة جميلة قد أتته فدعته الى نفسها فأبى . فأمرت به فحبس فى بيت من القصر ، وأطعم واسقى قليلا قليلا حتى ضعف وكاد يموت ، ثم دعته الى نفسها فقال : أما فى الحرام فلا يكون ذلك أبدا ، ولكن أتزوجك . قالت : نعم فتزوجها وأمرت به فأحسن اليه ، حتى رجعت نفسه اليه فأقام معها زمانا طويلا ، لم تدعه يخرج من القصر حتى يئس منه أهله وولده ، وزوج أولاده بناته واقتسموا ميراثه ، واقامت زوجه تبكى ولم تقسمهم ماله ، ولا أخذت من ميراثه شيئا ، وجاءها الخطاب فأبت ، واقامت على الحزن والبكاء عليه ، قال : فقال أبو دهبل لامرأته يوما : انك قد اثمت فى وفى ولدى ، فاذن لى أن اخرج اليهم وارجع اليك ، فأخذت عليه ايمانا الا يقيم سنة حتى يعود اليها ، واعطته مالا كثيرا . فخرج من عندها بذلك المال ، حتى قدم أهله ، فرأى زوجته ، وما صارت اليه من الحزن ونظر الى ولده ممن اقتسم ماله وجاءوه ، فقال : مابينى وبينكم ، انتم ورثتمونى وأنا حى فهو حظكم ، والله لايشرك زوجتى أحد فيما قدمت به . وقال لزوجه : شأنك بهذا المال كله ، فهو لك ، ولست أجهل ما كان من وفائك واقام معها ، وقال فى الشامية .

صاح ، حيـا الاله حيـا ودودا   عند أصل القناة من جيرون
فبتلك اغتربت بالشـام حتى   ظن أهلى ، مرجمات الظنون
وهى زهراء مثل لؤلؤة الغو   اص ، ميزت من لؤلؤ مكنون

(الى أخر الأبيات)

فلما جاء الأجل اراد الخروج اليها ، ففاجأة موتها ، فأقام (٣٣) ٠

وواضح أن هذه القصة تحمل هدفا تربويا دينيا ، وهو الحث على العفة والترغيب فيها ٠ فأبو دهبل رجل صالح وشاب جميل ، دعته امرأة ذات منصب وجمال ٠ ٠ فقال : انى أخاف الله رب العالمين ٠ ومازالت به وهو يتأبى حتى ضعف وكاد يموت ، ثم تزوجها على كتـاب الله وسنة رسوله ٠

والعناصر الدينية كثيرة فى هذه القصـة ، كعنصر الاثـابة على الوفاء ، والمكافأة على الصبر ، فهذه الزوجة المخلصة ، تفى لزوجهـا الغائب ، وترفض الخطاب ، وتقيم على الحزن والبكاء ، فيكافئها الله على هذا العمل الصالح ، برجوع زوجها يحمل مالا كثيرا يهبه لهـا وحدها ، وعنصر الوفاء بالوعد ، فهذا الرجل الصالح ، تأخذ عليـه الشامية ايمانا ألا يقيم الا سنة ، حتى يعود اليها فلما جاء الأجل تذكر هذا الرجل وعده ، ولكن القصة تختلق موقفا ، ترضى به الزوجـة الوفية ، وفى الوقت نفسه يحافظ فيه الرجل الصالح على وعده ، فقـد تدخل سيف القضاء والقدر ، فاذا هذه الشامية تموت فيقيم الرجل مع زوجه فى سرور وسعادة ٠

العنصر الدينى واضح فى هذه القصة ٠ ولكن هل نستبيح لانفسنا

---

(٣٣) مصارع العشاق ص ٧٠

ان نفهم هدفا خفيا ، يستتر وراء هذا ، وهو ان اهل الحجاز ـ وقد عرفنا الخصومات بينهم وبين أهل الشام ـ يعقدون فى هذه القصة مقارنة خفية ، بين امرأة حجازية ، تحافظ على عهد زوجها ، وتحزن لفراقه ، ولا تنشط لماله ، ولا تتطلع لميراثه · بل تنتظر وتنتظر حتى يكافئها الله · وبين شامية خاطفة أزواج تتعرض الرجال ، وتدعوهم الى نفسها ، وتغريهم بالمال وبالتهديد ·

قد نستبيح لأنفسنا أن نستشف هذا الهدف ، ولكنه هدف لايكاد يبين أمام الهدف الدينى الواضح الذى يملأ كل القصة ·

* * *

وهكذا نجد أن قصص العشق · قامت بدورها فى هذا المجتمع ، فقامت بدور التفسير والشرح لبعض مواقف شعرية · وأدت وظيفة التسلية والتسرية · واستغلت فى الاعلام والدعاية · واستخدمت فى التربية والهداية ·

الفصل الثانى

ملامح قصص العشـق

الشعبية فى قصص العشق :

لعلى لا أكون مخطئا ، لو أننى اعتبرت هـذا النـوع من الأدب الشعبى .

فقصص العشق شعبية فى تاليفها .. شعبية فى موضوعها .. شعبية فى لغتها .. شعبية فى طريقتها .. .. شعبية فى ابطالها .. شـعبية فى انتشارها بين العامة .

فقد انتشرت هذه القصص بين طبقات الشعب انتشارا شاملا ، وشاعت على ألسنة العجائز ، وترددت فى أفواه الجوارى والموالى ، وذاعت بين الكادحين والعاملين ، بل لقد بلغ من تعلق الناس باحاديثها وسيرها أنهم لم يكتفوا بجعل أبطالها من الناس وكفى ، بل بالغوا فى ذلك وجعلوا من أبطالها الحيوان ، والجن ، والحور العين .

فقد رويت قصة عن العجوز التى انتقدت أبياتا لكثير ، وهى تحمل روثة ، فيها نار ، فأتحفها بمطرفه حتى تكتم هذا الأمر ، ورويت قصة عن الأحوص الذى كان ذاهبا الى دمشق وفى طريقه التقى بجارية تحمل جرة ماء ، وكانت تغنى بشعر للأحوص فقاسمها الحديث ، فاذا هى بطلة قصة غرامية (١) ورويت قصة عن فتى ابن نخاس كان فى قافلة ،

(١) الاغانى ١٨ / ٣٠٢ « ساسى » .

فيها جــوار للخليفة عبد الملك بن مروان ، فعلق احـدى الجوارى ، وعلقته ، واتفقا على الهرب ، لولا أن تنبه لهما أفراد القافلة (٢) . ويحكى الأغانى قصة العرجى وقد واعدهوى له ، فخرج على حمـــاره ، ومعه عبده ، فجاءته على اتانها ومعها جارية ، ومال كل الى شاكلته : العرجى الى هواه ، والعبد الى الجارية ، والحمار الى الاتان . فقال العرجى « هذا يوم غاب عذاله » (٣) . والجن أبت الا أن تعشق من بنى عذرة أيضا ، فيحكون أن سعد بن أبى وقاص تزوج امراة ، فراى عندها ثعبانا ، فهم بقتله فقالت : هذا كان يتبعنى ، وانا فى بنى عذرة عند اهلى ، فقال له سعد : هذه امراتى تزوجتها على كتاب الله وسنة رسوله . فماذا تريد منها ؟ فانساب حتى دخل مسجد النبى ﷺ ، وصعد فى السقف فلم ير بعدها (٤) .

وكانت قصص العشق موضوع الساعة ، يتفكه بها أهل الحضر ، ويستعين بها أهل الباديه على فراغهم ، وقد حفظ لنا التاريخ أعـــلام أبطال أمثال عمر بن أبى ربيعة ، وجميل بن معمر ، ولكن بجانب هؤلاء تساقط من ذاكرة التاريخ أبطال كثيرون ، أكثر مما امسكته تلك الذاكرة فرجل من عذرة يقول لعروة بن الزبير « لقد خلفت فى الحى ثمانين مريضا ، دنفا ، عشقا ، مابهم غير الحب قد خامر قلوبهم » (٥) .

وكانت لهؤلاء الأبطال منزلة رائعة فى نفوس النساء ، فيتمنون أن تصير لهم احدوثة مثلهم ، وأن يتغنى الركبان بسيرهم ، وقد رويت قصة الفتى الذى تمنى على عمه أن تكون له سيرة مثل سيرة المجنون

---

(٢) التحفة البهية ص ١٩٧ :
(٣) الاغانى ١ / ٣٩٥ « دار الكتب » .
(٤) تزيين الاسواق ٢ / ٣١ .
(٥) الموشى ٨٥ وانظر تزيين الاسواق ١ / ٩ .

وجميل ، واقرأ فى الأغانى كيف قابل الناس موت المجنون ، وكيف خرجت فتيات الحى يندبنه ، وانظر الى جنازته الرائعة ، والحزن الذى اعترى القوم اذ ذاك (٦) .

قصص العشق شعبية فى تأليفها :

وقد عرف القوم تلك البدعة التى شاعت بين الناس ، فكثرت التآليف ارضاء لتلك الحاجة وابن النديم يورد ثبتا بأسماء تلك الكتب (٧) ، وصاحب الأغانى يذكر أن بين أيدى الناس كتابا عن وضاح اليمن وخبره مع روضه استكبر أن ينقل عنه ، لأنه مصنوع غث الحديث والشعر (٨) . وداود الانطاكى فى تزيين الأسواق ، ينقل عن كتب كثيرة الفت فى العشق (٩) . وابن أبى حجله ينقل أيضا عن كتب من هذا

---

(٦) الاغانى ٢ / ١٣ « ساسى » .

(٧) الفهرست ص ٤٢٥ .

(٨) الاغانى ٦ / ٣٠ « ساسى » .

(٩) اليك طائفة من الكتب التى نقل عنها ، وأمام كل كتاب رقم الصفحة كما هى فى التزيين : ١ ـ منازل الاحباب (١ / ٥٩) ٢ ـ نزهة المشتاق (١ / ٦٢) ٣ ـ شرح الشواهد للسيوطى (١ / ٥٣) ٤ ـ البدور السافرة (١ / ٦٣) ٥ ـ طوالع الأزهار (١ / ٦٢) ٦ ـ شرح ديوان ابن الفارض (١ / ٦٢) . ٧ ـ نديم المسامرة (١ / ٦٤)وكذلك (١ / ٩٨) ٨ ـ نزهة العشاق (١ / ٦٤) ٩ ـ تسريح النواظر (١ / ٨٤) ١٠ ـ بلغة الاشفاق فى ذكر أيام العشاق . وهو ـ كما يقول ـ جزء لطيف لابن رشيق ، موضوعه ذكر مدة العشاق (١ / ٩١) ١١ ـ ظرائف الاخبار (١ / ٩٧) ١٢ ـ جلاء الاذهان فى منتخب شعر قتلى الحسان (١ ٩٧) ١٤ ـ روضة القلوب (١ / ١٠٢) لابن عبد ربه (١ / ٩٧) ١٥ ـ قوت القلوب فى أخبار المحب والمحبوب (١ / ١٠٥) ١٦ ـ عجيب الاتفاق فى تطابق أحوال العشاق (١/١٢٤) ١٧ ـ اقتداح زناد الاشواق واسترجاع شوارد العشاق . وهو جزء لطيفة للمسعودى (١ / ١٢٤) ١٨ ـ امتزاج النفوس ٢ / ٦٢ .

النوع (١٠) وقد ضاع كثير من هذا التراث ، وتلك هى البلية التى أصيب بها التراث الشعبى فى ادبنا العربى فلم تتوافر له العناية ، ولم تبذل لحفظه الجهود الا فى عصرنا الحديث ·

وكثير من هذه الكتب مجهولة المؤلف ، بل ان الاسماء التى نعرفها والتى ذكرت أخبار العشق كالكلبى ، والهيثم بن عدى ، لم يكونوا مؤلفين بالمعنى الذى نعرفه ، بل كانوا رواة ينقلون عن الاعراب ، وعن أفواه الناس ، ولا غرو ، فهذه الأحاديث ليست ملكا لشخص معين يبتكرها ويخلقها ، بل هى ملك لكل القوم ، اشتركوا فى تاليفها ، وتعاونوا على خلقها ، فقد كانت أحدوثة مجالسهم ، وترنيمة فراغهم ، وهذا هو السر فى تنوع الروايات ، واختلاف الرواة ، فلم تكن تلك الحكايات وثائق تاريخية ، يحقق فيها القوم ويدققون ، بل كانت مختلطة بالقصص ، يرضون بها حاجة فى نفوسهم ، فلا بأس من أن يتزود فيها قوم ، ويتنقص منها آخرون ، ويحور فيها قصاصون ·

موضوع قصص العشق موضوع شعبى :

وموضوع هذه القصص ، وتلك الحكايات ، موضوع انسانى ، يحكى قصة القلب البشرى وما ركب فيه من نوازع وغرائز ، وماخلق الله فيه من دقات وخفقات ، ففى كل زمان نسمع عن أمثال ابن أبى ربيعة ، وفى كل مكان ينجم أشباه قيس ، وهذا الموضوع الفطرى محبب عند العامة ، اثير لديهم ، يجدون لذة فى أن يتسامروا به ، ومتعة فى أن يلوكوه ؛ ونظرة الى القصص الشعبى تبين لنا أهمية هذا الموضوع عندهم ، فلا تكاد تخلو قصة أو سيرة منه ، ففى « الف ليلة وليلة » يمثل هذا الموضوع جانبا مهما ، وفى سيرة الهلالية يضرب بسهم وافر ·

---

(١٠) من الكتب التى نقل عنها ابن أبى حجلة فى كتابه « ديوان الصبابة » : ١ ـ تحفة الظراف (١ / ٢٩) ٢ ـ امتزاج الارواح (١ / ٢) ··· الخ ·

قصص العشاق تحطم الفروق الاجتماعية :

وقد حققت هذه القصص فى خيال الشعب اشتراكية واضحة ، فتغاضت عن الفروق بين الطبقـات ، فالخليفة يعشـق جارية ، كامر يزيد مع حبابة (١١) أو مر يزيد بن معاوية مع عمارة جارية عبد الله بن جعفر (١٢) وابن الخليفة يحب امرأة من عامة الحجاز ، فقد أحب يزيد بن معاوية امرأة عبد الله بن عامر ، ويتدخل معاوية فى هذا الأمر بما عنده من مال وسلطان ، ويكاد ينجح لولا أن يفسد الحسين عليه غرضه (١٣) . والمرأة « الارسـتقراطية » تتحرش برجل من العامة ، واقرأ قصة ابنة عبد الملك ، فقد عشقت عاملا حبسه أبوها وطارحته الأشعار ، حتى بلغ عبد الملك أمرهما فزوجها منه (١٤) . واقرأ قصة أم البنين مـع وضاح اليمن التى تدخل فيها يزيد ، أو هو الوليد فواراه التراب (١٥) . أو قصة عاتكه بنت معاوية مع أبى دهبل الجمحى وقد تدخل معاوية فيها ، فرشا أبا دهبل بالمال (١٦) .

والغت أيضا الفروق التى تأتى من المنزلة الاجتماعية ، فالقس الذى لقب بهذا لشدة ورعه ، يحب جارية مغنية تتكشف للناس هى سلامة ، ويقول فيها الأشعار (١٧) . والغت أيضا الفروق التى بسبب العقيدة ، فالوليد بن يزيد يعشق جارية نصرانية ، وقد تنكر حتى استطاع أن يرأها فى بستان ، فجعلت تمازحه وهى لاتعرفه (١٨) .

(١١ الاغانى ٨ / ٣٥١ « دار الكتب » .
(١٢) مصارع العشاق ١٢٥٩
(١٣) مجمع الامثال للميدانى ١ / ٢٦٣ .
(١٤) الموشى ص ٥٣ .
(١٥) مصارع العشاق ص ٢٧٦ .
(١٦) الاغانى ٧ / ١٢١ « دار الكتب » .
(١٧) المرجع السابق ٨ / ٣٣٤ .
(١٨) مصارع العشاق ص ٢٦٢ .

قصص العشق شعبية فى لغتها :

قد كان للفصحى – فى ذلك الحين – ثوبان : ثوب « كلاسيكى » قد نسجه الشعراء من لغة المعلقات ، واصطنعوه من قاموسها ، وهذا الثوب أو هذا الجانب من الفصحى ، يمتاز بالجزالة والفحولة وبضخامة الرنين ، وبطول الجملة ، بل ولا يخلو من الغريب والوحشى ، وهذا الجانب نستطيع ان نلتمسه عند الأخطل أو الفرزدق أو مروانبن أبى حفصة ، أما الثوب الآخر فقد نسجه العامة والموالى والمغنون والمغنيات ، من الألفاظ السهلة السمحة ، والقصيرة الهامسة ، التى يكثر تداولها بين الناس ، وجريانها على الألسنة ، يفهمها العجم والموالى ، وتكون يسيرة على أفواه العجائز والنواهد ، وتبدو فيها السهولة التى تكون مستحبة وقت السمر ، وتتجنب العجرفة التى يضيق بها المتحدثون ويمجها العامة ، وهذا الثوب هو الذى لبسته قصص العشق – أو معظمها – فبدت فيه يسيرة يسر الشعب فى حاجاته وسلوكه ٠

وقد ادرك القدماء أن للعامة لغة وطابعا غير لغة وطابع الخاصة ، ولهذا لو ظهرت نوادر العوام وملح الحشوة ، فى ثوب غير ثوبها لكان هذا مفسدا لها ٠ يقول الجاحظ « وكذلك اذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ، وملحة من ملح الحشوة الطغام ، فاياك أن تستعمل فيها الاعراب ، أو تتخير لها لفظا حسنا أو تجعل لها من فيك مخرجا سريا ، فان ذلك يفسد الامتاع بها ويخرجها من صورتها ومن الذى أريدت له ، ويذهب أستطابتهم اياها واستملاحهم لها (١٩) » ٠ ومثل هذا قاله ابن قتيبة « وكذلك اللحن ان مر بك فى حديث من النوادر ، فلا يذهبن عليك أنا تعمدناه وأردنا منك ان تتعمده ، لأن الاعراب ربما سلب بعض الحديث حسنه ، وشاطر النادرة حلاوتها » (٢٠) ٠

---

(١٩) البيان والتبين ١ / ٨١ ٠
(٢٠) عيون الاخبار ، مقدمة المؤلف ٠

قصص العشق شعبية في طريقتها :

. وتبدو الشعبية فى طريقة هذه القصص ومعالجتها لهذا الموضوع ، ففيها شى من المبالغة التى ترضى العامة وتجذبهم . واقرأ غشيان قيس لأقل سبب ، واقرأ وصفه حين هام فى البرية وأنس بالحيوانات والظباء وأنسب به ، بل واقرأ ذلك الموت بين العشاق وكيف يفجؤهم بسرعة ، فشاب يهديه ابن جعفر الجارية التى يحبها فيقع ميتا (٢١) . وآخر يسمع غناء حبيبته فيلقى بنفسه من القصر ، ثم تلحق به حبيبته وتجأ نفسها فى حفرة (٢٢) . بل اقرأ مايعرف عندهم « بالعشق المسلسل » ، فستجد فيه حكايات يمثل دور الميت فيها أكثر من واحد ، كتلك الحكاية التى رويت عن يونس النحوى ، وقد نزل بصديقه مالك العذرى ، فراى شابا عاشقا شهق فمات من العشق ، وفى اللحظة نفسها ماتت شابة كانت تهواه ، وشابة أخرى هى ابنة عمه كانت تهواه أيضا (٢٣) . واقرا صفات البطولة التى يضفيها القصاص على العشاق فعمر تدس اليه الثريا من يخبره ، أنها عليلة فيسرع اليها ركضا على فرسه ويختار الطريق الشاق (٢٤) . واقرأ حيله وذكاءه فى الوصول الى حبيبته مرة بخديعته بديحا وطلبه أن ينشد بغلة له ضالة ، وكان ذلك آية بينه وبين بنت محمد ابن الأشعث الكندية ، مما جعل بديحا يقول له : ياعمر ، لقد صدقت التى قالت لك .

فهـــذا ســـحرك النســوا ن ، قــد خبرننى خــبرك

قد سحرتنى وأنا رجل ، فكيف برقة قلوب النساء ، وضعف رأيهن ،

---

(٢١) العقد الفريد ٣ / ١٩٩ .
(٢٢) ألمرجع السابق ٢ / ١٩٨ .
(٢٣) تزيين الأسواق ١ / ١٢٦ .
(٢٤) الاغانى ١ / ٢٢٢ « دار الكتب »

وما آمنك بعدها ، ولو دخلت الطواف ، ظننت انك دخلته لبلية (٢٥) ومرة بتنكره فى ثياب اعرابى (٢٦) .

أو اقرأ قصة شهاب بن حرقة السعدى ، ولاحظ مافيها من بطولة وشاجعة يظهرها العاشق ومن ورائه حبيبته تسنده (٢٦) .

ان كل هذا يدل على أن هؤلاء القصاص كانوا يريدون ارضاء عقلية العامة التى تميل الى الاخبار ، والحكايات المبالغ فيها .

قصص العشق شعبية فى أفكارها ومعتقداتها :

وعقلية العامة تنضح بها هـذه القصـص فى كثير من المعتقدات والافكار ، وبعض هذه المعتقدات نهى عنها الاسلام نهيا صريحا ، ولكن أبطال العشق ـ والعذريون منهم بنوع خاص ـ مازالوا يعتقدونها ويؤمنون بها ، وما زالوا يمثلون ـ من هذه الناحية ـ امتدادا لآبائهم من أهـل الجاهلية .

ولهذا دلالته القيمة .

دلالته على أن من أراد أن يبحث عن مدى تأثير العقيدة الجديدة فى حب هؤلاء العذريين ، وفى طريقة تعبيرهم عن هذا الحب ، فلا يبحث عنها فقط فى أبيات قالها جميل ، يصور فيها أن جهاده لايكون فى غزوة يرفع بها من شأن الدين ، أو أبيات قالها غير جميل ، يذكر فيها يوم القيامة أو يوم الحشر أو عذاب الآخرة (٢٨) ـ من أراد أن يبحث عن مخالطة

---

(٢٥) المرجع السابق ١ / ٨٨ .
(٢٦) المرجع السابق ١ / ١٧٥ .
(٢٧) المحاسن والاضداد ٧١ .
(٢٨) أشير بهذا الى رأى الدكتور غنيمى ، فقـد اعتبر العقيدة الجديدة « أقوى العوامل وأبعدها أثرا وأكثرهـا مظاهـر فى خلق ذلك النوع من الغزل » (الحياة العاطفية ص ٢٤) وقارن مسلك العذريين بمسلك

العقيدة لوجدان هؤلاء ، فلا يبحث عنها فقط فى أبيات قالها أحدهم فى ساعة صحو واعداد ، ومعرفة أن هذه الأبيات سيتناقلها الناس ، وسيسمعها الفقهاء والحكام ، وانما يبحث عنهـا أيضـا فى معتقدات هؤلاء القوم وسلوكهم ، حين يتركون انفسهم على سجيتها ، وفيما يقتنصه من وراء السطور ، ومن وراء الأبيات من أمـور تشـكل تصرفهم ، وتفصح عن وجدانهم ٠

ودلالته أيضا على أن العامة لايبقون الدين على نقائه وجوهره ، بل يضيفون اليه من عقائدهم وأوهامهم ومتوارثاتهم ، أشياء يمزجونها بالدين الأصلى ، فمثلا فى عصرنا كلنا يعرف أن العـامة يعتقدون فى أمور تخالف كل المخالفة جوهر الدين ، كايمانهم بتلك السلطة الكبرى التى يضفونها على السيد البدوى ، وتجعل هذا الانسان الميت يتدخل فى مصائرهم ويتحكم فى أقدارهم ، فتلك العقيدة تخالف جوهر الدين الذى يؤمن بالوحدانية ، وينزه الاله عن الشريك ٠

فاذا أراد انسان أن يتحدث عن عقيدة العامة ، فلا يتحدث عنها ممثلة

الزهاد الاتقياء (المرجع السابق ٣٣) ، ورأى أن للدين تأثيرا فى هذا الحب فلم يكن ذلك النوع من الحب ليوجد لو لم يغز قلوبا عامرة بالعقيدة مؤمنة بالروح وبالدار الاخرة ، تعتنق فضيلة الزهد ، وتؤمن بجهـاد النفس ، وتنتظر الثواب على العفاف فى الحب » (المرجع السابق ص ٣٧) ٠ ولست أريد هنا أن أطعن فى عقيدة هؤلاء القوم ، أو أن أسلبهم اسلامهم ، فقد كان بعضهم ورعا زاهدا مثل « عروة بن أذينة وعبد الرحمن القس » وكل ما أعنيه ، ان هؤلاء القوم فى عشقهم وفى طريقة تعبيرهم عن هذا العشق ، لم يكونوا يصـدرون عن دوافع اسلامية ، ولم يكونوا يبغون الثواب من الله تعالى جزاء وفاقا على صنيعهم ، والا فما الحكم على هؤلاء الذين وجدوا قبل أن توجد العقيدة الجديدة ٠ بل كان هؤلاء القوم يمتاحون فى التعبير عن عاطفتهم من وجدانهم ، الذى مازالت فيه رواسب قديمة من معتقدات وأوهام وعادات ، تعيش جنبا الى جنب مع تلك القيم الجديدة ٠

فى ذلك الدين النقى ، وانما يتحدث عنها فى هذا الدين الذى يقبع فى وجدانهم ، ويتخذ صورة هى مزاج من الدين الأصلى ، ومن العقائد التى توارثوها عن أجدادهم ، كما توارثوا عنهم دماءهم ، وهذا البحث أكثر دلالة على نفوس هؤلاء ، وأشد صدقا على تكوينهم ، وأضمن طريق يلجأ اليه الباحث للوصول الى نتائج أقرب الى الصدق والواقع ٠

واليك طرفا من هذه العقائد الشعبية التى لاترضى روح الاسلام ٠

كان العشاق يلجأون الى الكهان أو العراف ، يلتمسون عندهم المعونة فى التغلب على عواطفهم ، ويحاولون أن يجدوا عندهم الشفاء من الهوس الذى يحل بهم ٠

فقد لجأ كثير الى عراف من نهد يستخبره عن حال عزة ، وقد كانت غائبة بمصر (٢٩) ، وعروة بن حزام ينشد أبياتا فى عراف اليمامة (٣٠)

وكلنا يعرف أنه كانت للعراف منزلة كبيرة فى المجتمع الجاهلى ، فقد كانوا يحتكمون اليه فى أمورهم ، ويأخذون رأيه فيما عسى ان ينزل بهم ، وهو الذى حكم فى النزاع بين هاشم وأمية (٣١) ٠ والاسلام قد نهى عن هذه العقيدة الخاطئة ، فلم يبح لمعتنقيه هذا التعلق الكبير بمخلوق ، وليس فى طقوسه كهانة أو احتكار ، وقد نفى أن يكون قول النبى ﷺ قول كاهن ، فقال تعالى : « انه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليلا ماتؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلا ماتذكرون (٣٢) ٠

وكان هؤلاء العشاق يتطيرون ويتشاءمون من الغربان ، لما بـنـغ

---

(٢٩) الموشى ٢ / ١٧٠ ٠
(٣٠) أخبار عروة بن حزام ص ٧ ٠
(٣١) تاريخ الطبرى ٢ / ٢٥٣ « دار المعارف » ٠
(٣٢) سورة الحاقة الايات ٤٠ و ٤١ و ٤٢ ٠

كثيرا ان عزة عليلة خرج يريدها وهى بمصر ، فرأى غرابا ساقطا على بانة ، ينتف ريشه ويطائره على راسه ، فتطير من ذلك ، واتى عرافا من نهد ، اخبره بما رأى ، فآيسه من ذلك ، واخبره بوفاتها ، فلما وصل الى مصر خبر بموتها فانشأ يقول :

فما اعيف النهدى لادر دره ... واعلمه بالزجر ، لاعز ناصره
رأيت غرابا ساقطا فوق بانة ... ينتف على ريشه ويطايره
فاما غراب فاغتراب من الهوى ... وبان فبين من حبيب تعاشره (٣٣)

وروى ان لبنى امسكت باربعة غربان وكتفتهن ، وجعلت تضربهن بالسوط حتى متن جميعا وهى تقول باعلى صوتها ٠

لقد نادى الغراب ببين لبنى ... فطار القلب من حذر الغراب
فقلت غدا تباعد دار لبنى ... وتنأى بعد ود واقتراب
فقلت تعست ويحك من غراب ... اكل الدهر سعيك فى تباب
لقد اولعت لا لاقيت خيرا ... بتفريق المحب عن الحباب (٣٤)

وفى قصص العشق تجد اشارة الى عقيدة الهامة ، فيزعمون أن ليلى الاخيلية مرت مع زوجها بقبر توبة ٠ فقالت : السلام عليك ياتوبة ، ثم حولت وجهها الى القوم ، وقالت : ماعرفت له كذبة قط قبل هذه ٠ قالوا : كيف ؟ قالت : أليس القائل :

ولو ان ليلى الاخيلية سلمت ... على ، ودونى تربة وصفائح

---

(٣٣) الموشى ٢ / ١٧٥ ٠
(٣٤) مصارع العشاق ص ٧٧ ٠

لسلمت تسليم البشاشة أو زقا ... اليها صدى (٣٥) من داخل الترب صائح

واغبط من ليلى بمـا لا أنـاله ... الاكل ماقرت بـه العين صـالح

فما باله لايسلم على كما قال . ثم خرجت من جانب القبر بومة ، طارت فى وجـه الجمـل ، فنفر فرمى ليلى على رأسـها ، فماتت من وقتها (٣٦) .

والتطير والاعتقاد فى الهـامة من الأوهـام التى كانت شائعة بين الجاهليين (٣٧) .

وقد نهى الاسلام عن هذه الأوهام نهيا صريحا ، فورد قول النبى ﷺ « لاعدوى ولا طيرة ، ولاهامة ، ولاصفر » (٣٨) .

وصاحب بلوغ الأرب ذكر تحت عنوان « بيان ما كان عليه العرب فى الجاهلية من الأعمال التى أبطلها الاسلام (٣٩) » طائفة من تلك العقائد التى شاعت فى أخبار العشاق وشعرهم كتعليق الحلى والجلاجل على اللديغ يرون أنه يفيق بذلك ... وقال بعض بنى عذرة :

كأنـه سليم نـاله كلم حيـة ... ترى حوله حلى النساء موضعـا

وقال جميل :

اذا ماالديـغ أبـرأ الحلى داءه ... فحليك أمسى يابثينة دائيا (٤٠)

---

(٣٥) الصدى : طائر يصيح فى هامة المقتول اذا لم يثار له ، وقيل هو طائر يخرج من رأسه اذا بلى ويدعى الهامة ، وانما كان يزعم ذلك أهل الجاهلية (لسان العرب « صدى ») .

(٣٦) الاغانى ١١ / ٣٤٤ « دار الكتب » .

(٣٧) أنظر لذلك : بلوغ الأرب ٢ / ١٩٩ و ٢ / ٣٣١ ومروج الذهب ١ / ٢٥١ ولسان العرب « صدى » .

(٣٨) رواه أبو هريرة أنظر صحيح البخارى ٧ / ١٢١ وانظر أيضا بلوغ الارب ٣ / ١٩٩ والعمدة ٢ / ٢٠١ .

(٣٩) بلوغ الارب ٢ / ٣٠١ .

(٤٠) المرجع السابق ٢ / ٣٠٥ .

ومن مذاهبهم أن الرجل منهم كان اذا عشق ولم يسل ، وأفرط عليه العشق ، حمله رجل على ظهره كما يحمل الصبى ، وقام آخر فأحمى حديدة ، وكوى بين اليتيه ، فيذهب عشقه فيما يزعمون . عن محمد ابن سليمان بن فليج قال : كنت عند عبد الله بن جعفر ، فدخل عليه كثير ، وعليه أثر علة ، فقال عبد الله : ما هذا بك ؟ قال : هذا ما فعلت بى أم الحويرث ، ثم كشف عن ثوبه وهو مكوى وأنشد :

عفا الله عن أم الحويرث ذنبها   عـلام تعنينى وتكمى دوائيـا
ولو آذنونى قبل أن يرقموا بها   لقلت لهم أم الحويرث دائيا (٤١)

ومن مذاهبهم أن الرجل منهم كان اذا خدرت رجله وذكر من يحب أو دعاه فان الخدر يزول . قال كثير :

اذا خدرت رجلى ذكرتك أشتفى   بدعواك من مـذل بهـا فيهون

وقال جميل :

وأنت لعينى قـرة حـين نلتقى   وذكر يشفينى اذا خدرت رجلى (٤٢

واستنادا الى هذه العقيدة ، لا أوافق العقاد على حكمه فى أن جميلا فى قوله :

اذا خدرت رجلى وقيل شفاؤها   دعاء حبيب ، كنت أنت دعائيا

قد حاكى عمر بن ربيعة فى قوله :

اذا خدرت رجلى أبوح بذكرها ليذهب عن رجلى الخدور ، فيذهب (٤٣)

---

(٤١) بلوغ الأرب ٢ / ٤٢٢ .
(٤٢) المرجع السـابق ٢ / ٣٢ . وانظر أيضـا تزيين الأسواق ١ / ٥٣ فانه يشير الى هذه العقيدة الجاهلية .
(٤٣) جميل بثينة ص ٩٢ .

اذ لا محاكاة هنا ، فكل منهما يغتاح من عقيدة شائعة ، عند آبائهم الجاهليين قد توارثوها عنهم .

هذا ويظهر ابطال كعشق — أو معظمهم — فى صورة قريبة من رجل العامة ، بل ربما كان هؤلاء العامة يضفون عليهم من أنفسهم ، ويخلعون عليهم من ذواتهم .

ففى كل زمان نجد أن العامة يميلون الى الاستسلام والتواكل والخضوع لما هو مكتوب على الجبين ومسطر فى الالواح .

كذلك كان أبطال العشق جبرية ، يرون أنه لا حيلة فيما وقع ، ولايملكون له تحويلا ، وليس بيدهم شئ ، يقول ذلك المجنون حين يلومه اللائمون (٤٤) . ويقوله ابن ذريح (٤٥) ، ويقوله عروة (٤٦) ، بل تكاد لانجد عذريا الا ويستسلم مثل ذلك الاستسلام ، يقول جميل لابن عمه روق وقد لامه : « يا أخى ، لو ملكت اختيارى لكان ما قلت صوابا ، ولكنى لا أملك الاختيار ، وما أنا الا كالأشير لا يملك لنفسه نفعا » (٤٧) .

وموقف هؤلاء مخالف لجوهر الاسلام ، فالاسلام يعطى المرء شيئا من الارادة يجعله مسئولا عن عمله « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » (٤٨) وأنه من أجل ذلك سيحاسب على مقدم ، ان خيرا فخير ، وان شرا فشر ، « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » (٤٩) . وانظر الى خطاب الله للكافرين يحملهم

---

(٤٤) الأغانى ٢ / ١٧٤ « ساسى » .
(٤٥) تزيين الأسواق ١ / ٥٤ .
(٤٦) الأغانى ٢٠ / ١٥٣ « ساسى » .
(٤٧) ٨ / ١٤٩ « دار الكتب » .
(٤٨) سورة التوبة من الاية ١٠٥ .
(٤٩) سورة الزلزلة الآيتين ٧و٨ .

مسئولية عملهم تمام التحمل ، يقول لهم على لسان نبيه « لكم دينكم ولى دين » (٥٠) .

ولا أعتقد أنهم متأثرون بما شاع من تيارات ثقافية فى هذا العصر ، كمذهب الجبرية الذى يجعل الانسان كريشة فى مهب الرياح (٥١) . فقد كان هؤلاء العشاق – على وجه العموم – فى شغل عن الصراع الثقافى ، أو الصراع الحزبى ، بما ابتلوا به من عاطفة لايستطيعون لها دفعا ، ولا عنها حولا .

ولاأعتقد انهم متأثرون بما شاع فى مسرحيات الاغريق ، من استسلام للقدر واذعان فى آخر الأمر لحكمه ، فان العرب فى ذلك العصر لم يعرفوا مسرحيات الاغريق ، ولم يترجموا شيئا من تراثهم الأدبى .

بل كان موقفهم هذا موقفا طبعيا لرجل العامة ، الذى يلقى مقاليده لقوة أكبر منه يحملها مسئولية عمله ، وزاد الطين بلة ما ابتلى به الحجاز فى ذلك الحين من اضطهاد وقسوة وارهاب ، جعلت بطل القصة فى خيال الشعب انسانا ضعيفا مسلوب الارادة ، عديم الحيلة ، يبكى بصوت كله حزن واستسلام .

فالعامة قد خلقت بطلا متواكلا ، وتلك الظروف أضافت اليه «رتوشا» فيها حزن واستسلام .

وكثير يعتبر مثالا طيبا لعقلية العامة ، فقد كان فى معتقداته اقرب الى أفكارهم واتجاهاتهم « دخل عبد الله بن حسن على كثير ، يعوده فى مرضه الذى مات فيه ، فقال له كثير : أبشر ، فكأنك بى بعد أربعين ليلة قد طلعت عليك على فرس عتيق . فقال له عبد الله بن حسن : مالك ،

---

(٥٠) سورة الكافرون من الآية ٦ .
(٥١) الفصل لابن حزم ٣ / ٢٢ .

فوالله لئن مت لاأشهدك ولاأعودك ولا أكلمك أبدا » • وكان ساذجا سريع الاستجابة ، وكان أهل البيت يعرفون ذلك ، ويسخرون منه ، فكان أبو عبد الله محمد يضع عليه الارصاد ينبئونه بخبره ، وقد أخبره أبو هاشم مرة بما حدث بينه وبين رجل ، فقال له كثير : أشهد أنك رسول الله ، وكان يصدق ببلاهة : أما ذا قلتم هذا ، فانى لأجد فى عينى هذه ألما منذ أيام (٥٢) •

وهنا أصــل الى نقطة مهمة ، ولكنها واضحة فى كثير من قصص العشق كل الوضوح ، وهى تشف عن عقلية العامة التى ترتكن الى أمور خارجة عنها تسوق لها السعادة ، أو تجلب عليها الشقاء •

ولا شك أن تدخل أمور خارجية تتحكم فى ابطال القصص ، معيب من الناحية الفنية ، فالفنان الحق يجب ان يترك قصته تتطور من داخلها ، وتنمو بما فيها من « جينات » فنية ، اذا سمح لنا علماء الاحياء باستعارة هذه الكلمة • ولا يسمح الفنان الحق بأى دخيل يتحكم فى مصير أبطاله ، فيأخذ بيدهم ان شاء أو يأخذ على يدهم ان أراد ، بل يترك قصته بما فيها من «جينات» ، وبما فى داخلها من قانون النمو ، تصنع حياتها بنفسها ، وتصل الى أهدافها تلقائيا •

ولكن قصص العشق أقرب الى عقلية العامة منها الى عقلية الفن ، فقد أباحت لعناصر خارجية أن تصنع لها حياتها •

والأمور الخارجية فى قصص العشق تتمثل فى السلطان ، أو فى عظيم له قدره وجاهه •

فتدخل السلطان أمر تجده فى كثير من قصص العشق العذرية ، فحين يشيع أمر العاشقين ، يشكو أهل العشيقة الى السلطان ، فيأمر

---

(٥٢) انظر ها الأخبار فى الأغانى ٩٠/١٧ ، ٣٥ « دار الكتب »

باهدار دم العاشق ، وهنا تتازم الأمور ، وتشتد العقبات ، ونشاهد الوانا من المصاعب ، ومن الحيل ومن البطولات .

يصبح العاشق فى موقف لايحسد عليه ، فالحاكم قد أهدر دمه ، وأهل العشيقة يتربصون به ، والقاص يأبى الا أن يلتقى بحبيبته ... فماذا يفعل ؟ .

منهم من يتحايل ، فيرجو من أمة ان تجمع بينهما ، كامر بريكة من ابن ذريح (٥٣) ، ومنهم من تخدمه المصادفة المحضة كزوج لبنى الذى اشترى بمحض المصادفة ناقة قيس وواعده منزله ليقضيه (٥٤) . ومنهم من يرسل خاتمه الى حبيبته لتعرف مكانه ، كما فعل جميل اذ أرسل وليدة بخاتمه الى بثينة ، فلما رأته جاءته فتحدثا ليلتهما (٥٥) . ومنهم من يطلب مساعدة ابن عمه أو أحد معارفه كما طلب جميل من روق ابن عمه مساعدته ، فهب لذلك وأخفاه عند صديق له من رهط بثينة (٥٦) . وظل عنده ثلاثة أيام وهو يلتقى ببثينة .

ويتيح تدخل السلطان الفرصة للقاص ، لكى يظهر ألوانا من البطولة ، يضعيها على بطله فما أكثر المبارزات التى حدثت بين جميل وأهل العشيقة ، وانتصر فيها جميل (٥٧) .

والقاص لم يكن متلائما مع واقعه فى اختلاق هذا الموقف .

فالحاكم لم يكن خاليا من مشاغله حتى يفرغ لأمر العشق ، ويستجيب لأهل البطلة ، ولو تفرغ الحاكم لهذه القصص لما رأى لها أولا ولا آخرا ، فهذه القصص فى العصر الأموى كثيرة ، وماعرفناه منها أقل من القليل ،

---

(٥٣) الأغانى ٩ / ٢٠٩ « دار الكتب » .
(٥٤) الأغانى ٩ / ٢٠٤ « دار الكتب » .
(٥٥) المرجع السابق ٨ / ١٤٩ .
(٥٦) المرجع السابق ٨ / ١٤٩ .
(٥٧) المرجع السابق ٨ / ١٤٧ .

فكيف يستقيم هذا مع ما عرف عن العصر الأموى ، وما فيه من اضطراب وزلازل كافية لأن تشغل الحاكم عن التدخل فى امر العواطف .

على أن هذا الموقف صادق فى الدلالة على نفوس الحجازيين .

فهم يعرفون أن السلطان قد سلبهم حقوقهم ، وقد سبب لهم اضطرابات وزلازل وحرمهم من مطالب كثيرة ، كانوا يتوقون اليها ، ووقف عقبة بينهم وبين كثير من الآمال والمطامح ، اذا كان هذا حال السلطان والحاكم معهم فى واقعهم ، هادم لذات ومفرق جماعات ، فلا اقل من أن يكون كذلك فى قصصهم ، وأن يمثل العقبة التى تحول بين العشاق وآمالهم ، وأن يكون رمزا لكثير من المتاعب التى يلاقيها العاشق ، وسببا فى كثير من المصاعب التى تنشأ بين العاشق وأهل العاشقة . ولهذا لم يكن عبثا استخدام كلمة « سلطان » أو « حاكم » بديلا عن كلمة «خليفة» أو « أمير المؤمنين ، فهم ـ شعوريا أو لاشعوريا ـ استخدموا من الكلمات ما يوحى بالسلطة والقسوة والحكم والاستبداد ، ولم يستخدموا الكلمات التى فيها دلالة على أن الحاكم خليفة النبى على المسلمين ، وأمير على المؤمنين يبغى مصلحتهم والعدل بينهم .

واذا كانت القوة الخارجية التى تنغص على العاشق ، وتسبب له المصاعب والمتاعب ، قد جسدتها تلك القصص فى الحاكم أو السلطان ، فان القوة الخارجية التى تتجاوب مع العاشق وتتعاطف مع نفسيته ، وتحاول أن تصل بينه وبين هواه ، وأن تحقق له شيئا من السعادة ، قد مثلتها تلك القصص فى فريق من الحجازيين يسعون الى ارضاء العاشق وتحقيق رغباته ، فالحسين رضى الله عنه يستجيب لقيس بن ذريح ، ويذهب خاطبا لها من أبيها ، فيقول له : لو أرسلت لكفيت ، ولكن ذلك من أبيه أليق كما هو عند العرب . فيذهب الى أبيه فيطيع الحسين ، ويزوج قيسا من لبنى ، ثم يطلقها تحت ضغط أبويه ، فتذهب نفسه حسرات ، ولكن يظهر على المسرح ابن أبى عتيق ، والحسن ، والحسين ، وعبد الله

ابن جعفر ، رضى الله عنهم ، فيجمعون بين قيس ولبنى مرة أخرى (٥٨) ولابن أبى عتيق جـولات كثيرة ، ذكرهـا ، يحاول أن يتوسط فيهـــا بين عمر والثريا ، وقد مدحه عمر بأبيات ، فطلب منه ابن أبى عتيق — تظرفا — أن يكف عن مدحـه ، لأن من يسمع هـــذه الأبيـات يحسبه قوادا (٥٩) وابن أبى جعفر يحـاول أن يجمع بين جـــارية وشـــاب يحبها (٦٠) . الخ .

وهذا الموقف صادق من ناحيته الواقعية ، وصادق فى الدلالة على نفوس الحجازيين .

فاننى أعتقد أن هؤلاء الشباب ، الذى أصبح يطارده ويحثه على العمل ماض لآبائهم مجيد ، فآباؤهم قد أسسوا الدولة فى أول أمرها ، وأعلوا شأن الدين ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ، ثم بين يوم وليلة حيل بين هؤلاء الشباب وبين حياة الجد والطموح ، فلا أقل من أن يتجهوا الى ميدان آخر يظهرون فيه شخصياتهم ، ويعبرون فيه عن ذواتهـم ، ويثبتون للحجازيين أنهم ليسوا أقل نفعا لهم من آبائهم ، وأنهم يسعون لمصلحتهم ، كما كان أجدادهم يفعلون ، والقارىء لسيرة ابن أبى عتيق يحس أنه يحاول أن يستعيض ببطولة عن بطولة ، أو القارىء لأخبـار الحسن يرى أنه ينتهز الفرص ليدخل السرور على أهل المدينة ، وقـــد أرغم مرة ابن عائشة أ نيغنى وقد سال العقيق ، فقال أهل المدينة له : «ما اجتمع لأهل المدينة سرور قط الا بكم يا أهـــل البيت » (٦١) . فليس ببعيد اذن هذا الدور الذى أسندته هذه القصص لهؤلاء الشرفـاء الأجلاء .

وهذا الموقف صادق فى دلالته على نفوس الحجازيين .

---

(٥٨) الأغانى ٩ / ١٩ « دار الكتب » .
(٥٩) تزين الأسواق ١ / ٥٣ .
(٦٠) ذم الهوى ص ٥٣٠ .
(٦١) العقد الفريد ٣ / ١٨٩ .

فان الحجازيين قد ارغموا على الخضوع لبنى أمية ، وقد ادرك ذلك معاوية فقال عن أهل المدينة ، انهم اظهروا ذلا تحته حقد (٦٢) ، وقد كانت ميولهم وأهواؤهم مع أهل البيت .

وقد رأيت أن القصاص أسندوا الى السلطان دور المنغص على المحبين ، وكان هذا منطقيا مع موقفهم وشعورهم النفسى تجاه السلطة والحكم ، وهنا ترى أن القاص يسند الى علماء الحجاز ـ وخاصة أهل البيت منهم ـ دور الذى يسعى الى سعادة المحب ، ويبحث عن مصلحته ، وهذا يتواءم مع شعورهم نحو آل البيت ، فهم يرون انهم أكثر حرصا على سعادة الحجازيين ، وأشد مراعاة لمصلحة المسلمين .

والخلاصة أن أوضح صفة تظهر فى هذه القصص هى شعبيتها ، بما فيها من ميول تحاول ارضاء العامة ، وبما تشف عنه من معتقدات العامة ونفسياتهم الخ .

على أن هذه ليست هى الصفة الوحيدة لهذه القصص ، بل تشاركها صفات أخر ، ولا أقول « خصائص » ، فان هذه الصفات يشترك فيها معظم القصص العربى ، وبعض هذه الصفات يدل على الطريقة التى اعتادها العقل العربى فى تفكيره .

---

(٦٢) المرجع السابق ٢ / ٢٢٦ .

الانتقال من موضوع الى موضوع ، وتجاور الموضوعات :

يظهر فى بعض هذه القصص تجاور الموضوعات ، والانتقال من موضوع الى آخر ، وأحيانا تداخل حكاية فى أخرى ٠

يعقـد ابن أبى ربيعة حلقة ، يتذاكـر فيهـا العذريين وعشقهم وصبابتهم ، فيحدث حديث أخ له من عذرة ، ويذكر قصة حبه ودعائه فى البيت الحرام ، ثم اذا بصديقه يهمهم بأبيات :

يارب كل غـــدوة وروحـــة من محرم يشكو الضحى ولوحه

أنت حسيب الخطب يوم الدوحة

فيســاله عمــر عن يوم الدوحة ، فيقص عليه صديقه قصــة ذلك اليوم (٦٣) ٠

والجاحظ خرج مع محمد بن ابراهيم على حراقته ، منحدرين الى مدينة السلام ، فاذا بطنبورية عاشقة تزج نفسها الى الماء ، واذا بغــلام يزج نفسه بأثرها ٠ فقال محمد : ياأبا عمرو ، لتحدثنى بحديث يسلينى عن فعل هذين والا الحقتك بهما ، فقص عليه قصة الشاب الذى استمع ثلاثة أصوات ، من مغنية عند سليمان بن عبد الملك ثم صعد على قبة ورمى بنفســه ، ثــم اذا بالمغنية تزج بنفســها فى حفرة أعدت للمطر فتموت (٦٤) ٠

لست أصدق تفصيلات هذه القصة ، وأنه حقيقة قد زجت الطنبورية والغلام بنفسيهما الى الماء ، وأن محمدا قد هدد الجاحظ حتى يذكر له حديثا يسرى عنه ، فذكر له خبر سليمان مع هذا الشاب ـ لست أصدق هذه التفصيلات ، فلو كانت قصة الطنبورية حقيقة ، لكان محمد فى غنى

---

(٦٣) مصارع العشاق ص ٥٠ ٠

(٦٤) الزهرة ص ٣٥٢ والموشى ١ / ٨٠ وتزيين الاسواق ١ / ٤٦ والعقد الفريد ٣ / ١٨ ومصارع العشاق ص ٢٤٧ ٠

عن استماع حكايات ، ولكفته الفجـاءة والدهشة ثم الحزن عن التفرغ للحكايات ، أو لأتى الجاحظ تسرى وتذهب الهم ، غير تلك القصــة التى تزيد الحزن حزنا والنكد نكدا .

وانما أعتقد أن هاتين القصتين من وحى الخيال ، وأن الجاحظ أو الراوى قد اختلق هذا الموقف ورسم ذلك الجو ، حتى يتيسر له الانتقال من حكاية الى أخرى .

وهناك قصة حشرت وسط أخبار المجنون ، حدثت فى سالف الأخبار بين سلطان ووزير ، وقد قصها شيخ على نوفل بن مساحق ، حين أعياه أن يلتقى بالمجنون ، فعسى أن يفيد بما فيها من تجارب تعينه على الوصول الى غرضه ، فقد كان نوفل « متطلبا لأخبار المجنون ، جامعا لأشعاره ، وأنه قـدم سـنة من السـنين ، فقـالوا لم نعـرف له خبرا ، فـــركب فى طلبه حتى لاح له وراء أراكه بين قطيع من الغزلان ، وقـــد غطى شعره . ولكن أتت ظباء فشربت ثم انصرفت وانصرف معها المجنون ، ولم يمكنه الاجتماع به ، فشكا ما به الى شيخ كبير من بنى سعد ، فدله الشيخ على داية ، يألفها المجنون وتحمل له الطعام ، فأتى الجارية ، ولكن المجنون هرب منهما ، فرجع وأخبر الشيخ . فقال له الشيخ : قـد قرأت فى سالف الأخبار أن سلطانا قال لوزيره : أخبرنى عن أعظم رائحة وأقوى لذة ، وأشد حافر على الأرض ، وقد أمهلتك ثلاثا ، فن لم تجب جللتك بالسيف ، فمضى مهموما وكانت له ابنة ، قد اتخذت قصرا مفتوحا الى الأربع جهات على قارعة الطريق للنزهة ، فلما رأت ما بأبيهـــا استعطفته ، حتى أخبرها فاستسهلت الأمر ، وقالت له : اذا عدت له من الغد فأخبره أن أقوى رائحة ، رائحة الخبز ، وأعظم الأشياء لذة لـذة الجماع ، وأشد حافر على الأرض البغال . قال له . أخبرنى من أين لك ذلك ، فصدقه الأمر ، فاستحضر البنت وقال لها : لئن لم تخبرينى عن تعليل ذلك ، والا ضربت عنقك ، فانك بكر ولم تعلمى أحوال النسـاء ولا لـــذة الجمـــاع ، فقـالت : أيـــد الله الملك ، ان قصـــرى منفتح

للاهوية ، فلم أجد من لدن قطنت به رائحة ، يتكيف بها الهواء أعظم من الخبز ، ولم يتحرك جدار القصر من شيء غير البغال ، وأما الجماع فانني اخترته من شدة الم الوضع ، وما شاهدت من مقاساة النساء فيه ، فلو لم يكن الجماع أعظم لذة ما عدن اليه ، والرأى عندى أن تصنع خبزا وتجعله فى طابق يضم بخاره ، وتفتحه حيث يشمه ، فانه يقف لبعد عهده به ، فتذكر له ليلى فيزداد أنسا . قال الرجل : فمضيت وعملت برأى الشيخ ، وطيبت الخبز بالافاويه حتى اذا اقبل ولمحته من خلال الآراكة ، كشفت الخبز ، وصعدت لتشرب الظباء فشربن وسرن ، ووقف ليشم الرائحة (٦٥) .

والاستطراد وتجاور المعانى فى هذه القصص . موافق للمعنى القاموسى لمادة « قصص » فتقصص الخبر تتبعه ... والقاص الذى يأتى بالقصة على وجهها كأنه يتتبع معانيها وألفاظها ... وقص آثارهم ... تتبعها بالليل . قال الأزهرى : القص اتباع الأثر . ويقال خرج فلان قصصا فى أثر فلان . وذلك اذا اقتص أثره ، وقيل القاص يقص القصص لاتباعه خبرا بعد خبر وسوقه الكلام سوقا (٦٦) فالمعنى العام لهذه المادة هو « التتبع » الذى يقتضى تقسيم الشيء الى أجزاء أو آثار ، فقص أثره بمعنى تتبعه خطوة بخطوة ، قال الله تعالى « فارتدا على آثارهما قصصا » (٦٧) أى تتبعا آثار أقدامهما أثرا بعد أثر (٦٨) ، وقص القصة بمعنى تتبعها خبرا بعد خبر كما قال الأزهرى .

وربما كان السبب فى هذا الانتقال والاستطراد من موضوع الى آخر ، هو أن تلك القصص كانت تحكى فى مجالس السمر ، وأوقات المنادمة ، ويحلو الحديث فى تلك الأوقات ، ويترك المتسامرون أنفسهم على

---

(٦٥) تزيين الاسواق ١ / ٧٤ ـ ٧٥ .
(٦٦) لسان العرب « قصص » .
(٦٧) سورة الكهف من الاية ٦٤ .
(٦٨) لسان العرب « قصص » .

سجيتها ، فيتنقلون ـ والحديث ذو شجون ـ من موضوع الى موضوع ، يجدون لذة فى هذا الانتقال ومتعة فى ذلك الاستطراد ، وتصور مجلسا من مجالس السمر تر فيه المحدث اللبق ، كيف ينتقل من حديث الى حديث ، ومن موقف الى موقف ·

وليست هذه الظاهرة خاصة ببعض قصص العشق ، بل تكاد تجدها فى كثير من كتب الأقدمين ، تصفح كتابا فى التفسير ، وليكن كتاب الطبرى ، وانظر حديثه حين يذكر قصص الأنبياء ، أو تصفح كتابا فى التاريخ ، وليكن سيرة ابن هشام ، تر كيف ينتقل المؤلف من حديث الى حديث ·

بل تجد هذه الظاهرة فى كثير من القصائد العربية التى يبدؤها الشاعر بالبكاء على أطلال حبيبته والغزل فيها ، ثم اذا به ينتقل الى الحديث عن ناقته ، وعن الأماكن التى يمر بها ، وعن وصف وحوش البرية وحيوانها ، ثم اذا به يتحدث عن المدح ، وعن صفات الممدوح وعن كرمه ·

لقد أراد بعض الباحثين أن يرجع السبب فى تركيب أمثال هذه القصائد ، الى أن الشاعر كان يقوم برحلته الى الممدوح ، فيمر على ديار حبيته ويتغزل بها ، ثم يتحدث الى ناقته رفيقته فى السفر ، ويهون عليها مشاق الرحلة الى أن يصل الى خاتمة المطاف ، فيذكر ممدوحه (٦٩) ·

لئن صح هذا الفرض والتخيل ، الذى اعتبره قصة وخيالا ، قد وضع لتفسير وربط موضوعات القصيدة بعضها ببعض ، كما كانوا يضعون القصص فى العصر الأموى لتفسير الأبيات ، التى تشيع على ألسنة المغنيين وربطها بعضها ببعض ·

---

(٦٩) لهذا الموضوع انظر ١ ـ الشعر والشعراء ١ / ٢٠٦ ـ العمدة ١ / ١٥١ · ٣ ـ أسس النقد الادبى عند العرب للدكتور احمد احمد بدوى ص ٢٩٦ ·

لئن صحت هذه القصة فى تفسير بناء القصيدة العربية ، فكيف نفسر هذه الظاهرة فى قصص العشق ، أو فى كتب التاريخ ، أو فى كتب المفسرين .

لا أريد أن افسر هذا المنهج بأمثال تلك القصص ، المتخيلة والمنسوجة من معانى القصيدة ، وانما أريد أن افسرها بطريقة من التفكير ، قـــد اعتادها العقل العربى ، فجعلت تظهر ، لا فى الشعر فقط ، بل وفى النثر أيضا .

اعتاد العرب هذه الطريقة ، ورضوا هذا المنهج ، فجعلوا يتبعونه فى سائر عصورهم ، وفى شعرهم ونثرهم ، ولم يغيروا هذا المنهج ـ وفى الشعر بنوع خاص ـ الا بعد أن اتصلوا فى هـــذا العصر بالثقافة الأوربية ، فرضى فريق منهم منهجا جديدا ، ولم يستطع فريق آخر تغيير تكوينهم ، فقنعوا بهذا المنهج القديم .

وقد كان معاوية رحمه الله يريد من محدثه أن يحافظ على تسلسل الحديث ، وعلى وحدة الموضوع ؛ فحين كان يحدثه عبيد عن أمر هود وأصحابه ، يأتى على لسانه ذكرعاد الآخرة فيسأل معاوية : وهل عـــاد غير هذه ؟ قال : نعم ، يا معاوية فان أحببت أخذت فى الحديث ، حتى آتى بحديثهم . قال : بل خذ فى حديثك (٧٠) وفى أثناء الحديث عن لقمان ، يأتى ذكر الملك المجرد الحارث بن ذى شدد ، فيســأله معاوية عنه . قال عبيد : يا أمير المؤمنين ، هو الرائش ملك من ملوك حمير باليمن ، فان شئت حدثتك حديثه . قال معاوية : بل أتم حديثك ، حتى أسألك عما أريد ان شاء الله تعالى (٧١) .

ولكن لم نصل بعد الى حل ، فاذا كنا قد رفضنا القصص المنسوجة حول معانى القصيدة ، والتى تريد أن تفسر هذه الطريقة فى الشعر ،

---

(٧٠) أخبار عبيد ص ٣٥٠ .
(٧١) المرجع السابق ص ٣٦٥ .

ثم تعجز عن تفسيرها فى النثر – اذا رفضنا هذه القصص فكيف نفسر السبب الذى جعل العرب يعتادون هذه الطريقة ، ويلجئون اليها ؟ .

كانت غالبية أهل الجاهلية من الأميين ، كما وصفهم القرآن الكريم (٧٢) ، أى أنهم كانوا أمة أمية ، ليس فيها كتاب يقرءونه ، كما فسر بعض المفسرين هذا الوصف (٧٣) . ويعنى ذلك أنهم لم يكونوا يتلقون ثقافتهم من كتب ألفها صاحبها فى ساعة اعداد وتمهيد ، ولحظة فراغ يلجأ فيها الى كتبه ينقح ويهذب ، ويحذف ويزيد ، بل كانوا يتلقونها شفاها . يفرغ الناس من عملهم فصاحب الغنم فى البادية قد أراح غنمه ، وصاحب التجارة فى الحاضرة قد فرغ من تجارته ، ثم يجلسون الى القاص أو الشاعر ، تحت ضوء القمر ، ينتظرون حكاية لطيفة ، أو قصة مسلية ، أو قصيدة ممتعة . ويتحدث القاص ، أو ينشد الشاعر ، ويستمع اليه الناس ، وقد يسألونه عن تفسير موقف فيأخذ لهم فى تفسيره ، أو قد يستفسرون عن أبيات لبطل من أبطال القصة فيوردها لهم ، وقد يسأل أحدهم عن يوم الدوحة ، أو ليلة الغيل ، فيذكرها لهم . وقد يسأل ثان عن عاد الآخرة أو عن لقمان ونسوره ، فيورد لهم ذلك .

طريقة هذه الثقافة التى تأتى عن طريق المجالس والندوات ، تختلف عن الطريقة التى يكون مصدرها الكتب والمؤلفات . لو أردت أن تتبين الفرق عمليا ، فاقرأ كتابا لمفكر معاصر ، ثم اشهد ندوة من ندوات هذا المفكر ، فستلمس الفرق واضحا ، فبينا تجد فى الكتاب وحده الموضوع ، وتجنب الاستطراد والانتقال بحذر وتمهيد ، تجد فى الندوة يجرى الحديث على اعنته ، قد يفتح أحد الحاضرين حديثا عن السياسة فاذا بالمفكر يتحدث عن السياسة ، وقد ينقل آخر الحديث الى الحب ، فاذا به يتحدث عن الحب ، وكذلك فى الليالى العربية قد يتحدث أحدهم عن

---

(٧٢) سورة الجمعة الآية ٢

(٧٣) تفسير الطبرى ٨ ، / ٦١ طبعة بولاق ١٣٢٩ اهـ

الأطلال والديار ، فاذا القوم يتحدثون عن الأطلال ، وقد يذكر أحدهم ناقته وأصالتها فاذا هم يتحدثون عن النوق وصبرها في الرحلات ، وقد يذكر آخر جود انسان وكرمه فاذا القوم يثنون على هذا الرجل ومناقبه .

انتشرت هذه المجالس في الجزيرة العربية ، والتاريخ يحدثنا أنه كان لمعاوية مجالس سمر وقد ذكر صاحب التحفة البهية المجلس الثامن عشر من مجالسه (٧٤) . وقد كان يقعد هو وخاصته الى عبيد بن شرية ، يحدثهم عن أيام العرب وتاريخهم ، ولكن معاوية كان أحرص من أسلافه الجاهليين ، فكان يأمر غلمانه بتدوين حديث عبيد (٧٥) .

أنتجت هذه المجالس ، وتلك الليالى ، عقلية من طراز معين ، لا تميل الى الاقتصار على موضوع معين ، وتحاشى ما سواه ، بل تنتقل من حديث عن الاطلال ، الى حديث عن المرأة ، الى حديث عن مشاق السفر ، الى حديث عن كرم الممدوح .

وقد ظهرت هذه العقلية التى اعتادت طريقة معينة فى التفكير ، فى بناء القصيدة العربية وفى تكوين القصة العربية ، بل وظهرت فى كثير من المؤلفات التى ألفت فى العصر العباسى ، فلو قرأت كتابا للجاحظ ، فستحس أن هذا الرجل يجلس معك فى مجلس ، ويسامرك ، وينتقل بك من حديث الى حديث ، ويطيل عليك وكأنه ينتظر الصباح ، فيسكت عن الكلام المباح .

وتلعب شخصية الراوى فى هذه المجالس دورا رئيسيا ، فهو يمثل الكتاب الذى يحرص المفكر على أن يخرجه للأجيال ، لهذا يقربه الشاعر أو القاص منه ، ولهذا يسأله الناس عن أخبار هذا الشاعر أو ذلك القاص ، وقد يعقد بدوره مجالس يحدث فيها الناس ويحدثونه ، وقد يأنس الى مستمع فيصطفيه راويا له ، وقد حدثنا التاريخ عن سلاسل روائية ،

---

(٧٤) التحفة البهية ص ٢١٥ .
(٧٥) أخبار عبيد بن شرية ص ٣ .

أو بتعبير أكثر حداثة « مدارس » يعلم فيها الجيل القديم الجيل الجديد .
قال أبو محلم : آخر من اجتمع له الشعر والرواية كثير ، وكان راوية جميل ، وجميل راوية هدبة ، وهدبة راوية الحطيئة ، والحطيئة راوية زهير (٧٦) .

وهنا أصل الى صفة أخرى من صفات قصص العشق وهى « ظهور شخصية الراوى » .

ولكن قبل الحديث عن هذه الصفة أحب أن ألاحظ ملاحظة سريعة :

قد عرفنا أن العرب اعتادوا الانتقال من موضوع الى موضوع ، ومن حكاية الى حكاية ، ألا يحملنا هذا على اعادة النظر فيمن يرى أن تداخل الحكايات فى « ألف ليلة وليلة » بسبب عناصر هندية (٧٧) أو بعبارة أخرى : هل يحق لنا أن نعتبر قصص العشق مصدرا من مصادر « ألف ليلة وليلة » وخاصة أن اسم جميل أو كثير قد ذكر فى هذه الليالى (٧٨) وان حكايات عشقية ترجع الى العصر الأموى قد وردت فى هذه الليالى كقصة خالد بن عبد الله القسرى ، مع الشاب الذى ادعى السرقة ليصون كرامة محبوبته (٧٩) ، وأن هناك تشابها كبيرا بين حكاية الوزير الذى أنقذته ابنته من الملك ، والتى قصها شيخ على نوفل بن مساحق ، وهو يتطلب أخبار المجنون ، وبين شهرزاد بنت الوزير التى أنقذت بنات جنسها من جور شهريار .

---

(٧٦) الاغانى ٨ / ٩١ « دار الكتب » .
(٧٧) انظر : قصصنا الشعبى ص ١٥٦ ، اذ يعدد ما رآه المستشرقون من عناصر هندية فى الليالى مثل تداخل الحكايات وعبارة « وكيف ذلك » .
(٧٨) ألف ليلة وليلة ١ / ٢٠٦ مطبعة عبد الرحمن رشدى ببولاق .
(٧٩) ألف ليلة وليلة ٢ / ٣٨ المطبعة الكاثوليكية ببيروت .

ظهور شخصية الراوى :

تلعب شخصية الراوى دورا كبيرا فى الأدب العربى ، فهو الكتاب الذى حوى بين دفتيه آثار هذا الأدب من نثر وشعر .

وكان لكل شاعر راو يقربه ويأنس اليه من دون أهله ، فالمجنون حين توحش فى البرية وهام ، ولم يكن أحد من أهله يجرؤ أن يقرب منه ، ولكن كان لـه صـديق يأنس به ، ويعرف أحـواله ، ويأخذ عنـه شعره (٨٠) ، وكان عصمة بن مالك الفزارى مقربا الى ذمة الرمة ، وكان يستصحبه فى مقابلاته مع مى المنقرية ، وكان يروى اخبارهما وأحاديثهما ، ويروى شعر ذى الرمة لمى وصويحباتها (٨١) .

وقصص العشق ـ شأن غيرها ـ قد وصلتنا عن طريق الرواة . وانظر الاغانى أو تزيين الاسواق ، تجد سلاسل الرواة ، وتلحظ « العنعنات » الكثيرة قبل ذكر القصة والاحداث .

وكأن ذكر الراوى قد أصبح ـ بعد ذلك ـ عنصرا من عناصر القصة العربية وحلية لها ، أو تقليدا يحرص عليه الخلف ، فأصحاب المقامات يجعلون رواة يروون قصصهم ، فالراوى لمقامات بديع الزمان هـــو عيسى بن هشام ، والراوى لمقامات الحريرى هو الحارث بن همام ، بل تجد ذلك التقليد ، وهذه الحلية فى القصص الشعبى المتداول ، فكثيرا ما تجد القاص الشعبى ، يكرر قوله حين ينتقل الى موقف آخر « قال الرواى ياسادة ياكرام » وبذلك فقد اسم « الرواى » المعنى الحقيقى ، وهو الحرص على صحة الخبر ، والرجوع به الى مصادرة الحقيقية .

---

(٨٠) الشعر والشعراء ص ٥٥٠ .
(٨١) المحاسن والاضداد ص ٢١٧ .

واصبح – كما فى القصص الشعبى – خيالا يخترع للحلية والتمويه ٠ وهذا يجعلنا نتحرج أشد التحرج فى قبول أسماء كثير من الرواة ، فما أسهل ان يخترع اسم راو كما يخترع بطل قصة ، او كما يخترع اى عنصر من عناصر القصة ، واذا كان احد الشعراء قد سئل عن ليلى التى يشبب بها فقال هى قوسى (٨٢) ، فليس ببعيد ان يسأل رجل عن هذا الراوى الذى ذكره ، فيقول : هو عصاى ٠

وشخصية الراوى تظهر فى قصص العشق ٠ تقرأ القصة ، وتتابع احداثها واذا بلفظة « قال » تأتى ، تنبهك الى وجود الراوى ٠ مثلا : يحكى أبو مسكين قصة الفتى الذى خرج والتقى بجماعة على جبل ، وبينهم فتى قد تعلقوا به « مديد القامة ، طوال ، أبيض ، جعد الشعر ، أعين ، أحسن من رايت من الرجال ، واذا هو مصفر ، مهزول ، شاحب اللون » وتشجعك هذه الاوصاف على تتبع القصة ، واذا بهذا اللفظ يتدخل « قال : فسألت عنه ، فاذا هو المجنون يصنع بنفسه صنيعا يرحمه منه عدوه ، وقد أمسك به القوم وتعلقوا به حتى لايرمى بنفسه من الجبـل وهو يصيح بينهم : أخرجونى اتنسم صبا نجد ، ويبكى أحر بكاء واوجعه للقلب ، ويتنفس تنفسا يكلد يتصدع منه كبده (٨٣) » ٠ ويروى شيخ من بنى مرة أنه توجه الى أرض بنى عامر ، ليلقى المجنون ، فاذا أبوه واخوته ، ويصف الشيخ اهل المجنون وما فيه من ثراء ، وحزنهم لما أصاب المجنون ويقص عليه أبوه قصة المجنون ، وحبه لليلى وانفراده فى المهامه والقفار ٠ ثم تأتى لفظة « قال » ، وبعدها سؤال الرجل اهل المجنون أن يدلوه عليه ، فيدلوه على فتى من الحى يأنس به قيس ، فيذهب اليه ويسأله عن قيس ، فيخبره عن الطريقة التى يجذب بها قيسا الى الاستئناس

---

(٨٢) الاغانى ٣ / ٢٨٩ « دار الكتب » ٠
(٨٣) الشعر والشعراء ٢ / ٥٤٧ ٠

به والدنو منه . ثم تأتى لفظة « قال » ، وبعدها يحكى الرجل قصة بحثه عن قيس ، ثم التقائه به وتناشدهما الاشعار ... الخ (٨٢) .

وتتكرر لفظة « قال » أكثر ما تتكرر ، حين ينتقل المحدث الى فقرة جديدة ومعنى آخر ، فكأنه ينبه السامع الى شىء جديد ، كما رأيت فى حديث شيخ من بنى مرة . وتتكرر ايضا حين الاتيان بحديث شاذ غريب ، كما رأيت فى خبر أبى مسكين . وهنا يبدو الاحساس بالواقع والشعور به ، يحس ان السامع قد ينكر ذلك منه ، فيريد ان يضفى على حديثه شيئا من الواقعية ، وان يوهم السامع ان هذا خبر قد ألقى اليه ، وان راويا قد سمعه ، أو شهده فذكره له .

وهنا يتنازع قصص العشق عاملان متنافران ، يطمح بها احدهما الى ماوراء الواقع ، ويشدها الآخر الى الواقع .

يحاول القاص أو الراوى ان يرضى عقلية السامعين ، ومعظمهم من العامة ، فيذكر الاخبار الغريبة ، والروايات النادرة ، ثم يتدخل شبح « قال » فيحد من هذا الاسراف ، ويذكر القاص بالتاريخ والواقع ، ويوهم السامع بأن هذه النوادر والغرائب من التاريخ المروى .

ولم يكن عنصر الرواة هو الذى يشد القصة الى الواقع والتمويه على السامع ، بل كان هناك عنصر آخر ، لجأ اليه القاص لالباس قصصه ثوب الحقيقة وتمويهها على المستمعين ، وهو الشعر فى احدى وظائفه .

---

(٨٢) الشعر والشعراء ٢ / ٥٤٧ .

الشعر فى القصص :

كان الشاعر يمثل ضرورة اجتماعية فى حياة العرب القبلية ، فلابد من أن تصطنع كل قبيلة شاعرا لهـا ، يذب عن احسابها ويدافـع عن مآثرها (٨٣) ، وقد كان لقبيلة بكر شاعرها هو الحارث بن حلزة ، وكان لتغلب شاعرها هو عمرو بن كلثوم ٠ وكانت القبيلة حين ينبغ بينها شاعر تفرح وتهنئها القبائل الأخرى ، وتقيم الولائم ، وتجتمع النسـاء يلعبن بالمزاهـر ، كمـا يصـنعن فى الأعراس ، ويتبـاشر الرجـال والولدان (٨٤) ٠

فالشعر يمثل سلاحا ضروريا من أسلحة الحماية التى تلجأ اليهـا القبيلة ، ولهذا تعلق العرب به تعلقـا لا مزيد عليه ، وقـد خبر النبى عليه السلام نفسية العرب حين أخبر فيما نسب اليه ، بأنها لاتدع الشعر حتى تدع الابل الحنين (٨٥) ٠

خالط الشعر حياة العرب ، فهم اذا حاربوا ، أو خرجوا للصيد ، أو انهمكوا فى العمل ، أو فرغوا منه لمداعبة أطفالهم وترقيصهم ، أنشدوا الشعر ، وهم اذا جلسوا فى مجالس الانس والظرف زينوها بالشـعر ، « وأحسن الأخبار عندهم ما كان فى أثنائها شعر » (٨٦) ٠ ولعل هذا ما جعل الجاحظ يجزم بأن العربى شاعر بطبعه وسليقته ، يكفى أن يصرف همه الى القول ، فاذا هو ينثال انثيالا (٨٧) ٠ وانظر الى شغف معاوية وتعلقه بالشعر ، فهو يمثل الذوق العربى الذى يحن الى الشعر يقول لعبيد قاصه ومؤنسه « سألتك ألا شددت حديثك ، ببعض ماقالوا من الشـعر ولو ثلاثة أبيات » (٨٨) ، وكان يقطع حديث عبيد ليساله عن الشعر ،

---

(٨٣) العمدة ١ / ٣٧ ٠
(٨٤) المرجع السابق ١ / ٣٧ ٠
(٨٥) المرجع السابق ١ / ١١١ ٠
(٨٦) الصناعتين ص ١٠٣ ٠
(٨٧) البيان والتبيين ٢ / ٥٦ ٠
(٨٨) أخبار عبيد ص ٣١٨ ٠

فحين كان يحدثه حديث هلاك عاد ، سأله : « فهل تعرف أحدا من شعراء العرب ذكر هودا فى شعره ، وان فى كتاب الله لشفاء من العمى ، وبيانا من الجهالة ، ونحب أن نزداد فانى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ان من الشعر لحكمة » . وحين يأنس فى عبيد تكاسلا فى انشاد الشعر ، يحثه على ذلك : لله أنت ياعبيد . فهل قيل فى ذلك شعر ؟ » ومعاوية الذى يظهر هذا التهالك على انشاد الشعر ، يقول لعبيد حين تلا عليه آيات من سورة النمل ، يدعم بها قصة بلقيس والهدهد : « لم تقرأ القرآن لهذا الحديث ؟ ألا تأتى بالحديث الذى بلغك » .

لهذا لا نستغرب أن نجد الشعر منبثا فى القصة العربية ، وفى قصص العشق بنوع خاص ، فكثير من أبطال قصص العشق من الشعراء ، وقد رأيت أن بعض هذه القصص كانت تخترع تفسيرا لأبيات ذاعت وتناشدها المغنون .

على أنه اذا كان الشعر فى قصص العشق ، يرضى الذوق العربى الذى يعلق بهذا اللون من الأدب ، فقد كان له الى جانب ذلك وظائف فنية .

فالقاص أو الراوى يذكر الشعر ليؤيد حديثه ، ويشد كلامه ، ويدعم روايته ، فهو يعرف ثقة العربى بالشعر وحبه له ، فكأن القاص حين يذكر الشعر فقد أورد الدليل على صدق كلامه ، والبرهان على واقعية خبره . ذكر عبيد لمعاوية خبر القحط الذى أصاب عادا ، ثم أنشده الشعر الذى قيل فى هذه المناسبة فقال معاوية : « لقد جئت بالبرهان فى حديثك ياعبيد ، فماذا فعلوا ؟ » (٨٩) ، بل ان معاوية كان يطلب منه الدليل على صحة كلامه ، أبياتا من الشعر « قال معاوية وأبيك ، لقد أتيت وذكرت عجبا من حديثك عن عاد ، وقد علمت أن الشعر ديوان العرب ، والدليل على أحاديثها وأفعالها ، والحاكم بينهم فى الجاهلية ، وقد

---

(٨٩) اخبار عبيد ص ٣٣٠

سمعت رسول الله ﷺ يقول : ان من الشعر لحكمة » (٩٠) • وقد شابه صاحب التزيين فى بعض صنيعه علماء الفقه ، يوردون الحكم ، ثــم يستدلون عليه بالقرآن أو الحديث ، ليكون مدعما بالبرهان والدليل • كذلك كان يفعل صاحب التزيين ، يورد الخبر ثم يستدل عليه بأبيــات من الشعر ، فمثلا بعد أن استعدى أهل بثينة مروان بن الحكم ، على جميل ، فر الى الشام ، وقيل الى سيد من بنى عذرة ، رجا أن يعلق جميل واحدة من بناته ــ بعد هذا يقول صاحب التزيين : « ويدل للأول قوله :

أتانى عن مروان بالغيب انــــه مقيد دمى ، أو قاطع من لســـانيا

ففى العيش منجاة ، وفى الأرض مهرب اذا نحن دافعنـــا لهن المثـــانيا

وقيل مما استدل به على تمكن عشقه لها ، وأنه لا يمكن سلوه عنها ، مع حكاية البنات المذكورة ، قوله فيما رواه الشهاب محمود فى منازل الأحباب عنه :

علقت الهوى منها وليدا ، فلم يزل
وأنفنت بذاك الدهر ، وهو جديد (٩١)

وأفنيت عمرى فى انتظار نوالها
الى الآن ، ينمى حبها ، ويزيد

وأمر آخر :

لا شك فى أن طبيعة الشعر ، تختلف عن طبيعة النثر •

النثر هادىء متزن ، لا يلجأ ــ غالبا ــ الى الخيال المجنح ، ولا يستعير الصور الغريبة ، اذ هو لغة العلم والتفكير ، والأدب الرزين •

أما الشعر فله جو خاص ، تقرأ الشعر فتحس أنك ازاء عالم غريب ،

---

(٩٠) المرجع السابق ص ٣٥٢

(٩١) تزيين الاسواق ١ / ٣٩

عـالم ملىء بالصـور ، وملىء بالأحاسيس الجياشة ، وتسـمع الشاعر فاذا به ينقلك الى عالم آخر ، قـد ينقلك الى قـاع البحار ، فتلمس الصدف ، وتشم الأعشاب ، أو ينقلك الى أجواز السماء ، فتراقص أشعة القمر ، وتغازل الكواكب ، وتعيش مع تجربة الشاعر ، فاذا بك تعيش فترة غير عـادية ، فتـرة مليئة بالعواطف ، والاضـطراب ، والقلق ، والانفعال ٠

ولهذا كان الشعر أصلح وسيلة للتعبير عن لحظة غير عادية ، لحظة ليست جـامدة ولا مسـتقرة ، لحظة ديناميكية ، مليئـة بالانفعال ، والعواطف ٠

وقد لمس القاص العربى هذه الطبيعة للشعر ، سواء كان عن شعور أو لا شعور ٠

فاذا مـا أراد التعبير عن لحظـة غير عـادية ، وعن موقف غنى بالحركة والانفعال فانه لا يلجأ الى النثر ، تلك الأداة الهادئة ، بل يلجأ الى وسيلة تستطيع التعبير عن هذا الموقف وشفافيته بكل صدق وامانة ٠

تمر بطلة القصة بأزمة نفسية ، تجتاحها ، وتهز كيانها ، وتملؤها بالانفعال والاثارة ، فلا يكون هنا أصلح من الشعر ، ينقل هذا المشهد بكل ما فيه من حرارة واضطراب ٠ لما رأت لبنى أربعـة غربان ، بكت وصرخت ، وكتفتهن ، وجعلت تضربهن بالسوط حتى متن ، وجعلت تصيح بأعلى صوتها :

لقد نادى الغراب ببين لبنى — فطار القلب من حذر الغراب

فقلت غـدا تباعد دار لبنى — وتنـأى بعـد ود واقتراب

فقلت تعست ويحك من غراب — أكل الدهر سعيك فى تباب

لقد أولعت لا لاقيت خيرا — بتفريق المحب عن الحبـاب

ويدخل زوجها ، فيراها على تلك الحال ، فيسألها : ما بالها ؟ وما دعاها الى هذا ؟ فتنفجر فيه وتنشد الشعر فى لحظة انفجارهـا « دعانى أن ابن عمى ، وحبيبى قيسا أمرهن بالوقوع ، فلم يقعن ، حيث يقول :

الا ياغراب البين قـد طرت بالذى
أحاذر من لبنى ، فهلْ أنت واقع (٩٢)

ويمر بطل القصة بلحظة قلق ، تتعاوره عدة تيارات ، فيلجأ القاص الى الشعر ليجسد ذلك الموقف الداخلى ٠ فالاعرابى ينتظر حبيبته فى خيمة بالصحراء فتبطىء على عادتها ، فتجتاحه أزمة من القلق والاضطراب ماذا حدث لحبيبته التى من أجلها تنازل عن كل ثروته ، وأتى الى تلك الخيمة ، بعيدا عن الناس ، مكتفيا بلقاء العشيقة كل يوم ؟ ٠ ماذا حدث لحبيبته التى تغافل زوجها ، وتركب الأهوال من أجل أن تراه ؟ أيكون هذا الأسد الذى يعترض فى تلك الغيضة ، قد أصابها بضر ؟ وهنا يطفح القلق بنفس الأعرابى ، فيذهب ويجىء وهو يقول :

ما بـال مية لا تأتى كعادتهـا   اعاجهـا طرب أم صـادها شغل
لكن قلبى عنكـم ليس يشـغله   حتى الممات ، ومالى غيركم أمل

ويعلم أن الأسد قد أصابها ، فيهتاج ، وينتقم من الأسد ، ويقتله ، ويجرجره وهو يقول :

الا أيها الليث المضر بنفسه
هبلت لقد جرت يداك لك الشرا (٩٣) ٠

ويداعب العاشق معشوقته ، وتأبى الأقدار الا أن تموت بسبب تلك المداعبة ، فتركب العاشق الأشجان والأحزان ٠ ويلجأ الى الشعر ينفث

---

(٩٢) مصارع العشاق ص ٧٧ ٠
(٩٣) مصارع العشاق ص ٢٢٩ ٠

فيه همومه ويجسد انفعاله ، فقد رمى يزيد حبابه بحبة رمان « وهى تضحك ، فوقعت فى فيها فشرقت ، فماتت ، فأقامت عنده فى البيت ، حتى جيفت ، أو كادت تجيف ، ثم خرج : عليه الهم باديا ، حتى وقف على قبرها ، فقال :

فان تسل عنك النفس أو تدع الصبى فباليأس أسلو عنك لا بالتجلد
وكل عليل لامنى ، فهو قائل من أجلك ، هذا هامة اليوم أو غد

ثم رجع ، فما خرج من منزله ، حتى خرج بنعشه » (٩٤) ٠

ويكون فى القصة موقف فيه صراع وحيوية ، فيريد القاص أن يجسد هذا الصراع ، ويبرز تلك الحيوية فيلجأ ألى الشعر ٠

يغضب فديك بن حنظلة على وحشية بنت أخيه ، لأنها تواعد يزيد بن الطثرية ، ثم أمر بزبية فحفرت على الطريق ، وأوقد فيها نارا ٠ وفى ليلة خرجت وحشية تتهادى فى برودها لميعاد يزيد فى الزبية ، ويحترق بعضها ، ويسمع يزيد بما حدث لحبيبته ، فيغضب ويهتاج ، ويكون بينه وبين فديك معركة ، سلاحها الشعر ٠ قال فديك :

شفى النفس من وحشية اليوم أنها
تهادى ، وقد كانت سريعا عتيقها
فالا تدع خبط الموارد فى الدجى
تكن قمنا من غشية لا تفيقها
دواء طبيب كان يعلم أنه
يداوى المجانين المخلى طريقها

فبلغ ذلك يزيد فقال :

ستبرأ من بعد الضمنة رجلها
وتأتى الذى تهوى مخلى طريقها
على هدايا البدن ان لم الاقها
وان لم يكن الا فديك يسوقها ٠ الخ (٩٥)

---

(٩٤) المرجع السابق ص ٦٢ ٠
(٩٥) الاغانى ٨ / ١٧ « دار الكتب » ٠

ويشتد الحب بأحد الأبطال ، ويكاد يذوى به ، وهو يخجل من أن يبوح به ، وأخيرا يطفح الكيل ، فلا يجد ندحة من أن يعبر عن حبه ، فيلجأ الى تلك الوسيلة الشعرية التى تشف عن وجده ، واذا بها تكن له أكثر مما يكن لها ، فتجيبه أيضا بالشعر « عشق رجل من ولد سعيد ابن العاص جارية مغنية بالمدينة ، فهام بها دهرا ، وهو لايعلمها بذلك ، ثم انه ضجر فقال : والله لأبوحن لها ، فاتاها عشية ، فلما خرجت اليه ، قال لها : بأبى أنت ، اتغنين :

ان الكريم من جزى الود بالود أتجزون بالود المضاعف مثله

قالت : نعم ، واغنى أحسن منه ، ثم غنت :

للذى ودنا المودة بالضعف وفضل البادى به لا يجازى
لو بدا ما بنا لكم ملأ الأرض واقطار شامها والحجازا

فاتصل ما بينهما » (٩٦) .

وهكذا نجد الشعر - فى أمثال تلك الحالات - وسيلة فنية يلجأ اليها القاص - شعوريا أو لا شعوريا - للشفافية عن موقف غير عادى ، قد يكون صراعا يريد أن يبرزه ، أو حالة وجدانية يريد أن يجسدها ، أو حركة داخلية يريد أن يكشف عنها ... الخ .

واذا كان الشعر فى أمثال تلك الحالات ، يمثل حركة دافعة للقصة ، فقد كان فى بعض الحالات الأخرى عقبة تقف فى سبيل نمو القصة .

فقد لا يرتفع الشعر الى مستوى التجربة ، ويعجز عن نقلها بكل حرارتها وانفعالها ، وبهذا تضعف تلك الوسيلة ، وتعجز عن القيام بوظيفتها خير قيام ، فيضعف الموقف ، وتهبط حرارته وتحيله الى موقف عادى ، صناعى ، لا حرارة فيه . يموت عروة بن حزام ، ويأتى ركب الى منزل عفراء ، فيصيح صائح منهم :

---

(٩٦) مصارع العشاق ص ٥٦ .

الا أيهـا القصر المغفـل أهــلـه   نعينـا اليكم عـروة بن حــــزام

فتشرف عفراء وتقول :

الا أيهـا الركب المجنـون ويحكم   بحق نعيتم عـروة بن حــــزام

فيجيبها رجل من القوم :

نعم ، قد تركناه بأرض بعيـــدة   مقيمــا بهــا فى سبسب وأكـام

وهنا يتأكد لدى عفراء أن عاشقها قد مات . وهنا تمر أية عاشقة بموقف نفسى حاد ، يهز داخلها ويرج وجدنها ، وهنا نتوقع أبياتا من الشعر ، فيها حرارة تتناسب مع ذلك الموقف ، وفيها انفعال يرتفع الى مستوى تلك الأزمة . ولكننا نفاجأ بأبيات ليس فيها حرارة ولا انفعال ، بأبيات سطحية تصف حبيبها من الخارج ولا تتعمق جذور تلك الأزمة ، بأبيات تكتفى بأن تصف العاشق بأنه بدر كل ظلام ، ثم تدعو فيها على الفتيان ، ثم تدعو فيها على الناس ، وأخيرا تدعو على الركب بأن ينغص لذات كل طعام ، قالت عفراء للركب الذى نعى اليها عروة :

فان كان حقا مـا تقولون فلعلموا   بأن قـد نعيتم بــدر كل ظـلام

فـلا لقى الفتيــان بعـدك لــذة   ولا رجعـوا من غيبــة بســلام

ولا وضعت انثى تمامـا بمثلـه   ولا فــرحت من بعــده بغــلام

ولا لابلغتم حيث وجهتم لــه   ونغصتم لــذات كــل طعــام

لا تتناسب هذه الأبيات ، التى تكتفى بالوصف الخارجى ، وبالنقمة على الناس مع ذلك الموقف النفسى الذى وضعت فيه القصة البطلة ، اذ تحكى أن عفراء « انسلت الى القبر فانكبت عليه ، فما راعهم الا صوتها ، فلما سمعوه بادروا اليها ، فاذا هى ممدودة على القبر ، قد خرجت نفسها فى فنوها الى جنبه » (٩٧) .

---

(٩٧) الزهرة ص ٣٦٩

كان الشعر هنا عقبة ، اذ لم يأخذ بيد الموقف الى الأمام . ويكون أيضا عقبة اذا أقحم نفســه ، وفرض ذاتــه ، دون أن يتطلبه الموقف ، أو تحتاجه القصة ، وانما حشاه القاص حشوا ، واقحمه اقحاما ، والأمثلة على ذلك كثيرة فى القصص العربى . تصفح مثلا « أخبار عبيد » تجـد أن الراوى قد يستطرد أثناء الحكاية ، بابيات من الشعر ، لاتجســـد صراعا ، أو تشف عن حالة وجدانية . وقد كاد عبيد ومعاوية أن يقعا على هذا المنهج الذى يحمى القصة من الاستطراد ويصونها من الحشو ، اذ أشار عبيد على معاوية بان يؤخر الأشعار الى آخر الحديث فانه أصلح ، فاقره معاوية على ذلك ورآه حسنا . لما ذكر عبيد خبر تعلق أبى سعيد المؤمن بالكعبة وتضرعه ، سأله معاوية « أقيل فى ذلك شعر ؟ قال عبيد : نعم يامعاوية ، قد قالت العرب فى ذلك أشعارا ، فان أحببت أنشدتكها ، وان شئت فى آخر الحديث ، فانه أصلح لحديثك . قال معاوية : سمعنيها فى آخر الحديث فهو أحسن » (٩٨) ولكنهما لم يتبعا هذا المنهج ، اذ بعد ذلك بصفحة واحدة ، يذكر عبيد شعر مهد الجارية فى ريح عاد ، ثـم بعد ذلك بصفحة أخرى يسأله معاوية فيما اذا كان قد قيل فى مهد شعر ؟ فيخبره بأن أمية بن أبى الصلت ، أو هوهو النابغة الذبيانى ، قد قال فى ذلك شعرا .

وهنا أصل الى الحديث عن لغة قصص العشق .

---

(٩٨) أخبار عبيد ص ٣٣٥

لغـة قصص العشق :

قد عرفت أن قصص العشق نـوع من الادب الشعبى ، الذى يكثر تداوله بين الناس ، ويجرى على ألسنتهم ، ولهذا ظهرت فى لغة بعيدة عن التكلف ، هى لغة الحديث المسترسل ، الذى يجرى فى مجالس السمر وأوقات الانس ، والذى يستعمله العامة ، والخاصة أيضا حين يتجافون عن التكلف ويبتعدون عن الصنعة ٠

والعوامل التى اكسبت القصص هذه اللغة ليست بخافية ٠ فقد كان للغناء أثره الكبير ــ كما رأينا ــ فى ازدهار هذه القصص ونموها ، والشعر الذى يغنى ينحاز ــ عادة ــ الى السـهولة واليسر ، ويجانب الوعورة والثقل ٠ وقد تم ازدهار الغناء على يد الاعاجم والموالى الذين امتلأت بهم الأقطار الحجازية فى ذلك الحين ٠ والموالى يؤثرون الالفاظ المتداولة اليسيرة ، التى لاتحتاج منهم الى جهد ومشقة ، وقد عرف الشعراء منهم ذلك ، فكانواينشئون لهم القصائد السهلة ، التى يمكن أن تغنى وأن تشيع بين الناس ٠ ولا ننسى السبب الرئيسى فى اضفاء هذه اللغة على قصص العشق ، وهو شعبية هذه القصص وانتشارها بين العامة ، وتداولها فى مجالس الأنس والسمر ٠

وقد كان لهذه الشعبيه من ناحية أخرى أثرها السيء على لغة القصة ، ظهر فى عصور متأخرة عن العصر الذى نحن بصدده ٠

ولست هنا فى مجال البحث ، فيما اذا كانت العامية حفيدة للهجات عربية ، كانت تعيش جنبا الى جنب مع الفصحى لغة قريش ، أم أنهـا ابنه ممسوخة قد انفصلت عن تلك الفصحى ٠

ليس هذا من مجالى ، وكل ماأريد أن أشير اليه هـو : أن لغـة قصص العشق ــ ربما كان هذا بسبب انصراف النقاد عنها ، وعدم نظرتهم اليها نظرة فنية خالصة ، تدرسها كجنس لايقلّ خطورة عن الشعر والرسائل لغة هذه القصص ، قد تركت ــ فيما بعد ــ لغة القرآن والكتابة ، واستعارت

فى كثير من الفاظها وتراكيبها ، لهجات أخرى ، مما تجرى بين الناس ، وتشيع على السنتهم •

واقرأ لتلمس مدى التطور الذى أصاب قصص العشق ، « قصص ألف ليلة وليلة » التى ترجع الى مصدر عربى : بل يمكن أن نجد أمثلة لهذا ، فى المصادر الأدبية المتداولة ، والتى نقلنا منها أخبار العشاق والمحبين • « حدثنى سحنون قال : كان فى جيرانى رجل له جارية ، وكان شديد الميل اليها ، فاعتلت الجارية علة شديدة ، فجلس يصلح لها حساء ، فبينا هو يحرك القدر ، اذ قالت الجارية : أوه • فسقط ما كان فى يده ، وجعل يحرك القدر بيده ، حتى سقط لحم أصابعه وهو لايشعر ، فنظرت اليه الجارية ، فقالت : أيش هذا ؟ فقال : هذا موضع قولك : أوه » (٩٩) •

فقول الجارية ـ وأظنها غير عربية ـ « ايش هذا » ، يصح أن يضرب مثلا ، لبيان زحف اللهجات الى هذه القصص ، هذا الزحف الذى فشا فى السير الشعبية ، فأصاب ألفاظها وتراكيبها •

لغة هذه القصص فى العصر الاموى ، لغة بعيدة ـ فى معظمها ـ عن السجع والجناس ، قريبة الى لغة الحديث والاسترسال ، ولم تنحدر كثيرا فيصيبها ما أصابها فى العصور المتأخرة •

على أنك تطالع بعض القصص ، فتجد فيها لغة قوية أدبية ، فيها رونق واشراق ، وبعد عن الاسفاف والابتذال ، وعن التكلف والتعجرف •

واقرأ قصة يزيد بن الطثرية (١٠٠) ، وانظر الى ما فيها من لغة متينة ، وتعبيرات قوية ، والى مافيها من شعر لمياد وشعر ليزيد يمتاز بالمتانة والقوة أيضا ، وسأذكرها فى الفصل الرابع ، أما الان فاجتزىء بعض المواقف « فقال عجائز منهن والله ماندرى أرعيتم جرما المرعى ، أم أرعيتموهم نساءكم ؟ • ـ رجل منذ اليوم ظل مجحرا لنا ، ما يطلع

---

(٩٩) ذم الهوى ص ٣٥٠

(١٠٠) الاغانى ٨ / ١٥٧ دار الكتب

منا رأس واحدة ، يدور بين بيوتنا ــ فقال بعضهم : بيتوا جرما فاصطلموها حتى جاء الى سمرة قريبا الى نصف النهار ، فتوسد يده ، ونام تحتها نويمة ، حتى افرجت عنه الظهيرة ، وناعت الأظلال ، وسكن بعض مابه من ألم الضرب ... الخ » .

وهذا يجعلنى أميز فى قصص العشق بين نوعين :

نوع قوى رصين ولكنه لايصل الى حد الاغراق والتكلف والولع بالغريب والشاذ .

ونوع مسترسل سهل رخو ، ولكنه لاينحط الى درجة العامية والابتذال والتهلهل .

النوع الأول يغلب على قصص الشعراء المشهورين ، مثل عمر ، ويزيد ، وقيس ، فالقصص التى حولهم ، قد تكون من وضعهم واختراعهم ، فلابد من أن تكون من القوة والرصانة ، فى درجة تتواءم أو تقارب ماوهبوا من فن وقدرة على القول ، وقد تكون من وضع الرواة ، وضمنوها أشعار هؤلاء المشهورين ، فلابد من أن يحتالوا ويجهدوا ، حتى يجعلوا الأسلوب النثرى ، يرتفع الى المستوى الشعرى الذى اوردوه فى قصصهم .

والنوع الثانى ــ وهو الكثير فى الكتب التى جمعت أخبار العشاق ــ يغلب أن تكون أبطاله من عامة الشعب ، ومن الطبقات الأخرى التى لم تؤت حظا من البيان ، يضارع حظ هؤلاء المشهورين ، فقد يكون أعرابيا أو أعرابية كما فى قصة « الأعرابى الظريف والحسناء الفاتنة » التى ستأتى فى الفصل الرابع ، أو قد تكون جارية غير عربية ، اتخذت العربية أداة لها بحكم المولد ، أو بحكم المران ، كقصة يزيد بن الحكم مع الجارية التى كان يهواها (١٠١) ، أو قد يكون رجلا منقطعا عن الناس والعمران ، يعيش مع حبيبته يطعم الحشرات والسباع والوحش ، كما فى قصة عامر بن حرقة الطائى .

(١٠١) الاغانى ١١ / ١٠٣ (ساسى) .

الشـــخصية :

لست أبعد لو قلت ان شخصية المحب الحسى ، سواء كان هذا المحب عمر أو غيره ، أو شخصية العاشق العذرى ، سواء كان هـذا العاشـق جميلا أو غيره ـ رمز لمجموعة من الصفات الانسانية يشترك فيهـــا كل الحسيين ، ، أو يشترك فيه كل العذريين ، فالشخصية هنا تمثل « نوعا انسانيا » أكثر مما تمثل فردا بعينه ، فعمر الذى يتحدث عنه الأغانى ليس عمر بن أبى ربيعة ، الذى كان أبوه من أغنى تاجر مكة ، والذى كانت أمة سبية من حضر موت ، والذى تزوج وأنجب ، وكانت له حياته الخاصة ، ومزاجه الخاص ، ليس هذا هو عمر ، بل هو نوع ورمـــز لمجوعه من الصفات ، فقد تجد عمر هذا تحت اسم آخر هو العرجى ، الذى تشبه به فأجاد كما يقول صاحب الأغانى (١٠٢) ، والذى كل مثل ابن أبى ربيعة ، يطارد النساء ، ويتنكر لهن أحيانا فى ثياب الأعرابى حتى يراهن (١٠٣) ٠

وقيس ليس هو قيس بن الملوح ، رجلٌ منْ بنى عامر ، له مزاجه الخاص ، وحياته الخاصة ، وليلى ليست هى ليلى بنت المهدى ، امرأة من بنى عامر ، بل هما رمزان لقصة عشق حدثت وتحدث ، وقد تسمى مرة « روميو وجولييت » وأخرى « حسن ونعيمة » ، وقد يظهر قيس هذا مرة فاذا هو قيس بن ذريح ، أو قيس بن معاذ ، وقد تظهر ليلى ، فاذا هى ليلى الأخيلية ، أو مى المنقرية ٠ بل قد تكون عصا يتغزل فيها شاعر من الشعراء ويسميها ليلى (١٠٤) ٠ ليلىَ ـ اذن ـ رمز لمعشوقة يتحرق اليها العاشق ويبثها هواه ، وقد تغزل مزاحم العقيلى بمحبوبة تسمى ليلى ، قيل هى ليلى صاحبة قيس ، وقيل هى ليلى أخرى (١٠٥)

---

(١٠٢) الأغانى ١ / ٣٨٥ (دار الكتب) ٠
(١٠٣) المرجع السابق ١ / ٣٩٦ ٠
(١٠٤) المرجع السابق ٣ / ٣٨٩ ٠
(١٠٥) الأغانى ١٧ / ١٥٢ « ساسى » ٠

والحقيقة أنها ليست هى ، وأنها هى ، ليست هى ليلى بنت المهدى ذات الشكل الخاص ، والتقاطيع الخاصة ، ولكنها هى ليلى المعشوقة التى يتحرق اليها شعراء البادية ، ويبثونها عواطفهم . ليلى هى رمز لشىء ، كما اتخذها الصوفية ـ فيما بعد ـ رمزا للحضرة الالهية ، قال سلطان العاشقين :

بها قيس لبنى هام ، بل كل عاشق كمجنون ليلى ، أو كثير عزة (١٠٦)

وقيس ليس هو قيس بن الملوح ، أو قيس بن ذريح ، بل هو قيس العاشق الذى يملأ البادية ، وينتشر فى كل القبائل ، قيس ليس هو عامريا فقط ، بل هو عامرى ، وجعدى ، وقشيرى .. يقول داود الانطاكى : « وقد اختلف فى اسمه ، هل هو عامر ، أو المهدى ، أو الأقرع ، أو معاذ ، أو قيس ابنه ، أو ابن الملوح ، أو البحترى ابن جعد .. وفى نسبه عامرى ، أو كلابى ، أو جعدى ، أو قشيرى . أو المجانين متعددة ، أو هما اثنان فى بنى عامر ، أو لم يكن أحد وانما امرؤ تعشق واستكبر عن أن يصرح باسمه واسم محبوبته ، فموه بالمجنون وليلى » (١٠٧) . ولا داعى لهذا الاختلاف ، فقيس هو عامرى وكلابى وجعدى وقشيرى ، بل ومنسوب الى كل القبائل الحجازية . بل ان قيسا لم يكن عامريا أو كلابيا ولم يكن أحدا . وانما هو امرؤ تعشق واستكبر عن أن يصرح باسمه واسم محبوبته فموه بالمجنون وليلى .

وعلى هذا ، فالاستدلال بأن شعر قيس ، يدل على أن شخصا حقيقيا قد عاش ، وقد خاض تلك التجارب ، وعبر عنها بصدق وأمانة ، وأن هذا يؤكد وجود قيس تاريخيا (١٠٨) ، هذا الاستدلال لا يؤكد وجود قيس بن الملوح الذى ينتسب الى بنى عامر ، ولا يدل على هذا الشخص بعينه ، وانما يدل على وجود شخص عذرى ، على وجود امرىء بدوى

(١٠٦) تزيين الأسواق ١ / ٦٢ .
(١٠٧) المرجع السابق ١ / ٦٢ .
(١٠٨) الحياة العاطفية ص ٧٠ .

تعشق ومـوه بالمجنون وليلى ، وهـذا الاستدلال قـد تاخذه من شعر قيس بن ذريح أو من شعر عروة بن حزام • فمن الصعب أن تستنتج من شعر أحد العذريين وجود شخصية منفردة وسمات خاصة ، ولهذا ليس عجيبا أن نجد أبياتا تنسب مرة الى قيس بن ذريح ، وتنسب مرة ثانية الى قيس بن الملوح ، أو خبرا مرة تجده لجميل وثانية لكثير • ليس هذا عجيبا ، لأن هذا الخبر أو هذه الأبيات تنسب لرجل عذرى عاش فى البادية ، وتحت ظروف خاصة ، وله قصة حب تحدث عنها الناس ، وسمروا باشعارها ، وتفكهوا بأخبارها •

اذن شخصية العاشق ، نموذج انسانى ، يذكرنى بشخصيات «موليير» فى مسرحياته التى تحمـل عنـاوين كلية ، وتحوى نمـاذج بشرية ، فالبخيل عند موليير ليس هو بخيلا بعينه ، بل هو البخيل الذى قـد تشاهده فى الشارع ، أو قد تراه فى المنزل ، وهو البخيل الذى يكون فى كل مكان وزمان • والمنافق ليس هو « ترتوف » فحسب ، بل هو المنافق الذى قد تجده فى مصر أو فرنسا ، أو فى أى مكان ، هو نموذج بشرى واطار انسانى •

ومع ذلك أريد أن أحتاط : فلست أزعم أن التشابه بين الشخصيات العشاق تشابه تام ، أو هو كتشابه الشخص مع صورته ، بل هو تشابه قوى يشبه تشابه التوأم ، أو كتشابه صورتين لشخص معين ، أخذت الصورة الأولى فى سن العشرين ، وأخذت الثانية فى سن الخمسين ، فان التشابه بين هذين التوام ، أو بين تلك الصورتين قوى وواضح ، ولكن عند النظرة المدققة قد تقع على فروق تفرق بين التوأم ، أو بين الصورتين •

بقى بعد تلك المقدمة أن ارسم صورة لشخصية المحب الحسى ، ثم صورة اخرى لشخصية العاشق العذرى •

***

شخصية المحب الحسى :

عناية هذه القصص بالصفات المادية للمحب ، عناية قليلة ، وتاتى عرضا أثناء الحديث والأخبار .

والشخصية الأولى البارزة بين شخصيات الحب الحسى ، والتى ملأت زمانها وشغلت عصرها ، وأصبحت النجم البارز ، تتطلع اليـه النسوة ، ويغار منه الفتيان هى شخصية « عمر بن أبى زبيعـة » . وسينصب حديثى على عمر ، باعتباره نموذجا يمثل دور المحب .

واستطيع أن أصف عمر من الناحية المادية ، فهو شاب جميل ، أنيق ، يعتنى بمظهره ، ويلبس الثيـاب الفخمة ، ويهتـم بالمواكب والأبهة ، ويسبل لمته (١٠٩) ويختار له فرسا جيدا (١١٠) ، ويخرج فى المواسم فى ركب يغرى الحسان ، ويحرص أن يزينه بالمغنيين (١١١) ، وينتخب له نجائب يخضبهـا بالحنـاء (١١٢) ، ويملأ ركبـه بالاماء والعبيد (١١٣) . وهـو ثرى يسـتطيع أن ينفق على مغامراته ، وان يشترى لزوم الصنعة (١١٤) وهو كريم ، يعطى خدم الحبيبة الرشاوى ، وينفحهم بالخيرات (١١٥) . وهو لا يبالى أن يعتق من الاماء والعبيد ، من يساعده على الوصول الى غرضه (١١٦) ، وهو محدث لبق يغرى الحسان بالاستماع له (١١٧) . وهـو راوية يحفظ أشعار غيره من

---

(١٠٩) الاغانى ١ / ٨٦ « ساسى »
(١١٠) الاغانى ١ / ٨٣ « ساسى »
(١١١) المرجع السابق ١ / ٨٦
(١١٢) المرجع السابق ١ / ٩٩
(١١٣) المرجع السابق ١ / ٧٥
(١١٤) المرجع السابق ١ / ٩٩
(١١٥) المرجع السابق ١ / ٣٩
(١١٦) المرجع السابق ١ / ٧٤ و ١ / ٢٠٤ دار الكتب
(١١٧) المرجع السابق ١ / ٧١

العشاق (١١٨) ، ويجيد الحديث عن أخبارهم (١١٩) ، وهو من أسرة « أرستقراطية » كريمة المحتد ، وقد ورث عنها المال والجاه (١٢٠) ٠

تلك أوصاف موفقة فى تحديد سمات « الفتى الأول » ، الذى يغرى الحسان ويوقعهن فى حبائله ، ويفرغ لتلك الحياة التى يكون فيها اما صائدا ، واما مصيدا ٠ وتلك أوصاف ترشحه بحق لهذه البطولة ، وتؤهله لهذا اللقب ٠

موفقة هذه القصص فى ايرادها تلك الصفات ، ولكنها لم توردها بتلك الطريقة التى نراها فى القصص الحديثة ، التى تحاول أن توضح الشخصية داخلها وخارجها فى ذهن القارىء ، وأن تجعل أحداث القصة نتيجة لهذا البناء الذى ابتنته لتلك الشخصية ٠ وانما كانت هذه الصفات تنثر عرضا فى أخبار المحب ، وكان الراوى لا يأبه لشىء أكثر من ايرادها وذكرها فى القصة ٠ والذى جنى على تطور قصص العشق هو نظرة الرواة التاريخية لهذه الأخبار ، وعدم وجود حدود فاصلة بين التاريخ والقصص التاريخية ٠ وهذا الخلط ، وعدم الوعى بتلك الحدود ، كانت له جنايته على التاريخ والأدب ، فقد حشا التاريخ بالمبالغات والخيال ، وأوقف الأدب عن التطور والنمو ٠ فربما لو كان واضحا تمام الوضوح فى وعى الرواة والقدماء أنهم يريدون قصة طريفة ، بطلهـا عمر بن أبى ربيعه مثلا ، لدفعهم هذا الى العناية بالشخصية والى ايراد صفاتها بطريقة جذابة مشوقة ، ولربما عرف التاريخ عملا فنيا لم يتأخر مولده حتى القرن التاسع عشر ٠

شخصية عمر شخصية انسان يحب الجمال ويكلف به (١٢١) ٠ ولكنه لا يريد أن يضيق على نفسه ، فلا يحصر الجمال فى ليلى فقط ،

---

(١١٨) المرجع السابق ١ / ٧١
(١١٩) مصارع العشاق ص ٥٠
(١٢٠) الاغانى ١ / ٢٩ « ساسى »
(١٢١) الاغانى ١ / ٦٣ « ساسى » ٠

أو فى لبنى فقط ، فقد يراه فى الثريا ، وقد يراه فى فاطمة ، وقد يراه فى زينب • وهو يريد أن يشبع هذا النهم ، ولا يقف عند حد « الارادة » ، بل يحاول ويحاول ، وغالبا ما ينجح ولكنه اذا فشل ، فلن يأسى أو يجزع ، بل يبحث عن مغامرة أخرى ، يشبع بها هذا الينبوع المتدفق فى داخله • وهو يشعر بالسعادة فى داخله ويترنم بتلك السعادة ، بل بالعكس قد تغرى به الحسان • فيحاولن دفعه الى قول الشعر فيهن • والتغزل بهن ، وكان يقول اذا سئل عن شعره « والله ما هو عن قصد منى ، ولا فى جارية بعينها ، ولكنى رجل شاعر أحب الغزل وأقول فى النساء » (١٢٢) •

وبعض شخصيات عمر اللاتى يتغزل بهن ، ويذكرهن فى مغامراته الغرامية يملن الى البدانة ، فعائشة بنت طلحة كانت ممتلئة ، وقد وصفتها عزة الميلاء بقولها : « •• محطوطة المتنين ، عظيمة العجيزة ، ممتلئة الترائب ، نقية الثغر وصفحة الوجه ، فرعاء الشعر ، لفاء الفخذين ، ممتلئة الصدر ، خميصة البطن ، ذات عكن ، ضخمة السرة ، مسرولة الساق يرتج ما بين أعلاها الى قدميها » (١٢٣) • والثريا بنت على ، قال عنها بعض المكيين : « كانت الثريا تصب عليها جرة ماء ، وهى قائمة ، فلا يصيب ظاهر فخذيها منه شىء من عظم عجيزتها »(١٢٤)

وقد دافع العقاد عن هذا الذوق ، ورأى أنه ذوق الفطرة السليمة ، « فمما يعيب المرأة عضويا أو فزيولوجيا أن تكون رسحاء ، ضئيلة الردفين ، لأنها خلقت بحوض عريض ملحوظ فيه تكون الجنين » (١٢٥)

وشخصية عمر لم تكن كتلك الشخصيات التى ملأت العصر العباسى ، وكان فيها استهتار وانحراف ، وخروج سافر على التقاليد ، وانتهاك

---

(١٢٢) المحاسن والاضداد ص ٢٢٢
(١٢٣) الاغانى ١١ / ١٧٩ « دار الكتب » •
(١٢٤) الاغانى ١ / ٨٧ « ساسى » •
(١٢٥) شاعر الغزل ص ٣

لكل حرمة ، بل كانت تلك الشخصية تقول أكثر مما تفعل ، وتتظرف أكثر مما تتهتك • واذا فعلت كان فعلها هينا لينا ، فلا تخرج به عن كل حدود الأدب ، ولاتخرج به عن طبيعة العربى ، والذى لم يتات للحضارة والمدنية فرصة كبيرة ومدة طويلة ، لافساده كل الافساد ، والخروج به عن الشخصية العربية كل الخروج •

وهنا أصل الى مفتاح تلك الشخصية ، والخصه فى كلمة واحدة ، وهى «الظرف » •

الصفة الوحيدة التى يمكن أن ترجع اليها سلوكه ، وأن ترد اليها آراء الناس فيه هى صفة « الظريف » ، فقد كان ظريفا ، بالمعنى الذى فهمه القدماء من هذه الصفة •

فالظريف مأخوذ من الظرف الذى هو الوعاء ، فكأنه وعاء لكل لطيف (١٢٦) وقال الأصمعى وابن الاعرابى : لا يكون الظرف الا فى اللسان ، يقال : فلان ظريف أى هو بليغ جيد المنطق (١٢٧) • ولن يكون الظريف ظريفا ، حتى تجتمع فيه خصال أربع : الفصاحة والبلاغة ، والعفة والنزاهة (١٢٨)

فالظريف عند القدماء هو الانسان « الجنتلمان » ، الذى يحوى كل لطيف ، والذى هو فصيح ، جيد المنطق ، يقول بلسانه ، ويفيض بفصاحته ، ولكنه عفيف نزيه • ولكن ليست مثل عفة العذريين ، فيهـا حرمان وشؤم • بل عفة ظريفة لا تسرف فى الحرمان ، اسراف العذريين ، ولاتتشاءم تشاؤمهم ، عفة تبيح لنفسها أن تتغزل تغزلا حسيا ، وأن تلهو لهوا خفيفا ، وأن تتفكه تفكها لطيفا •

---

(١٢٦) اخبار الظراف ص ١٢
(١٢٧) الموشى ١ / ٥٢
(١٢٨) المرجع السابق ١ / ٥١

وبهذا المفتاح استطيع أن افتح نفسية ابن أبى ربيعة ، وأن افهم الأقوال التى حيكت حولها ، وأن أردها الى مصدر واحد .

فمن ناحية يعجب ابن عباس بشعر عمر ، وينشده فى المسجد الحرام ويحفظه ، ويتشاغل به عن ابن الأزرق وأمثاله ، الذين كانوا يضربون اليه من أقاصى البلاد ، يسالونه عن الحرام والحلال (١٢٩) . وقال لابن أبى عتيق : « أترى ما سيرت فى الناس من الشعر ورب هذه البنية ما قبل منها وما دبر ، ما قولت امرأة قط ما لم تقله ، ولا طالعت فرج حرام قط » (١٣٠) .

ولكن من ناحية ثانية ، يقول ابن جريج : « ما دخل على العواتق فى مجالسهن شىء أضر عليهن من شعر عمر بن أبى ربيعة (١٣١) . ويقول هشام بن عروة : لا ترووا فتياتكم شعر عمر بن أبى ربيعة ، لا يتورطن فى الزنا تورطا » (١٣٢) ، وقد سأل سمرة الدومانى ابن أبى ربيعة : أكل ما قلته فى شعرك فعلته ؟ قال اليك عنى . قلت : أسالك بالله . قال : نعم واستغفر الله » (١٣٣) .

أقوال مختلفة ، منهم من يرى أن ابن أبى ربيعة ، كان عفا ، زاهدا . ومنهم من يرى أنه كان فاسقا ماجنا .

ولا حيلة لى الا أن أرد هذه الآراء الى مصدر واحد ، فقد كان عمر ظريفا ولم يكن عذريا محروما ، ولا فاسقا مستهترا .

وقد تنبه بعض القدماء الى هذا ، فبنو مخزوم يزعمون أنه « كان فى نسيبه يذهب الى أخلاق ابن أبى عتيق ، فان ابن أبى عتيق كان من

---

(١٢٩) الاغانى ١ / ٧١ « دار الكتب »
(١٣٠) المرجع السابق ١ / ٧١ « دار الكتب »
(١٣١) الموشى ١ / ٥٧ (باب سنن الظرف)
(١٣٢) الاغانى ١ / ٧٤ « دار الكتب »
(١٣٣) المرجع السابق ١ / ٥٧

أهل الطهارة والعفاف ، وكأن من سمع كلامه ، توهم أنه من أجرأ الناس على الفاحشة (١٣٤) والزبير بن بكار يقول : « لم يذهب على أحد من الرواة ، أن عمر كان عفيفا ، يصف ويقف ، ويحوم ولا يرد » (١٣٥) وقد وصف أحدهم شعره وصفا ظريفا قال : « هو الفستق المقشر » (١٣٦) وقد صرح فريق من النسوة بهذه الصفة حين أقبل عليهن عمر ، متنكرا فى ثياب اعرابى ، فجعل ينشدهن شعر كثير ، وجميل والأحوص ، وغيرهم ، « فقلن له : ويحك ، يا اعرابى ، ما أملحك ، وأظرفك » (١٣٧) ·

اذن كان عمر ظريفا ، لسانه أطول من يده ، يصف ويقف ، ويحوم ولا يرد · ومن تلك النقطة اختلف حوله المختلفون ·

منهم من نظر الى جانب الفصاحة والبلاغة فى الظريف ، وما يتطلبه هذا الجانب من سماحة وتظرف ، فأسرفوا فى الحكم على عمر بالفسوق ، وبأنه مارس كل تجاربه الشعرية فى دنيا الواقع ·

ومنهم من نظر الى جانب العفة والنزاهة فى الظريف ، فحكموا لعمر بأنه كان عفيفا ، وأنه فاز بالدنيا والآخرة » (١٣٨) ·

والحقيقة أن عمر كان ظريفا ، لسانه أطول من يده كما قلت ، وقد اعترف هو بذلك ، فحين أنشد أبياته التى منها :

ولقد قلت ليلة الجزل لما   أخضلت ريطتى السماء

قالت له البغوم : « ما رأيت أكذب منك ، يا عمر ، أتزعم أنك بالجزل ، وأنت فى جنيد محمد بن مصعب ، وتزعم أن السماء اخضلت

---

(١٣٤) نوادر الجاحظ ص ٨٠
(١٣٥) الاغانى ١ / ١١٩ « دار الكتب »
(١٣٦) المرجع السابق ١ / ٧٧
(١٣٧) المرجع السابق ١٧٥١
(١٣٨) الشعر والشعراء ٢ / ٥٣٦ ·

ويطتك ، وليس فى السـماء قزعـة . قـال : « هكذا يستقيم هـذا الشأن » (١٣٩) ولعلى لا أبعد عن قصده ، لو قلت : هكذا يستقيم هـذا الظرف .

* * *

شخصية العاشق العذرى :

العاشق العذرى ـ غالبا ـ جميل المنظر ، حيوى الشباب « سبط البنان حديد السنان » كما وصفت احدى المعشوقات عاشقها (١٤٠) ، وهو « طويل بين المنكبين ، طوال » (١٤١) يهتم بحسن المنظر ، وجمال البنية ، فيتأنق فى زيه وزى راحلته (١٤٢) ، وهو « من أظرف الناس ، خفيف العارضين ، آدم ، حلو المضحك » كما وصف شيخ من خزاعة ذا الرمة (١٤٣) . ويبدو على بعضهم التميز عن أخوته من حداثته والتفوق عليهم (١٤٤) . ويتوقع الناس أ نيكون له مستقبل عظيم ، لولا أن يمسه طائف من الحب ، ولولا أن تدركه تلك العقبات القوية التى لا سـبيل الى زحزحتها والتغلب عليها ، فتحول بينه وبين أمنياته ، واذا بـه يتبدل خلقا غير خلق ، ويميل الكثير منهم الى الانطواء والوحدة (١٤٥) ويصاب بالاصفرار والتحول ، وينشـد الاشعار ، يطهر نفسه ، ويفـرج كربته ، ويميل الى المزاج السوداوى ، والتشاؤم والاستسلام للأقدار ، والزهد فى كل شىء (١٤٦) ، والبعد عن الطموح الذى يجذب أمثـاله من الشبان ، ويضخم مأساته ، ويبالغ فى تجسيد ما وقع به ، وكأن مأساته

---

(١٣٩) الاغانى ١ / ١٦٦ « دار الكتب » .
(١٤٠) تزين الاسواق ١ / ١٢١
(١٤١ ، ١٤٢) الاغانى ٨ / ٩٢ « دار الكتب » .
(١٤٣) المحاسن والأضداد ص ١٧
(١٤٤) الاغانى ٢ / ١٥ « دار الكتب »
(١٤٥) المرجع السابق ٢ / ٤٦ ، ٢ / ٩٣
(١٤٦) المرجع السابق ٣ / ٣٥

المأساة الوحيدة فى العالم ، وكأنه لا يوجد فى فى الدنيا انسان أصيب بمثل ما أصيب به ، فهو شديد التفكير فى ذاته ، والتركيز حول نفسه ، والتعايش مع لاوعيه ، واجترار أحزانه وآلامه وذكرياته ، ولهذا تجد فى شعره الوجدان الخالص ، والعاطفة الذاتية ، والمأساة الفردية ، والبعد عن العالم الخارجى ، وتجنب الحديث عنه الا بمقدار ما يمس مشكلتهم ، ويتعلق بمأساتهم ، بل ينتهى الأمر ببعضهم الى رفض الحياة ، ونبذ الناس ، فيهيم فى الطبيعة ، ويتحد مع مظاهرها ، فتألفه الظباء وتصادقه (١٤٧) ويخاطب الحمام ويناجيه (١٤٨) ، ويخلع عاطفته حوله ، بل ويخلع الحياة عما حوله ، فيحس أن هناك من يناجيه ، ويذكره بليلى (١٤٩) ، ثم ينتهى به الأمر به الى الجنون والاختلاط (١٥٠) وقد ينتهى الأمر بالكثيرين الى الموت والانتحار (١٥١) .

شخصية هؤلاء بعد أن يمسهم هذا الطائف من العشق ، تنتهى بهم الى شخصية غير سوية ، رافضة للحياة وللعالم الخارجى ، وقد ضاق قيس بوضعه ، وتمنى الشفاء من حب ليلى ، وأن يعيش فى الناس « سويا مستريحا » (١٥٢) على حد قوله .

ولعلى لا أخطىء لو قلت : ان التباعد بين شخصيات المحبين الحسيين وشخصيات العشاق العذريين ، لم يكن ذا هوة عميقة من الصعب اجتيازها أو تخطيها ، أو لم يكن مثل التباعد الذى نشاهده فى العصر العباسى بين أهل المجون فى الحضر ، وبين عشاق أهل البادية .

وكانت هناك مظاهر تقارب بين العذريين والحسيين ، فقد كان

---

(١٤٧) المرجع السابق ٣ / ٢٤
(١٤٨) المرجع السابق ٢ / ٧٢
(١٤٩) المرجع السابق ٢ / ٥٤
(١٥٠) الأغانى ٢ / « ساسى »
(١٥١) تزيين الاسواق ١ / ١٣١
(١٥٢) الأغانى ٢ / ٨٢ « دار الكتب »

عمر يحب أشعار العذريين وينشدها (١٥٣) ، وله أصدقاء من بنى عذرة (١٥٤) • وكان يلتقى بجميل ويتناشدان ، وقد شهد له جميل مرة ، فقال : « هيهات يا أبا الخطاب ، لا أقول والله مثل هذ سجيس الليالى ، والله ما يخاطب النساء مخاطبتك أحد » (١٥٥) • ولو رجعت الى شعره فى الجزء الأول من الأغانى ، لوجدت فيه شعرا كثيرا ، فيه عفة ، وفيه أيضا حرقة • وهذا الشعر العفيف لايقل عن النوع الأول من شعره الخفيف الدم ، الواضح الظرف ، ولا أقول شعره الماجن المنحرف • وانظر مثلا الى شعره فى زينب موسى الجمحية ، فانك تشاهد أبياتا ، فيها حرارة ولوعة مثل :

ان قلبى بعد الذى نلت منهـــا كالمعمى عن سائر النسوان (١٥٦)
ان بى داخلا من الحب قد أبـــ لى عظامى مكنونه وبرالى (١٥٧)

وجميل مثلا كانت له أبيات حسية ، ولم يصدقه سهل بن سعد الساعدى ، حين أقسم بعفته فى مرض موته ، وقال له : « والله ما سلمت وأنت منذ عشرين سنة تنسب ببثينة » • وحين ذاكر سعد بعض مشايخه بهذا ، قال له : اليس هو القائل :

فدنوت مختفيا أجـــر ببيتهـا حتى ولجت على خفيف المولج
قالت وعيش أخى ونعمة والدى لأنبهن الحى ، ان لـم تخرج
فخرجت خيفة أهلهـا فتبسمت فعلمت أن يمينهـا لـم تلجج

---

(١٥٣) الأغانى ١ / ٧١ « ساسى »
(١٥٤) مصارع العشاق ص ٥٠
(١٥٥) الأغانى ١ / ١١٦ دار الكتب
(١٥٦) المرجع السابق ١ / ١١٦ دار الكتب
(١٥٧) المرجع السابق ١ / ٩٥

فلثمت فاها آخــــذ بقرونهـا   فعل النزيف برد ماء الحشرج (١٥٨)

بل مما يدل على أن التباعد بين العذريين والحسيين ، ليس فيه اسراف ، أن تلك الأبيات السابقة التى قد نسبت الى جميل ، ذكرهـا صاحب الاغانى منسوبة الى عمر (١٥٩) .

والاحظ تطورا خطيرا فى شخصية العاشق . فقد كان فى العصر الجاهلى – فى الاعم الأغلب – فارسا شجاعا – له جولات فى الحروب ، ومواقع يشهد بها الأقران . فامرؤ القيس كان شجاعا قويا يفتخر بشجاعته فى الحـروب ، وشـــدة بلائه (١٦٠) . وعنترة يحـدث حبيبتـه عن شجاعته (١٦١ ، وكان للمرقشين موقع فى حروب بكر من تغلب (١٦٢) كانت شخصية الفارس تتكامل فى ذلك العصر مـع شـخصية العاشق ، ويظهر من خلالهما انسانا قويا على أعدائه ، ضعيفا أمام رحبيه .

ولكن – للأسف – نجد أن ذلك الجانبين ينفصلان – غالبا – فى العصر الأموى . فاذا بعشاق هذا العصر ينصرفون عن العالم الخارجى . الملىء بالاضطراب والثورات ، والاشتباكات مع الروم وغيرهم ، وينصرفون الى عاطفتهم أو الى مغامراتهم . فعمر حمامة من حمامات الحـــرم ، لايهمها تحزب سياسى أو تعصب دينى ، أو اتجاه ثقافى ، بل ترك كل هذا ، وانصرف الى شعره ينشده ، ويروج له وينشره بين المغنين ، والى مغامراته يتحدث عنها ويفتخر بها . وجميل يرى أن غزواته لاتكون الا بين الحسان ، وأنه سيقتل بينهن ، وسينال الشهادة من أجل ذلك .

تفاوت خطير بين تلك الشخصيتين ، فشخصية تتكامـل فيهـا الفروسية والعشق ، وشخصية ترى الفروسية فى العشق . وربما كـان

---

(١٥٨) الشعر والشعراء ١ / ٤٠٩ / والزهرة ص ٧٣
(١٥٩) الاغانى ١ / ٧٥ « ساسى »
(١٦٠) المعلقات العشر « معلقة امرىء القيس » ص ٥٣
(١٦١) المرجع السابق « معلقة عنترة » ص ١٠٤
(١٦٢) الاغانى ٥ / ١٧٩ « ساسى »

السبب فى هذا ، تلك الظروف القاسية التى مر بها الحجازيون ، وتلك المعاملة المهينة التى لقوهـــا من الأمويين ، والتى أهـدرت فيهم روح المقاومة ، والفروسية والشجاعة ، وغرست فيهم الاستسلام ، والتفرغ لحياة القلب والغرام .

ومع أننى ذكرت أن هناك فى هذه القصص شيئا من المبالغة ، التى ترضى عقلية العامة ، الا أننى أذكر هنا ، أن تلك المبالغة لـــم تكن قوية ، ولم تكن بعيدة بعدا يدنى الشخصية الى عالم الملاحـم ، ويبعدها عن عالم الواقع كل البعد . فلو حذفت تلك الأشياء التى أضيفت لترضى العامة ، أو أضافها هؤلاء العامة ، لبقيت لك بعد هذا شخصية معقولة الى حد ما . فشخصية جميل لو حذفت فيها الأخبار التى تتعلق بتعبه فى سبيل لقاء المعشوقة ، لبقيت لك بعد ذلك شخصية معقولة . وعمر لو قللت شـيئا من مغامراتـه ،لرأيت بعد ذلك شـخصية ظريف معقولة . ويوضح هذا أكثر لو قارنت بين شخصية جميل أو عمر ، أو حتى شخصية المجنون ، وبين شخصية ذى القرنين كما يصـورها صـاحب التيجان ، فانك تجد المباالغة الواضحة فى شخصية ذى القرنين ، والبعد بها عن العرف المألوف ، مما يجعلها شخصية أسطورية ، مبالغ فيهـــا مبالغة مسرفة .

وقصص العشق فقيرة فى الشخصيات . فالأضواء فيها لاتسـلط فى ــ الغالب ــ الا على شخصيتين : العاشق والمعشوقة ، أما الشخصيات الأخرى فباهتة ، ذات دور ثانوى ، لاتظهر الا لمدة قصيرة ، تلقى فيها نصيحة للعاشق ، أو تلومه على أمر ، أو تضع له عقبة ، ثم تختفى . وهذا يجعل العلاقات بين الشخصيات فقيرة غير ثرية . فليست هناك علاقات مركبة ، ولاتشابك بين شخصيات متعددة ، وانما هى علاقـات مسطحة ، غير قوية . لايبدو فيها تضارب المصالح ، ولاتصارع العواطف ، وان كانت قصة « قيس ولبنى » فيها شىء من تعدد الشخصات ، وفيها من ثم شىء من تعدد العلاقات داخل القصة .

* * *

شخصية العاشقة :

وتلعب شخصية المرأة فى قصص العشق دورا هاما ، اذ تمثل الطرف الثانى فى هذه القصص . وقد تلعب أدوارا أخرى ثانوية كأن تكون أما ، ، أو تكون عجوزا ، أو جارية تقوم بدور الوسيط بين العاشقين .

والصفات الحسية للمعشوقة ، أنها تتميز بالجمال ، فقد تكرر فى تلك القصص وصفها بأنها « كفلقة قمر » وصفت بذلك مرة ليلى (١٦٣) ، وثانية عقيلة بنت النعمان (١٦٤) . وثالثة عمارة جارية ابن جعفر (١٦٥ الخ .

ويصف الراوى لبنى بأنها « مديدة القامة ، بهية الطلعة ، عذبة الكلام ، سهلة المنطق (١٦٦) » ... فللعاشقة من الصفات الحسية ما يؤهلها لهذا الدور . جمال وحسن منظر ، واستواء قامه ، وظرف ، وعذوبة منطق .

أما صفاتها المعنوية ، وتكوينها النفسى ، فاننا نجد أنفسنا ازاء نموذجين مختلفين :

شخصية لا حول لها ولا طول ، ولا حساب لعواطفها ، ولا أهمية لرغباتها ، وهى شخصية الجارية ، فانها منطوية على أمرها مستسلمة . وخذ مثلا « عمارة » يحملها التاجر العراقى ، وكأنها طرفة من طرفه الى الشام ، ثم يعود بها الى المدينة . وخلال تلك الرحلة الطويلة ، لاتظهر القصة شيئا من عواطفها ، أو تبدى رغباتها . ولكنها فى آخر القصة يبدو لنا أنها تحب مولاها ، ولاتعبر عن ذلك صراحة بل تظهر ذلك بالاغماء عليها حين الالتقاء به .

---

(١٦٣) الشعر والشعراء ٢ / ٥٤٨
(١٦٤) الزهرة ص ١٦١
(١٦٥) مصارع العشاق ص ٢٣٩
(١٦٦) مصارع العشاق ٢٣٠

واعتقد أن ذلك نتيجة للوضع الاجتماعي لطبقة الجواري ، فقد كن أسيرات غير عربيات ، مغلوبات على أمرهن ، ينظر اليهن العربي نظرة انسان هيئن لخدمته ، والسهر على راحته ، وكن ميسورات ، يسهل الحصول عليهن ، بل لامانع من خطفهن ، فقد خطف ابن الطثرية جارية كان قد اغتصبها المقدم بن عمرو بن همـــام ، لصديق له شكا اليه أنـــه يهواها (١٦٧) . والاسلام قد أباح العلاقات الجنسية بملك اليمين ، فقال : « والذين هم لفروجهم حافظون .. الا على أزواجهم ، أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين » (١٦٨) ، وأود أن نتأمل التعبير القرآنى « ما ملكت أيمانهم » فانه يوحى بالوضع الاجتماعى لهذه الطبقة .

أما الشخصية الأخرى ، فلها قدرها ومميزاتها ، واعتبارها وحسابها ، وهى شخصية العاشقة العربية .

وهى شخصية تعبر عن عواطفهـــا ، ولكن فى حرص العربيات وخدرهن .. فليلى ترسل الى قيس : « بنفسى أنت ، والله لوجدى بك فوق ما تجد . ولكن لا حيلة لى فيك » (١٦٩) ولبنى تعلن عن حبهـــا لابن ذريح (١٧٠) ... الخ .

وتكشف القصص عن عزة العربيات وأنفتهن ، وثورتهن لكل ما يمس كرامتهن ، ويخدش سمعتهن . فليلى تغضب على قيس لتعرضه بها ، واشارته الى « ليلة الغيل » ، لولا أن اعتذر لها ابن ذريح عنه بـأن « الناس تأولوا كلامه على غير ما أراد . فلا تكونى مثلهم . وانمـــا اخبر أنه رآك ليلة الغيل وذهبت بقلبه . لا أنه عناك بسوء (١٧١) » . وليلى الأخيلية أمسكت عن كلام توبة ، حين وقفت على قوله :

---

(١٦٧) الاغانى ٨ / ١٧٤ « دار الكتب »
(١٦٨) سورة المؤمنون الآيات ٥ ، ٦
(١٦٩) الاغانى ٣ / ٩٣ « دار الكتب »
(١٧٠) مصارع العشاق ص ٧٧
(١٧١) الاغانى ٢ / ٩٣ « دار الكتب »

فلما دخلت الخدر أطت نسوعه وأطراف عيدان ، شديد سيورها

حتى هددها بأنه سيسقى نفسه السم ان لم تكلمه . فجمعت ثلاثة من أهلها ، بحيث يخفون عليه واستحضرته ، فلما آنسته قالت : أى خدر دخلت معى ، حتى تقول ما تقول ، فقال : هذا استرسال الشعراء ، ثم ذكر لها أمثال ذلك وتنصل ، ففرحت بسماع أهلها ذلك (١٧٢) .

وتكشف بعض القصص عن وفاء العربيات واخلاصهن لحبهن . فلبنى سلمت جسدها لزوجها ، ولكنها ظلت وفية لعاطفتها ، مقدسة لحبها » (١٧٣) . وكذلك كانت ليلى بنت المهدى (١٧٤) . وتتحدث القصص عن شعور العاشقات ، حين يجيئهن النعى بموت العاشق ، حديثا مؤثرا ، فبثينة لما جاءها النعى بموت جميل فى مصر ، خرجت « ناشرة شعرها . شاقة جبينها . لاطمة وجهها . وهى تقول « ياأيها الناعى . بفيك الحجر . أما والله لئن كذبتنى ، لقد فضحتنى ، ولئن كنت قد صدقتنى . لقد قتلتنى » (١٧٥) . ويعبر الأغانى عن هذا الموقف نفسه فتقول بثينة :

فصرخت صرخة ، آذنت منها الحى . وسقطت لوجهى ، فأغمى على . فكان صوتى لم يسمعه أحد ، وبقيت سائر ليلتى ، وأفقت عند طلوع الفجر ، وأهلى يطلبوننى ، فلا يقعون على موضعى ، ورفعت صوتى بالعويل والبكاء ... واجتمع نساء الحى ، وأنشدتهن فأسعدتنى بالبكاء ، فاقمن كذلك لا يفارقننى ثلاثا ... فلم أكتحل بعد بأثمد . ولا فرقت رأسى بمخيط ولا مشط ، ولا دهنته الا من صداع » (١٧٦) .

ويبلغ الوفاء ببعضهن حدا ، تحافظ فيه على عهد عشيقها بعد

---

(١٧٢) تزيين الأسواق ١ / ١١٧
(١٧٣) المرجع السابق ١ / ٦٢
(١٧٤) الأغانى ٢ / ١٣ « ساسى »
(١٧٥) الزهرة ص ٣٦٩ ؛
(١٧٦) انظر : أخبار النساء ص ٧٤

موتها ، وتشعر أنها مسئولة أمامه كما لو كان حيا ، ويتسلل هـــذا الاحساس الى ضميرها فيجعلها تتصرف تصرفا ، يثير الاعجـــاب . فقد كانت أم عقبة بنت عمرو ، تحب ابن عم لها ، يقال له : غسان ، ويحبها ، ثم مات غسان ، وجعل الخطاب يردون على أم عقبة ، وهى ترفضهم ، الى أن أجابت يوما المقدام بن حابس ، فلما كانت الليلة التى أراد بها الدخول ، أتاها فى منامها زوجها الأول ، وجعل ينشدها شعرا يتهمها فيه بالغدر ، فانتبهت مرتاعة ، مستحيية منه كأنه يراها أو تراه كأنه فى جانب البيت ، وانتهى بهـا الأمـــر الى أن خنقت نفســـها بسوط (١٧٧) .

وتضيف هذه القصـص الى بعض العاشـقات ، « صـفة البلاغة والفصاحة » فقد كانت ليلى الأخيلية ، بليغة فصيحة ، ولها مواقف أدبية أمـام الحجاج ، تتكلم فيهـا بلغة رصـينة وأسلوب فصـيح ، يثيران الاعجاب (١٧٨) . وقد قال عنها ابن قتيبة : « هى أشعر النساء لاتقدم عليها غير خنساء » ثم روى شيئا من شعرها (١٧٩) . وليلى تقـــول بيتين من الشعر ، تطمئن فيهما قيسا على حبها له (١٨٠) . وبثينة تنشد بيتين من الشعر ، حين جاءها النعى بموت جميل فى مصر (١٨١) وكانت بثينة ناقدة حصيفة متذوقة لشعر جميل ، فقد لقيته بعد تهاجر بينهما ، فتعاتبا طويلا ، فقالت له : ويحك ياجميل . أتزعم أنك تهوانى ، وأنت الذى تقول :

---

(١٧٧) الاغانى ٨ / ٢٠٣ « دار الكتب »

(١٧٨) انظر : مصارع العشاق ص ١٥ ، وتزيين الاسوا ق ١ / ١١٩ . ومروج الذهب ٢ / ١٥٩ وزهرة الاداب ٣ / ٣٤٥ .

(١٧٩) الشعر والشعراء ١ / ٤١٩ .

(١٨٠) الشعر والشعراء ٢ / ٥٤٧

(١٨١) مصـــارع العشـاق ص ٢٠٤ والزهرة ص ٣٦٩ والشـــعر والشعراء ١ / ٤٠٩

رمى الله فى عينى بثينة بالقذى　　وفى الغر من أنيابهــا بالقوادح

فأطرق طويلا يبكى ، ثم قال :

ألا ليتنى أعــم أصـــم تقودنى　　بثينة لا يخفى على كـــلامها

فقالت له : « ويحك . ما حملك على هذه المنى ، أو ليس فى شدة العافية ما كفانا جميعا » (١٨٢) .

شخصية العاشقة الحرة فى هذه القصص ، شخصية امرأة ذات عزة وأنفة وكرامة ، ولكنها تذل أمام عاطفتها ، فتخلص لحبيبها وتبكيه ، وتنشد الشعر فى رثائه .

وتلك الصورة ، تكشف عن العربية ، وتبرز مزاجها ، على عكس قصص أخرى ، تقف على طرفى نقيض ، وتصور المرأة فى صورة أعتقد أنها بعيدة عن صورة المرأة العربية .

فمثلا صورة بلقيس فى كتاب وهب ، صورة رهيبة ، تقود الجيوش ، وتحكم الرجال ، ولها من الحيلة والمكر والدهاء ، والقوة والايد ، مايثير الرعب والهول ، رأى عمر بن عباد ، جدجاد ابنة جعفر بن لوط ، فهويها ، ثم أسقى جعفرا خمرا ، وسل سيفه ، وضرب به رأسه ، ثم أراد أن يخلو بابنته جدجاد فقالت بلقيس لنساء جعفر : « ويلكن ، انى أيده ، ليس فى الرجال مثلى ، ولا من يدافعنى ، وقد اعددت مديــة خصوصــية ، للملك عمرو ذى الأذعــار .. وهى أول مــا عملت من الخصوصيات باليمن مكرا ، ثم زينت بلقيس ، واتت الى عمرو ، فأخذت بيديه جميعا ، بيد واحدة ، فامسكته فلم يستطيع معها حراكا ، ثم مدت يدها الى قرونها ، فسلت المدية ، فضربت بها نحره ، وأخذت برجليه تجره فى الحى » (١٨٣) فهى شخصية رهيبة . تثير الرعب والخوف .

---

(١٨٢) الاغانى ٨ / ١٤ « دار الكتب «
(١٨٣) أنظر قصتها فى : التيجان ص ١٤٧

ولأمر ما نسبتها القصة الى انها بنت جنية . فقد تزوج أبوها امرأة من الجن . أنجبت له بلقيس ، التى يظهر أن عنصر الجن فيها قد غلب على عنصر الانس .

وعلى طرف آخر ، تقف شخصية المرأة فى قصص « ألف ليلة وليلة » . فهى أقرب الى النموذج الاول (شخصية الجارية) ، منها الى شخصية العربية الآنفة المتمنعة ، والمرأة فى كل صور هذا الدور جارية ، سواء أكانت ملكة ، أم جارية مشتراة من السوق « تكون بنت ملك تحارب وحبيبها خائف . ومع هذا تناديه « ياسيدى » وتخدمه ، كما تخدم مريم الزنارية نور الدين . وتباع وتشترى فى أكثر القصص ، فتكون صفات الجارية وتصرفاتها ، أقرب الى واقعها » (١٨٤) .

قصص العشق – اذن – أصدق فى الكشف عن شخصية العربية ، وابراز تكوينها النفسى ومزاجها الخلقى ، فى صورة أقرب الى فطرتها العربية ، قبل أن تفسدها عوامل أخرى ، تدخلت فى رسم صورة المرأة فى « ألف ليلة وليلة » .

---

(١٨٤) « ألف ليلة وليلة » للدكتورة سهير القلماوى ص ٣٠٠

الحــادثة :

واعنى بها تلك المادة « الخام » ، التى تصنع منها القصة ، أو ذلك المعنى الأول الذى يضيف اليه القاص ، عناصر ممزوجة من خيال ، وصراع وتشويق ، وعقدة ، محاولا أن يوائم بين مقادير تلك العناصر ، حتى تكون لنا فى النهاية تلك القصة التى تحرك وجداننا ، وتداعب خيالنا ، وتؤثر فى تفكيرنا ٠

وأعتقد أن الفنان حر فى التقاط الحادثة التى تستهويه ، له أن يلتقطها من مواد شريرة ، أو من عناصر خيرة ، وله أن يستمدها من واقع الحياة ، أو من تحف التاريخ ، ولكنه مسئول ـ بعد ذلك ـ عن الشكل النهائى الذى ارتضاه لهذه الحادثة ٠ هــل يستحق أن يدخـــل نطاق الفن ٠ فيرضى أذواق المتذوقين ، وترضى عنه حاسة النقاد ، أو أن صاحبه قد قعد به عن ذلك المستوى ، فأخرج لنا شكلا ممسوخا ، قــد يكون فيه فقر فى عنصر من العنصر ، أو استكمل عناصره ، ولكن بــه تنافر بين تلك العناصر ، ونشاز فى علاقاتها ٠

وأتكلم ـ الآن ـ عن تلك المــادة « الخام » فى قصــص العشق ، أما شكلها النهائى ، فقد ذكرت أول هذا الباب ، أن تلك القصص لم ترق الى درجة الفن ، فقد كانت مجرد أخبار تلقى ، وأحاديث تقذف ٠ ولم تكن الحدود فاصلة فيها بين التاريخ كتاريخ ، وبين الأدب كأدب ، بل اختلط فيها الأمران اختلاطا كانت لــه جنايتــه على التاريخ ، وعلى الأدب على حد سواء ، فقد حشى التاريخ بأكاذيب ومبالغات ، وتعرقل الأدب ، فلم ينم نموه الطبيعى ٠

والحادثة فى حكايات الحب الحسى ، تختلف عنها فى قصص العشق العذرى ٠

فهى فى حكايات الحب الحسى ، رجل يميل الى امرأة قد أعجبته ، فتوقظ فيه غرائـــز ونوازع وتحرك فيــه عواطف ٠ ولكنه لايكبت تلك

الغرائز ، أو يحبس هذه العواطف ، فيكتفى بتقليبها ، ومناجاتها ووصف قوتها ، والبكاء بسبب تغلبها عليه وقهرها له ، بل بدلا من ان يطلقها فى داخله وعلى ذاته ، يطلقها الى الخارج ، فيحاول أن يصل الى جسد محبوبته ، والى عينيها ، والى فمها ، والى جيدها ، فيشبع غرائزه ويرضى ميوله ، وقد ينال ذلك من هند مثلا ، حتى اذا صادف فاطمة تاق الى جسدها ، والى عينيها ، فينال منها ما ناله من صويحباتها . فينطلق الى غيره (١٨٥) . وقد تصادفه عقبة ، ولكنها عقبة هينة ، اذ هو تمنع من الحبيبة ، سرعان ما يتغلب عليه ، بالحاحه ومداومته ، فتستجيب (١٨٦) . أو يستعين بعجوز داهية تستحق لحيلتها أن تكون خليفة تلى أمور الناس ، كما وصف ابن أبى عتيق ، عجوزا استعان بها عمر وتحايلت حتى أوصلته الى مناه (١٨٧) . أو يستعين بصاحب له ظريف ، يتوسط بينه ، وبين حبيبته ، فتجيب وساطته ، وتظهر البشاشة لهذا الوسيط (١٨٨) . ولكنه قد لايصل الى مراده . فلا يشكو القدر ومدى تسلطه على الناس ، ولايتشاءم ويقتل الغربان ، أو يبكى بكاء يقطع الأكباد ، أو يهيم فى الجبال ، نادبا حظه لاهيا عن عمله ، أو يستعطف حبيبته بحسرة وحرقة ، بل يطرح هذا الميل ، ويدفع تلك العاطفة ، باحثا عن أخرى ، تشبع ميله ، وترضى عاطفته ، فالنساء كثيرات ، بـل ماله لايفعل ، وهن أحيانا يطاردنه ، ويتحايلن للقائه ، ويرسلن اليه . وقد يتمنع عليهن ، وقد لايتمنع ، ولكنه يلتقى بهن ، ويلتقين به ، وبعدها ينصرف كل الى عمله ، ويضطرب فى حياته .

---

(١٨٥) انظر مغامرات ابن ابى ربيعة ـ فى الاغانى ـ مع هند بنت الحارث المرى (١ / ١٧٥ دار الكتب) ومع الثريا (١ / ٢٠٩) ومع فاطمة بنت محمد بن الاشعث (١ / ٨٥) ومـــع زينب بنت موسى الجمحية (١ / ٩١) .

(١٨٦) الاغانى ١ / ٢٠٤ « دار الكتب »

(١٨٧) المرجع السابق ١ / ١٢٤

(١٨٨) المحاسن والاضداد ص ٢٠٣

أما الحادثة فى قصص العشق العذرى ، فقد تكون غلاما صغيرا ، نشأ مع جارية صغيرة يرعيان البهم سويا (١٨٩) ، وتظللهمـا تلك السماء الصافية ، وتباركهما أشعة القمر الحانية • ومن حولهما الطبيعة تجرى على سجيتها ، فالحمام يتناجى ، واليمام يتناغى ، والابـل تحن ، والاغنام تتعاطف • فينشأ بينهما شيء من الالفة ، ينمو مـع نموها ، ولكن الصغيرة قد كبرت ، فيحول أهلها بينها وبين ألفها (١٩٠) فتضطرم العاطفه فى نفسه ، وتشتعل فى داخله ، فتنطق لسانه بالأشعار ، يحن فيها الى ألفه ويعبر عن وجدانه • واذا هو يحفر حتفه بظلفه ، واذا تلك الأشعار تتحول الى عقبة كأداء ، لاسبيل الى تذليلها ، تحول بينـه وبين الوصـــول الى معشوقته ، فالعرب لاتزوج بناتها من رجـل تغزل بهن قبل الخطبة (١٩١) ، وبذلك أصبح الوصال عسيرا ، والزواج مستحيلا • ولكن العاطفة هنا شيء لايمكن اسكاته ، وقدر محتوم لايمكن التغلب عليه • فيحاول العاشق الوصول الى معشوقته ، ويجد فى ذلك أهوالا ومشـقات • وقـد ينـال نجاحـا فيلتقى فى احـدى المـرات بمعشـوقته (١٩٢) • ولكنـه نجـاح يسـير اذا قيس بتلك الأهـوال المهولة (١٩٣) • وازاء هذا يزوجها اهل الفتاة باى طارىء ، فتقبل الفتاة ارضاء لأهلها ، وخضوعا لتقليدهـم (١٩٤) • ولكنهـا تحتفظ بعاطفتها ، ويحملها زوجها الى الشام أو غيرها ، فيضيق العاشق ، ولايسلو • ويرسل العبرات ، ويسح الدموع • ويحاول أهله علاجه مما به يذهبون الى عراف ، أو طبيب (١٩٥) ، أو يحجون به الى بيت الله

---

(١٨٩) المرجع السابق ٢ / ١٢ •
(١٩٠) الاغانى ٢ / ١٢ « دار الكتب »
(١٩١) المرجع السابق ١ / ١٦٨ « ساسى »
(١٩٢) مصارع العشاق ص ٣٢٨
(١٩٣) تزيين الاسواق ١ / ٤٦ والشعر والشعراء ١ / ٤٠٦
(١٩٤) مصارع العشاق ص ٧٧
(١٩٥) الموشى ٢ / ١٧٥

الحرام ، سائلين الله أن ينزل السكينة على قلبه (١٩٦) ، ولكن هيهات ، وينصحونه ، أو يعذلونه (١٩٧) ، أو يدرسون عليه من يخبره أن هذه العشيقة تذكره بسوء (١٩٨) ، أو يحاولون أن يزوجوه (١٩٩) ، ولكنه لايسلو . وقد تتدخل أمه وتتوسل الى الحبيبة أن تزوره (٢٠٠) . أو يتدخل أحد الناس ، فيعرض عليه بناته السبع ، ليختار منهن من يحب (٢٠١) ولكنه لايرضى بشىء دون تلك الحبيبة التى تمثل له بكل سبيل .. وتدفعه العاطفة . فيتعقب عشيقته عند أهلها ، أو يتبعها عند زوجها فيضيقون به ، ويشكونه للسلطان . وهنا تتدخل تلك السلطة الرهيبه ، فتهدر لهم دمه (٢٠٢) . ويزداد موقف العاشق سوءا الى سوء ، فاهل العشيقة يتربصون به ليقتلوه ، والعاطفة فى داخله تكاد تقتله . ويشتعل الصراع فى داخله ، ويظهر آثاره فى اصفرار وجهه ، ونحول جسمه ، وانشغال باله ، وينظر العاشق الى الحياة بمنظار أسود ، فيتشاءم ، ويسب الغربان ، ويلعن العذال ، ويكى ويضرع . وقد يرحمة أحدهم ، فيحاول التوسط ، وقد تتكرر الوساطة مرة واثنين ولكنها تفشل (٢٠٣) . ولا تنتهى الحادثه ـ غالبا ـ نهاية سعيدة . بل قد يموت العاشق هائما فى واد كثير الحجرة (٢٠٤) أو يلقى حتفه بعيدا فى غربة (٢٠٥) فيغتم بذلك الطرف الآخر . وقد لاتكون أيام حتى

---

(١٩٦) الشعر والشعراء ٢ / ٥٥٠
(١٩٧) الاغانى ٢ / ٧١ « دار الكتب »
(١٩٨) المرجع السابق ٢ / ٨٤
(١٩٩) تزيين الاسواق ١ / ٥٣
(٢٠٠) الاغانى ٢ / ٣٥ « دار الكتب »
(٢٠١) تزيين الاسواق ١ / ٣ ٨
(٢٠٢) الاغانى ٢ / ١٧ « دار الكتب »
(٢٠٣) المرجع السابق ٢ / ١٧
(٢٠٤) الشعر والشعراء ٥٥٤
(٢٠٥) تزيين الاسواق ١ / ٤٧

يلحق به . ثم تصير قصتهما ملكا للأجيال . يتناقلونهـا ، مترحمين عليهما ، راثين لحالهما .

تلك هى المادة « الخام » فى قصص العش ق العذرى . ظهرت لنا مرة فى صورة « قيس ولبنى » ، وثانية فى صورة « قيس وليلى » ، وثالثة فى صورة « جميل وبثينة » .... الخ .

ظهرت لنا هذه المادة تحت أسماء كثيرة . ولكن ـ للأسف ـ لم يكن مايميز القصة عن الأخرى واضحا ، فلم تتوسع احدى هذه القصص فى تفصيلات ، توضح شخصيتها ، وأنها كائن له سماته الخاصة وحيـــاته الخاصة .

تشابهت هذه القصص فى تلك « الخامة » ،ولم يكن الاختلاف بين قصة وأخرى واضحا . وهذا يدل على جدب القاص فى هذه الناحية ، فهو اكتفى بتلك « الخامة » مضيفا اليها شيئا يسيرا ، ثم يسميها « قصة المجنون » . أو يضيف اليها شيئا آخر ، ولكنه هين أيضا ، ثم يسميها قصة « قيس ولبنى » . وهكذا .. فكان القاص قد أعياه الجهد على أن يضيف أشياء كثيرة الى هذه « الخامة » ، وأن يضفى عليها من نفسه وفنه ، ما يجعلها فى النهاية خلقا جديدا ، يعجبك بذاته ، ويرضـيك بشخصيته ، وكان تلك « الخامة » قد أصبحت عند القصاص تقليدا ، لايتجاوزها الا تجاوزا يسيرا ضـئيلا . ويـدل أيضا على الأضرار التى جناها اختلاط مفاهيم التاريخ ، بحـدود الحكايات المسـلية فى ذهن الراوى أو القاص .

تختلف الحكاية فى قصص الحب الحسى ، عنها فى قصص العشق العذرى ، كما تختلف الحاضرة عن الباديه .

فهى فى قصص الحب الحسى ، قصيرة ، طائرة ، سريعة ، لاتكاد تجد الوقت لكى تمتد وتتسع ، وتقرأ مغامرات ابن أبى ربيعة فى موســم الحج ، فتراه ينتقل من مغامرة الى أخرى ، بسرعة وتعجل ، وكأنه يريد أن يستهلك فى يوم واحد ، كل لذائذ الدنيا ، ورغائب الحياة .

يسرع الى ذات عرق ليلتقى بالعراقيات ، ثم يجرى الى الجحفة ليلتقى بالمصريات والشاميات ، ويطير الى ذى الحليفة ليلتقى بالحجازيات ، ثم ينتقل الى يلملم ليلتقى باليمنيات . وفى كل مكان يمارس مغامراته ، ويتغزل بنسوة ويتغزلن به .

أما الحادثة فى قصص العشق العذرى ، فهى طويلة — نسبيا — ممتدة ، يريد أن يشغل بها الأعرابى وقته ، وأن يملأ فراغه ، ويريد أن يقطع بها ذلك اليوم الذى يقضيه ، وهو جالس بجوار خيمته ، تاركا غنمه ترعى الكلأ أو ترقد بجواره . ويريد أن يستعين بها على ذلك الليل الطويل ، الذى لايقصر منه مغنون أو تستهلكه حانات .

الحادثة فى قصص الحب الحسى ذات جو سعيد ، لاينغصه الحرمان ، أو تفسده التقاليد ، ولهذا يكثر فيها اللقاء بين المحبين ، وقد ينتهى الأمر بهما الى زواج ، ولكنه لاينتهى الى موت العاشقين . **وليس فيها ذلك النوع من العشق المسلسل ، الذى يكثر فيه الموت والانتحار .**

ولكنها فى قصص العشق العذرى ، ذات جو مظلم ، قد عكـرته التقاليد ، وسوده الحرمان ، ولذا يكثر فيه التشاؤم ، والنواح ، والهياج ، والاضطراب ، بل والجنون ، والموت ، والانتحار .

ولهذا اعتقد أن الحادثة فى قصص الحب الحسى ، سوية ، طبيعية ، تأتى من قوم لايفسدون حياتهم ، بهذا المزاج السوداوى المعتكر .

ولكنها فى قصص العشق العذرى ، قد تخرج عن السوية ، وتلحق بالمرض النفسى الذى يجر على صاحبه الاضطراب والهياج ، ويفسد عليه حياته ، فاذا به ينظر الى الدنيا ، نظرة تشاؤمية سوداء وقد ينتهى به الأمر الى « البيمارستان » أو الانتحار .

وقد تنبه القدماء أيضا الى أن هذا العشق المفرط ، الذى يكثر فيه العاشق من التفكير فى معشوقته ، والتعلق بها تعلقا شديدا ، سببه اختلال جسدى ، واضطراب فكرى « فالذى قال عليه الأطباء أنه مرض وسواسى ،

شبيه « بالماليخوليا ا» ، يجلبه المرء الى نفسه ، بتسليط فكره على استحسان بعض الصور والشمائل .. وسببه البدنى ارتفاع بخار ردىء عن منى محتقن ، ولذلك أكثر مايعترى العزاب » (٢٠٦) . أو هو يكون عند « احتراق الدم ، واستحالته الى السوداء . والتهاب الصفراء وانقلابها الى السوداء ، ومن طغيان السوداء فساد الفكر ، ومع فساد الفكر يكون نقصان العقل ، ورجاء مالا يكون ، وتمنى مالا يتم ، حتى يؤدى ذلك الى الجنون » (٢٠٧) .

قد لا أوافق القدماء على تلك الشروح الطبية . ولكنى معهم فى الفكرة العامة وهى أن العشق سببه اختلال الداخل ، واضطراب النفس .

ولكن من قال ان الفن ينشأ مع الصحة فقط ، وأن الابتكار يصدر عن الشخص السوى فقط ؟ .

ان الفن قد ينمو فى تربة غير عادية ، وقد يترعرع بين قوم « عصابيين » ، غير سويين ، وتاريخ الفنانين يدل على ذلك ، فكم من فنان انتهى به الأمر الى الجنون . وكم من فنان ختم حياته بالانتحار . وكم من فنان كان يحيا حياة كلها شذوذ وانحراف وخروج عن المألوف .

أخلص من هذا الى أن قصص العشق العذرى ، أكثر فنية ، وسموا ، وانسانية من قصص الحب الحسى .

قصص الحب الحسى ، حكايات طائرة ، فارغة ، لا تكاد تجد فيها صراعا يدور فى نفوس ابطالها ، أو عقبة قوية ، يحاولون تخطيها والتغلب عليها . أو عاطفة قوية تحترق فى داخلهم . وانما هى تعبر عن نزوة طارئة ، مما يشارك فيه البشر غيرهم من الموجودات الأخرى ، لاتجد فيها سموا انسانيا ، أو ارتفاعا عن مستوى الحياة العادية .

---

(٢٠٦) روضة المحبين ص ١٣٧
(٢٠٧) الزهرة ص ١٧

ولكن قصص العشق العذرى قد تطول ، وقد تقع فيها على صراع . تشفق من أجله على البطل ، أو تدهش لتلك العقبات التى تضعهـــا « السلطة العليا » أمام العاشقين . وتجد فيها العاطفة القوية التى تشب فى قلوبهم . وفيها سمو عن الغزائز ، وايمان بخيال المعشوقة ، وتشبث بهذا الخيـــال .

ان الباحث قد يجد فى قصص العشق العذرى مايرضيه ، وما يملأ عليه الورق الذى يريد أن يسوده . ويجد فيها نتائج يعتز بها ، ويحرص عليها ، ويتشوق الى أظهارها للناس ، فهى مجال خصب للدراســـة ، وتربة صالحة لان يحرثها الدارسون . بخلاف تلك الحكايـات الفـارغة التى تحدث بين الناس كل يوم . وتشبه أى نشاط انسانى لابد للحياة منه يجوع الجائع فيأكـل ثـم ينصرف الى أموره ، ويميل المحب فيشـــبع ميله ثم يضطرب فى حياتـه . دون أن يحدث من الامـــور مايستحق التخليد ، وماينبغى أن تحرص عليه الأجيال .

ان الأدب العربى من حقه أن يفخر بهذا التراث ، الذى احترق أصحابه وذوى أبطاله ، وتعرضوا لكثير من التيارات والانحرافات ، حتى استطاعوا أن يتركوا آدابا تفتخر بها الانسانية ، وتحرص عليها الأجيال .

العقبـــة :

تلعب المصاعب التى تقابلهـا شـخصيات القصة ، دورا كبيرا فى بنائها ، فهى تستطيع أن تكشف عن حظوظ هذه الشخصية ، وتتيح الفرصة للقاص ، لكى يرسم شخصياتها رسما ، أراد به أن تكون الشخصية قوية، صامدة ، تتحدى المصاعب ، وتقاوم العقبات ٠ أو رسما أراد به أن تكون الشخصية متهافتة خائرة ، تضعف أمام المصاعب ، وتنهار امام العقبات ٠

وخير الأدب هـــو الذى يغرس فى نفوسنا الاقـدام ، ومقاومة الصعاب ، وكفاح الحياة ، لا الأدب الذى يشجع فينا الميول الرخوة ، ويميت العزيمة المتطلعة ، ويخمد الطموح المتوثب ٠

واقرأ قصـــة « العجـوز والبحر » للكـاتب الأمـريكى « ارنست هيمنجواى » تر كيف تحدى هذا العجوز البحر ، والعواصف ، والأمطار وهو يدافع عن سمكته الكبيرة التى اصطادها ، ويذود عنها حيوانات البحر التى تريد أن تلتهمها ، وبعد ذلك استطاع أن يصل الى المرفأ ، ولكن السمكة الكبيرة كانت قد تحولت الى هيكل عظمى ، فوضعت فى المرفأ يتعجب الناس من حجمها ٠ ويذكرون عناء هذا العجوز ٠

والعقبة تساعد على اثراء القصة ، فهى منطلق ينطلق منه القاص لتجسيد ألوان من الصراع ، وابراز صور من احتدام العواطف ، فـله أن يتحدث عن الحالة النفسية والصراع الداخلى لبطل القصة ازاء هذه العقبة ، وله أن يتكلم عن صراع بين نفسيتين ٠ نفسية تحول بناء هـذه العقبة ، وتقويتها وترميمها لو أصابها شىء ، ونفسية تحاول هدم هذه العقبة ، وتحطيمها والقضاء عليها ٠

وللقاص أن ينتقى ما شاء من العقبات ، له أن يبنى عقبته من العادات والتقاليد ، وله أن يقيمها من النزاع بين الطبقات الاجتماعية ،

وله أن يجعلها في صورة نزاع بين أهـل الحبيبة وأهل الحبيب ، وله أن ينشئها من شخص داخـل القصـة له مصـلحة فى اقامة هـــذه العقبة وتشييدها .

ولكن كلما كانت العقبة من داخل القصة ، وتساعد على نموها ، وعلى اثرائها ، وعلى تعدد العلاقات فيها ، كان ذلك أجمل فنيا ، وأدل على قوة القصة .

وأبرز العقبات ظهورا فى موضوعنا ، تلك العقبة التى يقيمهـــا الرواة من العادات والتقاليد ، فبعد أن يشيع العشق ، يصطدم العاشق بتلك العقبة التقليدية التى تمنع أن يتزوج العاشق بامرأة كان قد تغزل بها .

ولكن لم تستغل هذه العقبة استغلالا حسنا ، ولم تساعد بعد ذلك على بناء القصة بناء فنيا . فكأنها شىء قد ظهر ، وقد سد الطريق أمام العاشق ، ليتفنن فى ايذائه ، واظهار آلامــه . وقد جعـل هذا الشىء العاشق يقف فى مكانه ، ويتحرك فى دائرته المحدودة ، لا يستطيع أن يتخطى هذا الشىء فينطلق الى عالم رحب . ولا أن هذا الشىء يحاوره ويداوره ، ويكون له مصلحة فى هذه المحاورة وتلك المداورة ، فيزيد هذا فى نماء القصة ، وبهذا أشبهت هذه العقبة شيئا خارجيا ، قد اجتـلب لغرض ولم يكن له بعد ذلك تاثيره فى انماء القصة وتعضيدها .

ولو أن كاتبا حديثا استطاع استغلال هذه العقبة ، فيخرج لنا قصة من قصص العادات والتقاليد ، ويختار لنا بطلا ثوريا ، يجمع النـاس حوله ، ويحارب العادات والتقاليد ، فينتصر عليها ، وينتقل الى عالم أرحب – لكان هذا جميلا وتقدميا ، ولكن هذا البطل الثائر ، سيكون بعيدا عن نفسية هؤلاء العذريين التى تميل الى الاستسلام والخنوع .

ابن ذريح استطاع أن يفلت من هذه العقبة ، وأتيح له قدر من السعادة بفضل تدخل الحسين رضى الله عنه ، ولكن لم يلبث أن قابلته عقبة من نوع آخر وهى الكراهية التقليدية بين الأم وزوج ابنها .

وقد بنيت هذه العقبة بناء لا بأس به ، فقيس وحيد لها ، وقد بلغ بها الكبر عتيا ، فهى تؤثره وتحبه . وهو أيضا كان بها برا وفيا لا ينشغل عنها . ولبنى امرأة غريبة أحبها قيس ، وقد مانعت الأم فى أن يتزوجها ، وأيضا أبوه قد مانع فى ذلك ، لولا أنهما خضعا لشفاعة الحسين .

وهذه العقبة كانت من داخل القصة ، وظلت حية متحركة ، تعمل عملها وتساعد فى بناء الصراع ونموه ، وأغنت القصة بشخصيات أخر ، لها علاقاتها ، ولها مصالحها المترابطة ، ولها نوازعها المتشابكة .

لم تقف أم قيس ساكنة جامدة ، بل راحت تعمل عملها ، وخاصة أن وحيدها قد شغل عنها ، وأن تلك الغريبة قد ملكت عليه وقته ، وشغلت عليه حياته ، فاشتعلت فيها نار هى مزيج من عواطف مختلفة : الغيرة ، والأثرة ، والحب لابنها ، والكراهية لتلك التى ما كانـوا يقبلونها ، لولا تدخل رجل من آل البيت .

تزن تلك العقبة فى أذن زوجها ، وتختار زنينا يؤثر على زوجها ، فهو رجل ملى ، قد بلغت به السن الحد الذى لا يستطيع معه أن ينجب ابنا آخر . ولبنى امرأة عقيم . فهل سيترك الدنيا بدون ذرية تحمـل اسمه ، وتخلد ذكراه .

وهنا يقع قيس بين شقى الرحا ، فالوالدان من جانب ، والزوجة من جانب ، يشده الواجب الى ناحية ، وتجذبه العاطفة الى ناحية أخرى .

يقترح مختلف الحلول ، فلم يوفق . يعرض على والده أن يتزوج أخرى غير أمه ، ولكن والده يخبره الا خير يرجى منه . فيقترح عليه أن يتركهم الى بلد آخر ، ويعتبرونه كانه قد مات فى مرضه هذا الذى مـر به أو أى حل آخر ، فأبوا الا أن يطلق الكعبية (٢٠٨) .

فهذه العقبة قد أوجدت فى القصـة شـيئا من الثـراء ، وظهر ـ

---

(٢٠٨) الأغانى ٩ / ١٨ « دار الكتب »

بسببها ـ موقف آخر ، كان يمكن ان يكون فيه الكثير من التيارات النفسية المتضاربة ، وهو موقف والد قيس ، فقد لامه أهل الحى على موقفه ، فجزع وندم (٢٠٩) • ولكن القصة لم تفصل هذا الموقف ، واكتفت بتلك الاشارةالهينة • وهذا الموقفشبيه بموقف والد ليلى ، فقدحزن ايضاواصابه الندم بعد وفاة المجنون (٢١٠) ولكن موقف ذريح كان يمكن أن يكون أكثر ثراء ، فهو قد قضى على سعادة وحيده بيديه ، وسبب له كل هذه الآلام • أما المهدى ، فمن الممكن أن يعلل ضميره ازاء موت المجنون ـ الذى لم يكن ابنه ـ بأنه قد فعل هذا خضوعا لعادات قومه وتقاليدهم •

وهناك عقبة أيضا يمكن أن تتيح للقصة شيئا من الثراء ، وأن تمدها بشخصيات أخر ، وأن تضيف اليها علاقات وتعقيدات جديدة • وهى عقبة الوشاة ، الذين لهم مصلحة فى تلك الوشاية ، كان يكون أحدهم محبا للفتاة ، ولكنها لا تحبه ، فيختلق أكذوبة ، ويزين للفتاة أن حبيبها الذى تخلص له يحب أخرى ، أو يدخل فى روع الفتى ان معشوقته تكرهه ولا تحبه • فينتج عن هذا ألوان من الصراع ومن تضارب العواطف •

ولكن للأسف ، لم تستغل هذه القصص هذه العقبة ، استغلالا كافيا • ومن النادر أن تجد القصة التى تهتم بهذه العقبة ، وتجعلها مصدرا للمصاعب والصراع •

وأود أن أضرب المثل بقصة رائعة لم تحدث فى العصر الأموى ، وان كان راويها ممن عاشوا فى هذا العصر ، ولكنها ـ على أى حال ـ كافية فى بيان الثراء ، الذى يمكن أن تجره هذه العقبة ، لو استغلت الاستغلال الحسن ، لأنها عقبة حية ، تظل تعمل عملها فى داخل القصة ، ولها مبرراتها الكافية ، التى تدفعها الى هذا الصنيع ، وأعنى

---

(٢٠٩) تزيين الأسواق ١ / ٥٣ •
(٢١٠) الأغانى ٢ / ١٦ « ساسى » •

بذلك قصة « مضاض ومى » فقد كان مضاض ومى ، يعيشان فى سعادة . فهما عاشقان ، ومنزلتهما الاجتماعية متكافئة . وقد وافق أهلهما على زواجهما . ولكن يدخل بينهما واش خبيث يقلب الأمور ، يحب « ميا » ولكنها لا تلتفت اليه . هذا الواشى يموه على « مى » أن مضاضا يحب أخرى ويضع الأشعار على لسان مضاض . واذا بتلك الوشاية تقلب السعادة الى مأساة تنتهى بنهاية سيئة للبطلين .وأما الواشى فحين انكشف أمره ، ابتلعته الأرض فلم يظهر (٢١١) .

وفى قصة ابن الطثرية مع وحشية عقبة من نوع جديد ، فيزيد فتى غزل جميل ، عشق وحشية وهى من قبيلة جرم . والغزل فى هذه القبيلة جائز . ونساؤها يرحبن بالغزليين ويدعوهم الى منازلهن ، فتتوقع أن تختفى تلك العقبة ، التى تأتى من خارج القصة ، لتسبب للعاشق المصاعب ، بحجة العادات والتقاليد . وبالفعل اختفت لتظهر مكانها عقبة من نوع جديد ، وهى الحروب التى كانت بين جرم وقشير ، وعدواتهما التى زادها اشتعالا كسب يزيد للرهان . فغضب جرم ، وقالوا : انها مكيدة ، وعادت بينهما الحروب ، بعد أن هدأت . وبهذا وجدت المصاعب بين العاشقين .

لو أتيح لهذه القصة عناية النقاد ، ولو نظر اليها الرواة نظرة فنية خالصة ، وتركوا التاريخ لأهل التاريخ ـ لكان من الجائز أن تتطور الى قصة خالدة ، ولكان من الجائز أن يعرف العالم قصة « يزيد ووحشية » ، قبل أن يعرف قصة « روميو وجولييت » التى استغل فيها شكسبير العداوة التى كانت بين قوم روميو وقوم جولييت ، استغلالا أنتج لنا هذه الرائعة الخالدة .

والفقر ـ أحيانا ـ يقف عقبة فى تلك القصص ، وهنا نرى سطوة المال وقوته ، وتغلبه على العواطف ، بل وعلى علاقة اللحم والدم .

ومن العجيب أن هذه العقبة ، كثيرا ما تظهر بين ابن العم وابنة

---

(٢١١) التيجان ص ١٨٨ .

عمة ، فقد يكون ابن العم فقيرا ، فيفضل عليه أهل العشيقة رجـــلا ثريا ، ويستطيع المال أن يتغلب على اعتبار القرابة ، مع أن هذه القرابة كانت ذات اعتبار فى ذلك المجتمع العربى القبلى .

يعشق عروة ابنة عمه عفراء ، ويعده عمه بالزواج ، ثم يخـرج عروة عسى أن يجمع مالا يستعين به على مهر المعشوقة ، وفى غيابه يدلف الى المدينة رجل من أهل الشام ثرى ، فيرى عفراء فتعجبه ، فيخطبها من أبيها فيمتنع فى أول الأمر ، ثم يعدل الى أمها ، الذى ينسيها رنين الذهب أى اعتبـار ، فتجيبه ، ثـم تلـح على الأب حتى يوافق (٢١٢) ، ومأساة العاشق والسبع ، كانت بسبب حيلولة العـم بين ابنته وبين ابن عمهـا لقله ذات يـده ، فزوجهـا رجـلا من بنى كلاب (٢١٣) . وقصة « الأعرابى الظريف » مثل واضح ، ولنترك يشرح مأساته بأسلوبه المؤثر . يشكو الى معاوية « اننى رجـل من بنى عذرة ، تزوجت ابنة عم لى ، وكانت لى صرمة من الابل وشويهـات فانفقت ذلك عليها ، فلما أصابتنى نائبات الزمان وحادثات الدهـر ، رغب عنى أبوها ... الخ » (٢١٤) .

تلك هى أشهر العقبات التى نصادفها فى قصص العشق ، وبعض هذه العقبات ينبع من ظروف الحياة العربية ، كالعقبة التى تكون بسبب العادات والتقاليد ، أو التى تكون بسبب الحروب بين القبائل ، ولكن من النادر جدا أن تجد عقبة ترجع الى التفاوت بين الطبقات ، كان يحب الشريف جارية ، أو تحب المرأة العلية من هو أقل منها طبقة ، ثم تحول تلك الطبقية بين العاشقين . بل بالعكس نجد عشقا من هـذا النوع ، كعشق يزيد لحبابة ، أو عشـق ابنة عبد الملك أسيرا لأبيهـا ، وهذا يؤكد ما سبق أن ذكرته من أن هذه القصص قد حققت اشـتراكية

---

(٢١٢) الأغانى ١ / ١٥٦ « ساسى » .
(٢١٣) تزيين الأسواق ١ / ١٢٩ والموشى ١ / ٨٣ .
(٢١٤) مصارع العشاق ص ١٧٨ .

تامة ، والغت الفروق بين الطبقات ، قبل أن تلغيها الحياة الواقعية ، ويظهر ان العواطف بين الناس فيها شىء من الجبرية ، على الأقل فى تلك الفترة المبكرة ، وبين هؤلاء القوم ، وفى تلك القصص الأموية ٠

والعقبة فى تلك القصص عقبة كؤود ، لا يستطاع زحزحتها ، فالعادات والتقاليد تظل تحول بين العاشق والمعشوقة ، والحروب تظل تعمل عملها ، ولايمكن التغلب عليها ، أو الصلح بين القبيلتين ٠ والصراع بين الأم والزوجة ، لا يستطيع قيس أن يتغلب عليه ، وأن يعيد الوئام بينهما ـ ولو كان شكليا ـ كما يحدث فى كثير من الأسر ٠ والواشى لا يمكن ابعاده أو كشف مؤامراته الا بعد أن تقع المأساة ٠ حتى عقبة الفقر ، يبدو للعشق أنه قد تغلب عليها ٠ وأنه تحصل على المال بما يحقق له مناه ، ولكن الأقدار تكون أقوى منه ، فهناك من سبقه وأغرى أهل الفتاة ، فستطاع أن يحصل عليها فى غيابه ، ولهذا انطبع كثير من هذه القصص ، بطابع المأساة التى تنتهى بشقاء البطل واخفاقه أمام العقبات ٠

قليل جدا من يتيح له الحظ فرصة سعيدة ، فيتغلب على عقباته ، كما فى قصة « الأعرابى الظريف » الذى ساعده الحظ ، فظفر بمعشوقته ، وظفرت به ، وانتهت قصتهما نهاية سعيدة ضحك لها معاوية (٢١٥) ٠

ويختلف حظوظ العاشق من العقبات ، فبعض العشاق يتعرض لعقبات اقوى وأكثر ، والبعض الآخر قد تكون عقباته هينة ، أو قليلة نسبيا ٠

ففى قصص الحب الحسى ، نجد العقبات التى يتعرض لها المحب هينة ، لا تحتاج منه الى صراع هائل ، ولا تطبع حياته بطابع المأساة ٠

---

(٢١٥) مصارع العشاق ص ١٧٨ ٠

وابن ذريح تعرض لشقاء أقل مما تعرض له ابن الملوح . ولهذا نجد فى قصته فترة أتيح له فيها ان ينهل من السعادة . أما المجنون فقد وقفت عقبته دون أن تتيح له ولو قدرا يسيرا من الراحة ، وفشلت كل الجهود فى زلزلتها والتغلب عليها . وقد لعبت الأقدار بعواطفه لعبا مؤثرا . فكم من مرة يبدو أن قيسا فى سبيله الى التغلب على عقبته ، فينعم بشىء من الراحة ، واذا بهذا الامل سراب ، فيرتد اكثر انفعالا واضطرابا ، رآه مرة عمر بن عبد الرحمن بن عوف ، فاعجب به ، وسأله أن يخرج معه فأجاب ونشط ، ولكن لما علم أن السلطان قد أهدر دمه ، ، أضرب عما وعده ، وأمر له بقلائص . ولكن قيسا غضب ورد عليه قلائصه (٢١٦)

وفى السنة الثانية جاء نوفل بن مساحق ، فأشفق على حال المجنون ، واعطاه عهدا أن يزوجه من ليلى ، فهيىء للمجنون انه قد أصبح قريبا من امله ، وراح معه « كأصح أصحابه يحدثه وينشده » ولكن انظر الى خبث الأقدار . كيف تلعب بعواطفه ، فقد بلغ ذلك رهط ليلى ، فتلقوه بالسلاح ، « وقلوا له : يابن مساحق ، لا والله لايدخل المجنون منازلنا أبدا أو يموت » فاقبل بهم وأدبر ، فأبوا . فقال للمجنون : أنصرف . فأصيب بخيبة وجعل ينشد الأشعار معبرا عن خيبته ، فقال :

أياويح من أمسى ، تحلس عقله ... فاصبح مذهوبا بـه كل مذهب

خليـا من الخـلان الا معـذرا ... يضاحكنى من كان يهوى تجنبى (٢١٧)

قيس – اذن – لعبت به الأقدار لعبا مؤثرا ، وجعلت تترواح به بين الأمل واليأس ، تدنيه مرة الى أمله ، وتزين له أنه قد أصبح قريبا منه ، ولكنها تدنيه ، لتبعده ، وتهز نفسه . وربما كان لهذا التراوح وهذا التردد ، أثره فى افساد نفسيته ، واضطرابها ، ودفعها الى الهيام والجنون .

---

(٢١٦) الاغانى ٢ / ١٦ « دار الكتب » .
(٢١٧) الأغانى ٢ / ١٧ « درا الكتب » .

الصـــراع :

الصراع من اهم العناصر التى تكسب القصة أو المسرحية ، حيــوية ونشاطا ، فهو يستغله الفنان فى الكشف عن نفسية الشخصية ، وتنميتها ، وتطويرها ، ولجذب القــارىء أو السامــع وشده الى أحداث القصـــة ومتابعتها ، ولأحداث مؤثر فى القصة يكسبها حياة وحركة ·

والصراع قد يكون بين جبهتين متعارضتين ، كل جبهة تتعصب لرأى ، وتدافع عنه ، وتحاول أن تتغلب على الجبهة الأخرى · وقــد يكون بين تيارين فى داخل نفسية واحدة ، فتيار يحاول أن يشـــد الشخصية الى جانبه ، والآخر يريد أن يجذبها الى ناحيته · وقد يكون التياران عبارة عن عاطفتين متصارعتين ، أو عبارة عن عاطفة تتصارع مع واجب يحكم به العقل ·

وفى الأدب الكلاسيكى الذى غلب على عصر النهضة ، كان الصراع غالبا ماينتهى بغلبة الواجب ، وانتصار الأخلاق ، والقيم المتعـــارف عليها · ثم انعكس الأمر فى الأدب الرومانتيكى الذى أعقبه ، والذى كان يمجد العاطفة ، ويعتبرها أرقى من العقل وتحكماته ·

وقصص العشق لم تحرم من عنصر الصراع ، الذى يكسبها حيوية الى حد ما ، ومن خير الأمثلة التى أستطيع أن أسوقها ، قصة « قيس ولبنى » ، فهى من القصص العربية الغنية بالصراع ، فكل شـخصية من شخصياتها الرئيسية ، تكاد لاتخلو من صراع داخلى ، وقد كانت فيها جبهتان متعارضتان مما أكسب القصة حياة وحيوية ، فهناك صراع فى نفس قيس بين عاطفته وحبه للبنى ، وبين واجبه نحو أمه وبره بها · وهناك صراع بين الأم وزوج ابنها · وهناك صراع فى نفس ذريح ، الذى ندم على فعله ، حين رأى ما حل بوحيده بسبب الحاحه عليه أن يطلق لبنى ·

وحتى فى قصص ابن أبى ربيعة ، قـد تلتقى بنماذج من الصراع ،

فيبدو صراع فى نفس فاطمة بنت محمد بن الأشعث ، فقد وقع فى قلبها عمر ، ووقعت فى قلبه . ولما جاءها خاطبا ، وارسل الى امها بخمسمائة دينار ، أبت أمها وحجبته ، وقالت للرسول : لاتعود الينا ، وكان الفتاة غمها ذلك ، فقالت لها امها : قد قتلك الوجد فتزوجيه (٢١٨) . والعراقية التى أحبها عمر ، فخطبها ، ولكنها قالت له : « ان هذا لايصلح هاهنا ، ولكن ان جئتنى الى بلدى ، وخطبتنى الى أهلى تزوجتك » فتبعها الى العراق ، وجعل ينجزها وعدها . ولكنها كانت مترددة محتارة ، بسبب صراع يدور فى داخلها ، فهى تميل الى عمر . ولكنها من ناحية أخرى كانت – كما تعبر عن نفسها – « متزوجة ابن عم لها ، وولدت منـــه أولادا ، ثم مات ، وأوصى بهم وبماله اليها ، مالم تتزوج ، وانها تخاف فرقة أولادها وزوال النعمة » (٢١٩) .

وقصص العشق فى الفصل بين التيارين المتصارعين ، تختلف عن القصص الرومانتيكية وتتشابه مع القصص الكلاسيكية ، فهى – فى أكثر الحالات – تنهى الصراع بانتصار الواجب ، وغلبة العادات والتقاليد ، فابن ذريح – بالرغم من حبه للبنى ، الذى أذاقه صراعا عنيفا وحادا – ينهى الأمـر بطـاعة والديه ، والسـماع لهمـــا ، فيطلق لبنى . وفاطمة بنت الأشعث ترد على أمها ، حين أشفقت عليها من الصراع ، وعرضت عليها أن تتزوج عمر ، فتقول لها : « لا والله لايتحدث أهل العـــراق عنى ، انى جئت ابن أبى ربيعة أخطبه ، ولكن ان أتانى الى العراق تزوجته » والعراقية تنتصر لأولادهـا وتحرص على وصية زوجهـــا ، فتعتذر لعمر ، وتبعث اليه بخمسة آلاف درهم ، فيردها عليها ويرحل الى مكة . وابن ام الحكم حين اشتكاه الأعرابى الى معاوية ، فأرسل اليه معاوية كتابا غليظا ، يأمره فيه بأن يطلق الأعـرابية الحسـناء « تنفس

---

(٢١٨) الاغنى ١ / ٨٩ « دار الكتب »

(٢١٩) المرجع السابق ١ / ١٧٢

الصعداء ، وقال : وددت أن أمير المؤمنين خلى بينى وبينها سنة ، ثـم عرضنى على السيف ، فجعل يؤامر نفسه فى طلاقها ، ولايقدر ، فلمـا ازعجه الوفد طلقها » (٢٢٠) • ويعبر ابن قيم الجوزية عن هذا الموقف تعبيرا آخر ، فحين ورد عليه كتاب معاوية « جعل يقرؤه ويردده ، ثم قام ودخل على سعدى ، وهوباك ، فلما نظرت اليه قالت له : سيدى ، ما الذى يبكيك ؟ قال : كتاب أمير المؤمنين ورد على فى أمرك ، يأمرنى فيه أن اطلقـك ، وأجهزك وأبعث بـك اليـه • وكنت أود أن يتركنى معك حولين ، ثم يقتلنى ، لكان ذلك أحب الى ، فطلقها ••• » (٢٢١)

وهذا الصنيع تغليب للجانب الخلقى عند العرب ، فالعرب كانت لهم أخلاق وعادات يؤثرونها ، ويكبتون لأجلها هواهم ، واذا رجعـت الى الكتب التى فلسفت جانب العاطفة العربية ، فانك واجد فيها أبوابا عديدة تتحدث عن قوة الارادة ، وقمع الهوى والشهوات وتحكيم العقل • وخذ مثلا « ذم الهوى » لابن الجوزى ، فالباب الأول عقده فى ذكـر العقل ، وفضله وذكر ماهيته • والباب الثانى فى ذم الهوى والشهوات • والباب الثالث فى ذكر مجاهدة النفس ومحاسبتها وتوبيخها • والباب الرابع فى مدح الصبر والحث عليه • والباب الخامس فى حراسة القلب من التعرض للشواغل والفتن ••••• الخ •

ولكن القاص لم يستغل مواقف الصراع فى هذه القصص استغلالا كافيا ، ولم يتخذها نقطة انطلاق : تنمى القصة ، وتزيد من حيويتها ، بل اكتفى بتسجيل هذا الصراع باشارات مقتضبة ، وتلميحات خفيفة ، فقد يمر بموقف ثرى ، وتحس أن الأمر يحتاج الى افاضة وشرح ، ولكن القاص يمر به مرورا سريعا ، مسجلا له فى جملة أو جملتين • وقـد تشاهد دمعة تترقرق فى عين عاشق ، وتحس أنها تخفى وراءها تيـارا

---

(٢٢٠) مصارع العشاق ص ١٧٨
(٢٢١) اخبار النساء ص ٧

عنيفا . ولكن القاص يسجل الدمعة ، ثم يمر ، لا يتبطن ما تحتها ، ولا يعنيه ما وراءها .

ومن العجيب ن القصص الشعبية الأخرى ، كقصة عنترة ، أو قصة سيف ابن ذى يزن ، تجد فيها الصراع أكثر ثراء وتفصيلا . وربما كان السبب أن قصة عنترة مثلا كان يضمها كتاب واحد ، يقتصر عليها ويتوسع فى جزئياتها وتفصيلاتها ، أما قصص العشق ، فانها متفرقة فى ثنايا الكتب ، ومختلطة بالأخبار التاريخية والروايات الأخرى . ولهذا كانت فى الغالب قصيرة ، تشبه خبرا تاريخيا يأتى فى ثنايا الكتاب ، ثم ينصرف عنه الكاتب الى غيره .

ثم ان الحدود الدقيقة الفاصلة بين التاريخ والقصة ، لم تكن واضحة فى ذهن الراوى لقصص العشق . بخلاف قصة عنترة وما شابهها ، فانه يبدو لى أن الراوى أو المنشد ، كان على احساس بأن هذه القصص يقصد بها امتاع العامة وتشويقهم ، وأنه فى حل من ذكر الغرائب والخوارق ، التى يحرص عليها العامة ، وينجذبون اليها . ان قصة عنترةمثلا اتضحت فيها الحدود الفاصلة بين التاريخ والتسلية ، ان التاريخ يحدثنا فقط عن نسبه ، وعن موقف أبيه منه ، ويذكر شيئا من شعره ، ويستدل بقول النبى عليه السلام « ما وصف لى اعرابى قط ، فأحببت أن أراه ، الا عنترة » ثم ينهى ذلك بخبر مقتله (٢٢٢) . وهذه الأخبار لا تكاد تذكر الى جانب تلك القصة الشعبية الطويلة ، التى بلغت فى احدى طبعاتها (المطبعة الأدبية ببيروت ١٨٨٣ - ١٨٨٥م) خمسة وخمسين كتابا تضمها ستة مجلدات . وفى احدى الطبعات الأخرى (القاهرة ١٨٨٨ - ١٨٩٣ م) بلغت اثنين وثلاثين جزءا . فعنترة بعيد فى تلك القصة الطويلة عن الأخبار التاريخية ، حتى انك تجد أحيانا صورة عنترة ، أقرب الى بطل اسلامى منها الى بطل عاش فى عصر

---

(٢٢٢) انظر الاغانى ٨ / ٢٣٧ ٢٤٦ دار الكتب .

قبل عصر الرسول عليه السلام ، ولا يتاح لك أن تجد هذه الفواصل فى قصص العشق فكلها مطروحة فى كتب الأدب ، يختلط فيها التـــاريخ بالخيال ، اختلاطا لا يبين عن شخصية لكل منهما . حتى ان الكتـاب المستقل الذى جمع أخبار عروة بن حزام ، فيما لا يزيد عن احـــدى عشرة صفحة ، لا يختلف فيما ذكره ، عما رواه صاحب الأغانى .

وقصص العشق فى البادية أكثر احتفاء بالصراع ، من قصص الحب التى تحـدث فى الحاضرة ، فانك لاتجد قصـة يكون بطلهـا عمر ، أو العرجى ، ثم يتوافر لها من الصراع مثل ما توافر لقصة ابن ذريح ، ولا تجد محبا فى الحاضرة يمر بأزمة نفسية حادة ، كتلك الأزمة التى مر بها المجنون .

وتعليل ذلك يسير يرجع الى طبيعة العشق فى كل . والعشق فى البادية ـ كما عرفنا ـ صادفته عقبات كثيرة ، أتاحت للصراع أن ينمو فى نفس ذلك البدوى . أما الحب فى الحضر ، فهو حب لاه عابث ، لا يجد صاحبه الوقت الذى يهيىء له فرصة الصراع النفسى ، ولايصادف الحرمان الذى يشعل الصراع ويلهبه .

وألاحظ أن قصص العشق تعتنى باظهار الصراع فى نفسية العاشق ، أكثر من اعتنائها بالكشف عن الصراع فى نفسية المعشوقة ، فالمجنـون يتحدث الأغانى كثيرا عن الأزمات النفسية التى يمر بها ، والغشيان الذى يعتريه ، ثم لايهتم كثيرا بمشاعر ليلى وأحاسيسها ، وقيس ابن ذريح تتحدث الكتب عن الصراع الذى يشب فى داخله مدة عشر سنين على احدى الروايات ، ولاتشير الى لبنى الا اشارات عابرة ، كأن تشجع قيسا على رفضه لأوامر والديه ، وتقول له : لاتطع أباك ، فتهلك ، وتهلكنى . وبعد الطلاق تشير الكتب الى الأزمات العنيفة التى كـــان يمر بها قيس ، اثر رحيل لبنى ، أو اثر رؤيته غرابا ، أو أثر رؤيته خف

بعيرها ، أو اثر نظرة الى آثارها ، أو اثر انفراده بالليل ، أو زيارة الطبيب له ، او بعد لوم أبيه له .. الخ (٢٢٣) .

وتحترم تلك الكتب أيضا علاقة الزوجية بين المعشوقة ، وبين الزوج الذى ارتضاه أهلها بدلا من عاشقها ، فلا تسرف فى الحديث عن مشاعر الزوجة تجاه عاشقها ، الذى حالت التقاليد بينهما ولا تكاد تشير الى هذه العاطفة ، الا حين ينعى العاشق لها ناع ، حينئذ تستأذن من زوجها وتجمع الحى ، وتندب العاشق الذى غالبا مايكون ابن عمها .

وهذا المسلك يتفق مع نفسية العربية الحرة « فالعادة عند العرب أن الشاعر هو المتغزل المتماوت ، والعادة عند العجم ن يجعلوا المرأة هى الطالبة ، والراغبة المخاطبة » (٢٢٤) .

وربما كان هذا هو السبب الذى جعل شوقى ، لم يسرف فى الكشف عن الصراع فى داخل نفسية « ليلى » فى روايته « مجنون ليلى » . وربما يقوم هذا كحجة للدفاع عنه ، أمام من عاب عليه ، بأنه أظهر الصراع فى نفسية « ليلى » قصيرا ، وكان ينبغى أن يطيل ، وأن يستغل هذا الموقف أحسن استغلال .

وقد كان الدكتور نعيم حسن اليافى ، موفقا فى نقده لقصة « حاذر وليلى ، للأستاذ سليم البستانى ، التى تدور حوادثها فى العصر الجاهلى ، أثناء حرب البسوس ، فقد كان موقف حاذر سلبيا للغاية ، أما موقف ليلى ، فقد كان ايجابيا ، فهى التى تتجشم المشاق ، وهى التى تعرض على حبيبها فكرة الهرب ... الخ (٢٢٥) . وهذا المسلك ، كما قلت ، لاترتضيه العربية الحرة ، ولايرضى عنه العربى الأصيل . وقد كان خير للقاص مادام يريد الحديث بمثل هذه الطريقة ، أن يرحل بحوادث قصته الى أرض غير عربية ، وأن يختار أقليما أوربيا ، أو بتعبير أقرب الى تعبير ابن رشيق « أقليما أعجميا » .

---

(٢٢٣) الاغانى ٩ / ١٨١ « دار الكتب » .
(٢٢٤) لابن رشيق ٢ / ١٤٨ .
(٢٢٥) القصة القصيرة فى الادب الشامى الحديث ص ٤٩ .

التشـــويق :

القاص الذكى يلجأ الى التشويق ، الذى يضمن له كسب القارىء ، وعدم انصرافه عن بضاعته ، ويتخذ لذلك وسائل عديدة ، فأحيانا يبدأ من نهاية القصة ، ومرة يخبىء بعض أوراقه ، ولايظهر كل مايريـــد للقارىء ، فيجعله يتشوق الى معرفة ذلك الشىء المجهول ، ومحـــاولة الكشف عنه ، وثالثة يشير اشارات تمهيدية ، قبل الكشف عن شـــخصية من شخصياته ، مما يجعل القارىء يتشوق اليها ، وينتظر ظهورها ، ورابعة ينثر فى خلال قصته أمورا تثير الضحك ، أو وسائل يرتاح اليها القارىء ... الخ .

ولكن قصص العشق تلجأ الى التصريح باشياء ينبغى اخفاؤها ، وكأن رواتها يفترضون فى السامع الغبـــاء ، فـــلا يلمحون لـــه بشىء ، ويتركون محاولة فهمه له ، ولا يحذفون شيئا اعتمادا على ذكاء السامع وتنبهه له .

ولو رجعت الى أية قصة من هذا النوع ، لهالك التصريح فيها بكل شىء ، والاكثار من « أى » ، ومن تدخل الراوى بالشرح ، والاشارات ، وبيان المقصـــود . واذا كـــان لابـــد من المثـــل ، فاننى اذكر قصـــه « ابن الطثرية » فحين أشرف به عشق وحشية على الموت ، توسل الى ابن عمه ان يحمله اليهـــا ، فصـــارا الى حى وحشـــية ، وجعـــل خليفة ابن عمه ، يسأل عن راعى وحشية ، حتى لقيه ، فسأله عن حـــال وحشية ، فقال الغلام : « هى والله بشر ، لاحفظ الله بنى قشير ، ولايوما رأيناهم فيه ، فما زالت عليلة منذ رأيناهم » وكان من الممكن أن يكتفى الراوى بهذا الكلام ، معتمدا على ذكاء السامع ، الذى يستطيع أن يفهم من كلام الراعى ، ومن سياق القصة ، أن وحشية تحب ابن الطثرية أيضا ، وأنها مريضة بسبب هذا الحب ، ولكن الراوى يأبى الا أن يشك فى ذكاء السامع ، فيصرح بهذه القضية ، ويقول : « وكان بها طرف

مما بابن الطثرية » (٢٢٦) .

وبالاضافة الى السبب البدهى ، وهو أن العقلية القديمة ، غير العقلية المعاصرة ، التى تفهم بالتلميح ، وتكتفى بالاشارة . وتـــدرك ما وراء السطور . بالاضافة الى هذا فان القصص المعاصر أنشىء ليقرأ . أما القصص العربى القديم ، فقـد ألف ـ فى مبـدأ الأمر ـ ليسـمع ، والقارىء يميل الى التركيز ، وعصر الذهن ، وفى استطاعته اعـــادة الجملة وتقليبها مرة واثنين ، حتى يفهمها . أما السامع ، فان المتكلم يفصل له ، ويشرح حتى يفهم عنه مايريد أن يقوله (٢٢٧) .

ومع ذلك ، فان هذه القصص لاتخلو من وسائل تشويقية ، ساذجة وعفـوية . فجميل يطلب منه عبد الملك أن يحدثـه ببعض أحـــاديث عذرة ، فانهم أصحاب أدب وغزل ، فيقص عليه قصة الأعرابى مع السبع الذى افترس معشوقته ، ولم يهجم على القصة هجوما . بل مهد لهـــا بتلك المقدمة المشوقة « نعم ، يا أمير المؤمنين ، ان آل بثينة انتجعوا الحى ، وقطعوا بلد آخر ، فخرجت أريدهم ، فغلطت الطريق ، وجننى الليل ، ولاحت لى نار ، فقصدتها ، حتى دنوت ، ووردت على راع فى

---

(٢٢٦) الاغانى ٨ / ١٠١ « دار الكتب » .

(٢٢٧) وقد أدرك مفسرو القرآن هذا الميل الذى تربى عند العرب ، فكان اذا مرت بهم آيات فى قصة قرآنية ، وحذفت فيها ألفاظ ، اعتمادا على أنهـــا تـــدرك بســـهولة . فـــان المفسر مثـلا يذكـــر ان الفـــاء حـــرف عطـــف ، وأن المعطـــوف عليـــه أو المعطوفـــات عليها قد حذفت ، ثم يأخذ فى تقديرها ، وأنها كذا وكذا . فمثلا فى قصة موسى مع قومه يقول تعـالى « واذا استسقى موسى لقومه ، فقلنا اضرب بعصاك الحجر ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا » (البقرة من الآيـة ٦٠) وكان رائعا من القرآن أن يحذف هنا شيئا ، اعتمادا على أنـــه مما يدرك بسهولة ، ولكن أحد المفسرين ، بدلا من أن يبين قيمة الحذف وبلاغته ، يقول : « الفاء متعلقة بمحذوف ، أى فضرب ، فانفجرت ، أى ســالت بكثرة ، أو فان ضربت فقـد انفجرت » (تفسـير النسـفى ١ / ٥٤) .

أصل جبل ، قد ألجأ غنمه الى كهف فى الجبل ، فسلمت ، فرد على السلام ، وقال : أحسبك قد ضللت الطريق ، قلت : قد كان ذلك فأرشدنيه . قال : بل أنزل حتى تريح ظهرك ، وتبيت ليلتك ، فاذا أصبحت دللتك على الطريق ، فنزلت ، فرحب بى وأكرمنى ، وعمد الى شاة ، فذبحها ، وأجج نارا ، وجعل يشوى ، ويلقى بين يدى ، ويحدثنى فى خلال ذلك ، ثم قام بازار كان معه ، فقطع به جانب الخباء ، ومهد لى جانبا ، خاليا ، فلما كان فى الليل سمعته يبكى ، ويشكو الى شخص كان معه ، فأرقت له ليلتى » ... (٢٢٨)

فهذه المقدمة تثير الشوق الى القصة ، هذا الأعرابى الذى انتحى مكانا خليا فى الصحراء ، وتلك النار التى يؤججها ، واللحم الذى يشويه ، ويلقيه الى ضيفه ، والحديث الذى يتخلل ذلك ، والجانب الخالى الذى مهده ، وبكاؤه فى الليل ، وشكواه الى شخص كان معه ، كل هذا يستجمع الحواس ، ويثير التلهف لاستماع قصته ، واكتشاف أمره ، مما جعل جميلا يسأله بعد تلك المقدمة : ياهذا ، وماالذى أحلك هذا الموضع ؟ .

وحين ذكر صاحب المصارع هذه القصة ، عن أحمد بن عمر الزهرى عن عمه عن أبيه ، ذكرها بطريقة فيها تشويق ، فالأعرابى لم يقص أمره ، ويكشف عن حاله من أوله الى منتهاه ، كما فعل أمام سؤال جميل ، بل ارجأ أمره الى نهاية القصة ، فهذا الرجل الذى خرج فى نشدان ضالته ، يلتقى بهذا الأعرابى فيستضيفه ، وفى ليلة يكون الضيف بين النائم واليقظان ، اذا بفتاة جميلة تقبل وتحادث الأعرابى ، ويحادثها حتى مطلع الفجر . وفى ليلة أخرى يكون الضيف فيها بين النائم واليقظان ، اذا بالأعرابى يقلق ويذهب ويجىء وينشد الأشعار .

(٢٢٨) الموشى ١ / ٨٣ وقد وردت مع تغيرات لفظية يسيرة فى ذم الهوى ص ٥٧٦ ، وأيضا فى اخبار النساء ص ٣٣

ثم ينبه الضيف بانه يخشى على خليلته من أسد فى غيضة قريبة ، ثم يترك صاحبه ويجىء بعد فترة قصيرة ، حاملا حبيبته وقد أصابها السبع « ثم يأخذ سيفه ويجىء بالأسد مقتولا وهو ينشد الأشعار ، ثم يقص بعد ذلك أمره ، ويكشف عن قصته (٢٢٩) .

والقصة التى قصها ابن أبى ربيعة ، فى حلقة تذاكر فيها العذريين وعشقهم وصبابتهم (٢٣٠) ، ذكرها بأسلوب يشوق الى البطلة ، فابو مسهر يجلس الى دوحة عظيمة ، متبردا ، ويشد فرسه الى غصن من اغصانها ، واذا بغبار قد سطع ، ثم تبين له فارس ، يطرد مسحلا وآتانا . ولما دنا منه ، اذا عليه درع صفر ، وعمامة خز سوداء ، واذا هو تنال فروع شعره كتفيه ، ثم ما لبث أن لحق الفارس بالمسحل ، فصرعه ، ثم ثنى طعنة للأتان ، فصرعها ، ثم اقبل وهو ينشد الأشعار ، فجلس مع أبى مسهر ، وجعل يحدثه حديثا ، كأنه جنى النحل ، ثم حك بالسوط على ثنيتيه ، فبدا ظله بينهما ثم رفع عقيرته ، وجعل يغنى ، ثم شرب الشراب مع أبى مسهر ، حتى بدت عيناه ، كأنهما عينا مهاة قد اضلت ولدا أو ذعرها قانص ، ثم جر العمامة عن رأسه فبدا كأنه الدينار المنقوش ، الى أن قام الى فرسه ، فبرقت لأبى مسهر بارقة الدرع ، واذا بثدى كأنه حق ، وهنا يتكشف له أن هذا الفارس ماهو الا امرأة جميلة .

وشبيه بهذا قصة عمر مع صاحبة المضرب ، فبينا كان فى طريقه اذ اعترضته جارية ، « كأنهما دمية فى صفاء اللجين ، فى ثوب قصب ، كقضيب على كثيب » . قالت له : « أنت عمر بن أبى ربيعة ، فتى قريش وشاعرها ؟ .. فهل لك فى أن أريك أحسن الناس وجها .. ؟ ثم استخرجت معجرا من قصب ، فعجرته به ، وقادته ، حتى اذا فتحت

---

(٢٢٩) مصارع العشاق ص ٢٢٩ .
(٢٣٠) المرجع السابق ص ٥٠ وايضا فى اخبار النساء ص ١٢٠ .

العجارة عن عينيه ، اذا بمضرب ، ديباج أبيض ، مزرر بحمرة ، مفروش بوشى كوفى . وفى المضرب ستارة مضروبة من الديباج الاحمر ، عليها تماثيل ذهب ، ومن ورائها وجه ما أحسب أن الشمس وقعت على مثله حسنا وجمالا ، فقامت كالخجلة ، وقعدت قبالتى ، وسلمت على ، فخيل الى أن الشمس تطلع من جبينها ، وتغرب فى شقائق خدها » كما يقول ابن أبى ربيعة ، قالت له الحسناء : « أنت عمر بن أبى ربيعة فتى قريش وشاعرها ؟ » ثم أنشدته من شعره فى النساء . ثم قالت : « ياعدوا الله ، يافاضح الحرائر أنت قد فشا شعرك بالحجاز ، وأنشده الخليفة والامراء ، ولم يكن فى جارية بعينها ، ياجوارى أخرجنه » . ثم جاءته فى اليوم الثانى ... « فلما توسطت المضرب ، فتحت العصابة عن وجهى ، فاذا انا بمضرب ديباج أحمر مدثر ببياض ، مفروش بفرش أرمنى ، فقعدت على نمرقة من تلك النمارق فاذا انا بالشمس الضاحية قد اقبلت من وراء الستر ، تتمايل من غير سكر ، فقعدت كالخجلة ، فسلمت على وقالت : انت عمر بن أبى ربيعة فتى قريش وشاعرها .. ياعدو الله ، انت قد فشا شعرك بالحجاز ، ورواه الخليفة ، وتزعم أنه لم يكن فى جارية بعينها ، ياجوارى ارفعنه » .. ولما كان اليوم الثالث ، قادته الجارية معتجرا الى المضرب . يقول عمر : « فلما توسطته ، فتحت العصابة عن عينى ، فاذا انا فى مضرب ديباج أخضر ، مدثر بحمرة ، مفروش بخز أحمر ، واذا أنا بالشمس الضاحية ، وقد أقبلت من وراء الستر ، كحور الجنان ، فسلمت على وقالت : أنت عمر فتى قريش وشاعرها » ثم انشدته من شعره ، وقالت له : « ياعدو الله ، انت الذى فضحتها ونفسك ، وجهى من وجهك حرام ، ان عدت الى ، ياجوارى أخرجنه » . وبعد تلك المقدمة المشوقة تنكشف لنا شخصية الحسناء الظريفة ، صاحبه المضرب الفخم ، فاذا هى رملة أخت عبد الملك ابن مروان (٢٣١) .

---

(٢٣١) انظر القصة كاملة فى المحاسن والاضداد ص ٢٢٢ .

وقصة عمر مع هند بنت الحارث المرية ، ذكر لها صاحب الأغانى تمهيدا مشوقا ، فقد روى عثمان بن ابراهيم الخاطبى ، قال : « أتيت عمر بن أبى ربيعة ، بعد ان نسك بسنين ، وهو فى مجلس قومــــه من بنى مخزوم ، فانتظرت حتى تفرق الناس ، ثم دنوت منه ، ومعى صاحب لى ظريف وكان قد قال لى : تعال حتى نهيجه على ذكر الغزل ، فننظر هل بقى فى نفسه منه شىء ، فقال له صاحبى : ياأبا الخطاب ، لقد أحسن العذرى وأجاد فيما قال ، ثم جعل ينشد له شعرا ولشــــعراء عذريين ، مما جعل عمر يقول : « وابيك . لقد أحسن وأجاد وما أساء . ولقد هيجتما على ساكنا ، وذكرتمانى ما كان عنى غائبا ، ولأحدثكما حديثا حلوا » وجعل بعد تلك المقدمة يقص حديثه الحلو مع هند (٢٣٢)

وقصة الأعرابى الذى اغتصب مروان بن الحكم امراته ، ذكرت لها مقدمة ترفع من أهميتها وتثير الشوق الى معرفتها ، فقد كـان معاوية ذات يوم بمجلس له بدمشق ، على قارعة الطريق ، وكان المجلس مفتح الجوانب لدخول النسيم ، فبينما هو على فراشه وأهل مملكته ، اذ نظر الى رجل يمشى نحوه ، وهو يسرع فى مشيته راجلا حافيا وكان ذلك اليوم شديد الحر ... ولاشك فى أن هذا المنظر يثير الدهشة ، فمنظر هذا الرجل الذى يسرع فى مشيته راجلا حافيا ، لايعبأ بالحر ، ولا يهمه القيظ ، هذا المنظر يثير التساؤل ، ولهذا قال معاوية لغلامه : « ياغلام ، سر اليه ، واكشف عن حاله وقصـــته ، فوالله لئن كان فقيرا لأغنيته ، ولئن كان شاكيا لأنصفنه ، ولئن كان مظلوما لأنصرنه » (٢٣٣) .

ويحكى مسهم بن عبد الحميد الحنفى ، قصة يمهد لها بمقدمة ، تضفى عليها جوا مناسبا وتستجمع أشتات السامع ، لكى يتابعه فى هذا الحديث ، يقول : « خرجت من الكوفة أريد بغداد ، فلما نزلت بسـط

(٢٣٢) الأغانى ١ / ١٧٥ دار الكتب .
(٢٣٣) اخبار النساء ص ٣ .

غلماننا ، وهيئوا غداءنا ، فاذا نحن برجل حسن الوجه والهيئة ، على برذون فاره فصحت بالغلمان ، فأخذوا دابته ، فدعوت بالغداء ، فبسط يده غير محتشم وما أكرمته بشيء الا قبله ، وبينا كذلك اذ جاء غلمانه بثقل كثير ، وهيئة جميلة ، فتناسبنا فاذا هو طريح بن اسماعيل الثقفى ، فارتحلنا فى قافلة منا لا يدرك طرفاها ، فقال طريح : ما حاجتنا الى هذا الزحام ، وليست بنا اليهم وحشة ، ولا علينا خوف ، فاذا خلونا بالخانات والطرق كان أروح لأبداننا ، قلت : ذلك اليك ، فنزلنا من الغد الخان ، وتغدينا ، والى جانبنا نهر ظليل بالشجر ، فقال : هل لك أن نستنقع فيه ، فمررنا اليه ، فلما نزع ثيابه ، اذ بين جنبيه آثار ضرب كثير ، فوقع فى نفسى منه شر ، فنظر الى ، ففطن ، وتبسم وقال : « قد رأينا ذعرك بما ترى ، وحديث ذلك يجرى اذا سرنا بالعشية .. » . فهذا التمهيد يثير فضول القارىء وشوقه الى معرفة القصة ، كما أثار فضول الراوى ، اذ لما كان المساء وأخذا فى السير ، قال لطريح : الحديث . فقص عليه خبره (٢٣٤) .

وهكذا نجد أن تلك القصص لم تحرم من عنصر « التشويق » . ولكن القاص كان يلجأ الى هذا التشويق ، بدافع من غريزة القصة ، ان صح هذا التعبير ، أى أنه كان يلجأ الى هذا عفويا فلم تكن أمامه دراسات توجهه الى أهمية هذا العنصر ، ولم يصادف من النقاد من لفت نظره الى أمر كهذا ، بل كان هم القاص أن يستجمع ذهن السامع لمتابعة حكاياته ، فكان يلجأ غرزيا الى هذه الوسائل الساذجة البدائية .

(٢٣٤) انظر القصة كاملة فى المحاسن والاضداد ص ١٩٧ .

الفكـــاهة :

ولم تخل قصص العشــق من لقطات فكاهيــة ، توقظ الضــحك أو تروح النفس ، أو تثير الشوق الى متابعــة القصــة ، كمنظر يزيــد ابن الطثرية . وقد سار بين الغنم على أربع ، وتجلل شملة سوداء بلون شاة من الغنم (٢٣٥) . أو منظر وحشية وقد سقطت فى حفرة فيهــا نار (٢٣٦) ، أو منظر طريح بن اسماعيل الثقفى وهو فى ثياب امرأة يتلقى ضربات سوط من رجل يحسبه امرأة (٢٣٧) ، أو كمنظر تابع جميل ، وقد أجهده الجوع والعطش ، فحين يقع نظره على قدر لبن يدخل رأسه فيها ويعب ما فى داخلها ، حتى اذا ما ارتوى ، يحاول أن يخرج رأسه من القدر فلا يستطيع ، واذا هى عليه قلنسية ، مما جعل النسوة يضحكن منه (٢٣٨) ، أو منظر الثريا حين أتت لوعدها مــع عمر ، فوجدته نائما فألقت بنفسها عليه ثقيلة ، ولكنها فوجئت بمن يصرخ فيها : اغربى عنى فلست بالفاسق ، ثم يتبين لها أنه الحارث وكان قد نام صدفة مكان أخيه عمر ، الذى علق على هذا بقوله : « أما والله لا تمسك النار أبدا ، وقد ألقت نفسها عليك » (٢٣٩) ، أو منظر كثير حين ضاق به بنو جدى لنسيبه فى عزة فأخذوه « وعدلوا به عن الطريق الى جيف حمار كانوا يعرفونها من النهار فأدخلوه فيها ، وربطوا يديه ورجليه ، ثم أوثقوا بطن الحمار ، فجعل يضطرب فيه ، ويستغيث ، ومضوا عنه ، فاجتاز به خندق الأسدى فســمع اســتغاثته ، فعدل الى الصوت حين سمعه ، فوجد فى الجيفة انسانا . فسأله ما هو ؟ وما خبره ؟ فأطلقه .. » (٢٤٠) . أو منظر الأعرابى وهو يسحب حبيبته ويزيح الناس من حوله ، قائلا :

---

(٢٣٥) الاغانى ٨ / ١٥٧ دار الكتب

(٢٣٦) المرجع السابق ٨ / ١٧١ .

(٢٣٧) المحاسن والاضداد ص ١٩٧ .

(٢٣٨) الأغانى ٨ / ١٤٧ « دار الكتب » .

(٢٣٩) الأغانى ١ / ٢٧٢ .

(٢٤٠) الأغانى ١١ / ٤٧ « ساسى » .

خلوا عن الطريق للأعرابى ان لم ترقوا ويحكم لمابى (٢٤١)

أو منظر ذلك الاعرابى الذى كان ضيفا على خالد بن عبد الله . فاتى امرا منكرا مع جارية لخالد ، وكان قد اقتص الله منه فاصابته عقرب ، مما جعل خالدا يقول :

وداری اذا نام سكانها تقيم الحدود بها العقرب
اذا غفل الناس عن دينهم فان عقاربنا تغضب (٢٤٢)

والفكاهة ـ كما رأيت فى تلك المناظر ـ ساذجة لا تعبر عن غرض فى ذهن القاص ، أو تكشف عن نفسية لشخصية من الشخصيات ، وانما هى عبارة عن حركة بهلوانية ، أو منظر يخالف المألوف ، أو مطب يقع فيه شخص ، وهذا النوع من الفكاهة قد يرضى العامة ، ولكنه من الناحية الفنية ، أردأ الوسائل ، واقلها نضجا وثراء .

على أن بعض القصص قد تهيأ له من الفكاهة بذرة فنية الى حد ما ، اذ تكشف عن جانب من جوانب الشخصية ، وتظهر ما فيها من تصلب فى الطباع ، وتلك هى قصة ابن السائب المخزومى ، وتولهه بشعر العرجى . « ذكر بعضهم فقال : أتى أبو السائب المخزومى ليلة ، بعد ما رقد السامر ، فأشرفت عليه ، فقال سهرت وذكرت أخا استمتع به فلم أجد سواك ، فلو مضينا الى العقيق ، فتناشدنا وتحدثنا ، فمضينا ، فانشدته قول العرجى :

باتا بأنعم ليلة حتى بدا صبح تلوح كالأغر الأشقر
فتلازما عند الفراق صبابة أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر

فقال : أعده على . فأعدته ، فقال : أحسن والله ، امرأته طالق ان

---

(٢٤١) مصارع العشاق ص ١٧٨ .
(٢٤٢) المحاسن والاضداد ص ٢٢٨ .

نطق بحرف غيره حتى يرجع الى بيته . قال : فلقينا عبد الله بن حسن ابن حسن ، فلما صرنا اليه ، وقف بنا ، وهو منصرف من ماله يريـــد المدينة فسلم ، ثم قال : كيف أنت يا أبا السائب ؟ فقال له :

فتلازما عند الفـــراق صـبابة   أخذ الغريم بفضـل ثوب المعسر

فالتفت الى ، فقال : متى أنكرت صاحبك ؟ فقلـ ت: منذ الليلة . فقال : انا لله ، وأى كهل أصيبت منه قريش . ثم مضينا ، فلقينا محمد ابن عمران التيمى ، قاضى المدينة ، يريد مالا له ، على بغلة له ، ومعه غلام ، على عنقه مخلاة ، فيها قيد البغلة ، فسلم ، ثم قال : كيف أنت يا أبا السائب ، فقال :

فتلازما عند الفـــراق صـــبابة   أخذ الغريم بفضـل ثـوب المعسر

فالتفت الى ، فقال ، متى أنكرت صاحبك ؟ قلت : آنفا . فلما أراد المضى قلت : أفتدعه هكذا ، والله ما آمن أن يتهور فى بعض آبار العقيق . قال : صدقت ، يا غلام قيد البغلة ، فأخذ القيد ، فوضعه فى رجله وهو ينشد البيت ، ويشير بيده الى ، يرى أنه يفهم القصة ، ثم نزل الشيخ وقال لغلامه : يا غلام احمله على بغلتى والحقه بأهلى . فلما كان بحيث علمت أنه قد فاته ، أخبرته بخبره . فقال : قبحك الله ماجنا ، فضحت رجلا من قريش ، وغررتنى » (٢٤٣) .

ففى هذه القصة بذرة من الضحك الراقى ، الذى يثير السخرية ، ويكشف عن جانب من جوانب الشخصية . ولم أبلغ من السذاجة حـدا أقارن فيه بين هذه القصة ، وبين ملهاة الطباع التى انتشرت فى أوربا فى القرن التاسع عشر ، والتى كانت ترسم شـخصية تثير السـخرية ، أو تشير الى صفة تنتزع الضحك . لا أريد أن أقارن بين هذين ، وانما

---

(٢٤٣) الأغانى ١ / ١٥٣ « ساسى » .

يكفى ان اشير الى مافى هذه القصة من سخرية ، أرقى من الضحك الذى الذى تسببه الحركات والاشكال · واذا كان للضحك وظيفة اجتماعية ، وهى معاقبة من يسير فى طريقه آليا ، ولا يعنيه الالتفات للآخرين ، فيكون الضحك حينئذ وسيلة لانتشاله من ذهوله ، والحد من تصلبه (٢٤٤) ، فاننى أعتقد أن القصة السابقة تسخر من تصلب أبى السائب، وآليته فى تصرفه ، وعناده ، وحرفيته ، مما أوقعه فى أمور لا تحمد عقباها · وأتاح للظرفاء أن يسخروا منه ·

على أن الضحك أو السخرية فى هذه القصص لم تخرج عن حدود الادب والظرف ، الى الخلاعة والمجون ، والتطارح بالمسائل الجنسية ، والتفوه بالأمور المكشوفة ، مما بلغ مداه فى العصر العباسى ، عصر الانحراف عن الذوق العربى الأصيل ·

على أننا نجد ارهاصات لهذا الانحراف فى قصص الحب الحسى ، كقصة عمر والصندوق الذى أهداه اليه نسوة من جوارى بنى أمية (٢٤٥) أو كقصته مع هند وصواحبتها ، فقد التقى بهن ، ودار بينهن حديث ، تدولت فيه ألفاظ مكشوفة (٢٤٦) ·

---

(٢٤٤) الضحك ص ٩٣ ·
(٢٤٥) الاغانى ١ / ١٦٩ « دار الكتب » ·
(٢٤٦) ارجع الى القصة فى المحاسن والاضداد ص ٣١٤ ·

الخيــــال :

من الخيال خيال يكتفى بذكر الشىء وشبيهه ، كأن يرى شيئا أحمر ، فيستحضر ذهنه أشياء أخر تشابهه فى الحمرة . أو يحس بارتياح لدى رؤية حبيبته ، فيجعله يتخيل النشوة التى يحسها عند سكره .

وهناك خيال ابتكارى ، يخلق أمورا من العدم ، وينشىء أشــياء من صنعه ، ويحدث جوا وشخصيات ومشكلات ، تحاكى الطبيعة ، وتشابه الحياة ، بل يتفوق على الطبيعة ، فيكملها ، ويرقى على الحيــاة ، فيحسنها ويزينها (٢٤٧) .

وهنا تبدو وظيفة الفن ، فلا يقتصر على محاكاة الواقع ، ولايكتفى بمشابهة الطبيعة ، بل هو عصا سحرية ، تجعل الواقع يبدو فى صــورة أكثر كمالا ، وفى النظر أكثر بهاء ورونقا . وهنا يكمن سر جاذبيته ، وسر هرب الناس اليه من دنيا الواقع والحقيقة .

ومأساة « بجماليون » – كما تصورها الأساطير الأغريقية – تتمثل فى أن فنه كان صورة مثالية ، تتسامى عن الحياة فى تفاهتها وسخفها ، فتعلق بجماليون بتمثاله ، وأحبه حبا أفسد عليه واقعه وحياته ، واضطر فى آخر أمره الى أن يثور على عبوديته لفنه ، وأن يتخلص من الاسر ، فحطم تمثاله ، وجلس – مع ذلك – يبكى عند انقاضه .

ولاشك فى أن الخيال الخلاق أرقى من خيال المشابهة ، فهو لايحتاج الى تكأة تنقله من شبيه الى شبيه ، ولا الى شىء يذكره بشىء آخــر ، بل هو خيال خلاق ، يبتكر كيف يشاء ، ويحلق كيف أراد ، ويخلق مواده من العدم ، وينشىء وسائله من لاشىء .

وقد عنى القدماء بالكشف عن الخيال التفسيرى عند العرب ،

---

(٢٤٧) لبيان الفرق بين الفن والحقيقة انظر : فن الشعر لارسطو ، مثلا فى ص ٢٦ .

واهتموا به اهتماما ملحوظا ، ففى كتبهم التى قعدوا فيها للفصاحة والبلاغة ، اهتموا كثيرا بعلم سموه « علم البيان » ، وعنوا به عناية جعلتهم أحيانا يطلقون « علم البيان » على كل الأمور التى تبحث فى البلاغة (٢٤٨) ، من باب تغليب الجزء على الكل .

وعلم البيان هو العلم الذى يبحث فى التشبيه والاستعارة والكناية ، فى الأمور التى تظهر الحقيقة فى صور مختلفة ، فاذا كان ممدوحك كريما ، وأردت أن تلجأ للخيال البيانى للتعبير عن هذا المعنى ، فلك أن تقول : فلان كالبحر ، أو تقول : رأيت بحرا عم موجه الأنام ، أو تقول : فلان كثير الرماد .

وعناية القدماء بهذا اللون من الخيال ، ربما كان نتيجة لاحتفائهم بالشعر ، والخطابة ، والكتابة والرسائل ، والحكم ، والأمثال ، وغير ذلك من الأمور التى تهتم بهذا النوع من البلاغة ، وتزدحم بهذه الألوان من الخيال .

وربما كانت هذه العناية بالخيال التفسيرى ، أكثر من العناية بالخيال الابتكارى ، هى التى جعلت كثيرا من الدارسين ، يرمون العرب بالعقم فى الخيال ، والجدب فى الابتكار (٢٤٩) .

على أن هناك جانبا واسعا يشف عن الخيال الخلاق عند العرب ، ويحتاج الى الكشف والعناية والاهتمام ، فلو رجعت الى احاديث العرب وأساطيرهم حول الجن ، وقد ذكر الجاحظ كثيرا من هذا فيما يزيد

---

(٢٤٨) الايضاح ص ١٠ (طبعة صبيح سنة ١٣٤٨ هـ) .

(٢٤٩) انظر : (أ) The Modern Arabic Short Story p. 28.

(ب) مقالا لى بعنوان « القصة عند العرب »

(الرسالة العدد ١٠٤٢) .

(جـ)فجر الاسلام ص ٧٧ .

عن خمسين ومائة صفحة ٢٥٠) ٠ أو الى ما ذكره العلماء عن أكـاذيب العرب ٢٥٢) ٠ والى القصص الخيالية عن عشاق الحور العين (٢٥٢) ٠٠ الخ ٠ لرأيت ثراء فى هذا الجانب ٠

وكل ما هنالك أن الدارسين اهتموا كثيرا بخيال المشابهة ، فى الشعر والكتابة ٠ ولم ينشطوا للخيال الخلاق فى القصص والأساطير ، ولهذا تطور ونما خيال المشابهة ، وأصبح أنيقا لدى الشعراء والكتاب ، تشعر باللذة والصنعة الفنية فى أثناء قراءته ، وبقى الخيال الخـــلاق محشورا فى بطون الكتب ، يختلط بالأخبار التاريخية ، ويزاحم فيـه الغث الثمين ، ولهذا تلاحظ عليه السذاجة ، ولا تجد فيه تانق الفـن ، واشراق الصنعة ، وكل ما فيه من بذور فنية ، جاءت تلقائية وعفوية ، لم ينمها نقد الناقدين أو ينر لها السبيل دراسة الدارسين ٠

وقصص العشق تنهض دليلا على ثراء الخيال العربى وغناه ٠

ففيها الخيال التقليدى الذى وجد من علم البيان نصيرا ومساعدا ٠ ولن أطيل فى هذه الناحية ، اذ هى وسيلة ثانوية فى القصص ، بينما هى فى الشعر ، والنثر الفنى المقصود لذاته ، تمثل جانبا رئيسيا ــ لن أطيل ويكفى أن ترجع الى القصة التى قصها ابن أبى ربيعة عن أبى مسهر ٠ فستجد فيها ألوانا من البيان ٠ مثل تشبيهه الحبيبة بالدينـار المنقوش ، وعينيها بعينى المهاة ، وثديها بالحق ٠ وثناياها بالنبـــات المطور ٠٠ الخ (٢٥٣) ٠

---

(٢٥٠) انظر : الحيوان ٦ / ١٧١ ــ ٣٥١ « طبع الحلبى » ٠
(٢٥١) انظر : (أ) المزهر للسيوطى ٢ / ٣١٤ ٠
(ب) الكامل للمبرد ص ٣٤٧ ٠
(جـ) الشعر والشعراء ٢ / ٧٤٩ ٠
(٢٥٢) مصارع العشاق ص ٩٤ ٠
(٢٥٣) مصارع العشاق ص ٥٠ ٠

وتقرأ كتب الأدب مثل الأغـانى ، ومصـارع العشـاق ، وتزيين الأسواق ، وأخبار النساء ــ فتحس أن قصص العذريين ، قـد أصبحت نوعا من السمر ، يتحدث به الناس فى مجالسهم ، التى يتناشدون فيها الأشعار ، ويتطارحون الغناء ٠ ومجالس السمر والشعر والغناء ، لا يتقيد الناس فيها بالحقيقة ، ولا يتزمتون فيها تزمت العلماء والمحققين ٠ بل يتركون أنفسهم على سجيتها ، ويمتعونها بالقول الكاذب ، والأشـياء المخترعة ٠ واذا كان الناس فى ذلك الحين يسلون أنفسهم فى مجالسهم بين أصدقائهم وخاصتهم ، وحين يفرغون من الأمور الجادة ، ومن ثقل الحياة ، بتناشد الأشعار التى يحسن فيها الكذب ، ولايحمد فيها الاقتصاد كما يقول ابن رشيق (٢٥٤) ٠ أو بسماع الغناء الذى تطيب به المجالس ويحسن به السمر ٠ فقد كان بجانب ذلك نوع من القصص ، تحكى فى تلك المجالس ، فيلهو بها الناس ، ويشغلون بها فراغهم ، ويتناسون فيه همومهم وحياتهم الجادة ٠ ولهذا لا نعجب حين يظهر فريق من القصاص يزاحمون الشعراء ، ويقصون الحكايات فى تـــلك المجالس ، يخترعون شخصياتها اختراعا ، أو يختـارون شـــخصية مشهورة ، ويضعون عليها الأحاديث المسلية وينسبون اليهـا القصص ، لايقصدون التاريخ أو التحقيق بل همهم كهم الشعراء ٠ وكهم المغنين ، أن يمتعوا الناس بالحديث ، وأن يسلوهم بالقصص ٠

فقد كان الناس فى مجالسهم ــ العامة أو الخاصة ــ يتذاكـرون أخبار العشاق ، ويتحدثون بقصصهم ، فابن أبى ربيعة يجلس فى حلقة يتذاكر فيها العذريين وعشقهم وصبابتهم (٢٥٥) ٠ وخالد بن عبد الله القسرى ، يجلس ذات ليلة مع فقهاء أهل الكوفة ، فيقول بعضـــــهم « حدثونا حديثا لبعض العشاق » ، فيقص أحدهم قصة ذكرت فى مجلس هشام بن عبد الملك ، فقد ذكر هشام غدر النساء ، فحدثه بعض جلسائه

---

(٢٥٤) العمدة ١ / ٦ر١ / ٠

(٢٥٥) مصارع العشاق ص ٥٠ ٠

حديث أم عقبة ووفائها لابن عمها بعد موته (٢٥٦) ٠ وعبد الملك يطلب من جميل أن يحدثه ببعض أحاديث عذرة ، فانهم أصحاب أدب وغزل (٢٥٧) وعروة بن الزبير يسأل رجلا من بنى عذرة « ياعذرى ، بلغنى أن فيكم رقة وغـزلا فأخبرنى ببعض ذلك » (٢٥٨) ٠ وخالد ابن عبد الله القسرى يسأل : من يحدثنى بحديث يستريح اليه قلبى ؟ فيقص عليه أبو حمزة الكنانى قصة لزوجين من بنى عذرة ، تكشف عن وفاء المرأة لحبيبها وزوجها (٢٥٩) ٠ والحجاج يأرق ذات ليلة ، فيستدعى ابن القرية ، ويطلب منه حديثا ، يقصر ليله وأن يكون فى مكر النساء ، فيقص عليه قصة امرأة ، استطاعت أن تحتال على الناسك والقاضى والحاجب وصاحب الشرطة ، واستردت حقها ٠ وقد أعجب الحجاج بمهارة هذه المرأة ، وعقب على قول ابن القرية : ما أحسن ما احتالت لاستخراج حقها (٢٦٠) ٠

أخلص من كل هذا الى أنه كان يصاحب مجلس السمر والمنادمة ، فن ينافس الشعر والغناء ، ويحرص عليه الخلفاء والأمراء والقادة والعامة ٠ وكان هناك قصاص مهرة فى هذا الفن ، مثل عمر ، وجميل ، وأبو حمزة ، وابن القرية ٠ يستدعيهم النس ، وقت الأرق ، وفى المجالس الخاصة ، يطلبون منهم حديثا يستريح اليه القلب ، كما يقول خالد ، أو يقصر الليل كما يعبر الحجاج ٠ أو فيه أدب وغزل على حد قول عبد الملك ، أو رقة وغزل كما يريد عروة ٠ ولم يطلبوا فى هذا الحديث الصحة التاريخية أو الدقة العلمية ٠

وفى تلك القصص مظاهر شتى من الخيال المبتكر الطريف ، كنثر

---

(٢٥٦) أخبار النساء ص ٧٤ ٠
(٢٥٧) المرجع السابق ص ٣٤ ٠
(٢٥٨) المرجع السابق ص ٣٥ ٠
(٢٥٩) المرجع السابق ص ٧٢ ٠
(٢٦٠) المحاسن والأضداد ص ١٧٤ ٠

اشياء طريفة مشوقة ، أو الرمز بأمور مبتكرة رائعة ، أو تصوير الشخصيات أو المواقف تصويرا معبرا مثيرا ، أو خلق أجواء تؤثر على السامع تأثيرا بليغا .

واقرأ قصة وضاح اليمن مع أم البنين ، ولاحظ فيها ذلك الخيال الذى يجذب السامع ، فمنظر الجوهر واللؤلؤ يحمله الخصى ثم ينثره بين يديها . ومنظر العاشق وهو يسحب نفسه الى الصندوق ليختبىء فيه ، ومنظر أم البنين وهى تمتشط فى خزانتها وقد دخل عليها يزيد ، ومنظر الفراشين وقد حملوا الصندوق بمن فيه ، ومنظر الأجراء الغرباء وهم يحفرون بالليل حفيرة يبلغون بها الماء ، ومنظر يزيد وهو يسار الصندوق ، ومنظر القوم وهم يهيلون التراب عليه ، ومنظر الخادم وقد ألقوه فوق الصندوق ، ومنظر أم البنين وهى تأتى الى ذلك المكان تبكى ، ومنظرها وهى مكبوبة على وجهها ميتة (٢٦١) . فكل هذه أمور طريفة تجذب القارىء وتثير خياله .

وانظر الى قصة ابن أبى ربيعة عن صاحبه أبى مسهر ، كيف أقبل وقد تغير لونه وساءت هيئته .. وكيف جعل يدعو ، حتى اذا هم الناس أن يفيضوا ، سمعه يهمهم ويقول :

يارب كل غدوة وروحة .... الخ .

ثم يقص عليه ما جرى يوم الدوحة ، حين التقى بذلك الفارس الذى يطرد عنزا وأتانا ، وكيف جلس معه تحت الدوحة يحدثه حديثا ، ذكر به قول الشاعر :

---

(٢٦١) انظر القصة كاملة فى :
(١) أخبار النساء ص ٨٧ .
(٢) مصارع العشاق ص ٢٧٦ .
(٣) تزيين الأسواق ١ / ١٦٩ .
(٤) ديوان الصبابة ص ٢ / ٧٨ .

وان حديثـا منـــك لوتبذلينه	جنى النحل فى البان عود مطافل

وكيف جعلا يشربان الخمر فى ظل الدوحة ، والفارس يرفـــع عقيرته ويغنى « ان العيون التى فى طرفها حور ... الخ » ، ثم يتبين له أن هذا الفارس امرأة ، تكره العهر وتحب الغزل . ثم تجلس معـه وهى تتمايل على الدوحة سكرى ، حتى اذا انتبهت مرعوبـة . لاثت عمامتها برأسها وأخذت رمحها . وجالت فى متن فرسها . ثم تتـــرك للذكرى ثوبا من ثيابها وتنصرف (٢٦٢) . ارجع الى هـــذه القصـة ، فستجد فيها كثيرا من لمسات الخيال الجذاب الرائع .

وفى قصة عروة وعفراء ، يطالعنا الخيال القصصى بنهاية ترمز الى أن حبهما خالد باق ، يتحدى الموت ، ويقاوم الاقدار . فقد مات عروة محروما من عفراء ، ثم لحقت به ، ولا ينتهى الأمر عند هذا الحـد ، بل تدفن فى قبره . « فتنبت من القبر شجرتان ، حتى اذا صارتـــا على حد قامة التفتا ، فكانت المارة تنظر اليهما ، ولا يعرفان من أى ضرب من النبات ، وكثيرا ما أنشدت فيهما الناس ، قـال صاحـــب الأصل .

غصنان من دوحة طال ائتلافهما	فيها ، فجالت صروف الدهر ، فافترقا
فصار ذا فى يد تحويه ليس له	منها براح ، وهذا فى الفلاة لقـا
حتى اذا ذويا يومـا وضمهمـا	بعد التفرق بطن الأرض واتفقـا
حنا على العهد فى أرجائها ، فحنا	كل على الفه فى الترب واعتنقا (٢٦٣)

فهاتان الشجرتان المتعانقتان اللتان لا تنسـبان الى أى ضرب من النبات ، ما هما الا رمزان يثبتان للأجيال خلود الحب ، وتحديـــه للأقدار والعقبات ، وانتصاره على المال والطغيان .

---

(٢٦٢) أخبار النساء ص ١١٧ .
(٢٦٣) تزيين الاسواق ١ / ٨٦ .

وفى احدى القصص خيال شبيه بهذا ، ولكنه لم يكن شجرتين ، بل كان شجرة واحدة ، يتناسب حالها مع حال الحبيبين ، فقد كانــا عروسين لم تتح لهما الظروف فرصة التمتع ، وتبادل الحب . فقد أحب عتبة بن الحباب ريا بنت الغطريف السلمى ، فاضـناه الحب ، ورأف بحالته عبد الله بن معمر القيسى ، فخرج معه الى أبيها خاطبا لهـا ، فلما عرف أبوها أمره معها ، أقسم الا يزوجها له . ولكن ابنته احتالت عليه بأن الأنصار لا يردون ، وأن من الأفضل ن يبالغ فى المهر حتى يعجزه ذلك ، فينصرف . ولكن عتبة وعبد الله أديا اليه ما سـماه من المهر ، فزوجها اياه مرغما ، وخرج العروسان الى منزلهما ، ولكن لحقهما فى الطريق فرسان من قبل أبيها ، ثم قتلوا عتبة ، فانكبت عليه ، وشهقت شهقة حتى ماتت . وتأبى القصة الا أن تقيم الأفراح بعد موتهما وأن تتحدى جور أبيها وقومها بخيال رائع ، فاذا بشجرة عليها الوان من الورق ، قــد نبتت على القبر « فسألت عنهــا . فقالوا شــجرة العروسين (٢٦٤) » . فشجرة العروسـين ذات الأوراق الملونة ، ما هى الا رمز للسعادة التى حرم منها العروسان .

وهناك من أحاط « العاشق » بشىء من الخيال ، فزعم أن العاشق « سمى عاشقا لأنه يذبل من شدة الهوى ، كما تذبل العشقة اذا قطعت ، والعشقة شجرة تخضر ثم تدق وتصفر عن الزجاج ، وزعم أن اشتقاق العاشق منه » (٢٦٥) .

وقصة وفاة ليلى الأخيلية ، يحوطها أيضا ضرب من الخيال الرائع يأبى الا أن يحقق أبياتا لتوبة ، ويأبى الا أن تدفن الى جنب قبره ؛ فتوبة قال أبياتا ، ذكر فيها أنه لو كان فى قبره ، ثم سلمت عليــه ليلى ، لرد عليها « فلما مات توبة مر زوج ليلى بليلى على قبره ، فقال

---

(٢٦٤) تزيين الاسواق ١ / ١٠٣ .
(٢٦٥) لسان العرب « عشق » .

لها : سلمى على توبة ، فانه زعم فى شعره أنه يسلم عليك تسليم البشاشة ، فقالت : ما تريد الى من بليت عظامه . فقال : والله لتفعلن . فقالت وهى على البعير : سلام عليك يا توبة فتى الفتيان ، وكانت قطاة مستظلة فى ثقب من ثقوب القبر ، فلما سمعت الصوت ، طارت وصاحت ، فنفر البعير ، ورمى بليلى فماتت ، فدفنت الى جنب قبر توبة » (٢٦٦)

والمدائنى فى روايته يعدل عن هذا الخيال ، ويرى أن ليلى مرت على قبر توبة ، فعدلت عنه ولما سألها الحجاج أجابت : بأنه كان معها نسوة ، فكرهت أن تكذب قوله « ولو أن ليلى الأخيلية سلمت . الخ (٢٦٧)

وتصور بعض الشخصيات فى هذه القصص تصويرا حيا مؤثرا . يحكى نوفل ابن مساحق خبر توحش قيس « فخرجت يوما أتصيد الأروى ، ومعى جماعة من أصحابى حتى اذا كنت بناحية الحمى ، اذا نحن بأراكة عظيمة ، قد بدا فيها قطيع من الظباء ، فيها شخص انسان ، يرى من خلل تلك الأراكة ، فعجب أصحابى من ذلك ، فعرفته وأثبته ، وعرفت أنه المجنون الذى أخبرت عنه ، فنزلت عن دابتى وتخففت من ثيابى ، وخرجت أمشى رويدا حتى أتيت الأراكة ، فارتقيت حتى صرت على أعلاها ، وأشرفت عليه وعلى الظباء ، فاذا به ، وقد تدلى الشعر على وجهه فلم أكد اعرفه الا بتأمل شديد ، وهو يرتعى فى ثمر تلك الأراكة ، فرفع رأسه ، فتمثلت ببيت من شعره :

أتبكى على ليلى ونفسك باعدت   مزارك من ليلى وشعبا كما معا

فنفرت الظباء ، واندفع فى باقى القصيدة ينشدها ، فما أنسى حسن نغمته وحسن صوته ... » (٢٦٨) .

---

(٢٦٦) المحاسن والاضداد ص ١٢٥ وتزيين الاسواق ١ / ١٨ .
(٢٦٧) مروج الذهب ٢ / ١٤١ « طبع عبد الرحمن محمد بمصر »
(٢٦٨) الاغانى ٣ / ٦٧ « دار الكتب » .

ويصور شيخ من بنى مرة ، شخصية قيس تصويرا جذابا « فخرجت فطلبته يومى الى العصر ، فوجدته جالسا على رمل ، خط فيه باصبعه خطوطا ، فدنوت منه غير منقبض ، فنفر منى نفور الوحش من الانس ، والى جانبه أحجار ، فتناول حجرا ، فاعرضت عنه ، فمكث ساعة كانه نافر يريد القيام ، فلما طال جلوسى سكن ، واقبل يخط باصبعه ، فاقبلت عليه وقلت : أحسن والله قيس بن ذريح حيث يقول :

الا يا غراب البين ، ويحك نبنى بعلمـك فى لبنى ، وأنت خبير

فاقبل على وهو يبكى ، فقال : أحسن والله ، أنا أحسن منه قولا حيث أقـول :

كـأن القلب ليـلة قيـل يغـدى بليلى العـامرية أو يـراح
قطاة عزهـا شرك فبـاتت تجاذبه وقد علق الجناح (٢٦٩)

ويخلق القاص مواقف حية متحركة ، ويصورها تصويرا قويـا جذابا ، وأود أن تقرأ معى هذا الموقف عن موت المجنون ، فى واد كثير الحجارة خشن « انه لم تبق فتاة من بنى جعدة ، ولا بنى الحريش ، الا خرجت حاسرة صارخة عليه تندبه ، واجتمع فتيان الحى ، يبكون عليه أحر بكاء وينشجون أشد نشيج ، وحضرهم حى ليلى معزين وأبوها معهم ، فكان أشد القوم جزعا وبكاء عليه ، وجعل يقول : ماعلمت أن الأمر يبلغ كل هذا . ولكنى كنت امرأ عربيا أخاف العار وقبح الأحدوثة وما يخافه مثلى ، فزوجتها وخرجت عن يدى . ولو علمت أن أمـره يجرى على هذا ، ما أخرجتها عن يده ، ولاحتملت ما كان فى ذلك . فما رئى يوم كان اكثر باكيا وباكية على ميت منه . وذكر أنه لما قلبوه ، وجدوا خرقة فيها مكتوب :

---

(٢٦٩) المرجع السابق ٢ / ٨٨ .

الا أيها الشيخ الذى ما بنا يرضى

شقيت ، ولا هنيت من عيشك الخفضا

شقيت ، كما أشقيتنى وتركتنى

أهيم مع الهلاك لا أطعم الغمضا (٢٧٠)

ويصل الخيال حدا فى تصور أشياء غير منظورة ٠ تضفى خيالا غامضا جذابا يتناسب والمعنى الذى تدور عليه القصة ٠ واقرأ خبر وفاة جميل فستجد خيالا عجيبا ، يشد القارىء اليه ٠

تكون بثينة فى هودجها ، فتسمع هاتفا ينشد بأبيات لجميل ، فتنادى الهاتف ولكنه لا يجيب ، فتسخر منها صواحباتها ٠ ثم تكون الليلة الثانية ، فتسمع ذلك الهاتف ، فتخاطبه ،ولكنه لايرد ٠ حتى اذا كانت الليلة القابلة ، وأخذ الحى مضاجعهم ، اذا بالهاتف يهتف ، واذا به شيخ كانه من رجال الحى ، ينبيها بوقوع الكـارثة وموت جميـل « حدثت بثينة، ، فقالت : ان الحى انتجعوا موضــعا ، وانى لفى هـودج لى اسير ، اذا أنا بالهاتف ينشد أبياتا ، فلم اتمالك أن رميت بنفسى ، وأهل الحى ينظرون ، فبقيت أطلب المنشد ، فلم أقف عليه ٠ فناديت ثلاثا : أيها الهاتف بشعر جميل ما وراءك منه ؟ وانى أحسبه قد قضى نحبه ومضى لسبيله ٠ فلم يجبنى مجيب ، فناديت ثلاثا ، وفى كل ذلك لا يرد على احد شيئا ، فقالت صواحباتى : أصابك يا بثينة طائف من الشيطان ٠ فقلت : كلا ٠ لقد سمعت قائلا يقول ٠ قلن : نحن معك ، ولم نسمع ٠ فرجعت فركبت مطيتى وأنا حيرى والهة العقل كاسفة البـال ٠ ثـم سرنا فلما كان فى الليل ، سمعت ذلك الهاتف يهتف بذلك الشــعر بعينه فرميت بنفسى وسعيت الى الصوت ، فلما قربت منـه انقطـع ٠ فقلت : أيها الهاتف ، ارحم حيرتى وسكن عبرتى بخبر هذه الأبيات ، فان لها شانا ، فلم يرد على شيئا ٠ فرجعت الى رحلى فركبت وسرت

---

(٢٧٠) المرجع السابق ٢ / ٩٠ ٠

وأنا ذاهبة العقل . وفى كل ذلك لا تخبرننى صواحباتى أن سمعن شيئا . فلما كانت الليلة القابلة نزلنا وأخذ الحى مضاجعهم ، ونامت كل عين ، واذا الهاتف يهتف بى ويقول : يا بثينة ، اقبلى الى أنبيك عما تريدين . فاقبلت نحو الصوت ، فاذا شيخ كأنه من رجال الحى ، فسألته عن اسمه وبيته ، فقال : دعى هذا وخذى فيما هو أهم عليك . فقلت له : وان هذا لما يهمنى . قال : اقنعى بما قلت لك . فقلت له : أنت المنشد الأبيات . قال : نعم . قلت : فما خبر جميل ؟ قال : نعم فارقته وقد قضى نحبه ، وصار الى حفرته رحمة الله عليه . فصرخت صرخة آذيت منها الحى وسقطت لوجهى (٢٧١) .

ان هذا الخيال يشد الأعصاب ويمهد لوقوع الكارثة ، ولم يكن داود الانطاكى موفقا فى ادراك مثل هذا الخيال وطبق عليه مقاييس الواقع ، فعلق على هاتف للمجنون بقوله : « وهذا أمر يتعذر الوصول الى تحقيقه » (٢٧٢) .

وهكذا تقدم قصص العشق دليلا واقعيا وعمليا على أن الخيال عند العرب ، لم يكن قاصرا فى خلق الأحداث ، وتصوير الشخصيات ، واختراع المواقف الحية المتحركة ، ورسم الأجواء المعبرة الموحية .

---

(٢٧١) الاغانى ٨ / ٢٠٢ .
(٢٧٢) تزيين الاسواق ١ / ٧٨ .

اللــون المحــلى :

اللون المحلى فى هذه القصص حائل يكاد لا يبين ، ويتعب الباحث فى التعرف على سماته وملامحه .

المكــــان :

فلا أرضية مكانية تفرش ، ولا بيئة تحدد ، تقرأ أن جميلا قـــد ذهب الى مصر ، وأنه قد مات هناك (٢٧٣) ، وأن كثيرا قد ارتحـل اليها ، وأنه التقى فى طريقه فى الصحراء ببثينه (٢٧٤) . ومع ذلك لا يعنى القاص برسم شىء من البيئة المصرية ، ولا يهتم الراوى بالاشارة الى ملامح هذا المكان . وانما هو جميل قد امتطى ناقته ، وقد أزمـع على الرحيل الى مصر ، ويمر هذا الأمر مرورا هينا ، وكأنه رحلة من رحلات البادية ، ينتقلون فيها من مكان الى مكان آخر فى طلب الغيث والكلأ . ونقرأ أن عروة قد تبع حبيبته الى الشام (٢٧٥) ، وكأن الشام مكان فى البادية ، ليس فيه شىء جديد يغرى العاشق بالحديث عنــه ، وليس فيه أمر مختلف طريف يحرص الراوى على ذكره . ونقرأ أن قصة المجنون قد حدثت فى بادية نجد (٢٧٦) . وأن قصة ابن الطثرية قد وقعت فى بادية اليمامة (٢٧٧) . وأن كثيرا من قصص العذريين قــد حدثت فى بادية الحجاز (٢٧٨) . وتحـاول أن تجد فروقـا مكانية ، أو اشارات بيئية تقول على أساسـها : ان هـذه القصـة قد حدثت فى بادية اليمامة وأن تلك الأخرى قد وقعت فى بادية الحجاز ــ فلا توفق .

---

(٢٧٣) الاغانى ٨ / ١٥٢ « دار الكتب » .
(٢٧٤) المرجع السابق ٩ / ٣٣ .
(٢٧٥) الاغانى ٣٠ / ١٥٤ « ساسى » .
(٢٧٦) المرجع السابق ١ / ١٦٥ .
(٢٧٧) الاغانى ٨ / ١٦٣ « دار الكتب » .
(٢٧٨) الموشى ص ٨٥ يقول رجل من بنى عذرة « لقد خلفت فى الحى ثمانين مريضا دنفا عشقا ، ما بهم غير الحب قد خامر قلوبهم » .

وربما كان السبب فى هذا أن الرواى كان يهتم بجوهر الحادثة ، ويرى من العبث أن يتحدث عن بيئة مصر ، أو الشام ، أو يرسم شيئا عن نجد أو الحجاز أو اليمامة . وفى المثل السائر قصة تدل على أنهم كانوا يرون أمثال هـذا من التطويل الذى لا فائـدة منـه . فقد ضرب ابن الأثير مثلا للتطويل بقصة حصلت بمحضر منه ، فقال : « وذلك أنه جلس الى فى بعض الأيام جماعة من الاخوان ، وأخذوا فى مفاوضة الأحاديث ، وانساق ذلك الى ذكر غرائب الوقائع التى تقع فى العالم ، فذكر كل من الجماعة شيئا . فقال شخص منهم : انى كنت بالجزيـــرة العمرية ، فى زمن الملك فلان ، وكنت اذ ذاك صبيا صغيرا ، فاجتمعت أنا ونفر من الصبيان فى الحارة الفلانية ، وصعدنا الى سطح طاحـون لبنى فلان ، فأخذنا نلعب على السطح ، فوقـع منا صبى الى أرض الطاحون ، فوطئه بغل من بغال الطاحون ، فختنه ختانة صحيحة حسنة ، لا يستطيع الصانع الحاذق أن يفعل خيرا منها . فقال له شخص من الحاضرين . والله ان هذا عى فاحش ، وتطويل كثير لا حاجة اليه ، فانك بصدد أن تذكر أنك كنت صبيا تلعب مع الصبيان على سطح طاحون فوقع صبى منكم الى أرض الطاحون ، فوطئه بغل من بغال الطاحون فختنه ولم يؤذه ، ولا فرق بين أن نكون هذه الواقعة فى بلد تعرفه أو فى **بلد لا تعرفه ، ولو كانت بأقصى المشرق أو بأقصى المغرب ، ولم يكن ذلك قدحا فى غرابتها ، وأما أن تذكر أنها كانت بالجزيرة العمرية ، فى الحارة الفلانية ، فى طاحون بنى فلان ، وكانت زمن الملك فلان ، فان مثل هذا كله تطويل لاحاجة اليه ، والمعنى المقصود يفهم بدونه » (٢٧٩)**

---

(٢٧٩) المثل السائر ص ١٩٧ .

الزمـــان :

والزمن فى هذه القصص غير محدد تحديدا دقيقا ، فمثلا بنت الضحاك بن النعمـــان ، توجـد روايات تنســب قصتهــا الى العصر الجاهلى (٢٨٠) ٠ وتوجد روايات أخرى تزعم أن الفرزدق قد شاهدها بعينيه ، وأنها أنشدته شعرا فى حبيبها (٢٨١) ٠ وقصة عروة يتارجح فيها الزمن تأرجحا واضحا ، فهو من المخضرمين الذين أدركوا الدولة الاسلامية والدولة الأموية (٢٨٢) ٠ أو هو توفى فى عهد عمر رضى الله عنه (٢٨٣) ٠ أو فى خلافة عثمان (٢٨٤) ٠ أو أن عمر لما بلغه خبر موت عروة وعفراء قال : « لو علمت بحـال هـذين الحرين الكريمين لجمعت بينهمـــا » (٢٨٥) ٠ أو أن القـــائل هـــذا هـــو معاويـــة ابن أبى سفيان (٢٨٦) ٠

وتقرأ أخبار المجنون ، وابن ذريح ، وجميل ، وكثير ، وعمـــر ابن أبى ربيعة ، وعـــروة بن حزام ، وعروة بن قيس ٠ فتجـد الزمن مضطربا ، وأحيانا متناقضا ٠ فتقرأ أن المجنون قد التقى بابن ذريح (٢٨٧) وأن كثيرا قد التقى بالمجنون ، وهو يطلق الظباء (٢٨٨) ٠ وأن كثيرا كان يلتقى بجميل ، ويتحادثان فى أمر حبهما (٢٨٩) ٠ وأن جميلا

---

(٢٨٠) تزيين الاسواق ١ / ١٢٣ ٠
(٢٨١) الزهرة ص ١١٣ ٠
(٢٨٢) تزيين الاسواق ١ / ٨٤ ٠
(٢٨٣) المرجع السابق ١ / ٨٦ ٠
(٢٨٤) المرجع السابق ١ / ٨٧ ٠
(٢٨٥) المرجع السابق ١ / ٨٦ ٠
(٢٨٦) الأغانى ٢٠ / ١٧٥ « ساسى » ٠
(٢٨٧) تزيين الأسواق ١ / ٦٤ ٠
(٢٨٨) المرجع السابق ١ / ٤٩ ٠
(٢٨٩) الاغانى ٨ / ١٠٦ « دار الكتب » ٠

كان يلتقى بابن أبى ربيعة (٢٩٠) ، وكان عمر يسأله عن بثينة ثـم يذهب اليها ليحادثها (٢٩١) ـ فتحس أن هؤلاء العشاق ـ وقد كانـوا يلتقون ويتحادثون فى أمر حبهم ـ كانوا فى سن واحدة أو متقاربة . ولكنك تقرأ ما يناقض هذا ، فهناك روايات تدل على أن جميلا لم يدرك عهد عبد الملك بن مروان ، أو أنه كان شيخا كبيرا ـ ان كان قد أدركه ـ فقد دخلت بثينة على عبد الملك ، فرأى منها امرأة مولية (٢٩٢) ، وقد أخلقها الدهر (٢٩٣) . فاذا ما عرفت أن جميلا كان أكبر من بثينة ، اذ أن أول ما عشـق بثينة كانت جويرية صغيرة رآهـا وهو يرد المـاء بابله (٢٩٤) ـ أدركت أن جميلا فى عهد عبد الملك كان رجلا موليا ـ أو هو قد ولى ـ أخلقه الدهر . ولكنك تقرأ أيضا أن جميلا كان فى عهد الوليد بن عبد الملك ، وأنه كان فى سن تسمح له بالسفر معه ، وبـأن يأمره الوليد بأن ينزل ليرجز وهو يريد بذلك أن يمدحه جميل (٢٩٥) . وتقرأ أيضا ان الوالى الذى استعداه أهل بثينه على جميل كان من قبل عبد الملك (٢٩٦) . وعمر بن أبى ربيعة تقرأ أنـه ولـد ليلة قتـل ابن الخطاب (٢٩٧) . وأن يزيد بن معاوية كان يضرب المثل به وهو يستعرض جيش الحره (٢٩٨) . وأنه التقى بالوليد بن عبد الملك وكان شيخا كبيرا (٢٩٩) وأن الثريا التى كان يشبب بها هى ـ كما قـال

---

(٢٩٠) تزيين الاسواق ١ / ٤١ .
(٢٩١) الاغانى ٨ / ١٤٥ « دار الكتب » .
(٢٩٢) المرجع السابق ٨ / ١٢٢ .
(٢٩٣) تزيين الاسواق ١ / ٤٠ .
(٢٩٤) الاغانى ٨ / ٩٨ دار الكتب .
(٢٩٥) المرجع السابق ٨ / ١٣٣ .
(٢٩٦) تزيين الاسواق ١ / ٣٩ .
(٢٩٧) الاغانى ١ / ٣٢ « ساسى » .
(٢٩٨) المرجع السابق ١ / ٣٤ .
(٢٩٩) المرجع السابق ١ / ٣٣ .

الزبير – أخت محمد بن عبد الله الذى قتله داود بن على (٣٠٠) فى آخر الدولة الأموية ، وغير ذلك من الأخبار التى تجعل حياة الرجـــل تمتد من قتل ابن الخطاب رضى الله عنه (٢٣هـ) الى نهاية الدولـــة الأموية (١٣٢هـ) . وتقرأ أن الذى أهدر دم قيس بن ذريح هو معـاوية ابن أبى سفيان (٣٠١) ، وكان قيس بن ذريح معاصرا للمجنون وكان المجنون يجتمع به ويأنس اليه ، بل فى تزيين الأسواق ما يدل على أن المجنون كان سابقا على جميل وكثير وابن ذريح (٣٠٢) ، ولكنـــك تقرأ أن الذى تشفع للمجنون هو نوفل بن مساحق ، وكان واليا من قبل مروان أو عبد الملك (٣٠٣) ، وتقرأ أن كثيرا حكى أمام عبد الملك قصته حين التقى بالمجنون وهو يطلق الظباء ، وأن كثيرا قد مات عام ١٠٥هـ فى ولاية يزيد بن عبد الملك (٣٠٤) ، وغير ذلك من الروايات التى تدل على اضطراب وتناقض .

ولعل السبب فى هذا أن هذه القصص حين شاعت بين العامة ، ودارت على الألسنة ، لم يعد الاهتمام موجها الى تحديد التـــاريخ ، وضبط الوقت ، بل اهتموا بالأدوار التى يسندونها الى الشخصيات ، فهناك شخصية ظريفة تســـاعد المحبين وتعطف عليهـم هى شـخصية ابن بى عتيق ، ولذلك أسند اليها القصاص هذا الدور فى معظم قصص الحب ، فهـــو يلتقى بعمر (٣٠٥) ، وبابن ذريح (٣٠٦) وبعـــروة

---

(٣٠٠) الاغانى ١ / ٨٢ وان كان أبو الفرج ضعف رواية الزبير هذه لأن بين حياة معاوية وبين من قتله داود بن على نحو ثمانين سنة .
(٣٠١) الاغانى ٩ / ٢٠ دار الكتب .
(٣٠٢) تزيين الاسواق ١ / ٣٨ .
(٣٠٣) المرجع السابق ١ / ٧٤ .
(٣٠٤) الاغانى ٩ / ٤ « دار الكتب » وتزيين الأسواق ١ / ٥٠ .
(٣٠٥) الاغانى ١ / ٥٨ « ساسى » .
(٣٠٦) الاغانى ٩ / ٢١٣ « دار الكتب » وتزيين الأسواق ١ / ٥٨ .

ابن حزام (٣٠٧) · وبكثير (٣٠٨) · وهناك شخصية دينية تدعو للمحبين وتتوسل الى الله ليشفيهم هى شخصية ابن عباس ، وقد اسند اليها الرواه هذا الدور فى معظم هذه القصص ، فهو يلتقى بعروة ابن قيس (٣٠٩) ، وبعروة بن حزام (٣١٠) ، وبقيس بن ذريح (٣١١) وبعمر بن أبى ربيعة (٣١٣) · وهناك شخصيات المحبين التى تتقابل وتلتقى وتتعاطف ·

العناية اذن كانت موجهة الى الادوار والى المهام الرئيسية التى تقوم بها هذه الشخصيات ، ولو نظرت الى القصص الشعبى المتداول ، لوجدت أنها تجمع حوادث متباعدة زمنا ، أو شخصيات سبق بعضها البعض قرونا ، وأنها تحطم الحاجز الزمنى ، وتلغى المسافات البعيدة ، وتهتم بالتجربة وبالأداور الرئيسية ، فمثلا قصة سيف بن ذى يزن ، ذلك الرجل الذى قد عاش فى القرن السادس الميلادى ، تجعله القصة الشعبية ندا « لسيف أرعد » الملك الحبشى الذى عاش بعده بقرون ، ومثلا عنترة ذلك الشاعر الجاهلى ، تنسب اليه السيرة الشعبية المعروفة باسمه ، أحداثا جاهلية وأخرى اسلامية ، بل وتمتد له بأحداث وقعت أثناء الحروب الصليبية ·

الطبيعة :

والطبيعة فى هذه القصص لايهتم القاص بها كثيرا ، فلا يعنى القاص برسم الجو الذى يحيط به ، الا مجرد اشارات سريعة وعامة ،

---

(٣٠٧) الاغانى ٢٠ / ١٥٨ « ساسى » وتزيين الاسواق ١ / ٨٥ ·
(٣٠٨) الاغانى ٩ / ١٠ دار الكتب ·
(٣٠٩) تزيين الاسواق ١ / ٣٦ ·
(٣١٠) الاغانى ٢٠ / ١٥٨ « ساسى » ·
(٣١١) تزيين الاسواق ١ / ٥٨ ·
(٣١٢) تزيين الاسواق ١ / ٤٣ ·

كان يذكر أن قيسا علق بلبنى وقد احتدم الحر (٣١٣) ، وأن الفرزدق قد عدل الى دار عقيلة بنت النعمان ، بعد أن ارتفعت له سحابة فرعدت وبرقت وأرخت عزاليها (٣١٤) ، وأن جميلا قد التقى ببثينة جلسة فى ليلة ذات غيم ورعد وريح (٣١٥) ، وأنه جلس معها « وان بينهما لثمامة عظيمة وهى من ورائها جالسة » (٣١٦) .

وربما كان السبب فى هذا أن الناس فى ذلك الحين ، لم تكن لديهم دقة الملاحظة ، والتفطن للأمور الصغيرة ، فتلك الدقة وهذه العناية بالأمور الصغيرة والجزئيات التافهة ، والتنبه للدقائق الصغيرة ، والفروق بين الاشياء ، لم تنم ـ بدرجة واضـــحة ـ الا فى العصر الحديث . ان العناية بكل تفاصيل البيئة ، ورسم كل دقائق المكان قد ظهرت بوضوح فى المذهب الواقعى ، وفى المذهب الطبيعى الذى يثبت الباحثـون تأثره بالحركات العلمية فى العصر الحديث . فكيف اذا كان هـــؤلاء القوم عربا رحلا سريعى الانتقال من مكان الى مكان ، فلا يمكثون مدة مديدة فى مكان يتيح لهم أن يتعايشوا معه ، وأن يقيموا علاقة بينهـم وبين مافيه من أجزاء ، وكيف اذا عرفنا أن معظم أبطال هذه القصص من عامة الشعب الذين لم يرزقـوا حظا كبيرا من الثقافة ولونـا واضحا من التعليم .

وربما كان السبب أيضا أنهم لم يكونوا يعمدون الى عمـل أدبى ، يحققون فيه رسم الجو ، وتحديد البيئة ، وضبط الزمـان ، بـل كانت الأمور مختلطة لديهم بين الحقائق التاريخية والأشياء الأدبية ، فقد كان الرواى يحكى أمرا تاريخا قد وقع ، أو قيل له انه وقع ، ويحيطه بكثير من الخيال والأوهام بصورة ساذجة ، لانتوقع أن يتحقق منها ما يتحقق

---

(٣١٣) تزيين الأسواق ١ / ٥٣ .
(٣١٤) الزهرة ص ٦١ .
(٣١٥) الاغانى ٨ / ١١٥ دار الكتب .
(٣١٦) المرجع السابق ٩ / ٣١ .

فى العمل الادبى الخالص ، الذى يعمد اليه المؤلف ، وهو على بينة من نفسه ، وحقيقة من شعوره ، وأنه ينشىء عمـلا فنيـا ، ينبغى أن تتحقق له الجاذبية والتأنق والتأثير .

العصـــــر :

والعصر الأموى بكل مافيه من اضطرب واهتياج ، وبكل مافيه من تيارات ثقافية ومذاهب فقهية ، ومنازعـات كلامية ، وبكـل مافيه من حركات سياسية وفتوحات خارجية ..

هذا العصر ـ بكل مافيه ـ غير ممثل فى قصص العشق .

وتفسير ذلك سهل ، فمعظم قصص العشق حجازى ، وقد عرفنا أن الحجاز فى ذلك الحين ، قد أرغم على البعد عن الحياة الجادة ، وأن الاغراء مرة والارهاب ثانية قد اضطراه الى أن يقبع على نفسه ، ويلتف على ذاته ، يحلل عواطفها ويشرح تياراتها .

ولكننى مع ذلك أستطيع أن أستشف من قصص العشق أمورا . منها مايدل على نفسيتهم واتجاههم ، ومنها ما يدل على عاداتهم وخلقهم .

فكثير من هذه القصص تعتبر صورة منعكسة للمجتمع الحجازى فى ذلك الحين ، فالمجتمع الحجازى فى ذلك الحين قد أصيب باليأس والعزوف عن الحياة ، وأبعد عن تيار النشاط والكفاح ، وقد عكست القصص هذه الحالة اليائسة الزاهدة ، فتشم فيها رائحة الموت قـــوية غالبة ، أو ترى فيها صورة « الهستيرية » والتشنج .

فالموت بين العشاق قد أصبح بدعة منتشرة ، فرجل من ولـــد عبد الرحمن بن عوف ضاق حاله لشدة انشغاله بحبيبته عن تدبير أمر حياته ، ثم عرضت عليه أن يخرج الى هشام بن عبد الملك يسأله شيئا ، فلما كان قرب الرصافة أغمى عليه ، ثم رجع قبل أن يصل الى سليمان ، فأخبر از وجتــه قـــد ماتت ، فلم يسمع منــه الا شــهقة وفـــارقته

نفسه (٣١٧) . وشاب يحب جارية عبد الله بن جعفر ، فلما أهداها له وأظفره ببغيته ، دهش وأخذه الخبل ولبط به ثم فارق الدنيا (٣١٨) . وعاشقة يغضب منها حبيبها . فتجعل فى عنقها انشوطة وتخنق نفسها ، ثم يلزم الشاب قبرها ويلحق بها (٣١٩) . وشاب من المدينة يحب مغنية عند يزيد بن عبد الملك ، ثم بعد أن يسمع منها ثلاثة أصوات فى حضرة يزيد ، يلقى بنفسه من مكان عال فيموت ، ثم تلحق هى به (٣٢٠) . والأمثلة على ذلك كثيرة . بل وجد ما يسمى ، بالعشق المسلسل » (٣٢١) الذى يكثر فيه العشاق وبالتالى يكثر فيه الموت ... الخ .

وبدعة أخرى شاعت بين العشاق ، فيها « هستيرية » وتشنج وهى غشيانهم عند سماع اسم المعشوقة ، فعروة بن حزام يسمع ولدا يخبر أباه ، بانه يحمل الماء على الناقة المسماة « بعفراء » فيغمى عليه ساعة (٣٢٢) . وبثينة سارت جميلا بشىء فخر مغشيا ، وظل كذلك حتى طلعت الشمس عليه (٣٢٣) . ، والمجنون يسمع من ينادى باسم « ليلى » وهى غير حبيبته ، فيغمى عليه وينشد الاشعار (٣٢٤) ..

فكل هذا انعكاس للمجتمع الحجازى فى ذلك الحين ، الذى أصيب « بالهستيريا » والتشنج ، وكان مدفوعا نحو الموت والانتحار .

---

(٣١٧) تزيين الاسواق ١ / ١٣١ .
(٣١٨) الغقد الفريد ٣ / ١٩٩ .
(٣١٩) تزيين الاسواق ١ / ١٨٠ .
(٣٢٠) العقد الفريد ٣ / ١٩٨ على أن صاحب التزيين (١/١٤٦) يذكر أن هذا الشاب من البصرة واشترى هذه الجارية ثم استولى الحجاج عليها وبعث بها الى الشام ، فسار وراءها . ولكن الانسب والاوفق أن يكون الشاب من المدينة كما ذكر ابن عبد ربه .
(٣٢١) تزيين الاسواق ١ / ١٥٦ .
(٣٢٢) المرجع السبق ١ / ٨٥ .
(٣٢٣) الشعر والشعراء ١ / ٤٠٥ .
(٣٢٤) الاغانى ١ / ١٦٨ « ساسى » .

وتقرأ قصص العشـاق ، فتلاحظ أن بعض العـذريين ، يتعلقون بصوت الهديل (٣٢٥) ، يناجونه ويبثونه شكواهم ، ويتعاطفون معه ، وربما كان السبب فى هذا ما فى صوت الحمام من شجن وشجو وحزن ، تدفع النفوس الحزينة الى التعلق به . وهناك أسطورة ، تفسر ما فى صو تالحمام من رقة وشجو ، ويأس وتفجع ، فقد زعموا أن الهديل فرخ على عهد نوح عليه السلام ، فصاده جارح من الطير ، فليس من حمامة الا وتبكى عليه الى يوم القيامة (٣٢٦) .

مأساة أهل الحجاز ترجع الى الشاميين ، فقد كان الحجار فى صولجان وقوة ، يملك دفة الامـــور ويدبر زمامهـا من المدينة ، ولكن سعادتهم لم تتم ، اذ انقض عليهم أهل الشام ، فنقلوا دفة الأمور الى بلادهم ، وحرموا الحجازيين من متعة الرياسة ولذة القيادة . ولهـذا لا تعجب حين نرى أن « هادم اللذات ومفرق الجماعات » فى قصص العشق هو شآمى . يقرب عروة مـ نهدفه ، ويوشك أن يرجع محمــلا بالمال ، فيضم اليه عشيقته ويسعدان . ولكن رجلا من أنساب بنى أمية ، برى عفراء ، فتعجبه ويرتحل بها الى الشام ، ويترك لعروة الحسرات والندم (٣٢٧) . والرماح بن مالك القيسى يعشـق أم جحـدر ، ولكن سعادته لم تدم ، وأنذرهم الغراب بالحسرات ، وما أن يصبح النهـار حتى تخبره امرأة أخيه أن شاميا خطبها الى أهلها ، ويكمل الرمـاح مأساته فجئت بالقرب من خبائها مترددا أياما الى أن مضى بها ، فكنته انشد :

أجـارتنا ان الخطـوب تنـوب

على ، وبعض الآمنين تصـــيب

---

(٣٢٥) الأغانى ١ / ١٨١ ، ١٨٣ « ساسى » .
(٣٢٦) بلوغ الارب ٢ / ٣٦٤ .
(٣٢٧) اخبار عروة بن حزام ص ٤

أجـارتنا لســت الغـداه ببـارح
ولكن مقيم بها ما أقام عسيب (٣٢٨)

واذا كان « هادم اللذات » ينقض من الشام فى أغلب الأحـوال ، فان الحجازيين يضمرون الحب والعطف على أهل البيت ، وقد جـاءت القصص تشف عن هذا الوضع ، الذى عبر عنه عبد الرحمن بن أبى عمار ، خير تعبير ، حين قال لابن جعفر « يا أهل البيت ، قد خصكم الله بأشرف ما خص به أحدا من صلب آدم ، فلتهنكم هذه النعمة وبارك لكم فيها » . وذلك أن عبد الرحمن أحب جارية ملكت عليه نفسه ، ولامه فيها عطاء ومجاهد ، فلما علم عبد الله بهذا بعث الى مولى الجارية ، واشتراها منه بأربعين االفا ، وأمر قيمة جواريه فحلتها وزينتهـا ، ثـم ســأل عبد الرحمن : ما فعل حب فلانة ؟ قال : « مشوب باللحم والدم ، والمخ والعصب » فأخرجها اليه ، وأمر له بمائة درهم (٣٢٩) .

وقصة « قيس ولبنى » (٣٣٠) ، تكشــف عن مدى المكانة التى يحتلها هؤلاء فى قلوب الحجــازيين ، مضى الحسين الى أبى لبنى ، فأجاب بالطاعة . ثم مضى الى أبى قيس ، فقام ذريح ومرغ وجهــه على أقدامه ومضى معه خاطبا لبنى . وأكثر من هذا أن زوج لبنى يطلق امرأته ، ويبين عنها لعاشقها ، ويخالف ما جبل عليه الرجل من عناد وصلف ازاء هذه الأمور ، يفعل هذا ارضاء للحسن وللحسين ولابن أبى عتيق .

وقد تعرضت احدى القصص للمنافسة بين يزيد بن معاوية ، والحسين ابن على ، وأنهتها بانتصار الحسين والفوز على يزيد ، فقد أحب يزيد أم خالد امرأة عبد الله بن عامر ، وشكا لأبيه حبهـا فاستقدم معاويـة

---

(٣٢٨) تزيين الاسواق ١ / ٣٧ .
(٣٢٩) أخبار النساء ص ٢٨ .
(٣٣٠) تزيين الاسواق ١ / ٥٣ .

ابن عامر ، وساله طلاق أم خالد ، على أن يطعمه فارس خمس سنين ، فأجابه الى ذلك ، ثم دعا أبا هريرة فقال له : ارحل الى المدينة ، حتى تأتى أم خالد ، فتخطبها الى يزيد ، وتخبرها أنه ولى عهد المسلمين ، وأن مهرها عشرون ألف دينار ، ولما قـدم أبو هريـرة الى المدينة ، التقى بالحسن والحسين ، وبعبد الله بن العباس ، وبعبد الله بن جعفر وبعبد الله بن الزبير ، وبعبد الله بن المطيع بن الأسود . ولما علم كل منهم بالقصة قاله له :اذكرنى لها ، فلما دخل عليها خيرها بين هؤلاء ، فطلبت منه أن يختار لها ، فقال لها : « أما أنا فقد اخترت سيد شباب أهل الجنة » . فقال : « قد رضيت بالحسين بن على » (٣٣١) .

وعلى هذا ، فقد كـان شـوقى موفقـا فى تصوير مـا يضـمره الحجازيون لأهل البيت ، من محبة واحترام وتقدير ، وذلك فى روايته « مجنون ليلى » (٣٣٢) .

وفى تلك القصص ترى تصويرا لبعض عادات العرب وخلقهم .

فالشهامة ، والكرم العربى ، وتوقير الضيف ، وحق الممالحة ، واحترام الكبير ، والحرص على تقاليـد العرب ـ تبـدو فى أكثر من قصة .

يضل جميل ، فتلوح له نار فيقصدها ، فاذا هو براع يرحب به ويكرمه ، ويذبح له شاة ويشوى اللحم ، ويلقيه بين يديه ، ويابى الا أن يضيفه ثلاثا (٣٣٣) . وابن ذريح يمر ببنى كعب وقد احتدم الحر ، فيستقى ماء من خيمة ، فتبرز له لبنى وتمهد له وطاء ، وتستحضر له ما يحتاج اليه ، ثم يتى أبوها ، فيرحب به وينحر له جزورا (٣٣٤) .

---

(٣٣١) مجمع الأمثال ١ / ٢٦٣ .
(٣٣٢) انظر رواية (مجنون ليلى) مثلا فى ص ١٣٩ .
(٣٣٣) الموشى ١ / ٨٣ .
(٣٣٤) تزيين الاسواق ١ / ٦٢ .

والفرزدق خرج يريد اليمامة ، فاذا برعيد وبرق وسحب ، فيعدل الى بعض الديار ، ويطلب القرى فيجيبوه (٣٣٥) ، وشهاب بن حرقـــة السعدى يكون فى قفر ، ثم يعدل الى خيمة فى جوفها نعيمة ، ويسالها القرى فتجيب ثم يأتى زوجها فيرحب به ويطعمه من لحم الاســد ، ويلوح فى عين حرقه الغدر ، فيستحلفه عامر بحق الممالحه ، وحين سمع الحجج هذه القصة ، أعجب بالفتى عامر ، وكادا أن يبطش بحرقة لخيانته حق الممالحة (٣٣٦) ٠ وقيس لبنى يحترم والديه ، ويذعن لطاعتهما ، فيتغلب على عواطفـــه ويطلق لبنى (٣٣٧) ٠ ووالـــد لبنى يجيئه الحسين مستشفعا ، فيكبر حفيد النبى ﷺ ، ويقول له : « لو ارسلت لكفيت » ، ولكنه مـــع ذلك يحرص على تقليد العرب ، فيستدرك قائلا ، « بيد أن هذا من أبيه أليق كما هو عند العرب » (٣٣٨)

ومن هذه القصص ، أستطيع أن استشـف صـورة العلاقات بين الرجال والنساء فى مجتمع البادية ، اذ يبدو أنه كان فيها شىء من الحرية (٣٣٩) ، فقد كان قيس قبل أن يعشق ليلى صاحب غـــزل

---

(٣٣٥) الزهرة ص ١٦١ ٠

(٣٣٦) المحاسن والاضداد ص ٧٤ ٠

(٣٣٧) تزيين الاسواق ١ / ٥٤ ٠

(٣٣٨) تزيين الاسواق ١ / ٥٣ ٠

(٣٣٩) عرض الدكتور الحوفى للعلاقة بين الرجال والنساء فى العصر الجاهلى عرضا وافيا ومدعما بالنصوص ، فبين أن هناك اختلاطا بين الاقرباء ، وأن هناك اختلاطا كان بين غير الاقرباء ، على أنـــه اذا خشى أهل الفتاة مغبة الاختلاط فانهم يحاولون منعهم ٠ ثم بين دواعى هذا الاختلاط فى ظروف الحياة والبيئة ، ومن التعرض لذلك فى الطواف حول الاصنام واجتماع القوم فى الاسواق الكبرى ومواســم الحج (الغزل فى العصر الجاهلى ١٣٦ ـ ١٤٧) ٠ ويبين من هـــذا العرض المدعم بالنصوص أنه لايوجد اختلاف كبير بين تلك العـلاقات فى العصر الجاهلى ، وبينها كما تظهر فى قصص العشق الأموية ، وهذا

ومجالسة للنساء ، فمر على نسوة ، فدعونــه الى النــزول والحديث فأجاب ، وجعل يحدثهن ، الى ان أقبل شاب حسن الوجه ، يقال له « منازل » فاقبلن عليه بوجوههن (٣٤٠) ٠ وقد صرح رباح العــامرى بهذا حين تحدث عن تردد قيس على ليلى فى أول عشقه لها « والعرب ترى ذلك غير منكر أن يتحدث الفتيان الى الفتيات » (٣٤١) ٠ وقـــد دافع ابن قيم الجوزية عن هذه العادة « وانما أطلقت العرب حـــديث الرجال الى النساء لما كانوا يرون من النقص فى الريب ، ويأخـــذون أنفسهم بحفظ الجار ، وما يعرف بعضهم من بعض من استعمال الوفاء والتحرز من العار ، لأن الرجل منهم كان يصون حرمة جاره وصاحبه ، كصيانة الابنه والأخت والزوجة » (٣٤٢) ٠

فالعرب كانوا يبيحون شيئا من الحرية فى العلاقات بين الرجال والنساء ، اعتمادا منهم على حسن النية وثقة بالخلق العربى ، ولكن اذا تبين لهم أن بين فتى وفتاة علاقة خاصة ، غير تلك العلاقة العامة ، فانهم حينئذ يتشددون ويحافظون على سمعتهم ٠ وقد عرفنا العقبــة الكئود التى كانت تقابل العشاق ، وهى أن أهل الفتاة يحولون بينهما ، لانه شبب بها وذاع أمرهما بين الناس ، ومن عادة العرب الا يتزوج الرجل امرأة شبب بها قبل خطبته ٠ ذكر رباح العامرى مكملا حديثه السابق « أن قيسا أول ما علق ليلى كان يتردد عليها ، فلما علم أهلها بعشقه لها منعوه من اتيانها وتقدموا اليه » (٣٤٣) ٠

يؤكد ماسبق أن قلته ، ومازلت أقوله ، من أن هذه القصص ذات بذور جاهلية ، وان تأثرها بالتيارات الدينية والفلسفية والفكرية المعــاصرة كان ضئيلا ٠

(٣٤٠) الاغانى ١ / ١٦٥ « ساسى » ٠
(٣٤١) الاغانى ٣ / ٤٣ دار الكتب ٠
(٣٤٢) اخبار النساء ص ٩٨ ٠
(٣٤٣) الاغانى ٢ / ٤٢ دار الكتب ٠

النهـاية :

القصة القصيرة المعاصرة ، تعتبر النهاية أهم عنصر من عناصرها ، فهى الشىء الذى يلوح فى ذهن القاص فى كل حركة من حركات القصة ، اذ يستجمع كل خيوط القصة ، ويعقد فيها ما شاء له التعقيد ، ويضع علاقات ، ثم اذا بتلك الخيوط تصل الى النهاية وصولا ، فتفك كـل عقدها ، وتمنطق كـل علاقاتهـا ، ولهـذا سـماها البعض « لحظة التنوير » (٣٤٥) ٠ Moment of Illumination أى اللحظة التى تبرز كل معنى سبقها ، وتلقى الضوء عليه ٠

فالنهاية ، مع أنها آخر شىء فى القصة ، الا انها عند الفنان الناجح سيف مصلت على أجزاء القصة ، يبتر منها مالا أهمية له ولافائـدة منه ، ويبارك مايخدم النهاية ويحرق البخور فى محرابها ٠ وهـذا يعنى ان النهاية التى عى فى ذهن القاص ، تتحكم فى بناء القصـة ونسجها نسجا معينا لاترضى الا به ، أو بعبارة أخرى ، ان النهـاية نتيجة حتمية لبناء خاص ، فهى ليست من اختيار القاص ، له أن يضع نهاية ، أو يحذف أخرى ، بل هو أمر مكتوب عليه ، فرضته أحـداث القصة ، ومنطقها الخاص ٠

ولم يكن ذلك المعنى الفنى للنهاية ، مفهوما لدى القاص القديم بوجه عام ، فقد كان يترك قصـته تسير بدون رقابـة ، حتى تحط رحالهاوتختار النهاية التى ترضى السامعين ، أو يرتضيها له السامعون ، ولعلكم قرأتم خبر ذلك الرجل الذى كان يستمع الى سيرة عنترة ، ثم وقف به القاص عند أسر عنترة ، وانفض السامر ، ولكن الرجل لم يهدأ له بال ، وذهب الى منزله مغضبا ، وقدمت له زوجه الطعام فرفضه ، ولم يهدأ ، حتى رجع الى منزل القاص ، وخبط على بابـه بالليل ،

---

(٣٤٥) فن القصة القصيرة ص ٩٣ ٠

فوجده نائما فايقظه ، وقال له : تنام وقد سجنت الرجل ، وما زال به ، حتى قرأ له القصة ، وخرج له عنترة من السجن ، ووقف به عند نهاية ارتضاها ، مما أسعد الرجل ، وجعله ينفح القاص الدراهم ، ويعـود الى منزله راضيا (٣٤٦) .

انما عرفت تلك الأهمية للنهاية فى العصر الحديث ، عند اكتشاف القالب الفنى للقصة القصيرة . والسيد الأول للقصة القصيرة الحديثة «Poe» يقول : « يجب ألا تكتب أية عبارة ــ بطريقة مباشرة ، أو غير مباشرة ــ منبثقة عن ميل لم يكن موجودا فى التخطيط المبدئى ، فتقدم الفكرة ، كما هى مرتسمة فى الذهن ، واضحة المعالم ، غير مهزوزه (٣٤٧) .

وعلى ذلك ، فلا ينبغى أن نتوقع فى قصص العشق الا أن تكون نهايتها مرتجلة ، تخضع لمزاج القاص ولمزاج المستمع ، ولم تكن تتحكم فى بناء القصة ، فالقصة التى تنتهى نهاية سعيدة ، لا تختلف فى بنائها وأحداثها ونفسيات شخصياتها ، عن القصة التى تنتهى نهاية قاتمة ، ولا تحتاج فى هذا الى شىء ، أكثر من أن يقول الراوى « وغدونا فى اليوم الرابع نستعدى أثره ، حتى وجدناه فى واد كثير الحجارة خشن ، وهـــو ميت بين تلك الحجـارة ، فاحتمله أهله ، فغسـلوه وكفنوه ودفنوه » (٣٤٨) أو أن يقول : « وضربت القبة وسط الحى ، وأهديت اليه ليلا ، وبت عند الشيخ خير مبيت ، فلما أصبحت ، غدوت ، فقمت بباب القبة ، فخرج الى ، وقد تبين الجذل فى وجهه » (٣٤٩) .

---

(٣٤٦) انظر مقدمة ديوان (منية النفس فى أشعار عنترة عبس) ص ٥ .

(٣٤٧) Encyclopeadia Britanica «short story»

(٣٤٨) نهاية قصة المجنون ، انظر : الاغانى ٢ / ١٣ « ساسى » .

(٣٤٩) نهاية القصــة التى حكاهـا ابن أبى ربيعة عن صـاحبه أبى مسهر ، وتلك النهاية تتفق مع مزاج عمر وميله الى الجانب السار فى الحياة ، انظر مصارع العشاق ص ٥ .

ومن الطريف أن بعض القصص يختار لها راو نهاية ، ثم يختار لها راو آخر نهاية مخالفة ، وذلك مثل قصة « قيس ولبنى » . فمنهم من ينهيها نهاية سعيدة وأن لبنى قد طلقت من زوجها ، وأنها تزوجت قيسا ، واقاما معا حتى الموت ، وأن هذا سر مدحه لابن أبى عتيق :

جزى الرحمن افضل ما يجازى ... على الاحسان خيرا من صديق
فقد جربت اخوانى جميعا ... فما ألفيت كابن أبى عتيق
سعى فى جمع شملى بعد صدع ... ورأى حسدت فيه عن الطريق
واطفأ لوعة كانت بقلبى ... اغصتنى حراراتها بريقى

ومنهم — وهم أكثر الرواة — من ينهيها نهاية حزينة ، فلبنى ماتت فى العدة ، وحين بلغ قيسا ذلك خرج حتى وقف على قبرها ، وانشد :

ماتت لبينى ، فموتها موتى ... هل ينفعن حسرة على الفوت
انى سأبكى بكاء مكتئب ... قضى حياة وجدا على ميت

ثم بكى حتى أغمى عليه ، فحمل ومات بعد ثلاث ، ودفن الى جانبها (٣٥٠) .

والاستاذ عزيز اباظه فى مسرحيته الشعرية « قيس ولبنى » ارتضى أن ينهيها نهاية سعيدة .

والقصص التى تنتهى نهاية سعيدة ، كانوا يضعونها تحت عناوين توحى بذلك ، فابن الجوزى يعنون بقوله « سياق ذكر جماعة حصل لهم مرادهم من تزوج النساء المحبوبات أو ملك الجوارى » (٣٥١) ، ثم يورد القصص التى تنتهى نهاية سعيدة ، كقصة عمارة جارية عبد الله ابن جعفر . وداود الانطاكى يعنون « ذكر من حظى بالتلاق ، بعد

(٣٥٠) تزيين الاسواق ١ / ٥٣ .
(٣٥١) ذم الهوى ص ٦٠٤ .

تجرع كاس الفراق ، وهذا القسم هو الذى ترجمه صاحب الأصل بمن ساعده الزمان بمطلوبه ، حتى ظفر بمحبوبه ، وذلك اما بشفاعة أو جاء أو حيلة أو عناية أزلية » (٣٥٢) ثم يورد القصص التى تنتهى نهاية سعيدة ، كالقصة التى يقصها معبد المغنى عن شاب « خرج وقد سال العقيق ، مع فتية للتنزه فاذا هم بنسوة ، بينهن فتاة ، قد فضحت الشمس ، بعينين لا يرتدان الا باقتناص النفس » فعلقها ثم خطبها الى أهلها فأبوا . فلما علم ابن جعفر بقصته ، ركب الى الخليفة ، وقص عليه القصة فكتب الى عامله بالحجاز ، بأن يسيرهم اليه ، ثم أمهرها الخليفة وزوجها منه (٣٥٣) . أو كقصة الأعرابية الحسناء مع الاعرابى الظريف وابن أم الحكم ومعاوية (٣٥٤) . أو كقصة الغلام الذى تسور ليلا الى حبيبته فقبض عليه أبوها ، واتهمه بالسرقة ، واقر الغلام حتى لايفضحها ، وكاد خالد بن عبد الله القسرى أن يقطع يده ، لولا ان أخا الفتاة ، ارسل اليه يخبره حقيقة الأمر ، ثم احضر خالد أباها وأمره أن يزوجها من الغلام ، ثم ساق المهر من عنده (٣٥٥) .

على أنك اذا رجعت الى المصادر التى تحدثت عن قصص العشاق ، فانك ستجد الكثرة الكثيرة من هذه القصص ، تنتهى بمأساة ، ويكفى أن أشير الى المجنون ، وعروة بن حزام ، وعروة بن قيس ، والأعرابى الذى افترس السبع معشوقته ، وستجد أمثلة من هذا فى الفصل المقبل . ورائحة الموت ، والخنق ، والحزن ، والاغماء والغشيان ، والياس والانطواء ، تشيع فى هذه القصص أكثر من رائحة اللقاء ، والزواج والسعادة ، والتفاؤل والاقبال على الحياة .

وهذا موافق لنفسية الحجازيين ، وأهل البادية فى ذلك الحين ، فقد كان يمر بظروف سوداء ، تجعل ميل القصص الى جانب الحزن ،

---

(٣٥٢) تزيين الاسواق ١ / ٥٣ .
(٣٥٣) تزيين الاسواق ١ / ١٥٠ .
(٣٥٤) المرجع السابق ١ / ١٥١ .
(٣٥٥) المرجع السابق ١ / ١٥٣ .

والموت ، والتشاؤم ، اقرب صدقا ، واقرب الى نفوسهم وامزجتهم ، واقوى دلالة وشفافية لتلك المرحلة .

وهذا يجعلنى أعاود النظر فى النهايـة التى ارتضـاها الاسـتاذ عزيز اباظة لمسرحيته ، على الرغم من أن الأستاذ العقاد قد دافع عن هذه النهاية فى المقدمة التى كتبها لهذه المسرحية .

فلو أردت أن أنقده ، كما يفعل أهل المذاهب الفقهية ، لقلت انه اتبع القول الضعيف وخالف القول المشهور ، فان أكثر الرواة على أنها ماتت فى العدة ، وأن مدحه لابن أبى عتيق ، حين لم يشك فى عودها اليه (٣٥٦) . ولكننى سأنقده نقدا فنيا ، وهو أن الأدب الذى يتخذ من التاريخ مادة له ، ينبغى أن يحيى الفترة التى يتخذها ميدانا لـــه ، فينقل القارىء الى جوها ، ويجعله يتشرب روحها ، ويختلط بجوهرها ، فالفرق بينه وبين المؤرخ ، أن الأخير يتعامل مع وثائق جامدة ، أمـا الفنان فان نجاحــه يكمن فى احيـــاء تلك الفترة ، وبث الحيـاة فى الوثائق ، وبعث العصر يفج بعاداته وجوهره ، فلو أن الأستاذ أباظة ، اختار لمسرحيته اتجاه أكثر الرواة وأنهاها نهاية حزينة سوداء ، لكان أقرب الى روح الحجاز فى ذلك الحين ، وأكثر دلالة على نفســيته ومزاجه ، وداود الانطاكى وضع أخبار قيس لبنى مع مات من العشاق ، وقد دافع عن هذا بقوله : « وكانى بغبى يعترض على نقلى لـــه من حظى بالتلاقى ، الى مراتب من مات دونه من العشاق ، ولم يدر أن الحيثيات توجب بالتامل الصائب ، والفهم الذكى الثاقب ، ما لم يدركه الغافل الغبى » (٣٥٧) .

---

(٣٥٦) تزيين الأسواق ١ / ٥٣ .
(٣٥٧) المرجع السابق ١ / ٦٢ .

الفصل الثالث

تطـــور قصـــص العشـــق

تتابعت قصص العشق على مختلف العصور العربية ، واتخـذت أشكالا وألوانا مختلفة ، فلو رجعت الى كتاب « تزيين الأسواق » لرأيت فيه أخبارا عن ألوان من العشق ، فالباب الأول عقده « فيمن استشهد من المحبين ، شوقا الى حضرة رب العالمين » . والثانى فى « ذكر أحوال عشاق الجوارى والكواعب ، وذكر ماصدر لهم من العجائب » . والثالث فى « ذكر عشاق الغلمان ، وأحوال من عدل الى الذكور عن النسوان ، وتفصيل ما جرى عليهم من تصاريف الزمان » . والرابع فى « ذكـــر ما سوى البشر ، وما لاقوا من العبر » . وفى هذا الباب ، أورد أخبارا عن حب بين حمامتين ، وبين غراب وخطافين يشبه العشق المسلسل ، وبين كلب وملك من أقيال اليمن ، وبين نخلتين ، كانت احداهمـــا تزهر وتسقط قبل الانعقاد فرآها حاذق ، فعرف أنها عاشقة ، فدعـــا برصاص ، فصنع شريطا ، وربط منها الى النخلة الأخرى ، فحسن ثمرها ، وقد قطع صاحب البستان الشريط ، فأسقطت الزهر ، فأعاده فصلحت .

* * *

والمتتبع لتطور قصص العشق ، يستطيع أن يتحدث عن ذلك من نواح .

ناحية ينبع فيها الباحث حكاية معينة ، وينظرها فى مختلف المراجع ، ويراقب التطور والفروق بين هذه المراجع .

فمثلا حكاية الشاب الذى أدخل قصته على الخليفة ، وفيها « أن رأى أمير المؤمنين أن يأمر جاريته فلانة أن تغنى ثلاثة أصوات ، ثم ينفذ فى ما شاء من حكمه ، فعل » ـ هذه الحكاية قد ذكرت فى الزهرة ، وفى الموشى ، وفى تزيين الاسواق ، وفى العقد الفريد ، وفى مصارع العشاق ، وفى ذم الهوى ، وفى المستطرف · ومن الممكن مراقبة الفروق بين صنيع كل كتاب ، ولكننا نجدها فروقا شكلية ، فهى اختلاف على اسم الخليفة الذى رفعت اليه القصة ، فهو سليمان فى الزهرة وفى المحاسن والاضداد وفى الموشى · أو هو عبد الملك ابن مروان فى ذم الهوى وفى تزيين الأسواق وفى مصارع العشاق · أو هو يزيد بن عبد الملك فى العقد الفريد وفى المستطرف · أو اختلاف فى الشعر الذى طلبه الشاب · أو فى موطن الشاب وهل هو من البصرة كما فى تزيين الأسواق · أو هو من المدينة كما فى العقد الفريد · أو فروق يسيرة كان يذكر الحاجظ مقدمة ، يبين فيها أنه خرج مع محمد بن ابراهيم على حراقته ، فزجت عوادة بنفسها الى الماء ، ثم تبعها غلام وزج بنفسه فى أثرها ، وأدار الملاح الحراقة ، فاذا بهما معتنقان وميتان · ويستفظع ذلك محمد ، ويقول للجاحظ « ··· لتحدثنى بحديث يسلينى عن فعل هذين ، والا الحقتك بهما » فيقص عليه خبر الشاب مع سليمان ابن عبد الملك (١) · أو يفصل صاحب التزيين فى أول هذه القصة ، فيذكر ان هذا الشاب اسمه ظريف بن نعيم ، وكان بأعظم حالة من الجمال ، وأمكن رتبة من المال ، وكان أبوه من أكابر تجار البصرة · ثم رحل الشاب يوما الى بغداد ، وحضر يوما الدكة ، فرأى الجارية ، فاعجبته ، وساوم مولاها ، حتى أخذها وانطلق الى منزله · فلما كان الليل جاء صاحب شرطة الحجاج فأخذ منه الجارية ، ووجه بها الى عبد الملك ، فتبعها الفتى الى دمشق ، ثم كانت قصته السابقة (٢) ·

(١) الزهرة ص ٣٥٢ ·
(٢) أنظر تزيين الأسواق ١ : ١٤ ·

أو أن يذكر ابن عبد ربه أن مغنية من المدينة وقعت فى قلب يزيد ، فسألها ان كان لها أقارب بالمدينة ، ليكرمهم من أجلها ، وأخبرتـه ألا أقارب لها ، ولكن ثلاثة نفر . كانوا أصدقاء مولاتها ، وأنها تحب أن ينالهم ، فكتب الى عامله بالمدينة أن يسيرهم اليه ، فلما وصلوا عنده سألهم حوائجهم ، فأما الاثنان فذكرا حوائجهما . وأما الثالث ، فبعد أن أخذ الأمان ، طلب ثلاثة أصوات من الجارية ، يشرب عليها ثلاثة أرطال (٣) .

وقد أتاح لنا ابن الجوزى فرصة للمقارنة جميلة ، اذ ذكر ثلاث روايات لهذه القصة ، رواية فى عهد الملك بن مروان ، والثانية فى عهد سليمان ، والثالثة فى عهد الرشيد (٤) والفروق بين هذه الروايات ضئيلة ، فالرواية الأولى تنتهى بأن عبد الملك ، بعد أن رمى الفتى بنفسه ، سأل عنه ، فقالوا : « غريب ، لايعرف الا أنه منذ ثلاث ليال ينادى فى الأسواق ، ويده على رأسه :

غدا يكثر الواشون منا ومنكـم وتزداد دارى عن دياركم بعدا

والرواية الثانية تنتهى بأن سليمان ، قال بعد أن زج الفتى بنفسه على دماغه « انا لله وانا اليه راجعون ، أتراه توهم الجاهل أنى أخرج اليه جاريتى ، وأردها الى ملكى . ياغلام ، خذ بيدها ، فانطلق بها الى أهله ، فلما انطلقوا بها نظرت الى حفيرة فى دار سليمان ، قد أعدت للمطر ، فجذبت يديها من أيديهم ، وجعلت تقول :

من مات عشـقا فليمت هكـذا لا خير فى عشـق بلا مـوت

فزجت نفسها فى الحفيرة على دماغها ، فماتت » .

---

(٣) انظر : العقد الفريد ٣ : ٩٨ .
(٤) أنظر : ذم الهوى ٣٥٥ ــ ٣٦٠ .

والرواية الثالثة تنتهى بأن الرشيد قال بعد أن ألقى بنفسه « عجل الفتى ، ولو لم يعجل لوهبناها له » .

وارجع أيضا الى قصة الشاب الذى ادعى السرقة أمام خالد ابن عبد الله القسرى ، فاننا نجد الفروق يسيرة بين بعض هذه الكتب ، كان يكون الذى قد كشف الأمر هو أخو العاشق (٥) أو يكون ابن عم للفتاة (٦) .

وقصة العاشق الذى افترس السبع معشوقته ، ذكرت فى كثير من الكتب العربية القديمة وكان هناك تقارب بين بعض الكتب ، وتباعد بين البعض الآخر .

فرواية ابن السراج (٧) ، وداود الانطاكى تقتربان ، وكذلك رواية الوشاء (٩) وابن الجوزى (١٠) . وهناك تباعد الى حد ما بين الروايتين الأوليين ، وبين الروايتين الآخريين . فالاوليان تذكران خبر السبع أولا ، وتؤخران كشف حقيقة الأعرابى وحقيقة فتاته . أما الآخريان فتبدآن بذكر خبر ذلك الأعرابى مع ابنة عمه ، وبعد ذلك تذكران خبر السبع ومأساته . والأبشيهى فى كتابه يضيف مأساة أخرى لم تذكر فى تلك الكتب السابقة ، وينسب الشعر الذى أوصى العاشق ضيفه بأن يكتبه على قبرهما الى هاتف ، فيقول بعد أن ذكر دفن العاشقين فى قبر واحد : « فلما كان الصباح ، أقبلت امرأة عجوز ، وهى كالولهانة ، فقالت لى : هل رأيت شابا يرعى غنما ؟ فقلت لها : نعم . وجعلت أتلطف بها ، ثم حدثتها بحديثه ، وماكان من خبره ، فأخذت تصيح وتبكى ، وانا

(٥) ذم الهوى ص ٣٥٠ .
(٦) أخبار النساء ص ١٣١ .
(٧) مصارع العشاق ص ٢٩٩ .
(٨) تزيين الأسواق ١ : ١٢٩ .
(٩) الموشى ١ : ٨٣ .
(١٠) ذم الهوى ص ٥٧٦ .

الاطفها الى أن اقبل الليل ، وما زالت تبكى بحرقة ، الى أن مضى من الليل برهة ، فقعدت نحوهـــا ، فاذا هى مكبة على وجهها ، وليس لها نفس يصعد ، ولا جارحة تتحرك ، فحركتها ، فـاذا هى ميتـــة فغسلتها ، وصليت عليها ، ودفنتها الى جانب قبر ولدها . وبت الليلة الرابعة ، فلما كان الفجر قمت ، فشددت فرسى ، وجمعت الغـــنم وسقتها ، فاذا أنا بصوت هاتف يقول :

كنا على ظهرها والدهر .... .الخ (١١) .

وقصة الأعرابى الظريف ، الذى أراد معاوية أن يستأثر بمعشوقته الحسناء فـأبت ، لو قـارنت بين هذه القصـــة كما هى فى مصـــارع العشاق (١٢) ، وبينها كما هى فى أخبار النساء (١٣) ، لوجـــدت فروقا بينهما . فان هذه القصة كما هى فى الاخبار اكثر تشويقا الى حد ما ، منها كما هى فى المصارع اذ قدم لها بوصف للأعرابى ، وصفا مشوقا ، جعل معاوية يقول لجلسائه : « لم يخلق الله من احتاج الى نفسه فى مثل هذا اليوم ... ياغلام ، سر اليه ، واكشف عن حـــاله وقصته ، فوالله لئن كان فقيرا لأغنيته .... الخ »

❊ ❊ ❊

وناحية يتتبع فيها الباحث ، القصص المتشابهة ، ويراقب الفروق بينهـــا :

فقصة عروة (١٤) ، لها قصة مشابهة حدثت فى العصر الجاهلى ، وهى قصة المرقش وأسماء ، فبينهمـــا تشابه فى كثير من التفصـيلات والأحداث ، وان كان فى قصة المرقش ، يرد موقف ليس له ما يشابهه

---

(١١) المستطرف ٢ : ٢٠٤ .
(١٢) ص ١٧٨ .
(١٣) ص ٣ .
(١٤) الأغانى ٢٠ : ١٥٧ « سامى » .

فى قصة عروة ، وذلك أن المرقش حين علم حقيقة الأمر من غلامين يلعبان ، وأن القبر الذى كان يحج اليه لم يكن يضم الا عظام كبش ، دعا وليدة له ، وزوجها الذى كان عسيفا له ، وركبوا جميعا فى طلب المرادى ، وفى الطريق مرض المرقش حتى كان لا يحمل الا معروضا ، حتى نزلوا كهفا بأسفل نجران ، فسمع المرقش زوج الوليدة يقول لها « اتركيه فقد هلك سقما ، وهلكنا معه ضرا وجوعا » • فجعلت الوليدة تبكى من ذلك ، فصمم على رأيه ، حتى أذعنت له ، فلما سمع المرقش ذلك كتب على مؤخرة الرحل أبياتا من الشعر الى أخويه أنس بن سعد وحرملة ، يخبرهما فيها بحقيقة الأمر • وحين رجعت الوليدة وزوجها ، أخبرا القوم أن المرقش قد مات • ولكن ملة قرأ الأبيات ، فدعاهما ، وخوفهما ، وأمرهما أن يصدقاه ، فلما عرف منهما الحقيقة قتلهما ، وركب فى طلب أخيه ، فلما وصل الى الكهف عرف أن أخاه قد احتمل الى منزل زوج أسماء (١٥) •

وقصة قيس ولبنى (١٦) لها قصة تشبهها ، حدثت أيضا فى العصر الجاهلى ، وهى قصة عبد الله بن العجلان وصاحبته هند (١٧) • وان كانت قصة قيس قد ورد فى خلالها موقف ، ليس له ما يشبهه فى قصة ابن العجلان ، وهو زواج قيس بعد أن طلق معشوقته ، بأخرى تسمى على اسم محبوبته • وهناك قصة حدثت فى عهد ابن عباس ، تشبه هذه القصة فى كثير من التفصيلات ، وهى قصة عروة بن قيس (١٨) • وفى ظنى أن الحادثة واحدة ، وهى أن رجلا أحب امرأة فتزوجها ، ثم تدخل أهله بالتفريق بينهما ، فنجحوا فى ذلك ، وان كانوا لم ينجحوا فى اطفاء لوعة الحب ، الحادثة واحدة ، كان القوم يتسامرون بها فى

---

(١٥) الأغانى ٥ : ١٨٠ •
(١٦) تزيين الأسواق ١ : ٥٩ والأغانى ٩ : ١٨٣ « دار الكتب » •
(١٧) تزيين الأسواق ١ : ٩١ والأغانى ١٩ : ١٠٢ ساسى •
(١٨) تزيين الأسواق ١ : ٣٦ •

المجالس . ويختارون لها من الاسماء التى يخترعونها ، أو يستعيرونها من التاريخ ، فالعاشق قد يكون اسمه عبد الله ، أو قد يكون اسمه قيسا ، أو قد يكون اسمه عروة . وقد تكون هناك بذور تاريخية لهذه الحادثة ، ولكن القوم نقلوها الى مجالس التفكه والمسامرة ، فجعلوا يزيدون عليها بعض التفصيلات ، وبعض الأشياء المشوقة .

ومن الطريف أن نقارن بين القصة التى قصها طريح بن اسماعيل الثقفى فى عصر الوليد بن يزيد (١٩) ، وبين القصة التى قصها محمد ابن صالح بن عبد الله بن الحسن فى عصر المتوكل (٢٠) ، وبينهما اكثر من مائة سنة ، فان القصة الثانية تزيد على الاولى فى أن صـاحب الأشتر ، بعد أنلبس ثياب جيداء ودخل الزوج ، وجعل يضربه ، ظنا منه أنها جيداء ، بعد ذلك تذكر القصة الثانية ان أمها دخلت وجعلت تعاتب الرجل ظنا منها أنه ابنتها ، ثم قالت له : سأرسل اليك أختك تؤنسك وتبيت الليلة عندك ، فجاءت أختها ونامت بجانبه . فلمـا استمكن منها شد على فمها ، وأخبرها بالحقيقة ، وأنها أولى من ستر عليها ، ثم بات معها يتحدثان ، ويضحكان ، حتى برق النور . القصة الأولى تكتفى بتلك الالآم التى لقيها طريح ، والقصة الثانية تكافىء صاحب الأشتر بتلك النهاية .

وقد ذكرت هذه القصة فى مصارع العشاق ، فى سلسلة من الرواة ، منها « ... حدثنا محمد بن صالح الحسنى ، حدثنى أبى ، عن نمير ابن قحيف الهلالى ، قال ... » (٢١) والروايتان (فى المصارع ، وفى المحاسن) تتشابهـان الى حـد كبير ، حتى فى اسـتعمال بعض التشبيهات ، وليس بينهما فروق الا فى الفاظ قليلة . وقد ذكرت هذه القصة فى تزيين الاسواق ، الا أنها ختمت بتلك النهاية الحزينة ، والتى

(١٩ و ٢٠) أنظر المحاسن والأضداد ١٩٧ ــ ٢٠٠ .
(٢١) مصارع العشاق ص ٢٥٢ .

لم تذكر فى المصارع « قال ابن طاهر » : فلم يقم بعدها بشير الا دون شهر وجاءه شخص ... فقال له ، وهو يتناول عنبا : أتتفكه وجيداء قد قضت الساعة ، فلم يسمع منه الا شهقة ، وحرك ، فاذا هو ميت ، فبلغ الخبر الجارية فهتكت سترها ، وجزت شعرها ، والقت نفسها فى بئر هناك ، فماتت (٢٢) . وبغض النظر عن هذه النهاية ، فاننا نجد الفرق بين ابن السراج والانطاكى ، ينحصر فى أن الأول يتوســـع فى حين أن الثانى يميل الى الاختصار . فمثلا يصف الأول بشرا ، فيقول : « وكان سيدا ، حسن الوجه ، شديد القلب ، سخى النفس » . والثانى لا يصف بشيرا بشىء . وبينما يقول الأول : « وضرب بيده الى مقدم البيت ، فاستخرج منه سوطا مفتولا ، كمتن الثعبان المطوق» أو «فاهتزت الجارية كما تهتز القصبة من الروع » أو « وكشفت عن ظهرى ، فـاذا فيه ما غرس الله من ضربة الى جنب أخرى ، كل ضربة تخرج الـدم وحدها » ـ ببنما يقول الأول هذا ، مستعملا التشبيهات والصور ، اذا بالثانى يقول . « ثم عمد الى سوط مفتول » أو « فارتعدت ساعة » أو « فلما رأى تأثير السوط فى بدنى وخروج الدم ، قال » .

وفى ظنى أن الحادثة واحدة ، وأنها تدور حول رجل احب امرأة وأحبته ، وقامت بينهما عقبات ، والتمسا من صديق له أن يلبس ثياب المرأة ، وأن ينام مكانها ، حتى يخدع زوجها بذلك ، ففعل . ثم ان الزوج أتى ، وحدث ما أغضبه فتناول السوط ، وجعل يضرب الرجل وهو يحسبه امرأته ـ فى ظنى أن الحادثة واحدة وأنها مادة طيبة للسمر ، ظل الناس يتفكهون بها فى مجالسهم ، أيام الوليد ، وايام المتوكـل وغيرهما . وأخذ الراوة يروونها بتغييرات طفيفة وزيادات هينة .

ولعلنا نلاحظ من هذه الأمثلة أن التطور فى القصة الواحدة ، وبين القصص المتشابهة ، ضئيل . لا يعدو الاختلاف فى الأســـماء ،

---

(٢٢) تزيين الأسواق ١ : ١٠٩ .

و زيادات فى بعض الروايات ، بل ان التقارب يصل فى بعض الروايات الى حد استعارة التشبيهات والالفاظ .

وربما كان السبب فى هذا أن الرواة لم يكونوا ينظرون الى هذه القصص ، نظرة أدبية خالصة ، ولم يكن فى وعيهم انشاء قصة تتخذ من التاريخ مادة ، ولها بعد ذلك الحرية فى التأثير والوصف والاضافة . فكانت هذه القصص مختلطة عندهم بمفاهيم التاريخ ، وكانوا ينقلونها عن الأعراب وغيرهم ، وكأنهم ينقلون روايات تاريخية ، ينبغى ان يحرصوا فيها على الألفاظ والترتيب ، بل وعلى ذكر الأسانيد .

ومن الطريف أن « سيرة الأميرة ذات الهمة » التى لا يشك أحد فى بعدها عن التاريخ ، اذ أن رواتها قد أباحوا لأنفسهم الحرية فى التصرف ، والمبالغة وخلق الأحداث ، واختراع الشخصيات ، والجمع بين شخصيات متباعدة زمنا ، ومخالفة التاريخ فى الوقائع المعروفة ــ من الطريف أن جامع هذه السيرة على الرغم من كل ما ذكرت ، كانت مفاهيم التاريخ مختلطة عنده بمفاهيم الحكايات الشعبية ، اذ وصف هذه السيرة على غلافها بأنها « أكبر تاريخ للعرب ، وخلفاء بنى أمية ، والخلفاء العباسيين . جمعت هذه السيرة أخبار العرب وحروبهم وملك مصر والشام وبغداد وغيرها من بلاد الاسلام وبلاد الافرنج ، وفيها من الفتوحات ما يبهر العقول » .

لم ينظر الرواة ــ اذن ــ الى هذه القصص ، نظرة أدبية خالصة ، وكذلك النقاد لم ينظروا اليها نظرة جدية ، تقوم منها ، وتنير لها السبيل ، وتركوها للعامة ، يحكونها فى مجالسهم ، ويتصرفون فيها تصرفا فطريا . بل كانوا ينظرون اليها ــ كما رأينا فى التمهيد ــ نظرة فيها سخرية واستهزاء .

* * *

وناحية يتتبع فيها الباحث تطور هذه القصص ، مع تطور ظروف العصر ، وتأثرها بالتيارات الثقافية والاجتماعية .

(أ) فحكايات الحب الحسية التى رويت حول ابن بى ربيعة وغيرها من شخصيات العصر الأموى ، كانت حكايات من النوع الظريف ، التى لم تبتعد كثيرا عن لون من الوان الحياة العربية المترفة .

ولكن بعد هذا العصر ، وبعد أن اتى الاتصال العميق بالأمم المجاورة بثمرته ، وبعد أن عرف العرب فلسفة مانى واباحية مزدك . بعد هذا كثرت القصص الماجنة والحكايات المنحرفة والحب الشاذ ، فمثلا يشار بن برد يروى عنه أبو الفرج قصة ماجنة ، مع امرأة هويها فكادت له بالاتفاق مع زوجها . وقد أنشد فى هذه القصة أبياتا مكشوفة (٢٣) .

وذاعت قصص عشق الغلمان ، وقد عقد داود الانطاكى بابا لهذه القصص سماه « فى ذكر عشاق الغلمان ، وحول من عدل الى الذكور عن النسوان ، وتفصيل ما جرى عليهم من تصاريف الزمان » ، وأورد كثيرا من هذه الحكايات ، التى كن بعضها يبلغ فيها العاشق درجة الجنون والتوله ، كأخبار مدرك مع صاحبه عمرو ، اذ توله فى حبه حتى اختلط عقله (٢٤) .

(ب) وقصص العشق العذرية ، كانت تدور فى العصر الأموى ، حول عشق فتى لفتاة عشقا لا يشرك معها فيه غيرها .

ولكن بعد ذلك نجد قصصا صوفية ، يتجاوز فيها العاشق حب البشر الى حب الذات العليا ، حبا يملك عليه كل جوارحه ، ويصيبه بالتوله والجنون ، ويجعله ينشد الأشعار الغرامية فى محبوبه ، الذى لا يشرك فى حبه غيره .

---

(٢٣) الأغانى ٣ : ٦٣ سامى .

(٢٤) تزيين الأسواق ٢ : ٧ .

ولكن ـ وقد نفيت قبلا ان يكون للحب الافلاطونى أثر على الحب العذرى فى العصر الأموى ـ ولكن هنا وفى تلك المرحلة من فصص العشق ، يمكننا ان نتحدث عن تأثيرات افلاطونية وافلوطونية ، فقد عرف الكثير من آراء أفلاطون ، وأتيح لها الوقت الكافى لأن تفعل فعلها ، وعلى هذا لا أبعد لو قلت : ان الفكرة الجديدة التى قال بها بعض الصوفية من أن العشق العذرى وسيلة الى العشق الالهى ، اذ قد يتوصل العاشق من عشقهن الى معرفة مبدعهن ، لأن المقدمات الصريحة ، تنتج الأغراض الصحيحة ، وبالحرى من أمعن النظر فى مخلوق زائل ، ترقى عند معرفة غايته الى دائم فاعل ، (٢٥) ـ هذه الفكرة متأثرة بما طرأ على المجتمع الاسلامى من آراء فلسفية ٠

والربط بين العشق العذرى وبين أمور دينية ، كان موجودا فى بعض الأذهان منذ العصر الأموى ٠ فقد عشق رجل من ولد سعيد بن العاص جارية مغنية ، فابتاعها لعمر بن عبد العزيز ، واهداها اليه ، فمكثت عنده سنة ثم ماتت ، فبقى مولاها شهرا أو أقل ، ثم مات كمدا عليها ٠ فقال أبو السائب المخزومى : حمزة سيد الشهداء ، وهذا سيد العشاق ٠ فامضوا بنا حتى ننحر على قبره سبعين نحرة ، كما كبر النبى (ﷺ) على قبرة حمزة سبعين تكبيرة ٠ وبلغ أبا حازم الخبر ، فقال : أما من محب فى الله يبلغ هذا ولى ، (٢٦) ٠ وقيس كانت تشغله ليلى عن تبين القبلة ، فكان اذا صلى يمم نحوها ، كما يولى العابد وجهه نحو القبلة :

أرانى اذا صليت يممت نحوها

بوجهى ، وان كان المصلى ورائيا (٢٧)

وقد اهتم الصوفية بالعشاق العذريين ، فكان الشبلى يضرب لجلسائه

---

(٢٥) تزيين الأسواق ١ : ٥٣ ٠

(٢٦) مصارع العشاق ص ٥٦ ٠

(٢٧) تزيين الأسواق ١ : ٨٢ والأغانى ٢ : ٥ ساسى ٠

المثل بالمجنون ، فيقول : « ياقوم هذا مجنون بنى عامر ، كان اذا سئل عن ليلى ، يقول : أنا ليلى . فكان يغيب عن ليلى ، فكيف من يدعى محبته ، وهو صحيح مميز » (٢٨) . وكان ابن الفارض سلطان العاشقين يشبه حالته بحالة العذريين ، فيقول :

بها قيس لبنى هام بل كل عاشـق
كمجنـــون ليـــلى أو كثير عـزة
فكـل صـبا منهم الى وصف لبسها
بصورة حسن لاح فى حسن صورة (٢٩)

وقد عقد صاحب التزيين بابا « فيمن استشهد من المحبين ، شوقا الى حضرة رب العلين » ، وقص فيه حكايات صوفية عن ابن المبارك ، وعن أبى الفيض ذى النون المصرى ، وعن أبى الفتح بن سحنون ، وعن عتبة المعروف بالغلام .... الخ (٣٠) .

وعلى أى حال ، فقصص العشق حين عبرت عن المجون والشذوذ ، أو شفت عن الوجد الصوفى ، لم تتطور م نالناحية الادبية عن قصص الظرفاء والعذريين وكل الفرق الذى حدث ، انه بدل الظرف حل المجون ، وبدل العشق العذرى ، حل العشق الصوفى . اما من الناحية الادبية ، فما زالت القصة فقيرة ، فيها بذور فنية جـــاءت بمحض المصادفة ، وما زالت خبرا قصيرا سريعا ، متناثرا فى بطون الكتب ، تختلط فيه الحقيقة بالوهم ، والتاريخ بالخيال ، اختلاطا لا يبين عن شـــخصية التاريخ المحققة ، ولا عن شخصية الخيال المنطلقة .

* * *

انما اتيح لهذه القصص أن تنمو ، وأن تتوسع فى الأحداث ، وفى

(٢٨) اللمع ص ٤٣٧ .
(٢٩) المدد الفائض ص ٤٧ .
(٣٠) تزيين الأسواق ١ : ٢١ ــ ٢٨ .

اثارة التشويق ، وفى جذب السامع ، وفى اضفاء الجو القصصى ، حين استطاعت أن تتخلص من تلك النظرة التاريخية ، وأن تنتقل الى مجال الادب ، انتقالا واضحا ، واعيا ، وذلك حين : ـ

(أ) انتقلت هذه القصص الى السير الشعبية ، اذ يبدو انه قد أصبح واضحا لدى رواة هذه السير ، انهم يذكرون حكايات يراد منها التأثير والجذب ، ولا يراد منها التاريخ وحقائقه ، على الرغم من أن بعضهم قد حاول أن يصدر سيرته بما يوهم أنها تاريخ للعرب ووقائعهم .

فمثلا قصة السارق الذى ادعى السرقة امام خالد بن عبد الله القسرى ، لينقذ معشوقته من الفضيحة ، قد رأينا فيها أن الفروق بين الكتب العربية التى ذكرتها ضئيلة ، لا تعدو الاختلاف على اشياء شكلية ، وكان الراوى يخشى أن يتوسع وأن يفصل ، لأنه يخشى أن يخالف التاريخ ، وأن يثير الخاصة . ولكن حين انتقلت هذه القصة الى « الف ليلة وليلة » ، أضفى عليها جو قصصى ، وتوسع الراوى فى شرح احداثها ، والتركيز على النقط المؤثرة ، ومحاولة جذب القارىء ، فتبدأ القصة بوصف العاشق بأوصاف تجعل السامع يتعاطف معه ، فهو « ذو جمال باهر ، وأدب ظاهر ، وعقل وافر ، وهو حسن الصورة ، وعليه سكينة ووقار » . وبالفعل تعاطف خالد مع هذا الشاب ، حين قدم اليه على انه لص ، ودار بينهما حوار ، حاول فيه أن يسبر أمر هذا الفتى ، ثم دنا منه وساله عن قصته ، فقال : « ان القوم صادقون فيما قالوه ، والأمر على ما ذكروه ، فقال له خالد : ما حملك على ذلك وأنت فى هيئة جميلة وصورة حسنة ؟ قال : حملنى على ذلك الطمع فى الدنيا وقضاء الله سبحانه وتعالى . فقال له خالد : ثكلتك أمك ، أما كان لك فى جمال وجهك ، وكمال عقلك ، وحسن ادبك ، زاجر يزجرك عن السرقة . قال : دع عنك هذا أيها الأمير ، ، وامض الى ما أمر الله تعالى به ، فذلك بما كسبت يداى ، وما الله بظلام للعبيد . فسكت خالد ساعة يفكر فى أمر الفتى ، ثم أدناه منه وقال له : ان اعترافك على

رؤس الاشهاد قد رابنى ، وأنا ما أظنك سارقا ، ولعل لك قصة غير السرقة ، فاخبرنى بها . قال : أيها الأمير ، لا يقع فى نفسك شىء سوى ما اعترفت به عندك ، وليس لى قصة أشرحها ، الا أنى دخلت دار هؤلاء فسرقت ما أمكننى .. » فأمر خالد بحبسه ، ووكل به قوما يراقبونه ، ويتسمعون أخباره ، واذا به يفضح نفسه ، اذ أنه حين استقر فى الحبس وأفاض العبرات ، وأنشد هذه الابيات .

هددنى خالد بقطع يـــدى	اذ لم أبح عنده بقصـــــتها
فقلت هيهات أن أبـــوح بما	تضمن القلب من محبتهـــــا
قطع يدى بالذى اعترفت به	أهــــون للقلب من فضـيحتها

وينقل لموكلون به ذلك الى خالد ، فيامــر باحضــار ذلك الفتى الغريب الأطوار ، ويأكل معه ويتحادث ، محاولا أن يصل الى حـــل اللغز ، ولكنه لا يستطيع ، فلا يجد مناصا من أن يعرض على الفتى بأن ينكر السرقة امام القاضى ، وأن يذكر من الشبهات ما يدرأ عنه حـــد القطع . وفى اليوم المحدد لعقوبة الفتى ، حضرت الناس . وهنا تصف القصة موقفا مؤثرا ، « اذ لم يبق أحد فى البصرة من رجل ولا امرأة ، الا وقد حضر ليرى عقوبة ذلك الفتى . وركب خالد ، ومعه وجوه أهل البصرة وغيرهم ، ثم استدعى القضاة وأمر باحضار الفتى ، فاقبل يحجل فى قيوده ، ولم يره أحد من الناس الا بكى عليه ، وارتفعت أصـــوات النساء بالنحيب ، فأمر القاضى بتسكيت النساء » . ويتعاطف القاضى أيضا مع هذا الفتى الجميل ، فيسأله أسئلة يحاول فيها أن يبرىء الفتى « قال له ان هؤلاء القوم يزعمون أنك دخلت دارهم وسرقت مالهم ، لعلك سرقت دون النصاب ؟ قال : بل سرقت نصابا كاملا . قال : لعلك شريك القوم فى شىء منه ؟ قال : بل هو جميعه لهم لاحق لى فيه » وهنا يثور خالد على هذا الفتى العجيب ، فيقوم اليه ، ويضربه على وجهه بالسوط ، متمثلا بهذا البيت :

يريد المـرء أن يعطى منـاه ويـأبى الله الا مـا يريد

ثم دعا بالجزار ليقطع يـده ، وهنـا تحدث مفاجـأة ، اذهلت القوم ، اذ « بدرت جارية من وسط النساء ، عليها أطمار وسـخة ، فصرخت ورمت بنفسها عليه ، ثم أسفرت عن وجه كأنه القمر . وارتفع للناس ضجة عظيمة ، وكاد أن يقع بسبب ذلك فتنة طائرة الشرر . ثم نادت الجارية بأعلى صوتها : ناشدتك الله أيها الأمير ، لاتعجل بالقطع حتى تعرف حقيقة الأمر » وتكشف لخالد الغموض الذى احاط بموقف الفتى . وتنتهى القصة بزواجهما على يد خالد « قال الرواى : فمـا رأيت يوم أعجب من ذلك اليوم ، أو له بكاء وشرور ، وآخره فـرح وسرور » (٣١) .

هذه القصة ـ كما هى فى ألف ليلة وليلة ـ تتوسع فى نشر الأمور القصصية الجذابة ، فهى تجعل القارىء يتعاطف مع العاشق الجميـل الغريب الأطوار ، وهى تحاول أن تثير الشوق . وانظر الى صنيعهـا حين تقف بالقارىء عند نقطة مؤثرة ، لتفاجئه بأن الصباح قد فاجأ القاص ، فمثلا حين يستدعى خالد الفتى من السجن ، ويعرض عليه أن ينكر السرقة ، حتى ينقذ نفسه من القطع ، وهنا يتشوق القارىء الى معرفة موقف هذا الشاب الغامض ، ولكن الصباح يأتى ، فلا يكشـف القاص عن موقف الفتى ، وانما يفعل ذلك فى الليلة الثامنة والتسعين بعد المائتين .

وأظن أن جامع التحفة البهية قد نقل هذه القصة من ألف ليلة وليلة ، اذ أن قصته تشبه القصة كما وردت فى ألف ليلة وليلة . فى بدايتها ، وفى تعليق الراوى على نهاية القصة ، وفى الشعر الذى ورد على لسان الفتى وهو فى حبسه ، بـل حتى فى اسـتعمال الأسـلوب

---

(٣١) أنظر القصة كاملة فى (ألف ليلة وليلة) ٢ : ٣٨٨ (المطبعة الكاثوليكية ببيروت) .

المسجوع والكلمات ، وأى مقارنة تثبت هذا · موقف واحـد فقط يتوسع فيه جامع التحفه ، ويذكر فيه أبياتا لم تذكر فى ألف ليلة وليلة ، وهو موقف الفتاة حين كشفت عن الغموض « فلما حضر الجلاد ، وأخرج السكين ·· بدرت جارية من صف النساء ، وعليها ازار وسخ ، وصرخت صرخة عظيمة ، ورمت نفسها عليه ، وأسفرت عن وجـه كأنه القمـــر اذا أبدر ، والصبح اذا أسفر ، بطرف كحيل ، وخد أصيل ، وثغــر أفلج ، وحاجب أبلج ، وقد كالقضيب ،وردف كالكثيب ·· ثم نادت بأعلى صوتها ، ناشدتك الله أيها الأمير ، لا تعجل عليه حتى تقرأ هـــذه القصة ، ثم دفعت اليه رقعة ، ففضها خالد ، فاذا فيها مكتوب :

أخالد هـــذا مستهام متـــيم
رمته لحاظى عن قسى الحمالق (٣٢)

ومثال آخر ·· فاننا نقرأ قصة مجنون ليلى فى كثير من الكتب العربية القديمة ، فاذا بها قصة مهلهلة ، مكتظة بالاسانيد والحشو ، ليس فيها ترتيب ، وانما هى مجموعة من الأخبار ، ضم بعضها الى بعض كيفما اتفق ، وقد وصف الدكتور طه حسين هذه القصة بأنها سـخيفة متكلفة (٣٣) ·

ولكن وقع فى يدى كتاب مكون من خمس وخمسين صفحة ، يحمل عنوان « قصة قيس بن الملوح العامرى المعروف بمجنون ليلى » · ولم يعلم جامع هذا الكتاب ، ولكنى أظن أنه ألف فى فترة متأخرة حـين شاع تاليف السير الشعبية ، فان أسلوبه يشبه أسلوب تلك السير فى استعمال السجع ، وفى مبالغاته ، وفى ترديد كلمة « قال الراوى » ، وفى الاتيان بأشعار سخيفة ، قريبة الى الأشـعار العـامية السـهلة ، مثـــل :

---

(٣٢) التحفة البهية ص ٢٠١ ·
(٣٣) حديث الاربعاء ١ : ٢٢٤ ·

يامنيتى أنت مقصودى ومطلوبى   وأنت رغما عن الأعداء محبوبى
ان تحتجب عن عيون الصب ياأملى   ماأنت عن قلبى المضنى بمحجوب

قصة قيس – كما جمعها مجهول – تعتبر أكثر نموا ، وأقرب الى الناحية القصصية : فهى قد مالت الى الافاضة والاطالة ، وشرح المواقف المؤثرة ، ومحاولة غرس العطف فى قلب القارىء على قيس المسكين ، وبدت ذات ترتيب من بدء ونهاية ، وتخلصت من النظرة التاريخية ، ومن العنعنات والاسانيد ، بل كانت تذكر من الأسماء ما لم ترد فى كتب التاريخ ، والتى كانت موافقة لأسلوب السجع ، أو تحرف من الأسماء التاريخية ما يناسب هذا الأسلوب ، مثل :

« وكان قد عشق جارية فى هذه الأيام ، يقال لها ليلى بنت مهدى ابن عصام » (٣٤) ويذكر الأغانى نسب ليلى هذه فيقول : « بنت مهدى ابن ربيعة بن الحريش بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة » (٣٥) ومثل « ثم انه سار به الى طبيب فى تلك الأطراف ، يقال له علقمة ابن عساف » (٣٦) . ومثل « وكان من جملتهم رجل من بنى ثقيف ، يقال له سعد بن النيف » (٣٧) . والأغانى لا يذكر اسم هذا الزوج وانما يكتفى بأنه « رجل من بنى ثقيف موسر » (٣٨) . ومثل « وما زال يجول من مكان الى مكان ، حتى وصل الى جبل يقال له ثوبان .. فأنشد وقال :

وأجهشت للثوبان حين رأيته
ونادى بأعلى صوته ودعانى

---

(٣٤) ص ٢٩ .
(٣٥) الاغانى ١ : ١٦٤ ساسى .
(٣٦) قصة قيس بن الملوح ص ٢٦ .
(٣٧) المرجع السابق ص ٢٤ .
(٣٨) الاغانى ١ : ١٧٧ ساسى .

فقلت له أين الذين عهدتهـــم
حواليك فى خصب وطيب زمان

فقال مضوا واستودعونى بلادهم
ومن ذا الذى يبقى على الحدثان (٣٩)

والاغانى يذكر أن هذا الجبل اسمه توباد ، ويورد شعرا مثل هذا الشعر ، وان كان يختلف عنه فى بعض الالفاظ (٤٠) . والقصة نفسها تذكر هذا الاسم فى موضع آخر ، حين تجد أنه يسعفها فى أســـلوب السجع « فسار وهو منزعج الفؤاد ، حتى أقبل على جبل توباد » (٤١)

قصة قيس هذه جمعت أخبار المجنون وصاحبته المتناثرة فى الكتب العربية ، جمعا لا كصنيع الجامع لأخبار عروة بن حزام ، الذى يكــاد لا يختلف عن الاغانى فى شىء ، فى تلك الصفحات الاحدى عشرة التى جمع فيها أخبار عروة . اذ أن الجامع لقصة قيس قد ظهرت شخصيته فى ترتيب هذه الاخبار ، وفى اضفاء الأســلوب القصصى عليهــا ، وملء الفجوات بين هذه الأخبار ، وفى التوسع فى المواقف المؤثرة ، وفى شرح مشاعر ليلى التى تحدثت عنها الأخبار العربية حديثا مقتضبا ، وفى التحدث عن مشاعر الزوج التى تجاهلتها الأخبار العربية ، وفى نثر الخطابات المؤثرة المتبــادلــة بين قيس وليلى ، وفى الاهتمـــام بالوصف ، ولا تنسى أن تصف الطبيعة ، وترسم الجو ، كان تقول : « الى أن انتصف ظلام الليل ، وعلا نجم سهيل » . وهى فى وصف الطبيعة : لا تبالغ فتخرج عن وصف طبيعة صحراء نجد المقفرة ، الا فى حالات نادرة ، مثل حديث رجل من بنى أسد ، التقى بالمجنون . فيقول : « الى أن توصلت الى روضــة كثيرة الأزهــار والرياحين والأنوار ،

(٣٩) قصة قيس ص ٧٧ .
(٤٠) الاغانى ١ : ١٧٩ ساسى .
(٤١) قصة قيس ص ٨ .

فحدثتنى نفسى أن أقيم فيها ، وأتنزه فى بعض نواحيها . فنزلت فى أرجاء تلك الأزهار المونقة ، والأنوار البديعة المورقة ، وأنخت ناقتى الى قنوان شجرة صغيرة ، وجلست برهة يسيرة ، فبينما أنا أتأمل فى تلك الروضة المرج الطويلة العريضة ، اذ سقط رجل من الجراد ، كثيرة الأعداد ، على ذلك الواد ، فافترشت جنباتها وأرضها ، وأخذت طولها وعرضها ، فتعجبت من تلك المناظر البهية ، والروائح الزكية ... الخ » . فان هذا الوصف أقرب الى الطائف ، أو غوطة دمشق ، منه الى صحراء نجد .

تبدأ هذه القصة فتذكر أنه كان فى زمن عبد الملك بن مروان ، رجل يقال له الملوح بن حزام ، كان له ثلاثة أولاد ذكور ، كأنهم البدور . منهم قيس « وكان أصغر أخوته عمرا ، وأعلاهم همة وقدرا ، وأجودهم نظما ونثرا » وصاحبته ليلى « سمراء اللون ، قصيرة القامة ، فصيحة الكلام ، وعلى خدها الأيمن شامة » . ولما شاع حبهما ، « استعظم أبوها ذلك الأمر ، وطارت من عينيه شرار الجمر ، ثم منعها الزيارة فى الليل والنهار ، وحجبها عنه خوف الفضيحة والعار » . وزاد الجوى بقلب قيس ، فجعل أهله ينصحونه ويعذلونه ، ولما لم يجدوا نفعا ، تقدموا الى أبيها خاطبين ليلى فأبى ، فزاد الأمر بقيس وتوله ، وانطلق الى الفلوات . وهنا تصف القصة موقفه من صائد الظباء وصفا مفصلا تبغى به التاثير على المستمع . ويحج به أبوه الى الكعبة ملتمسا العون من الله ، ولكن دون جدوى ، « اذ ترك أباه والحرم ، وقصد البرارى والأكم » . وجعل أبوه يطمئنه ، ويقول له « فعد معى الى بنى عامر ، وكن منشرح الصدر مطمئن الخاطر ، وأنا أتلافى هذه القصة وازوجك بليلى ، وأزيل عنك هذه الغصة » وما زال حتى رجع معه الى الأوطان ، أما ما كان من امر ليلى ، فقد تحولت الى شىء يتمناه الجميع ، ويجدون فى طلبه والفوز به ، وكأنها المجد الذى يسعى الطامحون الى التعلق به ، أو مقام التجريد الذى يجد الصوفية فى

طلبه . ولنترك الراوى يشرح تأثير ليلى على قلوب الخلق « وأما ما كان من ليلى فانه قد شاع ذكرها بالآفاق . وتحدث فيها الناس فى الحجاز وبلاد نجد والعراق ، وتناشدوا ما قال قيس فيها من الأشعار الرقاق ، التى لم يسبقه اليها أحد من فحول الشعراء والعشاق ، فكان كل واحد يود أن ينظرها ، ويتمنى أن يراهـا ويبصرهـا ، فترادفت عليها الخطاب ، وكثرت عليها الطلاب ، ودخلوا على أبيها فى ذلك من كل باب » . حتى وافق أبوها على أن يزوجها رجلا من ثقيف . وهنا تصف القصة موقف ليلى ازاء هذا الزوج ، وصفا واضحا مفصلا ، فتقول « فلما سمعت ليلى من أبيها ذلك الخطاب ، أظهرت الكدر والاكتئاب ، وعظم عليها ذلك الأمر ، واكتوى قلبها بلهيب الجمر ، لأن هذا الخبر كان لا يوافق غرضها ، ولا يشفى علتها ومرضها ، لأنها كانت تحب قيسا وتميل اليه ، ولا يستقر خاطرها الا عليه ، نظرا لما بينهما من المحبة القديمة ، والصداقة القويمة ، فأبت ولم تقبل ، وفضلت حلول الأجل . وقالت : هذا أمر لا يتم أبدا ، ولومت قهرا وكمدا ، فلما سمع أبوهاكلامها وعلم ما فى ضميرها ومرامها ، تهددها بالكلام فشتمها ، ودار بـه الغيظ فلطمها ، فاجتمع عليها الجيران والأهل والخلان ، فلما رأت ما حل بها من الهوان ، وأن موج البلايا أحاط بها من كل مكان ، أجابت سؤاله بالكره والاجبار ، لا بالطوع والاختيار ، ثم ندمت على زواجها غاية الندم ، وجرى قلم القضاء بما حكم ، وصارت محبتها له تكلفا ، ورؤيتها اياه تعسفا . فكان لا يقر لهـا قـرار ، ولا يطيب لها عيش لا بالليل ولا بالنهار » . تتحدث هذه القصة هنا عن مشاعر ليلى ولا تمر مرورا عابرا كما تفعل الكتب العربية . وتذكر بعد ذلك صدمة قيس من هذا الزواج وانه خرج يطـوف فى الفلوات وقلل الجبـال ، واعتراء الشحوب والهزال . وتذكر أن رجلا من بنى بارق ، يقال له نوفـل ابن مساحق ، التقى به وهو على هذا الحال ، وتتحدث عن هذا الموقف حديثا مؤثرا ، ولكنها تخالف الكتب العربية ، التى تجعل اللقاء الأول

بين قيس ونوفل قبل زواجها ، وانه حاول أن يشفع له عند أبيها فلم ينجح . ولكن هذه القصة حين جعلت اللقاء الأول بينهما قد تم بعد زواجها ، كانت منطقية فى أنها لم تجعل نوفلا يتشفع لقيس فى امرأة متزوجة ، وا كتفت بأن نوفلا حين رثى لحاله ، قال له : « أيها الحبيب ، والشاعر اللبيب . انه يعز على ، ويعظم لدى ، أنى أراك فى هـذا الحال ، تقاسى العذاب والنكال . فهل لك أن تسير معى الى الديـار ، وأنا أزوجك ببعض البنات الأبكار ، من هى أحلى وأحسن من ابنـة عمك ليلى » . فتركة قيس وانصرف . وتتحدث القصة عن الرسائـل التى كان يتبادلها قيس وليلى . وهنا تطلعنا على نماذج رقيقة من الخطابات الغرامية المؤثرة التى يختلط فيها الشعر بالنثر . وكنت أود أن يتسع المقام لنقل نموذج لهذه الخطابات الغرامية . واكنى ساكتفى بمطلع خطـاب فقط « من قيس بن الملوح الهـائم الوامق ، والحبيب الصادق ، الى سيدة الملاح ، ركوب الصباح ، در الصدف ، وياقـوت الشرف ، من قد اتصفت بالمحاسن البهية ، والصفات العلية ، والآداب السنية ، ليلى العامرية اننى بينما كنت متشوقا الى استماع أخبارك ، واكتشاف آثارك ... اذ ورد لى عزيز رسالتك الموسومة بسيماء المحبة الفائقة ، المسفرة عن ازدياد المحبة الصادقة ... الخ . » وتظل القصة تتحدث عن عذاب ليلى وهيـام قيس ، وتسـند الى ليلى بعض مواقف أسندتها الكتب العربية الى لبنى ، كموقفها من الغربان الخمسة التى اشترتها وجعلت تضربها وتقطعها وهى تنشد الشعر ، ولما لامها زوجها على هذا الأمر انفجرت فيه . وتتحدث القصة عن مشاعر الزوج واستيائه من موقف ليلى ، وشكواه الى أبيها الذى يحاول أن يطمئنه ، ويتحدث عن موقف لقيس يقربه من اهل الكشف ، الذين يتنبئون بالغيب . وذلك أن الزوج حين حذر قيسا من عبد الملك قال له قيس «والله أنه منذ ثلاثة أيام ، بينما كنت أطوف فى بعض الآكام ، زارنى طائران ، وقالا لى : وحق الملك الديان ، لقد قضى الرحمن بالقضاء أيام عبد الملك بن مروان . ثم أطرق مليا وأقام مدة لا يتكلم شيئا ، ثم أمعن فيه النظر ، وأجال قداح الفكر ، وقد أقسم بجامع الشتات ومخرج النبات ، أنها سوف تصـلكم

الأخبار قد مات » . وبالفعل تتحقق نبوءة قيس اذ يموت عبد الملك بعد ثلاثة أيام . ثم تنتهى هذه القصة ، فتجعل ليلى تموت قبل قيس ، وهى موفقة فى هذا الناحية الأدبية ، اذ أن موت ليلى قبله قد زاد من فظاعة المأساة وأتاح للقصه خاتمة مؤثرة ، اذ أن قيسا أظهر الاكتئاب ، واستعظم المصاب ، واتخذته الرعدة والاضطراب ... وكان يأوى الى قبر ليلى ، يدور بالنهار ، وهو يرثيها بالأشعار ، حتى انتهى به الأمر « الى واد كثير الحجارة ، واذا به ميت تعلق بين حجرين ، وقد كان خط بأصبعه عند رأسه هذين البيتين ... واحتمله القوم وغسلوه وكفنوه ، والى جانب ليلى دفنوه ، وكان ذلك فى سنة الثمانين من الهجرة الحميدية ، الموافقة سبعمائة مسيحية » .

وانتقل الى قصة شعبية أخرى ، وهى سيرة الأميرة ذات الهمة ، فاختار منها بعض قصص العشق التى جعلت مسرحها العصر الأموى ، فارى كيف يكون النماء فى هذه القصص ، والثراء ، والتشابك ، والانتقال من حكاية الى حكاية ، والمفاجآت وحسن الوصف ومحاولة التأثير على القارىء وجذبه .. الخ .

فحين نقرأ فى الكتب العربية ، نجد أنها تذكر أخبار العشاق متناثرة متقطعة ، كل موقف — فى الأعم الأغلب — منفصل عن الموقف الآخر . ليس هناك رباط واحد يربطها ، وانما هى أخبار متقطعة تختلط فيها الحقيقة بالخيال . فمثلا خبر يتحدث عن تبشير كاهن لهند بأنها سوف تلد مولودا عظيم الشأن ، وخبر يتحدث عن امرأة فى ثياب رجل . وخبر يتحدث عن محاولة اغتصاب خلفاء أمويين لنساء غيرهم ، كما فعل يزيد مع امرأة عمر ، أو مع عمارة جارية عبد الله بن جعفر ، وخبر يتحدث عن اطلاق قيس للظباء ، وخبر أو أخبار تتحدث عن ابن أبى ربيعة وفاطمة بنت عبد الملك ، حين حجت ، وخبر يتحدث عن غرام قيس بلبنى الكعبية من النظرة الأولى ، حين التقى بها فى يوم حار ، فاستقاها فسقته ، ومهدت له وطاء وجاء أبوها فأكرمه ،

وخبر يتحدث عن عروة وموقف عمـه منـه ، وخبر يتحدث عن دور الوشاة ... الخ .

ولكن سيرة الأميرة ذات الهمة لا تذكر هذه الأخبار متناثرة ، بل تضمها فى سيرة شعبية طويلة ، وتملأ الفجوات بينها ، وتجعل الأخبار يخدم بعضها بعضا .

تزوج الحارث من رباب بعد أن هام بها حبا ، ثم « رأت فى منامها ولذيذ أحلامها ، كأنها فى صحرة من الصحرات ، وحولها فسيح البرارى المقفرات ... وخرج من تحتها نار متأججة ، ولها ألـوان متوهجة » ثم أحرقت جميع ما على الأرض ، وبعـد ذلك اسـتدارت واستنارت ، فتلجأ الى كاهن فيبشرها بمولود له شأن ، وأن والدته سوف تموت حين يخرج الى الدنيا (٤٢) . ثم يموت الحارث ، فتلحق بقومها ، وتستصحب معها فى الطريق غلاما لها ، فيراودها عن نفسها ، فتأبى ويدور بينهما صراع ، كان من شدته أن « دفق عليها الدم ، ولحقها الطلق ، باذن خالق الخلق (٤٣) » . فيثور العبد ويضربها بالحسام ، ويتركها مجندلة فى البرية ، وبجوارها ذلك الرضيع . وتسوق الاقدار أميرا يقال له دارما ، فيدفن المرأة ويحمل الطفل ويشتهر بالشجاعـة والبأس . وفى يوم تقوم معركة بين الأمير دارم ، وامرأة يقـال لها الشمطاء ، فتأسره وتأسر أولاده فيهب جندبـه لنجدتهـم وينقذهم من الأسر ، ويشيع ذلك الخبر ، ويشتهر أمر جندبـه ، فيأكل الحسد قلب دارم ، ويعزم على اخراج جندبه من بينهم . فخرج جندبه ، حتى لاح له خباء مضروب ، فقصده ، فخرج له منه « انسان تام الطول ، كأنه فحل من الفحول فتأمله جندبه ، فرآه على ذلك الطول شابا أجرد أمرد عليه درع من الزرد ، وهو مضاعف العدد (٤٤) » . ويدور بينهما قتال ، ينتصر فيه جندبة ، ويكشف الفارس عن نفسه فاذا هو فتـاة

---

(٤٢) ١ / ٤ .

(٤٣) ١ / ٢٤ .

(٤٤) ١ / ٩ .

تسمى « قتالة الشجعان » كانت قد حلفت ألا تتزوج الا صنديدا يقهرها . فرضيت بجندبة زوجا . ثم تصادف أن استخلص جندبة رحل الخليفة من يدى غاصبين ، وحمل ذلك الرحل الى الخليفة بالشام ومعه زوجه « قتالة الشجعان » ، التى ما ان يراها هشام بن عبد الملك ، حتى يقع فى حبها ، ويرسل اليها دايته ، فتغضب قتالة ، ويغضب زوجها ، ويخرجان من دمشق « الا أنه (ياسادة) ما سار عن دمشق قدر ميل . أو فرسخ طويل ، ولم يشعروا الا وقد خرج عليهم كمين ، وهو قدر خمسمائة فارس وهشام فى مقدمتهم » (٤٥) . فيغتصبون قتالة ويسيرون بها نحو الشام ، ولا يستطيع جندبه أن يطاول يد الخلافة ، فيتسلى بزوجة جديدة ، أما قتاله فانها امتنعت عن هشام حتى اغتاظ منها فقتلها . ويعلو شأن جندبة ، ثم يلحقه الموت ، ويترك زوجه حاملا ، التى تلجأالى عطاف أخى جندبة وكانت زوج عطاف حاملا أيضا ، فتضع بنتا سموها ليلى « بوجه مثل القمر الوضاح ، لو بدت فى الليل المظلم لصار صباح ، كأنها تتبسم عن ثغر منظوم ، قد سرقت قدها من قضيب ، واستوهبت ردفها من كثيب » ، وفى اليوم نفسه تضع زوجة جندبه ولدا سموه الصحصاح « بوجه صبيح ، وقد مليح ، ولسان فصيح ، تبان النجابة من عينيه ، والشجاعة من كفيه » (٤٦) . وهنا تبدأ السيرة ، فتتحدث عن قصة غرامية ، بطلاها « ليلى والصحصاح » ، وتتشابه هذه القصة فى أولها مع قصص العذريين ، فقد أحب الصحصاح ابنة عمه واحبته ، وأنشد فيها الأشعار ، فلما شاعت وقف عمه عطاف فى وجهه ، ومنعه من رؤية ليلى ، فزاد به الوجد ، وازداد النصح واللوم له . ثم اعتزل وأمه المضارب ، وكانت ليلى تبكى ، وترسل الى الصحصاح تبثه الغرام ، وتنشد فيه الاشعار . ولكن الصحصاح لايكتفى بهذا الموقف السلبى ، فيخطو خطوة ايجابية فقد « خلا فى بعض الأيام بنفسه وقال : مالى أرى جسدى يذوب ذوب الرصاص ، فلم لا أسرع الى

---

(٤٥) ١ / ٣٨ .   (٤٦) ١ / ٨٣ .

الخلاص ، من ضيق الانفاس ، فالى متى أكون فى موضع لا أقـــدر فيه على نيلى ، ولا أنظر اليها . وأنا ما فى عيب الا فقرى ، ومالى لا أخرج عن أرض بنى كلاب وأتغرب ، فان مقامى عندهم سواء ، فان غيابى وحضورى سواء ، ومالى لا أهج فى البرارى والقفار » (٤٧) . ويعزم الصحصاح على الاغارة على القبائل ، ويكتب له النجاح ، ويسوق الغنائم ، ويشتهر أمره ، فياكل الحسد قلب عمه ، ويخشى من منافسة الصـحصاح على رئاســـة القبيلة ، فيدبر المؤامـرات الكثيرة لقتله ، والصحصاح ـ تعاونه ليلى ـ يتغلب على كل المؤامرات ، ولكنه لا يحقد على عمه من أجل ليلى ، بل أنقذ فى احدى المرات العم من مخالـــب أسد ، فتنزل المحبة بدل العداوة فى قلب العم ، ويوافق على زواج الصحصاح من ليلى ، ولكن الصحصاح يعزم على أن يسوق مهر ليـلى الكثير من الاموال ، ويخرج فى طلب ذلك المهر ، ومعه عبده نجاح يقطعان الروابى والبطاح ، حتى وصلا الى واد كثير الغدران ، واذا « بصياح عال ، وسيوف مجذبة بأيدى رجال ، وقد قبضوا على شاب ظاهر الجمال ، وقد ظهرت جارية مليحة القوام ، وفى يدها سيف أبتر وهى تقول : وحق الركن والحجر ، لئن لم تطلقوا ابن عمى لأحطن هذا السيف فى بطنى ، أخرجه من ظهرى (٣٨) » . ويستطلع الصحصاح الخبر واذا بقصة حب طريفة ، بطلاها (لبنى وغانم) وملخصها أن غانما قد نشأ مع لبنى ابنه عمه ، فأحبها وأحبته ، وكان يعرف أنها له لأن أباه قبل ان يموت أوصى عمه بذلك وترك له المهر ، ولكن العم كان شريرا فاستولى على المال ، وأخذ يعد غانما الوعود ، حتى طـــلب غانم من عمه أن يبر بوعده ، فقال له (يا ولدى حتى تغنم لنا غنيمة) . وهو يريد أن يخرج غانما الى الغارات حتى يلقى حتفه ، فيزوج ابنته لبعض الملوك . وخرج غانما وأخذ يغير على القبائل ، حتى غنم الكثير ،

---

(٤٧) ١ / ٨٨ .
(٤٨) ٢ / ٢٨ .

وعاد محملا بالمال . ولكنه فوجىء بأن عمه قد زوج فى غيبه لبنى لملك حضر موت ، بعد أن أخبر ابنته بأن غانما قد قتل فى احدى الغارات . ويرتاع غانم لهذه الاخبار ، ولكنه يعزم على أمر ، فيتنكر فى ثيـاب راع ، ويدخل على لبنى خيمتها ، فتثب اليه فيعتنقان ، وتعرض عليه فكرة الهرب ، فيحملها خلفه على فرسه ، ولكن القوم ينهضـون ، فيحيطون بغانم ، ويدور قتال ، يتكاثرون فيه على غانم ، ويأسرونه . ولما عرف الصحصاح سر هذا الصـياح ، هب لنجدة عاشق مثله ، فتقلد سيفه ، وقتل الزوج والعم وزوج غانما من لبنى . ثم سار فى طريقـه ، حتى يسمع صياح نسوة ، واذا بقطاع طرق يهجمون على حجاج بيت الله الحرام ، فيسارع الصحصح لانقاذهم ، لأنه كما يقول عن نفسه « ولقـد سلوت حب ليلى باصطناع المعروف واغاثة الملهوف (٤٩) » . ويتبين له انه انقذ مروة بنت عبد الملك ، التى تخلفت عن الركب مخافة من شاعر يقال له عمر بن أبى ربيعة المخزومى ، كان يتعرض للنسـاء ويصف محاسنهن . وتعزم عليه أن يسير معها الى دمشق لينال جائزته ، ويتلقاه أهل دمشق بالحفاوة والترحيب . ومن الطريف انه فى غمرة هذه الاحداث لم تغب ليلى عن باله ، فحين يفتح له الخليفة بـاب التمنى ، فانه ، يقول :«ما أتمنى الا مهر ليلى » ، وحين يطلب منهمسلمة ابن عبـد الملك أن يطلب من أبيـه ملك العـرب ، يرد على مسـلمة : « يا مولاى ، ومهـر ليلى أين يكون » . ويجعله الخليفة ملكـا على العرب ، ويجعل مشيره ابنه مسلمه . ثم يحمله الاشتياق على العـودة الى ليلى وفى طريقه يمر بمضارب الحريث بن الحجاج ، واذا به يفاجأ بأن ليلى فى هذه المضرب تنتظر أن تزف الى الحريث ، وأن غانمـا صديقه أسير عند الحريث . ويتكشف له الأمر بأن الحريث فى غيـابه قد أغار على قومه ، فلما رأى ليلى هويها ، فخطبها من أبيها فوافق ،

---

(٤٩) ٢ / ٣٥ .

ثم سار بها الى محلته ، وفى طريقه مر على ابن خالته غانم ، ولما عرف غانم امر ليلى صاحبة صديقه الصحصاح ، الذى اصطنع معه ومع لبنى معروفا ، طلب من الحزيث أن يرد ليلى الى قومها ، فأجابه : « يابن الخالة ، ان أردت أن تطاع فاطلب ما يستطاع ، ليلى الكلابية مثـــل لبنى العامرية ، وقد أصبحت أنا فى هواها ، مثل قيس بن الملوح من بلواها ، والوصال اليها أصلح ، ومن وصل اليها فقد أفلح ، فاعرض عن هذا النصح ولا تنصح » (٥٠) . ثم يسوء الأمر بينهما ، ويـدور قتال ، ينتصر فيه الحريث ، ويأسر غانما ويأخذ ليلى . ولما علم الصحصاح بهذه الاخبار قتل الحريث وانتصر عليه ، واستخرج غانما ، واستخلص ليلاه . ومازال شأن الصحصاح يعلو ويستدعيه الخليفة لحرب الروم ، فيسير الى بلاد الروم ومعه مسلمة . وفى بلاد الروم أتى الى « جانب النهر ، فرأى عشر جوار نهد أبكار كأنهن الاقمار .. وكانت بينهن جارية مليحة القوام ، حلوة الابتسام .. الخ وهى تقول للجوارى : تقدموا حتى أتصارع أنا واياكم قبل أن يغيب البدر (٥١) » . وكانت تنتصر على كل جارية ، ثم دخل معها الصحصاح فى صراع انتصرت فيه عليه ، وتبين له أن هذه الفتاة الرومية ، هى الملكة الوف ، وتأخـــذه الى قاعتها ، وتسمعه من الغناء ما يدهشه ، ويعود فيخبر مسلمة بذلك . ويتوله بها مسلمة على السماع ، وتنتهى الحكاية باسلام الملكة الـوف وزواجها من مســـلمة . وتمضى السيرة فتتحدث عن قصـــة حب أخرى للصحصاح . فقد خرج ذات يوم للصيد ، فتبع ظبية جميلة ، ولحقهـــا بقرب حلة من حلل العرب ، ثم خرجت من تلك الحلة فتاة « لم يـــر الصحصاح مثلها ، ولا فى بنات الروم شكلها (٥٢) » فتوله بها ، ودعته الجارية للنزول فأجاب ، وبسطت له بساطا ، ثم حضر أبوها فبالغ

---

(٥٠) ٣ / ١١ .
(٥١) ٣ / ٧٩
(٥٢) ٥ / ٤٦ .

فى اكرام الصحصاح . ولما طلبها منه اجاب ، فتزوجها ومكث عندهم مدة ، ركبت ليلى فيها الهواجس لغياب زوجها ، ثم عاد الى ليلى فأخبرها أنه كان فى ضيافة بعض العرب ، وظل على علاقته مع أمامة يرسل اليها الهدايا ، ويذهب اليها دون ان تعلم ليلى . حتى وضعت له أمامة ولدا أسمته (مظلوما) فى اليوم الذى وضعت فيه ليلى ولدا اسمته (ظالما) ولكن رجلا يقال له عامر كان يهوى أمامة ويطمع فى أن يتزوجها ، فخيب الصحصاح آماله . فانتهز هذا الرجل فرصة وجود الصحصاح عند أمامة ، فجاء الى ليلى فأخبرها بكل شىء . وفى اثناء عودة الصحصاح من عند أمامة علم بما فعله عامر ، فخجل ان يرجع الى ليلى ، وعزم أن يقصد الى الأمير غانم . وهنا تبدأ السيرة ، فتحدثنا عن قصة التقائه فى طريقه بجنية ، تمثلت له فى صورة « جارية حسنة القوام ، مليحة الابتسام » (٥٣) . فيحبها الصحصاح ويلاقى فى ذلك الصعاب الجمة ، فقد كنت الجنية تحب بنتا مثلها من الانس ، فى الوقت الذى يحب فيه هذه الجنية ابن عمها ولا تحبه لأنه يأتى بنات الانس ، واستطاع الصحصاح التغلب على هذه العقبات والتزوج من الجنية ست الغزلان .

وهكذا تسلمنا السيرة من قصة الى قصة ، وكل قصه تتشابك مع الأخرى ، وتتشبك مع حكايات عن المكر والشجاعة والجن ، والاحتيال وهذه السيرة تخلصت من النظرة التاريخية ، وأصبح هدفها جذب القارىء والتاثير عليه ، بل لا تجد حرجا فى مخالفة التاريخ فى أشياء معروفة ومشهورة ، فمثلا تجعل عمر بن أبى ربيعة شاعرا من أهل الشام (٥٤) ، وتتحدث عن علاقة طيبة بين عبد الله بن الزبير أمير مكة ، وبين الخليفة عبد الملك بن مروان (٥٥) مع أن التاريخ يفيض فى الحروب التى دارت

---

(٥٣) ٥ / ٥٦ .
(٥٤) ٢ / ٤٨ .
(٥٥) ٢ / ٤٩ .

بينهما ، والتى انتهت بقتل ابن الزبير ، ومن الدلائل على أن السيرة تبغى التأثير على القارىء ، وتؤثر الأسلوب القصصى ، هى استغلالها لعنصر الطبيعة فى تهيئة الجو ، ومحاولتها خلق مجـــال يؤثر على القارىء ، وينمى السيرة ، فهى تكثر فى مواقفها من وصف الطبيعة التى تحيط بالعاشقين ، وصفا ينمى الموقف ويبرزه ، وان كانت فى بعض هـــذه الأوصـــاف تخرج عن المعهـــود فى البيئـــة العربية ، والطبيعة الصحراوية (٥٦) ٠

وتتشابه بعض هذه القصص فى بدايتها ببعض القصص العذرية ٠ فقصة « ليلى والصحصاح » تشبه فى مبدأ أمرها قصة « ليلى وقيس » ، ولكن الصحصاح يتطور بشخصيته ، فيجعل من حبه دافعا لأن يتغـلب على واقعـه ، ويعلو فقره ، فيسير فى البـلاد طالبا الغنى والثراء ٠ يدفعه الحب الى اتيان المعجزات والى الوصول الى المجد ٠ بل يصل به الأمر الى حب الفضائل ، أو كما يقول « ولقد سلوت حب ليلى باصطناع المعروف واغاثة الملهوف » ، كما يحدث للصوفى الذى ينتقل من حبه لمعشوقة الى حب الذات الالهية ٠

وقصة « امامة والصـحصاح » تشـبه قصـة « لبنى وقيس » فى بدايتها ، فقد خرج الصحصاح يوما الى الصحراء ، ثم يصل الى خيام بنى الوحيد ، ويقع نظره على امامة ، فيوله بها ، وتتوله به وتكرمه ، ويأتى أبوها فيكرمه أيضا ٠ ولكن القصـة هنا لا تقف عند هذا الحد ٠ فهناك عاشق آخر لأمامة ، يحقد على الصحصاح فيوشى به الى ليلى ٠ وهنا تتشابك هذه القصة مع قصة « ليلى والصحصاح » ويستمر هـــذا التشابك ، فقد أنجبت أمامة « المظلوم » وانجبت ليلى « الظالم » ، وتتحدث السيرة بعد ذلك عن الصراع بين المظلوم والظالم الذى يحاول فيه مظلوم تثبيت حقه ٠٠

---

(٥٦) ح / ٥٦ ٠

وتتشابه قصة « لبنى وغانم » مع قصة « عفـراء وعـروة » فى بدايتها . فغانم مثل عروة ينشأ مع ابنة عمه ، فيحبها وتحبه ، ويعده عمه بالزواج ثم يخرج ـ تحقيقا لرغبة عمه ـ للغنيمة وكسب الأموال ، وينتهز العم فرصة غيابه ، فيزوج ابنته من رجل ثرى ، ولكن القصة هنا تتطور أكثر ، فقد حضر غانم قبـل أن تـزف لبنى ، وتنكر حتى اختطفها وحملها على فرسه . ولكن القوم يتنبهون له فيقبضون عليه . وهنا يتشابك أمر غانم مع أمر الصحصاح ، اذ يهب الصحصاح لمعاونة هذا العاشق . ولا يكون موقف التعاون بين العاشقين موقفا فقـيرا صغيرا ، كهذا الموقف الذى نقرؤه عن التعاون بين القيسين ، أو التعاون بين جميل وكثير . بل أن الموقف فى هذه السيرة يزيدها ثراء . فقـد زرع المحبة بين هذين العاشقين ، وجعل منهما قوة واحدة متآزرة فحين يرى غانم ليلى عند الحريث يحاول خلاصها ، ويدخل من أجل ذلك فى قتال ينتهى بأسره ، ولا ينقذه من الأسر الا صديقه الصحصاح .

ومن الطريف ن نقارن بين الحكايات الحسية التى كان بطلها ابن أبى ربيعة ، وبين الحكاية مثلا التى ذكرتها السيرة عن الصحصاح والأمير مسلمة من جانب ، والملكه ألوف من جانب آخر . فان القصة الأخيرة تتوسع فى شرح الجو ، وفى حسن الوصف ، وفى التشـابك مع الأحداث ، وفى تأثير هذه العلاقة على الحروب التى دارت بين العرب والروم ، وفى التعبير عن نظرة العرب الى بنات الروم .

وان أردنا مثالا صغيرا نقارن فيه بين صنيع هذه الكتب وصنيع السير الشعبية ، فانى أذكر موقفا متشابها ، وهو موقف العاشق من الظباء . فان الكتب تكتفى بذكر أن قيسا كان يتعاطف مع الظباء لأنهـا شـبيهة بليلى ، وأنه كان يطلقها من شراكها . ولكن هذه السيرة تتوسع فى هذا ، وتصفه وصفا يثير الشوق والانتباه وتتحدث عن مواقف جـذابة للصحصاح مع الغزلان ، فى قصته مع ليلى ، ومع أمامة ، ومع سـت الغزلان .

(ب) وتتطور هذه القصص اكثر واكثر حين تنتقل الى الادب الفارسى والادب التركى ، اذ ألف الادباء بين شتيت الاخبار التى روتها الكتب العربية ، وأضافوا اليها أشياء من مبتكراتهم ، ولحموا بين كل ذلك ، من أجل غاية واحدة تسيطر على جميع أحداث القصة ، وأخرجوا قصصا ذات طابع فلسفى وفكرى ، وجعلوا الحب العذرى مرحلة مجازية الى حب آخر أبقى وأرقى وهو الحب الالهى .

وقد عقد الدكتور محمد غنيمى هلال فى كتابه « الحياة العطفية » بابا ، عرض فيه أشهر النصوص الادبية لكتاب الفرس وشعرائهم ، الذين الفوا فى موضوع ليلى والمجنون ، مثل نظامى ، وسعدى الشيرازى ، وأمير خسرو ، وعبد الرحمن الجامى ، وهاتفى .

ومن التجنى أن تطبق قواعد القصة الحديثة التى عرفت فى القرن التاسع عشر على هؤلاء الكتاب الذين عاشوا قبل أن تعرف هذه القواعد . ولهذا لن نثور على ما نراه مخالفا لهذه القواعد ، كتدخل الكاتب فى اثناء القصة لبث أفكاره وفلسفته (٥٧) ، أو التعقيب على فصول القصة بالشرح وبيان المغزى (٥٨) ، أو حشر قصص أخرى فى سياق الكلام (٥٩) .

ولكن لا شك فى أن هذه القصص أرقى بكثير من أخبار العذريين العرب ، فهى وحدة منسقة مؤلفة لغرض ، تحمل افكارا فلسفية ذات تيارات عالية ، وشخصياتها يصدرون عن موقف فلسفى ، ولهم نظرتهم نحو العالم ، والملوك والحكام . ولا غرو فقد كان مؤلفوها من خاصة الناس ، ومن تثقفوا ثقافة رفيعة ، وتقلدوا مناصب راقية ، وممن وهبوا مشاعر خاصة .

---

(٥٧) ليلى والمجنون للجامى ، مثلا ص ٢٠٦ .
(٥٨) المرجع السابق مثلا ص : ٢٧ .
(٥٩) المرجع السابق مثلا ص : ١٥٥ .

وقصة عبد الرحمن الجامى (١٤١٤ – ١٤٩٢ م) تعتبر خير القصص الفارسية فى هذا الموضوع وأكثرها ابتكارا (٦٠) ، وأعمقها وأروعها تصويرا (٦١) ٠

والقارىء لهذه القصة يجد تشابها الى حد كبير بينها ، وبين ما روى من أخبار العشاق العذريين فى الأدب العربى ٠

فهيكل هذه القصة يتفق مع ما هو معروف عند العرب ، من أن شابا حساسا من قبيلة بنى عامر ببلاد نجد ، يسمى « قيسا » عشق فتاة تسمى « ليلى » عشقا عذريا ، ملك عليه كل حواسه ، وعشقته ، ثم خطبها من أبيها ، فرفض ، فاشتد به الوجد ، ثم زوجت ليلى من شاب من بنى ثقيف ، فصعب الأمر ، وانتهت القصة بوفاتهما بسبب الحرمان والعشق ٠

وقد تأثر المؤلف بالأخبار التى روتها الكتب العربية ، وبخاصة الأغانى ، عن قيس وعن غيره من العذريين ٠ وكان جميلا من الدكتور محمد غنيمى هلال نه ذكر ف ىهوامش هذه القصة التى ترجمها من الفارسية ، الأخبار العربية التى تأثر بها المؤلف ٠

ولكن الجامى اختار من هذه الأخبار ما يخدم فنه القصصى ، وسبكها بطريقة مشوقة ، ووسع فى مواقفها توسيعا جذابا ، واقرأ موقفه مع صائد الظباء والكلام الذى وجهه لهذا الصائد حتى « ذاب شمع قلبه رقة ، فرمى بسيفه من يده » ٠ وكان الجامى موفقا فى خلق الجو القصصى ، ووصف الطبيعة والبيئة وصفا رائعا يخرج به أحيانا عن البيئة والطبيعة العربية (٦٢) ٠ وكان يورد فى قصته الخطابات المتبادلة بين قيس وليلى ٠ ومن الطريف أن نقارن بين هذه

---

(٦٠) الحياة العاطفية ص : ١٦٢ ٠
(٦١) المرجع السابق ص : ٢٣٨ ٠
(٦٢) مثلا ص ٢٥ ٠

الخطابات (٦٣) ، وبين الرسائل التى تضمنتها قصة قيس كما جمعها مجهول (٦٤) ، فان الخطابات عند الجامى مفصلة عميقة ، تخدم الغاية ، على حين تكتفى ـ عند الاديب الشعبى ـ بالشكوى من العاطفة ، وهذا الفرق بين الرسائل ، كذلك الفرق الذى لابد أن يكون بين رجل كالجامى مثقف يهدف الى غاية من قصته ، وبين رجل من عامة الناس يهدف الى التاثير على السامعين . واقرأ ـ بصفة خاصة ـ الفصل الذى يتحدث عن وفاة ليلى (٦٥) ، فانه مؤثر رائع ، وقد ربط المؤلف بين مظاهر الطبيعة وبين نفسية ليلى وهى على فراش الموت « أقبل الخريف بريحه ، فخلعت الأشجار على مهب ريحه ثيابها ، وتعرت من خلعها الخضر ، وفارقها رونق الربيع وبهاء أوراقه ... كما أن العالم من الخريف مقوض الأركان ، كانت ليلى ـ تلك الوردة ربيبة المروج ـ طريحة على الأشواك ، أشواك الموت » .
وجعلت ليلى تلقى بوصيتها الى أمها بطريقة مؤثرة تثير الدموع « وحين تشد الروح رحلها ، ستمدين من أجلى بساط المأتم ، فانظرى مقامى غريقة فى دم الأشجان ، واغسلى جسمى من مسيل الأجفان ، واجعلى كفنى من خلعة طهرى وعفتى ، وليكن فى لون ياقوت دموعى ، ولفى به وجهى الأبيض ، ففى ذلك دليل أنى شهيدة الحب .... ولست فى حاجة الى عصابة على الرأس ، فاتركينى مرفوعة الرأس بالعشق .... وأنزلينى من ضريحه الطاهر ، وليكن مكانى فى حفرة دون قدميه .. واجعلى رأسى تحت كف قدمه ، لتكون لرأسى تاجا . وسأقيم على الوفاء له حتى الحشر . ويومذاك أنهض طيبة الخاطر من تراب قدميه » .

وفوق هذا ، فان الجامى لم يقف عند حد الحب العذرى كما هو

---

(٦٣) انظر مثلا ص ١٦٠ .
(٦٤) انظر مثلا ص ٣٧ .
(٦٥) ليلى والمجنون للجامى ص ٢١٥ .

وارد فى الأخبار العربية ، بل جعل هذا الحب مجازا لحب أسمى هو الحب الالهى « حذار أن تظن المجنون قد فتن بحسن المجاز .. فعلى الرغم من أنه صبا أولا لنيل جرعة من جام ليلى ، فقد رمى آخـــرا بالجام من يدة فتحطم ، . فتفتحت فى بستان سره من أزهار المجـاز أزهار الحقيقة » (٦٦) . وقد كانت هذه الغاية هى التى تسير أحداث القصة عند الجامى ، وجعلها تلون بعض شخصيات القصة ، فقيس معد لهذا منذ البداية ، لأنه كما يقول الجامى « من عجنت طينته بالعشق ، وخطت على لوح قلبه كلمته ، فلن تمحى تلك الكلمة من لوحه ، ولو مضى عمره فى غسله منها ومحوه » (٦٧) . وزوج ليلى ، وقـــع فى حبها ، وعاش من أجلها ، ولم يجعله هـــذا الحب يحقـد على قيس أو ليلى « ولم يجد بدا من العيش على حرقة الوجد واكتفى من تلك الحديقة بعطر زهرها ... وقضى نحبه يوم أن قضى فى ذلك الأسى متخذا منه زاد الآخراه (٦٨) » .

* * *

(جـ) وفى لأدب العربى الحديث ، دخلت هذه القصص الى مجال الفن الخالص ، ورواية مجنون ليلى لأحمد شوقى تعتبر رائـــــدة فى هذا المجال .

وقد اعتمد فى روايته تلك على الأخبار التى روتها الكتب العربية ، وبخاصة الأغانى . ولكنه ألف بين تلك الأخبار بطريقة فنية ، وأضاف اليها أشياء من عنده كمنظر الجن فى الفصل الرابع ، وخالف التاريخ فى بعض الأحيان وذلك كاسناده دور الوساطة الفعلية الى ابن عوف ، والتاريخ يذكر أن ابن عوف هم بهذه الوساطة ولما يفعل ، انما الـذى فعل ذلك هو نوفل بن مساحق . ثم خرج لنا بعد ذلك بمسرحية فنية ،

---

(٦٦) ليلى والمجنون ص ٢٠٦ .
(٦٧) المرجع السابق ص ٢٤ .
(٦٨) المرجع السابق ص : ١٤٥ .

فيها أدوار متعددة كدور الصديق الذى يقوم به زياد ، ودور الغريم الذى يقوم به منازل ، ودور المنافق الذى يقوم به نصيب ، وفيها صراع ، وفيها تحليل ، وفيها قوة ، وغير ذلك من أمور تتطور بهذه القصة من مرحلة السذاجة والشعبية ، الى مرحلة العمق والفن .

وقد وقف بمسرحيته عند حد الحب العذرى كما روت الكتب العربية ، ولم يصنع صنيع شعراء الفرس والترك ، فيتحدث عن حب آخر وهو الحب الصوفى ، وان كان شوقى يصف ليلى وصفا فيه مثالية ، ويظهرها بصورة فيها هيبة وجلال . استمع الى حديث ورد الزوج الى قيس بشرح له مأساته مع ليلى :

فشعرك ياقيس أصل البلاء   لقيت بـه وبليلى الضلالا
كساها جمالا فعلقتها   فلما التقينا كساها جلالا
اذا جئتها لأنال الحقوق   نهتنى قداستها ن أنالا (٦٩)

وخلاصة الفصل أن تطور قصص العشق كن ضئيلا ، لأن الراوى لم يكن على وعى بالعمل الأدبى الذى لا ينبغى أن يختلط بالتاريخ اختلاطا يضيع شخصية كل منهما . وانما ظهر التطور بوضوح فى السير الشعبية ، ثم بصورة أوضح عند شعراء الفرس والترك ، ثم بصورة أكثر وضوحا فى الأدب العربى الحديث .

---

(٦٩) مثلا ص ١٠١ .

الفصل الرابع

نماذج من قصص العشق

عروة بن حزام

هو من الذين ادركوا الدولة الاسلامية والدولة الأموية (١) ، وله احداث مع بعض شخصيات فى العصر الأموى ، كابن أبى عتيق (٢) ، وابن عباس (٣) . وقصته من خير القصص التى يفتخر بها الأدب العربى ، لما فيها من طرافه وخيال وثراء ، وقد ضرب الأقدمون بحبه الأمثال (٤) . وقد أوقف حياته وفنه على العشق « فهو أحد المتيمين الذى قتلهم الهوى ولا يعرف له شعر الا فى عفراء » (٥) . ولهذا شاع بين الناس « كشخصية قصصية » تتناقض الأخبار التى دارت حوله ، اذا نظرنا اليها من الدقة التاريخية ، ولكنها تلتقى فى أن عروة قد انتقل من مجال التاريخ وأصبح ملك الشعب ، يحوكون حوله القصص ويؤلفون الأخبار . فمن ذاهب الى أن عروة خرج يطلب مالا فجاء فى غيابه شامى فتزوج عفراء ، ثم رجع عروة الى الحى فلما عرف القصة تبعها الى الشام (٦) ، وقيل أنه التقى بالرفقة التى هى فيها فلما رآها وقف دهشا (٧) . ومن ذاهب الى أن الذى تزوجها لم يكن شاميا وانما هو ابن عم له يقال له أثالة ، وأن عروة اقبل مع العير وقد حمل

---

(١) تزين الاسواق ١ / ٨٤ .
(٢) الاغانى ٢٠ / ١٠٦ (ساسى) .
(٣) المرجع السابق ٢٠ / ١٥٨ .
(٤) الموشى ١ / ٦٩ .
(٥ و ٦) الاغانى ٢٠ / ١٥٢ « ساسى » .
(٧) المرجع السابق ٢٠ / ١٥٥ .

أثالة عفراء على جمل أحمر فعرفها من بعد وبهت (٨) ، ومن ذاهب الى أن عفراء كانت يتيمة فى حجر عمها وعمه ، فعرضها عليه فأباها ، الى أن رآها فى يوم عيد وقد زينت فوقعت فى قلبه ، فخطبها الى عمه فأبى لما كان من كراهته لها لما عرضها عليه ، وزوجها رجلا غيره خرج بها الى الشام (٩) ، حتى طريقة وفاته نوع فيها خيال الرواة . فمن قائل الى انه بعد أن ترك عفراء وزوجها ورجع الى أهله ، نكس فى الطريق ثم مات قبل أن يصل الى حيه بثلاث ليال ، وبلغ عفراء خبر وفاته فجزعت جزعا شديدا ثم ماتت بعد أيام قلائل (١٠) . وهناك روايات تشير الى أنه لم يمت فى سفرته هذه ، ولكنه مات فى أرض عذرة كما يروى ابن أبى عتيق (١١) ، أو فى عرفه كما يروى أبو صالح (١٢) ، وقيل انه توفى فى خلافة عثمان (١٣) ، وقيل لما بلغ معاوية بن أبى سفيان خبر موتهما قال « لو علمت بحال هذين الحرين الكريمين لجمعت بينهما » (١٤) .

تضاربت الأخبار حول عروة ، وبعض هذه الأخبار بلغ حد الاحالة التى تناقض المعقول ، كخبر ابن أبى عتيق « والله أنى لأسير فى أرض عذرة ، اذا بامرأة تحمل غلاما جزلا ليس يحمل مثله ، فعجبت لذلك حتى أقبلت به ، فاذا له لحية فدعوتها ، فجاءت ، فقلت لها : ويحك ما هذا ؛ فقالت : هل سمعت بعروة بن حزام ؟ فقلت : نعم . قالت .

---

(٨) تزين الاسواق ١ / ٨٤ .
(٩) الاغانى ٢٠ / ١٥٧ « ساسى » .
(١٠) المرجع السابق ٢٠ / ١٥٥ .
(١١) المرجع السابق ٢٠ / ١٥٦ .
(١١) المرجع السابق ٢٠ / ١٥٦ .
(١٢) المرجع السابق ٢٠ / ١٥٨ .
(١٣) تزيين الاسواق ١ / ٨٧ .
(١٤) الاغانى ٣٠ / ١٥٧ « ساسى » .

هذا والله عروة . فقلت له : أنت عروة فكلمنى وعيناه تذرفان وتدوران فى رأسه » (١٥) أو كخبر أبى صالح قال : « كنت مع ابن عباس بعرفة فأتاه فتيان يحملون بينهم فتى ، لم يبق منه الا خياله ، فقالوا له : يابن عم رسول الله ، ادع له : فقال وما به ؟ فقال الفتى :

بنامن جوى الأحزان فى الصدر لوعة تكاد لها نفس الشقيق تذوب
ولكنما أبقى حشاشة مقول على ما به عود هناك صليب

ثم خفت فى أيديهم فاذا هو قد مات (١٦) » . وقد سخر عبد الملك ابن عبد العزيز بن الماجشون من هذه الأخبار المتطرفة فقال لأبى السائب بعد أن روى حديث ابن أبى عتيق « ومن أى شىء مات ؟ أظنه شرق . فقال : سخنت عيناك . بأى شىء شرق : قلت : بريقه ، وأنا أريد العبث بأبى السائب » (١٧) .

وبعض هذه الاخبار يخالف به الراوى الصدق الواقعى ، فهو مناقض لخلق الرجل العربى ، ومخالف للتقاليد العربية المتوارثة ، كهذا الخبر الذى ذكره عمر بن شبة من أن عروة نزل ضيفا على زوج عفراء وهو لا يعرفه ، فجاءه ابن عم له فقال : أتركتم هذا الكلب الذى قد نزل بكم هكذا فى داركم يعضكم ! وعنى بذلك عروه . فقال : أو انه لعروة ، بل أنت والله الكلب وهو الكريم القريب ، ثم دعاه وعاتبه على كتمان نفسه أياه ، قال له بالرحب والسعة ، نشدتك الله أن رمت هذا المكان أبدا ، وخرج وتركه مع عفراء يتحدثان . بل حين عرف أنه سيزمع على الرحيل أبى له ذلك وقال : « يا أخى ، اتق الله فى نفسك ، فقد

---

(١٥) المرجع السابق ٢ / ١٥٦ .
(١٦) المرجع السابق ٢٠ / ١٥٨ .
(١٧) الاغانى ٢٠ / ١٥٦ « ساسى » .

عرفت خبرك وأنك أن رحلت تلفت ، والله لا أمنعك من الاجتماع معها أبدا ، ولئن شئت لافارقنها ، ولأنزلن عنها لك » (١٨) .

من الصعب اذن النظر الى هذه الأخبار المتشابكة المتضاربة نظرة تاريخية ، واسهل تفسير أن شخصية عروة انتقلت الى مجال القص ، فأخذ الناس يحوكون حولها الأخبار ، فمنهم من تعثر وخرج بأخبار عن مجال المعقول ، أو عن مجال الصدق الواقعى ، ومنهم من وفق وكان فى روايته اقرب الى طبيعة الفن كرواية أسباط بن عيسى التى ساعتمد عليها فى تحليل هذه القصة ، لأنها من أغنى الروايات وأثراها ، أو كما قال عنها أبو الفرج « وروايته كأنها أتم الروايات ، وأشدها اتساقا » (١٩) .

مات حزام وترك ابنه عروة صغيرا ، فضمه اليه عمه عقال .

وكان لعقال هذا ابنة صغيرة تسمى « عفراء » ، نشأت مع عروة فى منزل واحد ، يلعبان سويا ويكونان معا ، حتى ألف كل واحد منهما صاحبه الفا شديدا ، وكان الشيخ يبارك هذه الألفة فكان يقول لابن أخيه : أبشر ، فان عفراء أمتك ، ان شاء الله » .

ثم كبرا فلحقت عفراء بالنساء ، ولحق عروة بالرجال . وأراد عروة أن يطمئن على حبه وأن يستوثق له ، فأتى عمة له تسمى هندا ، وقال لها :

— « ياعمة ، انى لمكلمك ، وانى منك لمستحى ، ولكن لم افعل هذا حتى ضقت ذرعا بما انا فيه » .

فذهبت عمته الى أخيها فقالت له :

— ياأخى ، قد أتيتك فى حاجة ، أحب أن تحسن فيها الرد ، فان الله يأجرك لصلة رحمك بى ما اسالك » .

---

(١٨) المرجع السابق ٢٠ / ١٥٤ .
(١٩) المرجع السابق ٢٠ / ١٥٣ .

فقالا لها :

— « قولى ، فلن تسألى الا رددتك بها » .

قـالت :

— « تزوج عروة ابن أخيك ، بابنتك عفراء » .

فقـــال :

— « ما عنه مذهب ، ولا هو دون رجل يرغب عنه ، ولا بنا عفـــه رغبة ، ولكنه ليس بذى مال ، وليست عليه عجلة » .

فطابت نفس عروة وسكن بعض السكون .

ولكن عقبة جديدة بدأت تلوح له ، فقد كانت أمها سيئة الرأى فيه « تريد لا بنتها ذا مال ووفر ، وكانت عرضه ذلك كمالا وجمالا » .

وأخذت العقبة تقترب منه ، فقد بلغه أن رجلا من قومه ذا يسـار ومال كثير يخطبها .

فأخذت هواجسه تتحرك ، وهو يعلم رأى أمها فيه ، وطموحها الى حياة الغنى واليسر ، ونهض يدافع عن حبه ويستوثق له ، فأتى عمه فقـــال :

— « يا عم ، قد عرفت حقى وقرابتى وانى ولدك وربيت فى حجرك ، وقد بلغنى أن رجلا خطب عفـراء ، فان أسـعفته بطلبته فقتلتنى وسفكت دمى ، فانشدتك الله ورحمى وحقى » .

فرق له وقال :

— « يا بنى ، أنت معدم ، وحالنا قريبة من حالك ، ولست مخرجهـا الى سواك ، وأمها قد أبت أن تزوجها الا بمهر غال ، فاضطرب ، واسترزق الله تعالى » . ثم جاء الى أمها فألطفها وداراها ، « فأبت أن تجيبه الا بما تحتكمه من المهر وبعد أن يسوق شطره اليها » .

المال . لقد عرف كما يقول الراوى « أنه لا ينفعه قرابة ولا غيرها الا المال الذى يطلبونه » .

شد عروة على راحلته ، وودع الحب ، بعد أن تعاهد مع حبيبته ومع أهلها ، بأنهم لا يحدثون حدثا حتى يعود ، ثم انصرف فى طلب المال الى ابن عم له موسر بالرى .

ولكن رجلا من أنساب بنى أمية يحط فى حى عفراء ، وجعـــل ينحر الابل ويهب المال ، ويطعم الناس .

رأى هذا الرجل عفراء ، فأعجبته ، وخطبها الى أبيها ، ولكن الشيخ يتذكر عهد ابن أخيه الذى ربى فى حجره ، فيعتذر للشـامى ،
ـــ « قد سميتها الى ابن أخ لى يعدلها عندى ، وما اليها لغيره سبيل » .

فقـــال :

ـــ « انى أرغبك فى المهر » :

قـــال :

ـــ « لا حاجة لى بذلك » .

وهنا تلوح الفرصة للأم ، ويبدو لها أن حلمها أوشك أن يحقق ، فتسعى جاهدة الى تزويجه من ابنتها ، وتعمل على ألا تضيع هـــذه الفرصة منها ، فتلح على الشيخ وتلتزم اذنه ، وتقول له :

ـــ « أى خير فى عروة حتى تحبس ابنتى عليه ، وقد جاءها الفتى يطرق عليها بابها ، والله ما تدرى أعروة حى أم ميت ؟ وهل ينقلب اليك بخير أم لا ؟ فتكون قد حرمت ابنتك خيرا حاضرا ، ورزقا سنيا » .

ولم تزل به حتى لان ، وقال :

ـــ « فان عاد لى خاطبا أجبته » .

وجهت الأم الى الشامى أن عد اليه خاطبا

« فلما كان من الغد نحر الشامى جذورا ، وأطعم ، ووهب ، وجمع الحى على طعامه ، وبينهم أبو عفراء ، فلما طعموا أعاد القول

في الخطبة ، فاجابه وزوجه وساق اليه المهر ، وخولت اليه عفراء ... ثم ارتحل بها الى الشام » .

انتصر المال على الحب ، وعلى القرابة ، وهزم المواثيق والعهود ، وما ان يبلغ الأمر هذا الحد ، حتى تكشف عفراء عن عواطفها وتعبر عن ذلك فى أبيات طويلة ، ذكر أبو الفرج منها هذا البيت .

يا عرو ان الحى قد نقضـــوا   عهد الالـــه وحاولوا الغـــدرا

حمل العم هم ابن اخيه حين يعود ، فسال الحى كتمــان أمـــر عفراء ، وعمد الى عتيق فجدده وسواه .

عاد عروة محملا بالمال ، يسوق من عند ابن عمه مائة من الابل مهرا لحبيبته ، ولكن اباها نعاها اليه وذهب به الى قبرها الموهوم ، فبكى عروة ، وجعل يختلف الى ذلك القبر أياما وهو مضنى هالك ، وظل على ذلك الوهم ، حتى جاءته جارية من الحى ،فاخبرته الخبر .

تبع عروة حبه ورحل الى الشام ، وسال عن الرجل حتى اهتدى اليه فقصده ، وانتسب له فى عدنان ونزل ضيفا عنده ، فأكرمه وأحسن ضيافته .

مكث عندهم أياما أنسوا به ، وفى يوم قال لجارية لهم :

ـــ « هل لك فى يد تولينيها » ؟

قـــالت :

ـــ « نعـــم » .

قـــال :

ـــ « تدفعين خاتمى هذا الى مولاتك » .

فقـــالت :

ـــ « سوأة لك ، أما تستحيى لهذا القول » .

فامسك عنها ، ثم أعاد عليها وقال لها :

— « ويحك هى والله بنت عمى ، وما أحد منا الا وهو أعز على صاحبه من الناس ، فاطرحى هذا الخاتم فى صحنها ! فان أنكرت عليك ، فقولى لها اصطبح ضيفك قبلك ، ولعله سقط منه » .

فرقت الخادم ، وفعلت ما أمرها به ، فلما شربت عفراء اللبن ، رأت الخاتم فعرفته ، فشهقت ، ثم قالت :

— « أصدقينى الخبر » .

فصدقتها » .

وهنا ينكشف خلق المرأة العربية ووفاؤها لزوجها ، مهما كـــان شعورها نحوه فلم تخف الخبر عنه ، بل قالت له :

— « اتدرى من ضيفك هذا » ؟

قـــال :

— « نعم فلان بن فلان (للنسب الذى انتسبه له عروة) .

فقـــالت :

— كلا ، والله ، بل هو عروة بن حزام ابن عمى ، وقد كتمك نفســـه حياء منك » .

* * *

قصة سباط بن عيسى قصة انسانية ، يلعب فيها المال دورا خطيرا ، وينتصر على كل العقبات ، كما يحدث بين كل البشر ، وفى كل مجتمع ، والشخصيات فيها متسقة منطقية .

فعروة ينشأ مع بنت عمه طفلين فيتعلق بها ، ويزيده تعلقا بها أن أباها كان يمنيه بزواجها ، ثم يكبر ويدافع عن حبه ، ويتخذ لذلك كل الوسائل ، مرة يلجأ الى عمته لتتوسل اليه عند أخيها ، وحين يلوح له خطر يسرع الى عمه يستشفع اليه ، بما له من حق وقرابة ورحم ، فيخبره أبوها أم الأم أبت الا أن تزوجهـــا بمهر عـــال وهـــذه خلة شائعة فى

الأمهات ، فيلجأ عروة الى الأم يلاطفها ، ويداريها ولكن لا حيلة ، فلابد من المال فيرحل الى الرى ثم يأتى ومعه مائة من الابل ، فيفاجأ بأبيها وقد نعاها فيظل وفيا يختلف الى قبرها أياما ، حتى اذا زال عنه الوهم يتبع حبه الى الشام ، ومـا زال يتلطف ويتحايـل حتى يلتقى بحبيبته .

وعفراء محبة أيضا ووفية ، ولكنها كشأن العربية تفصح عن عواطفها في حرص وحذر . فلا تظهر القصة عواطفها ، الا حين تبلغ المأساة ذروتها ، وينقض ابوها عهد الاله ، أو حين يبلغها وفاة عروة ، تستأذن من زوجها ، وتقيم مأتما ، وتظل تندبه ثلاثا ، ثم تلحق به فى اليوم الرابع (٢٠) .

وعقال تظهره القصة بمظهر المرغم على أمره ، فهو يحب ابن أخيه وتربطه به صلة دم ، وقـد وعـد أخته بـأن عفراء لعروة ، ولهـذا حين اقبل الشامى خاطبا رده ، متعللا بأن عفراء قـد سماها لابن أخ له ، ومالغيره اليها سبيل . وحاول الشامى أن يرغبه فى المهر ، ولكنه رفض . ولكن ماذا يفعل ازاء الحاح زوجه ، التى أخذت تضرب له على عاطفة البنوة ، ومستقبل ابنته أمام حاضرزاه مضمون ، ومستقبل لايدرى ماذا تخبىء الأيام فيه . وازاء هذا الالحاح ، وأمام اغراء المال والجاه يخضع ويجيب رغبة زوجه .

والأم امرأة طموح ، تبغى سعادة ابنتها ، وترى فيها من الكمال والجمال ، ما يجعلها أهلا لرجل مرموق . وهى فى كل القصة مدفوعة بتلك العاطفة التى ملكت عليها كل سبيل . يأتيها عروة يلاطفها ، فتأبى أن تجيبه ، الا بما تحتكمه من المهر ، ويعد أن يسوق شطره . وتـلوح لها الفرصة في الشامى ، الذي يوافق عندها قبولا ، « ولهذا عملت جهدها على اقناع زوجها بتغيير موقفه ، فأى خير فى أن يحبس ابنته على عروة ، وقد جاءها الغني يطرق عليها بابها » .

---

(٢٠) الأغانى ٢٠ / ١٧١ « ساسى » .

على أن تلك الرواية لم تتوسـع فى الكشف عن الصراع فى نفس عروة ، مع أنها قد مهدت لذلك تمهيدا طيبا ، فقد جعلت عروة يعيش على وهم أياما عدة ، فكان يختلف الى قبر يحسبه قبر عفراء ، وهو مضننى هالك . ثم زال الوهم ، وتبينت الحقيقة ، وانه خدع من قبل عمه الذى ربى فى حجـره ، والذى كان يمنيه الأمـانى ، ويقول له : « أبشر ، فان عفراء أمتك ان شاء الله » ، ويتبين له أن المواثيق التى أخذها فى ليلة رحيله مع عمه وامرأته ، قد ذهبت هباء . ويتبين له أن تعبه وسفره ، وأن المال الذى حصل عليه ، وشقى من أجل أن يصل الى هدفه . كل ذلك كان سرابا فى سراب ، ووهما فى وهم .

كنا نتوقع بعد هذا الخداع ، أن نلتقى بصراع عنيف فى نفسـية عروة ، يكسب القصة حركة وحيوية ، ولكن القصة تمر بذلك مسرعة . وكأنها حادثة فى حياة عروة لا تستحق الاهتمـام ، فلم تـزد على أن قالت : « فأخبرته الخبر ، فتركهم وركب بعض ابله ، وأخذ معه زادا ، ورحل الى الشام » .

وبعض الكتب ــ ليس فيها الأغانى ــ تنهى هذه القصة بخيـال طريف ، يـأبى الا أن ينتصر الحب على المـال . اذ يبـدو أن بعض القصاصين هالهم انتصار المادة على الحب ، ورأوا فى ذلك امتهانـا لتلك العاطفة التى يقدسها العرب ويشيدون بها ، فأبوا الا أن يضيفوا للقصة خيالا ينتصر فيه الحب فى الدار الآخرة ويتغلب على عقبات المادة فاذا بهم يتخيلون أن شجرتين تخرجـان ، احداهمـا من قبر عـروة ، والأخرى من قبر عفراء ، ثم تتعانقان وتتآلفـان ، فيراهمـا المارة ، ويمرون عليهما ولايدرون أى ضرب من النبات هو ؟ .. « قـال معاذ ابن يحيى الصنعانى : خرجت من مكة الى صنعاء ، فلما كان بيننا وبين صنعاء خمس ، رأيت الناس ينزلون عن محاملهم ، ويركبون دوابهم ، فقلت أين تريدون ؟ قالوا : نريد ننظر الى قبر عفراء وعروة ، فنزلت

عن محملى ، وركبت حمارى ، واتصلت بهم ، فانتهيت الى قبرين متلاصقين ، قد خرج من هذا القبر ساق شجرة ، ومن هذا ساق شجرة ، حتى اذا صارا على قامة التقيا ، فكان الناس يقولون : تآلفا فى الحياة وفى الموت » (٢١) .

وهناك قصة شبيهة بقصة عروة فى كثير من التفصيلات والخيال ، حدثت فى العصر الجاهلى ، وهى قصة المرقش الأكبر ، فقد أحب المرقش ابنة عمه أسماء ، كما أحب عروة عفراء ، ثم خطبها الى أبيها ، فقال له : لا أزوجك حتى تعرف بالبأس ، فانطلق المرقش الى ملك من الملوك يريد الغنى ، كما انطلق عروة الى ابن عم له . وفى غياب المرقش زوجت أسماء من رجل من مراد على مائة من الابل ، كما زوجت عفراء من رجل من الشام ، وأصاب المرقش مالا ، فعاد منتصرا مزهوا ، وخشى اخوته عليه ، فأخبروه أن أسماء قد ماتت ودلوه على قبر موهوم لها ، كما حدث مع عروة . ثم ينكشف الأمر ، فيزمع المرقش السفر فى طلب المرادى ، ويستصحب معه وليدة له وزوجها . ولكنه يمرض فى الطريق ، فيتركانه فى كهف بأسفل نجران ، ويرجعان . ويظل المرقش فى الكهف ، حتى تسوق اليه الصدف راعى زوج أسماء ، فيعطيه خاتمه ، ويعطى الراعى الخاتم الى جارية أسماء ، فتلقيه فى قدح اللبن الذى تشرب منه أسماء ، فتتعرف على الخاتم ، وتدعو زوجها وتطلعه على خاتم المرقش ، فيستدعى العبد ، فيخبرهما بالحقيقة ، فيركبان فى طلب المرقش ، حتى طرقاه من ليلتهما ، فاحتملاه الى أهلهما .

تشبه قصة المرقش (٢٢) قصة عروة فى كثير من التفصيلات . وهذا يدل – كما ذكرت فى الفصل الأول من الباب الأول – على أن هذه

---

(٢١) ذم الهوى ص ٤١٨ .
(٢٢) الأغانى ٥ / ١٨٠ « ساسى » .

القصص لها خيوط جاهلية ، ويؤكد فكرتى فى أن مصدر هذه القصص ، مصدر عربى ، عرفها العرب قبل أن تشتد صلتهم بالفرس أو بالروم . ويدل من ناحية ثانية على أن الحب العذرى قديم عند العرب ، ولاترجع نشأته الى العصر الاسلامى ، كما يرى بعض الباحثين ، مثل الدكتـور طه حسين (٢٣) والدكتور محمد غنيمى هلال (٢٤) . وقد دلل على نشاة الحب العذرى والغزل فى العصر الجاهلى الدكتور أحمد الحوفى ، وفند آراء ما سينيون وجب والدكتور طه حسين (٢٥) .

---

(٢٣) حديث الأربعاء ١ / ٣٢٧ .
(٢٤) الحياة العاطفية ص ٢٤ .
(٢٥) الغزل فى العصر الجاهلى ص ١٤٨ .

مجنون ليـــلى :

قصة المجنون أشهر القصص العذرية ، ويكاد لايخلو منها كتاب من الكتب العربية القديمة ، التى تحدثت عن العشق .

والهيكل العام لهذه القصة يدور حول فتى شاعر ، نبت فى بـادية نجد وعاش فى العصر الأموى . وقد أحب فتاة ، تسمى « ليـلى » وتمكن حبها من قلبه ، ثم حالت التقاليد بينهما ، وحاول هو من جانبه أن يسترضى التقاليد ، وأن يذلل العقبـات بالشـفاعات والتوسـلات ، ففشل . وتتأزم الأمور بتزويج الفتاة من رجـل آخر فيذهـل العاشق ، ويصاب بالغشيان ، ويعتزل الناس ، ويهيم فى الوديان . وهو فى كل ذلك يلجأ الى الأشعار ، يبثها مأساته ، ويطهر بها عن نفسه ، وينتهى به الأمر الى الموت وحيدا فى واد كثير الحجارة .

أما فتاته فقد كانت تبادله حبا بحب ، ولكن لاحيلة لها أمـــام رغبات أهلها فتذعن لهم ، وتتزوج بمن لاتحب . ولكنها تسلم جسدها فقط ، أما عواطفها فقد ظلت محتفظة بها لعاشقها ، الذى يهيم فى القفار والوديان .

ولكن الكتب العربية تختلف فى طريقة عرض هـــذه الاحداث ، فبعضها تذكر هذه الأحداث متناثرة . وبعضها تكتفى بحدث أو حدثين . وبعضها تزدحم بهذه الأخبار وتلك الروايات ، وتمتلىء بالاســـانيد « والعنعنات » . وبعضها تجد فيه ترتيبا وتنظيما الى حد ما .

ففى مصارع العشاق ، تتناثـر أحـــداث قيس ، وتحت عنـاوين مختلفة ، ففى « باب فى أصل العشق » يذكر خبر ليلى ، وانتحابها ، حين سمعت بما آل اليه قيس من جنون وتشرد . وفى « باب آخر من مصارع العشق » يذكر قصه ليلى وقد رجتها أم قيس أن تزوره . ثم يكرر هذا الخبر تحت « باب من مصارع العشـــاق » . وفى « باب يلحق بمصارع محبى الله » ، ذكر خبر قيس ، وقد بلغه ما عليه ليلى من أدب

وكمال ، فذهب اليها واعجب بهـــا وفى البـــاب نفســه ، وبعد ذلك بصـــفحات ، يذكر خبر قيس وحجـه الى البيت الحـــرام وبعد ذلك بصفحات أيضا يذكر خبر التقاء كثير بالمجنون ، وهو يطلق الظباء ، ثم بعد ذلك بصفحتين يورد قصة وفاته ، وفى الباب نفسه وبعد ذلك بصفحات يذكر خبر التقاء قيس بالأحوص ، وطلبه منه أن يحدثه حديث عروة بن حزام ٠٠٠ الخ ٠

أما الوشـاء فانـه يتخطى الاحـــداث التى تتعلق بنشأة قيس ، وغرامه ، وسبب عشقه ، ليتحدث عن المرحلة التى أصبح فيهـــا قيس هائما ، مستوحشا من الناس مستأنسا بالوحش ٠

أما قصة المجنون فى الباب الذى عقده أبو الفرج ، فهى قصـــة مزدحمة بالأخبار ، مكتظة بالأسانيد ، ليس فيها ترتيب أو تنظيم ، فنراه مثلا يتحدث عن قيس وليلى ، بعد أن تمكن الحب منهما ، وانها وعدت أن تزوره ليلة ، اذا وجدت الفرصة لذلك ، فمكث مدة يراسلها وهى تسوف ، ثم بعد ذلك بصفحتين يروى قصة حدثت فى بدء عشقه والتى عقر فيها ناقته لنسوة تشاغلنه عنه بمنازل ٠

المرجع الذى استرحت اليه هو كتاب « الشعر والشعراء » لابن قتيبة ،فقد تخلص من كثير من الأقوال والاستطراد ٠ وابتدأ القصـــة ببداية الحب بينهما ، وهما صبيان يرعيان البهم ، ثم تحدث عن تمكن الحب منهما ، ثم ذكر وساطة نوفل وفشلها ، ثم خروج قيس الى مكة وعياذته بالبيت الحرام ، ثم هيام قيس فى القفر ، وأخيرا وفاته فى واد كثير الحجارة (٢٦) ٠

وتصور لنا هذه القصة قيسا من الناحية الحسية ، فتذكر أنه « كان جميلا ، ظريفا ، راوية للأشعار حلو الحديث ، وانه مديد القـــامة ، طوال ، أبيض ، جعد الشعر ، أعين ، أحسن من رأت عين الرجال ،

(٢٦) انظر القصة كاملة فى : الشعر والشعراء ٢ / ٥٤٧ – ٥٥٤ ٠

ولكنه بعد تمكن المأساة منه ، تراه « فاذا هو مصفر ، مهزول ، شاحب اللـون » ٠

وكمـــا أن هنـــاك تطورا قـــد حدث فى بعض صـــفاته الحسية بسبب مأساته ، اذ كان جميلا أبيض ٠٠٠ فصار مصفرا مهزولا ٠٠٠ ـ فان هناك تطورا أيضا قد حدث فى صفاته المعنوية ٠

فقد كان انسانا سويا ، يعيش « فى نعم ظاهرة وخير كثير » ، وكان يتوقع له أبوه مستقبلا حسنا ، وكان له اخوة رجال هو آثرهـــم عند أبيه ٠ ولكنه يعشق ليلى فاذا هو ينتقل الى مرحلة أخرى ، فقد أصبح نزر الكلام ، لا يرد على محدثه الا أن تذكر له ليلى ، يلقى الثياب عليه ، ويلعب بالتراب ٠ ولكنه فى هذه المرحلة ما زال يعيش مع الناس وبينهم ، فقد رآه ابن مساحق ، وهو على تلك الحال ، فى مجمع من تلك المجامع التى كان يسعى اليها ٠

وقد حاول أهله ، ومن رثى لحاله ، شفاءه وهو فى تلك المرحلة ، واتبعوا كل وسيلة حتى لا يتمادى به الأمر ٠

حاولوا أن يجمعوا بينه وبين حبه ، فسعى نوفل الى رهط ليلى ، ولكنهم تلقوه بالسلاح ، وقالوا له : والله يا ابن مساحق لا يدخل المجنون منزلنا أبدا أو نموت » وأبو قيس وأهله أتو أبا ليلى وأهلها وسألوهـم بالرحم ، وعطفوا عليهم ، وأخبروهم بما ابتلى به ، فأبى أبو ليلى وحلف ألا يزوجها اياه أبدا » ٠

ولجأوا الى الدعـاء والتضرع ، « فقـال النـاس لأبى المجنون : لو خرجت به الى مكة فعاذ بالبيت ودعـا الله ، رجونـا أن ينسـاها ، أو يعافيه الله مما ابتلى به » ٠

بل لجأ أهله الى أكثر من ذلك ، فحين زوجت ليلى من رجـــل آخر ، وخشى أهل قيس عليه ، حبسوه وقيدوه ، يقول أبوه « فحبسناه وقيدناه ، فكان بعض لسانه وشفتيه ، حتى خشينا أن يقطعهما » ٠

ولكن على الرغم من كل ذلك ، انتهى به الأمر الى المرحلة الثالثة ٠

طلق قيس الدنيا ، وهام فى البرية ٠ يقول عنه أبوه « فلما رأينا ذلك خلينا سبيله ، فهو فى هذه الفيافى مع الوحوش ، يذهب فى كل يوم بطعامه ، فيوضع له حيث يراه ، فاذا تنحوا عنه ، جاء فأكل ٠ واذا اخلقت ثيابه ، وأتوه بثياب ، فيلقونها حيث يراها ، ويتنحون عنه ، فاذا رآها أتاها ، فألقى ما عليه ، ثم لبسها » ٠ ويقول عنه شيخ من بنى مرة ، خرج فى طلبه « فخرجت أدور يومى ، فما رأيته الا بعد العصر جالسا على كور من الرمل ، قد خط بأصبعه فيه خطوطــا ؛ فدنوت منه ، غير منقبض منه فنفر والله منى كما تنفر الوحش اذا نظرت الى الانسى ، والى جانبه أحجار ململمة فتناول واحدا منها ، فاقبلت حتى جلست اليه ، ومكث ساعة وكأنه الشىء النافر المتهيىء للقيام ٠٠٠ ثم عنت له ظباء ، فوثب فى طلبها » ٠

هذه قصة قيس ، قد اختلطت فيها الحقائق التاريخية بأشــياء أسطورية ٠

ولست فى مجال نقض الأمور الاسطورية عن الحقائق التاريخية ، اذ أننى أقبل هنا هذه الشـخصية ، بكل ما فيهـا من تاريـخ وأساطير وتكفينى الصورة الأدبية التى ظهرت فيها هذه الشخصية ، بل ربمـا كانت الأمور الاسطورية ، أدخل فى عالم الأدب من الحقائق التاريخية ٠ وقد حاول الدكتور غنيمى غربلة السمات الاسطورية التى تسربت الى أخبار قيس ، والتى رأى أنهـــا « كانت مبعث انكــار شـخصية قيس التاريخية ، عند من وقفوا عند ظاهرها ، دون تمييز بينها وبين الأخبار التاريخية الصحيحة ، ثم دون محاولة منهـم لتعليل هـــذه الأخبار ، ورجعها الى روح عصر الرواة الذين رووها » (٢٧) ٠

---

(٢٧) الحياة العاطفية ٩٠ ــ ٩٨ ٠

قيس لبنى :

هذه القصة من أثـرى قصص العشق . ففيها الصراع العـنيف الذى يتخذ ألوانا مختلفة : فصراع داخل نفسية واحدة بين تيارين يتنازعانها ، وصراع شخصيتين فى القصة كل يريد أن يتغلب على صاحبه ، وصراع بين القيود الاجتماعية وبين الحب الذى لا يعترف بقيود . وفيهـــا انتصار الحب مرة ، ثم هزيمته مرة أخرى ، ثم انتصار الحب مـــرة ثانية ، وفيها تراوح البطل بين شعورين مختلفين ، فقد شرب مرة كأس السعادة حتى الثمالة ، ثم تجرع مرة أخرى كأس المرارة حتى النهاية ، وفيه كشف عن العواطف الانسانية حين تثور وتهيج ، وفيها ابـــراز لعادات اجتماعية فى ذلك العصر ، وفيها رسم لشخصيات ظريفة تعين المحب وتساعده فى مأساته ، وفيها ابراز للخلق العربى الرائع الذى يؤمن بقيم ومثاليات يحتكم اليها حين تتنازعه الأهواء وتتقاذفه الانواء ، وفيها تصوير لشخصية العاشقة وتقديسها لعاطفتها ، وفيها عقبات ، وفيهـــا مبررات وفيها كثير من غير ذلك مما جعل الأدب العربى يفتخر بهـذه القصة .

وقد عرف القدماء لهذه القصة قدرها ، وعظموا بطلها ، فكـــان المجنون يأنس الى ابن ذريح ويلتقى به ويطرب لأشعاره ، (٢٨) وقال فى النزهة والبدور السافرة وطوالع الأزهار وغالب شراح ديوان الأستاذ ومن بحث عن أحوال العشاق أنه رأس الهوى (٢٩) وقد أشار سـلطان العاشقين . وأستاذ العارفين الى تفضيله على كل العشاق « وحكمـــة ذلك ـ والله أعلم ـ كونه قد عرف لذة الوصل والتلاق ثم رمى بغصـــة البعد والفراق ، وذلك عند العقلاء أبلغ وأعظـم ، وأرفـع فى مقاسـاة الغرام وأفحم » (٣٠) .

---

(٢٨) الاغانى ٣ / ٩٣ « دار الكتب » .
(٢٩) تزيين الاسواق ١ / ٦٢ .
(٣٠) تزيين الاسواق ١ / ٦٢ .

كان ذريح رجلا عليا ينزل بظاهر المدينة ، ولم يكن له من الأبناء الا قيس الذى شب محاطا بحب أمه ، وعناية أبيه ، بين رغد العيش ، وبلهنية الحياة .

أتاحت له هذه الحياة الكثير من الحساسية والرفاهية ، فهو رجل ملى ، عنده الفراغ الذى يهيىء له أن يخلو الى نفسه والى عواطفه ، وهو ينتسب الى عذرة تلك القبيلة التى عرفت بالرقة والدماثة وجمال النساء ، وتقدير الرجال لهذا الجمال وتأثرهم به ، وهو ـ بعد ـ شاعر يعشق الجمال ويطرب له .

مر هذا الشاعر المترف ببنى كعب وقد احتدم الحر ، واشتعلت عواطف الصحراء ، فاستسقى ماء من خيمة « فبرزت اليه امرأة مديدة القامة ، بهية الطلعة ، عذبة الكلام ، سهلة النطق ، فناولته اداوة ماء » . ثم عرضت عليه أن يبرد عندهم فأجاب ، فمهدت له وطاء ، واستحضرت ما يحتاج اليه ، ورحب به أبوها ونحر له جذورا .

* * *

انصرف قيس ، واذا بالحر الذى يحتدم فى الصحراء ، يحتدم فى قلبه ، فقد أصبح عاشقا لتلك الكعبية ، مدلها بها ، واذا بتلك الكعبية عندها أيضا أضعاف ما عنده من الحب والهيام .

غلبت العاطفة قيسا ، فلجأ الى الأشعار ، ينفس عما فى نفسه ويخفف عن لوعته ، واذا بالأشعار تذيع وتشيع فيتناقلها الناس .

كنا نتوقع بعد ذلك أن تشابه هذه القصة غيرها من قصص العشق ، فتقف هذه الأشعار عقبة مروعة ، تحول بين سعادة العاشقين ، بحجة أن العرب لاتبيح أن يتزوج الرجل فتاة منهم ، قد تغزل بها وأنشد فيها الأشعار .

ولكن القصة تتحول تحولا ، تنفرد به عن كثير من قصص العشق

المشهورة ، فتتيح للعاشق جوا من السعادة ، وذلك بفضل تدخل رجل من آل البيت ، هو الحسين سبط النبى عليه السلام .

مضى قيس الى أبيه يشكو اليه حب لبنى ، فقال له « دع هـذه وتزوج بأحدى بنات عمك » فلجأ الى أمه ، فكان جوابها مثل جواب زوجها ، غم قيس فجاء الى الحسين يشرح له مأساته ، فرثى له ، والتزم أن يحل هذا الأمر ، فجاء الى أبى لبنى ، فأجابه بالطاعة ولكنه احتاط وقال « يابن رسول الله لو أرسلت لكفيت ، بيد أن هذا من أبيه اليق ، كما هو عند العرب » ، فجاء الحسين الى أبى قيس ، حافيا على حر الرمل ، فقام ذريح ، ومرغ وجهه على أقدامه ، ومضى مع الحسين حتى زوج قيسا بلبنى .

التقى العشقان ، فأنسيا كل شىء ماعدا حبهما ، وتشاغلا عمن حولهما ، وتفرغا لعاطفتهما ، يقتطفان ألوان السعادة ، ويجنيان ثمرات اللقاء .

* * *

هناك قلب ثالث لم يرض عن هذا الوضع ، واستيقظت فيه عاطفة الغيرة والانتقام ، فقد رأت الأم أن تلك الكعبية ، قد استأثرت بوحيدها ، فأزمعت على التفريق بينهما ، وعلى أن تستخدم من أسلحة الكيد ، ما يحقق لها غرضها . فلجأت الى الشيخ الذى لم يكن راضيا فى مبدأ الأمر عن هذا الزواج . فالتزمت أذنه وضربت له على وتر حساس . ان هذا الشيخ الملى لم يكن له من الذرية ، غير قيس ، وقد قرب أجله ، وهو يريد أن ينعم بحفيد يخلد اسم الأسرة ، ولكن لبنى ظلت مع قيس مدة وهى لاتنجب . قالت الأم الماكرة يوما لزوجها : « لو زوجته بمن تحمل لتجىء بولد كان أبقى لنسبك وأحفظ لبيتك ومالك » . اتفق الشيخان على التفريق بينهما ، وعرضا ذلك على قيس « فامتنع امتناعا يؤذن باستحالة ذلك وقال : لا أسيبها قط » .

ويثور فى نفس قيس صراع حاد عنيف ، فالأبوان من جانبهما ، قرر رأيهما ، وأزمعا أمرا لا مفر منه ، وحبه للبنى أمر لا يمكن نسيانه أو تجاهله . ويصور الرواة موقف قيس تصويرا مؤثرا ، فقد « أقسم أبوه ، أو هى أمه ، لا يكنه سقف ، أو يطلق قيس لبنى ، فكان اذا اشتد الهجير ، يجيئه ، فيظله بردائه ، ويصطلى هو حتى يجىء الفىء ، فيدخل الى لبنى ، فيتعانقان ويتباكيان ، وهى تقول له : لا تفعل فتهلك » .

ظل قيس نهبا لهذا الصراع العنيف زمانا طويلا ، يصل به بعض الرواة الى عشر سنين . حتى أزمع أن يضع حدا لهذا الصراع ، واذا به يغلب جانب البر بالوالدين وواجب طاعتهما ، فيطلق لبنى .

* * *

وقع البلاء وفاضت العاطفة بقلب قيس ، وأصبح مثله مثل زملائه العذريين ، يبكى عاطفته ، ويندب حظه ، ويغشى عليه ، ويتشاءم بالغربان .

بلغت المأساة ذروتها ، فلجأ الى الأشعار ، تجسد مأساته وتصور عاطفته .

أزمعت لبنى بعد انتهاء العدة على الرحيل ، ويعرف ذلك قيس فيسقط مغشيا ، ثم يفيق لينشد :

وانى لمفن دمع عينى بالبكا حذار الذى قدكان، أو هو كائن
وقالوا غدا أو بعد ذاك بليلة فراق حبيب لم يبن ، أو هو بائن
وما كنت أخشى أن تكون منيتى بكفيك ، الا أن ما حان حائن

وتبعها حين ارتحلت ينظر اليها ، فلما غابت رجع ، فجعل يقبل أثر بعيرها ، فليم ، فأنشد :

وما أحببت أرضكم ، ولكن أقبل أثر من وطىء الترابا
لقد لاقيت من كلف بلبنى بلاء ، ما أسيغ له شرابا
اذا نادى المنادى باسم لبنى عييت فلا أطيق له جوابا

ولما جنه الليل ، أوى الى مضجعه ، فلم يطق له قرارا ، فجعل يتململ ويتمرغ فى موضعه ، ويقول :

بت والهم يا لبينى ضجيعى وجرت مذ نأيت عنى دموعى
وتنفست اذ ذكرتك حتى زالت اليوم عن فؤادى ضلوعى
بالبينى فدتك نفسى وأهلى هل لدهر مضى لنا من رجوع

* * *

لام الناس أباه على سوء فعله فجزع وندم ، وحاول تلطيف الأمر ، وجعل يرسل له الأطباء ، ويحيطه بالقينات ، فلم يفلح فى شفائه . « فلما أيس منه استشار قومه فى دائه ، فاتفقت أراؤهم على أن يأمروه بتصفح أحياء العرب ، فلعل أن تقع عيناه على امرأة تستميل عقله ، فأقسموا عليه أن يفعل ، ففعل » .

وهنا تريد القصة أن تحافظ على الصورة النقية لهذين العاشقين فى ذهن السامع فتخلق موقفا ، تنفرد به عن غيرها من قصص العشق ، تبغى من ذلك حفظ الصورة المثالية للبنى · فالقاص يريد أن يظهر العشق ، بمظهر الوفية لقيس ، فلابد من مبرر يبرر زواجها ، بعد طلاقها من قيس ، وليكن هذا المبرر هو زواج قيس نفسه ، وحتى يحافظ أيضا على الصورة المثالية لقيس ، جعل زواجه مر امرأة تسمى لبنى على اسم حبيبته القديمة ، وكأنه يريد أن يرى « لبناه » القديمة ، فى تلك « اللبنى » الجديدة ، وامعانا فى نقاوة تلك الصورة ، يظهر قيسا بمظهر المرغم على هذا الزواج · ومع ذلك فانه لم يهش للبنى الجديدة ، وأقام معها أياما لا يكلمها « وأنه اتفق أن نزل بحى من فزارة ، فرأى جارية قد حسرت عن نفسها برقع خز ، وهى كالبدر حسنا وبهجة ، فسأل عن اسمها ، فقالت : لبنى

فسقط مغشيا عليه ، فارتاعت منه ، ونضحت وجهه بالماء ، وقالت : ان تكن قيسا ، فمجنون . فلما أفاق استنسبته ، فاذا هو قيس . فاقسمت عليه أن ينال من طعامها ، فتناول قليلا ، وركب فجاء أخوها على أثره ، فاعلمته القصة فركب حتى استرده ، وأقسم عليه أن يقيم عنده شهرا ، وقال : لقد شققت على . وأجاب . فكان الفزارى يعجب به ، ويعرض عليه الصهارة ، حتى لامته العرب ، وقالوا : نخشى أن يصير فعلك سنة . فيقول ، دعونى ، ففى مثل هذا الفتى يرغب الكرام ، وقيس يقول له : ان فيكم الكفاية ولكنى فى شغل لا ينتفع بى معه ، فألح عليه ، حتى عقد على أخته ودخل بها ، فاقام معها أياما ، لا تهش نفسه اليها ولا يكلمها . ثم استاذن فى الخروج الى أهله فاذنوا له ، فخرج الى المدينة » .

وهذا الموقف أتاح للقصة تشابكا أكثر ، واطالة فى الأحداث يغنيها وينميها . وهو فى الوقت نفسه ، تبرير موفق لزواج العاشقة ، التى لم تجب قومها فى الزواج بغير قيس . وبذلك ظهرت القصة أكثر تبريرا من القصص العذرية الأخرى ، التى تستجيب فيها البطلة لارغام أهلها وقسرها على الزواج بمن يختارونه لها .

نمى الى لبنى خبر زواج قيس ، فغمت لذلك وقالت : « انه لغدار ، وأنى طالما خطبت فأبيت والآن أجيب » . وتتزوج لبنى ، وهنا تطلعنا القصة على لون من شعر الزفاف ، فيه خفة وموسيقية ، تتناسبان مع نقرات الدفوف وتصايح النسوة . ولكن هذا الشعر فيه عطف على قيس ودعاء له بالقرب ، ودعاء على أعدائه بالبعد ، مما لا يجعله متناسبا فى ليلة تزف فيها لبنى الى آخر ، ومن غير المعقول أن يرضى الزوج بانشاد هذا الشعر فى ليلة زفافه . قال النسوة :

لبينى زوجها أصبح لا حر يوازيه

له فضل على الناس	وقد باتت تناجيه
وقيس ميت حقا	صريع فى بواكيه
فلا يبعده الله	وبعدا لنواعيه

❋ ❋ ❋

أهدر السلطان دم قيس ، وتزوجت لبنى ، ورحل بها زوجها ، وأصبح قيس فى موقف مشابه لموقف غيره من العذريين كالمجنون وجميل ٠

ولكن الرواة يختلفون فى اتمام القصة ، كل على حسب ما يراه مناسبا لها ٠

فمنهم من يرى « أن قيسا انتقى ناقة من ابله وقصد المدينة ليبيعها ، فاشتراها زوج لبنى وهو لا يعرفه ٠ ثم قال له : غدا فى دار كثير بن الصلت اقبضك الثمن ، فجاء وطرق الباب فأدخله ، وقد صنع له طعاما ، وقام لبعض حاجاته ، فقالت المرأة لخدمتها : سليه ما بال وجهه متغيرا شاحبا ٠ فتنفس الصعداء ، ثم قال : هكذا حال من فارق الأحبة ٠ فقالت : استخبريه عن قصته ٠ فاستخبرته ، فشرع يحكى أمره ، فرفعت الحجاب ، وقالت : حسبك قد عرفنا حالك ٠ فبهت حين عرفها ، لا ينطق ساعة ، ثم خرج لوجهه ، فاعترضه الرجل ، وقال : مابالك ، عد لتقبض مالك ، وان شئت زدناك ٠ فلم يكلمه ، ومضى ٠ فدخل الرجل ، فقالت له : ما هذا الذى فعلت ؟ انه لقيس فحلف أنه لا يعرفه » ٠

ومنهم من يرى أن قيسا حين « جاء ليقبض ثمن المطية رأى لبنى ، فعاد مبهوتا ، فسأله الرجل ، فقال له : لا تركب لى مطيتين ٠ فقال : أنت قيس ؟ قال : نعم قال : ارجع لتخيرها فان اختارتك طلقتها ٠ وظن الرجل أنها تبغض قيسا ٠ فخيرها ، فاختارت قيسا فطلقها لوقته » ٠

ومنهم من يبتعد عن هذه المصادفة المصطنعة ، ويرى أن قيسا شفع بابن أبى عتيق « فجاء الى الحسين والحسن ، وأعلمهما أن له حاجة عند زوج لبنى ، وطلب أن ينجداه عليه ، فمضيا معه ، حتى اجتمعوا به وكلموه فى ذلك ، فقال : سلوا ما شئتم ، فقال له ابن عتيق : أهلا كان ذلك أو مالا ؟ قال : نعم . قال : اريد ان تطلق لبنى ولك ما تشاء عندى . فقال : اشهدكم انها طالق ثلاثا . فاستحيوا منه ، وعوضه الحسين مائة الف درهم » .

طلقت لبنى من زوجها ، وسواء أكان طلاقها بسبب تدخل أهل الظرف ممن لهم مكانة فى قلوب اهل الحجاز ، أم كان للمصادفة فى ذلك دورها الكبير ، فهل عادت الأمور الى مجاريها وأعلن الحب انتصاره فى اللحظة الأخيرة ، أو ابت الأقدار الا ان تختم هذه القصة بمأساة ، تحول بين العاشقين وبين سعادتهما التى كانت قاب قوسين او أدنى .

اختلاف فى النهاية :

فمنهم من ينهيها بنهاية سعيدة ، فقد تزوجها واقام معها الى الموت ، وأنه مدح من اجل ذلك ابن ابى عتيق ، فقال :

جزى الرحمن افضل ما يجازى	على الاحسان خيرا من صديق
فقد جربت اخوانى جميعا	فما ألفيت كابن أبى عتيق
سعى فى جمع شملى بعد صدع	ورأى حدت فيه عن الطريق
واطفأ لوعة كانت بقلبى	أغصتنى حرارتها بريقى

والأكثرون ينهونها نهاية حزينة ، فقد ماتت لبنى فى العدة ، وحين بلغ ذلك قيسا خرج ، ووقف على قبرها وأنشد :

ماتت لبينى ، فموتها موتى	هل ينفعن حسرة على الفوت
انى سأبكى بكاء مكتئب	قضى حياة وجدا على ميت

ثم بكى ، حتى اغمى عليه ، فحمل ومات بعد ثلاث ، ودفن الى جانبها » (٣١) .

تلك هى قصة قيس ولبنى ، تبدو قصة مؤتلفة ذات بدء وذات نهاية ، وتظهر احداثها مترتبة ، متصلة ، لا اضطراب فيها . وقال أبو الفرج : « اخبرنى بخبر قيس ولبنى امرأته ، جماعة من مشايخنا ، فى قصص متصلة ، ومتقطعة ، وأخبار منثورة ومنظومة ، فألفت ذلك على أجمع ليتسق حديثه ، الا ما جاء مفردا وعسر اخراجه عن جملة النظم فذكرته على حدة » (٣٢) .

وأهم سمة تلفت نظرك فى هذه القصة ، هى ذلك الصراع الذى يملؤها .

فانظر الى ذلك الصراع فى نفسية قيس بين عواطفه وواجباته ، فقد احب لبنى حبا لا حد له ، وعارضه ابواه فى الزواج منها ، ولكنه استطاع ان يتغلب على هذه المعارضة بفضل تدخل الحسين اخيه فى الرضاع ، واتيح له ان ينعم بشىء من السعادة . ولكن لم تتم ، فقد اعلن ابواه الحرب على زوجه من جديد ، وصمما على ان تطلق منه ، واصبح قيسا نهبا للصراع بين حبه لزوجه وبره بوالديه . تقول له زوجه : « ياقيس ، لا تطع اباك ، فتهلك وتهلكنى » (٣٣) ويحلف ابوه « لا يكنه سقف بيت ابدا ، حتى يطلق لبنى » (٣٤) .

وحاول قيس أن يضع حدا لهذا الصراع ، وان يقترح مختلف الحلول ، قال لوالده : « الموت والله على أسهل من ذلك ، ولكنى اخيرك خصلة من ثلاث خصال . قال : ما هى ؟ قال : تتزوج ، فلعل الله يرزقك

---

(٣١) انظر القصة كاملة فى تزيين الأسواق ١ / ٥٣ – ٦٢ . والجمل التى بين علامات التنصيص منقولة عن هذا المرجع .
(٣٢) الأغانى ٩ / ١٨١ « دار الكتب » .
(٣٣) المرجع السابق ٩ / ١٨٤ .
(٣٤) المرجع السابق ٩ / ١٨٣ .

ولدا غيرى . قال : فما فى فضلة لذلك . قال : فدعنى ارتحل عنك ، واصنع ما كنت صانعا ، لو مت فى علتى هذه . قال : ولا هـــذه . قال : فادع لبنى عندك ، وارتحل عنك ، فلعلى أسلوها ، قال : لا أرضى ، أو تطلقها » (٣٥) .

لم يستطـع قيس اذن التوفيق ، ورفض أبـوه مختلف الحلول ، ورفع راية الحرب « فكان يخرج ، ويقف فى حر الشمس ، ويجىء قيس فيقف الى جانبه فيظله بردائه ويصلى هو بحر الشمس حتى يفىء الفىء فينصرف عنه ، ويدخـــل الى لبنى فيعانقهـا وتعـانقه ويبكى وتبكى معه » (٣٦) .

ظل قيس فى هذا الصراع مدة ، يجعلها بعضهم أربعين يوما ، ويرفعها بعضهم الى سنة ويبالغ بعضهم ، فيجعلها عشر سنين (٣٧) . واخيرا أراد أن يضع حدا لهذا الصراع ، فيغلب جانب البر بوالديـه على جانب عاطفته ، تمشيا مع الخلق العربى ، الذى يجعل الواجـب فى النهاية ينتصر على العاطفة .

طلق لبنى ، ولكن تعرض لهزات من نوع آخر ، فقد « أسف ، وجعل يبكى وينشج أحر نشيج » (٣٨) وحين جاء أهلها ، ليحملوهـا الى ديارهم ، سقط مغشيا عليه (٣٩) .

وانظر الى الصراع بين المعسكرين فى هذه القصة ، معشكر يمثله قيس وزوجه ، وآخر يمثله ذريح وزوجه ، وكل معسكر يلجأ الى مختلف الوسائل .

يحاول قيس أن يلين قلوب والديه ، وأن يقترح لهما الحلول ، ومن ورائه لبنى تشجعه وتقويه .

---

(٣٥) و (٣٦) المرجع السابق ٩ / ١٨٣ .
(٣٧) المرجع السابق ٩ / ١٨٤ .
(٣٨) الاغانى ٩ / ١٨٤ « دار الكتب » .
(٣٩) المرجع السابق ٩ / ١٨٥ .

ويحاول والده أن يضغط على قيس ، وأن ينتهز لذلك فرصة مرضه ، الذى أشفى فيه على الهلاك ، ويضرب على غريزة حفظ النوع ، فلبنى أمرأة عاقر ، وذريح لا ولد له غير قيس ، وهو ذو مال كثير ، لايريد له أن ينتقل الى غريب ، ولهذا يقول لولده عقب شفائه من العلة « ياقيس ، انك اعتللت هذه العلة ، فخفت عليك ، ولا ولدلك ولا لى سواك ، وهذه المرأة ليست بولود ، فتزوج احدى بنات عمك ، لعل الله ان يهب لك ولدا تقر به عينك واعيننا » (٤٠) . ويأبى قيس ، فيلجأ والده الى سلاح آخر : « فان فى مالى سعة ، فتسر بالاماء » (٤٦) ويرفض قيس أن يسؤها بشىء أبدا ـ يفعل ذلك الوالد ، ومن ورائه زوجه تحمسه وتدفعه .

صراع بين المعسكرين ، يمثل المشكلة الأزلية ، وهى النزاع بين الزوجة والأم ، ترى الزوجة أن من حقها أن تستأثر بزوجها ، وأن يبنيا معا مستقبلا ملكا لهما . وترى الأم أن ابنها ثمرة عملها ، فكيف تبيح لغريبة أن تستأثر به فى سهولة .

وأخيرا .. ينتصر الشيخان على الشابين ، ولكنه انتصار مؤقت ، فلم يخلص لهما الابن بعد ذلك ، فقد ضغط على عواطفه وتكلف لذلك جهدا كثيرا ، وأحس أن والديه هما سر مأساته ، فانصرف عنهما الى آلامه وأحزانه والى هوسه وغشيانه .

ندم الوالدان ولامهما الناس فحاولا اصلاح غلطتهما بكل الوسائل ، فقد اغرت أمه فتيات الحى بأن يعبن عنده لبنى ، ليسلوها ، فلم يسل (٤٢) . وفعل أبوه مثل ذلك (٤٣) . بل وأحضر له الأطباء ، فلم يفلحوا .

---

(٤٠) و (٤١) المرجع السابق ٩ / ١٨٣ .
(٤٢) الأغانى ٩ / ١٩٣ دار الكتب .
(٤٣) المرجع السابق ٩ / ١٩٤ .

وتابى القصة ، الا أن تثبت فشل الشيخين فى كل محاولاتهما ، وأن تعلن الحب وتخطيه لمختلف العقبات ، فقد تدخل الحسين ،و طائفة من أهل البيت ، وأعادوا الصفاء الى الحبيبين ٠

* * *

وصادقة هذه القصة فى رسم الشخصيات ، رسما انسانيا ٠

فالأم ، تحب وحيدها ولعلها من أجل ذلك لاتوافق على أن تزوجه من غريبة يحبها حبا شديدا ، قد يصرفه عنها ، فترى أن تزوجه واحدة من بنات عمه ٠ ولكن الوحيد يتزوج حبيبته رغما عنها ٠ ويصح ماتوقعته الأم فالهته لبنى عن أمه ، فتجد فى نفسها وتقول : « لقد شغلت هذه المرأة ابنى عن برى » (٤٤) ٠ وتعزم على أن تعيد ابنها اليها ، حتى لاحت لها الفرصة فى مرض قيس مرضا شديدا فتسعى الى ذريح ، وتقول له بكل خبث : « لقد خشيت أن يموت قيس وما يترك خلفا ، وقد حرم الولد من هذه المرأة وأنت ذومال فيصير مالك الى الكلالة ، فزوجه بغيرها لعل الله أن يرزقه ولدا » (٤٥) ٠ وأخذت تضرب على هذا الوتر وتلح عليه ، الى أن تنتصر ٠ ولكنه انتصار مزيف فقد سقم وحيدها ٠ فثارت فيها عاطفة الأمومة ، فتحاول أن تشفى وحيدها مما به ، فتغرى به فتيات الحى ، فيعبن لبنى عنده ، عسى أن يسلو عنها ٠

والعاشقة تحب حبيبها وتخلص له ، وتعرف أنه مرغم على أمره من قبل والديه ، ولهذا حين يعرض عليها أهلها الزواج بعد طلاقها من قيس ، تمتنع عن اجابتهم ، منفردة بذلك عن ليلى التى أجابت أهلها ، حين الحوا عليها فى الزواج بغير المجنون ٠ بيد أنه ما أن يصل الى علمها أن قيسا قد تزوج من فزارة ، حتى تثور فيها الغزة ، وتستيقظ

---

(٤٤) المرجع السابق ٩ / ١٨٣ ٠

(٤٥) المرجع السابق ٩ / ١٨٣ ٠

فيها الغيرة الشديدة ، على عادة الانثى ، وتقبل الزواج بغير قيس ، بل تقول ، « انه لغدار ، ولقــد كنت امتنــع عن اجابة قومى عـن التزويج ، والآن اجيبهم » (٤٦) . ومع ذلك تحتفظ بعواطفها لقيس ، وتدس اليه من يعاتبه على فعلته ، فقد ارسلت اليه رسولا ، يسأله « لم تزوجت بعدها حتى اجابت الى أن تتزوج بعدك » (٤٧) . وصاحب التزيين ، يذكر أنها تزوجت ، خوفا على حبيبها حين أهدر السـلطان دمه ، وحتى يحمله ذلك على اليأس منها والبعد عن المخاطرة التى قد تــؤدى الى قتلــه . ولنظــر الى موقف قيس ولبنى ، وهمـــــا يتعاقبان « وروى أن لبنى عاتبت قيسا على تزوج الفزارية فحلف لها أن عينيه لم تكتحل برؤيتها ، ولم يكلمها لفظة واحدة ، وأنــه لو رآهـا لم يعرفها . وأخبرته لبنى أنها كارهة زوجها ، وأعلمته انها لم تتزوجه رغبة فيه ، بل شفقة على قيس ، حين أهدر دمه ليخلى عنها (٤٨) .

* * *

وهناك قصة حدثت فى العصر الجاهلى ، شبيهة بقصتنا هذه ، وهى قصة عبد الله بن العجلان وزوجه هند .

فقد كان عبد الله وحيد والديه ، ومر ذات يوم بنهر غسان ، فرأى بنات العرب يغتسلن فيه ، وشاهد من بينهن هندا تمشط شعرها وتسبله على بدنها ، فجعل يتأمل شفوف بياض جسمها من خلال سواد الشعر ، وأصابه الحب . ثم خطبها الى أبيها ، فأجيب وتزوج بها ، وأقاما على أحسن حال وأنعم بال . ولكنه ظل معها ثمانى سنين ، لم تنجب ولدا له . فتضايق والده من ذلك ، وكان ذا ثروة وليس له غيره ، فأمر ابنه بطلاقها . وأخذ الأب يلح عليه حتى لاحت له الفرصة ، اذ بلغه أن السكر

---

(٤٦) الاغانى ٩ / ١٩٧ « دار الكتب » .
(٤٧) المرجع السابق ٩ / ٢٠٧ .
(٤٨) تزيين الاسواق ١ / ٥٩ .

قد تمكن من عبد الله ، فارسل اليه يدعوه ، وجمع اليه اكابر الحى ، فجعلوا يلومونه ، ويتناوشونه من كل مكان ، حتى طلقها ، وبعد طلاقها ازداد به الوجد ، حتى الزمه الوساد . ثم احتمل اهل هند ابنتهم الى محلتهم ، وزوجوها برجل من نمير ، وهى قبيلة بينها وبين عبد الله ثارات ودماء كثيرة ، فحذره أبوه من الخروج اليها ، ولكنه لم يأبه ، اذ خرج اليها سرا حتى أتاها ، فرآها جالسة على حوض ، وزوجها يسقى ابله . فلما تعارفا ، شد كل منهما على صاحبه ، ودنا منه ، حتى اعتنقا ، وسقطا الى الأرض ميتين (٤٩) .

على أنك لن تعدم اشارات اسلامية فى قصة قيس ، كتعظيم آل البيت ، وقبول شفاعتهم ، وتوقيرهم .

ولن تعدم اشارات جاهلية فى قصة ابن العجلان كما ذكرها ابو الفرج (٥٠) . فما أكثر الحروب التى كانت تدور بين نهد قبيلة عبد الله ، وبين نمير قبيلة زوج هند . وقد كان لهند دور فى نصرة قبيلتها نهد على قبيلة زوجها فى احدى الغزوات (٥١) .

ويروى صاحب التزيين قصة شبيهة بقصة قيس لبنى ، فقد كان ابن عباس يوما جالسا بفناء الكعبة ، اذ وضع بين يديه شخص ، فكشف عنه ، فاذا هو رسم عاف ، وجسم بال . وقال السيوطى ان اسمه عروة بن قيس ، وانه ولع بجارية من العرب ، فزوجوه بها شفاعة للحسين ، فاقام معها مدة ، وكانت أمه تقسم عليه أن يفارقها ، وهو يقول لها : أخاف اتلاف نفسى . فلم ترض . فلما كان يوم حر شديد وقفت حافية على الرمل ، واقسمت لاتزول ، أو يفارق عروة الجارية .

---

(٤٩) تزيين الاسواق ١ / ٩١ .
(٥٠) الاغانى ١٩ / ١٠٢ « ساسى » .
(٥١) المرجع السابق ١٩ / ١٠٤ .

ففارقها رفقا بأمه ، فجعل يزداد به الوجد ، حى امتنع عن الطعـــام والشراب ، فحمل الى الكعبة (٥٢) ٠

تتشابه هذه القصص الثلاث ، كما تتشابه كثير من قصص العشق ، لان قصة الحب ومايتعلق به قصه شعبية أغرى بها العامة ، فكانو يتسامرون بها ، ويديرون أحداثها على من يشاءون من الاسماء ، التى قد تكـون حقيقية ، أو خيالية ، فالعاشق مرة هو ابن العجلان ، ومرة هو عروة ابن قيس ، ومرة هو قيس بن ذريح ٠

---

(٥٢) تزيين الاسواق ١ / ٣٦ ٠

ابن الطثرية :

كان بين قشير وجرم بلاء وحرب ، يتربص كل فريق بالآخر ، ويتغزل فى نسائه ، وينشد الاشعار للنيل منه ، يتقاتلون على الرعى ، ويقتتلون بسبب الغيث .

أمحل الناس « حتى ذهبت الدقيقة من المال ونهكت الجليلة » وأصابت جرما « السنة والجدب والمجاعة ودقة الاموال وأشرفوا على الهلكة » فانطلقوا يضربون فى الارض بحثا عن سبب للرزق ومصدر للخير .

وتسامع الناس أن « الربيع قد وقع فى بلاد بنى قشير فانتجعوها وطلبوها ، فأقبل صرم من جرم لم يجدوا بدا من رمى قشير بأنفسهم » ومن الاستجارة بها « انما جئنا مستجيرين غير محاربين » .

قالوا :

ــ مماذا

ــ من السنة والجدب والهلكة التى لا باقية لها .

وتغلب الخلق العربى فأجارتهم قشير وسالمتهم وأرعتهم طرفا من بلادها .

* * *

كان فى جرم فتى يقال له مياد ، غزلا ، حسن الوجه ، تام القامة ، آخذا بقلوب النساء ، فغدا الى القشيريات يطب منهن الغزل والصبا والحديث ، واستبراز الفتيات عند غيبة الرجال واشتغالهم بالسقى والرعية « ولكن القشيريات كن من الأنفة والعزة ، فدفعنه عنهن وأسمعنه ما يكره ، وراحت رجالهن عليهن وهن مغضبات ، فقال عجائز منهن :
ــ والله ما ندرى ، أرعيتم جرما الرعى ، أم أرعيتموهم نساءكم ؟

فاشتد ذلك عليهم فقالوا :

ــــ وما ادراكه ؟

قلن :

ـ رجل منذ اليوم ظل مجحرا لنا ، ما يطلع منا رأس واحدة يدور بين بيوتنا . فقال بعضهم :

ـ بيتوا جرما فاصطلموها .

وقال بعضهم :

ـ قبيح ، قوم قد سقيتموهم مياهكم ، وأرعيتموهم مراعيكــــم ، وخلطتموهم بأنفسكم ، وجرتموهم من القحط والسنة ، تفتاتون عليهم هذا الافتيات ، لاتفعلوا ، ولكن تصبحون وتقدمون الى هؤلاء القـــوم فى هذا الرجل ، فانه سفيه من سفهائهم فليأخذوا على يديه ، فان يفعلوا فاتموا لهم احسانكم ، وان يمتنعوا ويقروا ما كان منه يحل لكم البسط عليهم وتخرجوا من ذمتهم » .

* * *

فلما أصبحوا غدا نفر منهم الى جرم ، فقالوا :

ـ ما هذه البدعة التى قد جاروتمونا بها ؟ . ان كانت هذه البدعة سجية لكم فليس لكم عندنا رعاء ولا اسقاء ، فبرزوا لنا أنفسكم ، واذنوا بحرب وان كان افتئاتا فغيروا على من فعله » .

فقام رجل من جرم وقال :

ــــ ما هذا الذى نالكم ؟

قالوا :

ــــ رجل منكم أمس ظل يجر اذياله بين أبياتنا ما ندرى علام كــــان أمره ؟ . فقهقهت جرم من جفاء القشيرين وعجرفتها ، وقالوا :

— أنكم لتحسون من نسائكم ببلاء الا فابعثوا الى بيوتنا رجلا ورجلا .

قالوا :

— والله ما نحس من نسائنا ببلاء وما نعرف منهن الا العفة والكرم ، ولكن فيكم الذى قلتم .

— فانا نبعث رجلا الى بيوتكم يابنى قشير اذا غدت الرجال واخلف النساء ، وتبعثون رجلا الى البيوت ، ونتحالف أنه لا يتقدم رجل منا الى زوجة ولا أخت ولا بنت ولا يعلمها بشىء مما دار بين القوم ، فيظـــل كلاهما فى بيوت أصحابه حتى يردا علينا عشية الماء وتخلى لهما البيوت ولا تبرز عليهما امرأة ولا تصادق منهما واحدا فيقبل منهما صرف ولا عدل الا بموثق يأخذه عليها وعلامة تكون معه منها .

قالوا :

— اللهم ، نعـم .

* * *

غدا يزيد بن الطثرية الى الجرميات ، فظل عندهن بأكرم مظل ، لا يسير الى واحدة منهن الا افتتنت به ، وتابعته الى العودة والاخاء ، وقبض منها رهنا ، وسألته الا يدخل من بيوت جرم الا بيتها ، فيقول : لا ، وأى شىء تخافين ، وقد أخذت منى المواثيق والعهود ، وليس لاحد فى قلبى نصيب غيرك . حتى صليت العصر ، فانصرف يزيد بفتخ كثير وذيل وبراقع ، وانصرف مكحولا مدهونا ، شبعان ريان مرجل اللمة » .

وغدا مياد الجرمى الى القشيريات ، ولكنه ظل « يدور بين بيوت القشيريات ، مرجوما مقصى لا يتقرب الى بيت الا استقبلته الولائـــد بالعمد والجندل ، فتهالك لهن ، وظن أنه ارتياد منهن له حتى اخـذه ضرب كثير بالجندل ، ورأى البأس منهن وجهده العطش ، فانصرف حتى جاء الى سمرة قريبا الى نصف النهار ، فتوسد يده ونام تحتها نويمة ، حتى أفرجت عنه الظهيرة ، وناءت الاظلال ، وسكن بعض ما به من

الم الضرب ، وبرد عطشه قليلا ، ثم قرب الى الماء على القوم قبل يزيد ، فوجد أمة تزود غنما فى بعض الظعن ، فأخذ برقعها فقال : هذا برقع واحدة من نسائكم ، فطرحه بين يدى القوم وجاءت الأمة تعدو خلفه فتعلقت ببرقعها ، فرده عليها وخجل مياد خجلا شديدا » .

وجاء يزيد ممسيا وقد كاد القوم أن يتفرقوا ، فنثر كمه بين ايديهم ملآن براقع وذبلا وفتخا وقد حلف القوم الا يعرف الرجل شيئا الا رفعه ، فلما نثر ما معه اسودت وجوه جرم ، وامسكوا بايديهم امساكة ، فقالت قشير : انتم تعرفون ما كان بيننا بالأمس من العهود والمواثيق وتحرج الاموال والاهل فمن شاء أن ينصرف الى حرام فليمسك يده . فبسط كل رجل يده الى ما عرفه ، فأخذه وتفرقوا عن حرب ، وقالوا : هذه مكيدة ياقشير » .

* * *

تفرق القوم عن حرب ، ورجعت بينهما العداوة والبغضاء واتصلت الاشعار تعاود رسالتها ، فتذب عن قبيلتها ، وتثلم القبيلة الأخرى ، وتطاول الأمر بين مياد ويزيد :

فقال يزيد :

فان شئت يا مياد زرنا وزرتم ... ولم تنفس الدنيا على من يصيبها
ايذهب مياد بالباب نسوتى ... ونسوة مياد صحيح قلوبها

وقال مياد :

لعمرك ان جمع بنى قشير ... لجرم فى يزيد لظالمونا
اليس الظلم ان أباك منا ... وانك فى كتيبة آخرينا
أحالفة عليك بنو قشير ... يمين الصبر أم متحرجونا

* * *

وبلى يزيد بعشق جارية من جرم فى ذلك اليوم ، يقال لهـــا وحشية وكانت من أحسن النساء ، ونافرتهم جرم ، فلم يجد اليها سبيلا ، فصار من العشق الى أن اشرف على الموت ، واشتد به الجهد .

فجاء اليه ابن عم له ، يقال له خليفة بن بوزل ، بعد اختــلاف الاطباء ويأسهم منه ، فقال له :

– يا بن عم ، قد تعلم انه ليس الى هذه المرأة سبيل ، وان التعزى أجمل ، فما اربك فى ان تقتل نفسك ، وتأثم بربك ؟

قـــال :

– وماهمى – يابن عمى – بنفسى ، ومالى فيها امر ولا نهى ، وما هى الا نفس الجرمية ، فان كنت تريد حياتى ، فأرنيها .

قـــال :

– كيف الحيلة ؟

قـــال :

– تحملنى اليها .

فحمله اليها ، وهو لايطمع فى الجرمية : الا انهم كانوا اذا قــالوا له : نذهب بك الى وحشية ، أبل قليلا ، وراجع ، وطمع ، واذا أيس منها ، اشتد به الوجع . فخرج به خليفة بن بوزل ، فتخلل به اليمن ، حتى اذا دخل فى قبيلة ، انتسب الى أخرى ، ويخبر انه طالب حاجة .

وصارا بعد زمان الى حى وحشية ، فلقيا الرعيان ، وكمنا فى جبل من الجبال فجعل خليفة ينزل ، فيتعرض لرعيان الشاء ، فيسالهم عن راعى وحشية ، حتى لقى غلامها وغنمها ، فواعدهم موعدا ، وسالهم : ما حال وحشية ؟ فقال غلامها : هى والله بشر ، لاحفظ الله بنى قشير ، ولا يوما رأيناهم فيه ، فما زالت عليلة منذ رأيناهم . فقال : ويحك . فان هاهنا انسان يداويها ، فلا تقل لأحد غيرها . قال : نعم ، ان شاء الله تعالى » .

« وجنح الليل ، وانحدر بين مرعى غنمه ، حتى أراحها ، ومشى فيها يزيد حتى قربت من البيت على أربع ، وتجلل شملة سوداء بلـون شاة من الغنم ، فصارالى وحشية ، فسرت به سرورا شديدا ، وأدخلته سترا لها ، وجمعت عليه من الغد من تثق به من صواحباتها وأترابها ، وقد كان عهد الى ابن عمه أن يقيم فى الجبل ثلاث ليال ، فان لم يره ، فلينصرف ، فاقام يزيد عندها ثلاث ليال · ورجع الى أصح ما كان عليه ، ثم انصرف فصار الى صـاحبه ، فقال : ما وراءك يايزيد ؟ ورأى من سروره وطيب نفسه ما سره فقال :

لو أنك شاهدت الصبا يابن بوزل | بفرعالغضى اذ راجعتنى غياطله
لشاهدتلهوا بعد شحط منالنوى | على سخط الأعداء حلوا شمائله
ويوما كابهام القطـــاة ، مزينــا | لعينى ضحاه ، غالبا لى باطله »

* * *

تلك هى قصة (ابن الطثرية) ، حرصت أن أكون فيها ناقلا أكثر منى كاتبا ، فلم أحشر فيهـا نفسى الا بجملة أو جملتين (٥٣) · وذلك حتى يتبين القـارىء بنفسه روعـــة القصص العـربى ، وحتى يلمس السلاسة فى استعمال اللغة ، ويدرك البناء القصصى لهذا النـوع من القصص ·

وقد حدثت هذه القصة فى بادية اليمامة ، ولم تحدث فى باديـة الحجاز ، ويزيد فيها طرف وسط بين ابن أبى ربيعة والمجنون ، مرة يحظى من الجرميات بما كان يحظى به عمر فينصرف منهن « مكحولا مدهونا ، شبعان ريان ، مرجل اللمة » ، ومرة يحال بينه وبين وحشية « فيشرف به العشق على الموت ، ويشتد به الجهد » ، ولكنه كان يلتقى بها وينشد اشعارا فيها سرور وطيب نفس ، بل كان يلتقى بوحشـــية ،

(٥٣) الاغانى ٨ / ١٥٧ ـ ١٦٣ دار الكتب والجمل الموضوعـة بين علامات التنصيص ، منقولة عن هذا المرجع ·

رغم عمها ، ويواعدها ويقول فى ذلك الاشعار . ويخاطب عمها بـــأن وحشية « تاتى الذى تهوى مخلى طريقها » .

ولا تسرف هذه القصة ، كما اسرفت بعض قصص الحجازيين فى ذلك الجو المظلم ، ولا تبيح للسلطان أن يتحكم فى مجرى القصة وفى مقادير شخصياتها ، فهو لايهدر دم يزيد ، وبذلك يكون سببا فى زيادة العقبات والاهوال التى يلاقيها العاشق ، وتجعل سبب العقبات تـــلك العداوة التى كانت بين جرم وقشير ، وحين ارادت القصة أن تجـرى مع التقليد الذى يعنى تدخل الحاكم ، اكتفت بأن الحاكم رجا أخـــاه ثورا أن يؤدبه .

وعشق يزيد ، الذى شابه من بعض جوانبه عشق العذريين الحجازيين ، يدل على أن هذا الميل . يرجع ـ أولا وقبل كل شىء ـ الى تلك البيئة البدوية ، التى تغرس هذا الميل فى نفوس أهل البدو ، سواء كـــانوا من أهل اليمامة ، أو من أهل الحجاز . وخاصة أن يزيد « يمثل هؤلاء الفتيان من أهل البادية المتعمقة فى بداواتها ، الذين كانوا يحيـــون حياة حرة طلقة لا تكاد بشىء خارجى ، وانما تصدر عن الطبيعة المطلقة المرسلة » ، (٥٤) . ويضعف من أهمية العامل الدينى الذى بالغ فيـــه بعض الناس (٥٥) ، فلم يكن يزيد شديد التأثر بالدين ، فقد كان يحيا حياة حرة طليقة ، لا تكاد تتاثر بشىء خارجى ، وانما تصدر عن الطبيعة المطلقة المرسلة ، ويبدو لى أن أهل اليمامة ، كان تاثرهم بالاســـلام قليلا ، وقد ارتد كثير منهم بعد وفاة النبى عليه السلام ، وتابعوا مسيلمة الكذاب (٥٦) .

أصدق انه كانت بين جرم وقشير حرب من أجل المرعى والغيث ، ومن أجل ذلك كانت تنشد بينهما الأشعار ، مرة بين يزيد ومياد ، ومرة

---

(٥٤) حديث الاربعاء ١ / ٣٤٧ .
(٥٥) المرجع السابق ١ / ٢٣٧ .
(٥٦) مروج الذهب ٢ / ٥٠٤ « مطبعة الاستقامة » سنة ١٣٧٥ هـ .

بينه وبين فديك · ولكنى لا أصدق أن لهذه القصة صفة الواقعية التاريخية ، بل هى نوع من السلاح الذى كان يشهره القشيريون فى وجوه جرم ، فالعداوة بينهما كانت حادة عنيفة ، تلجىء الخصم الى استخدام أى سلاح يمكنه ، فكان بنو قشير يلجئون مرة الى الأشعار تفضح الجرميات ، وأخرى يخترعون القصص تنال أيضا منهن ·

هذه القصة ـ اذن ـ موضوعة ، وضعت للتشهير بنساء بنى جرم ، ويفوح هذا فى كل أجزائها ، فالغزل فى جرم جائز ، ولكنه فى بنى قشير نائرة · ومع ذلك فان القاص يفضح نفسه ، فبالرغم من أن الغزل فى هذه القبيلة جائز ، وأنهم يعرفون ذلك ، فكانوا يتعجبون من كبرياء بنى قشير وعجرفتهم ، اذا بهم يعرضون حلا عجيبا ، سيؤدى ـ بالتأكيد ـ الى فشلهم يطلبون من بنى قشير أن يبعثوا رجلا منهم الى بيوتهم ، على أن يبعث الجرميون رجلا الى خيام قشير ، ثم ينتظرون النتيجة التى ستسفر عن أى النساء أكثر حزما وصلابة ، وحتما ستكون النتيجة هزيمة الجرميين · وبالفعل أولع نساء جـرم بيزيد ، وكن يواعـدنه ويخرجن اليه ، ويتحايلن على لقائـه بالرغم من تهديـدات ذويهن وأقـاربهن ، وتستطيع أن تشم أن تلك القصة تبغى تمجيد القشيريين ، والاشادة بعفة نسائهم ، من تلك الاشعار التى صاحبت هذه القصة فانك ترى ـ من هذه الاشعار ـ أن نسوة يزيد ، لم يكن أكثر تصونا من نسوة مياد · قال يـزيد :

أيذهب مياد بألبـاب نسـوتى ... ونسوة ميـاد صحيح قلوبهـا

واذا كان يزيد قد اعترف بان ميادا يذهب بالباب نسوته ، فان ميادا من ناحيته يعير يزيد بسوء سلوك أمه فيقول :

لعمرك ، ان جمع بنى قشـير ... لجرم فى يـزيد لظالمونـا
اليس الظلم أن ابـاك منـا ... وانـك فى كتيبة آخرينـا

* * *

والاسلوب فى هذه القصة ، ليس أسلوبا مبتذلا مهلهلا ، بل هــو أسلوب قوى متين ، ولكنه ـ فى الوقت نفسه ـ واضح مشرق . ولتقرأ هذا الأسلوب مرة أخرى « ... يدور بين بيوت القشيريات ، مرجوما ، مقصى ، لا يتقرب الى بيت ، الا استقبلته الولائد بالعمد والجندل . فتهالك لهن ، وظن انه ارتيــاد منهن لــه ، حتى أخــذه ضرب كثير بالجندل ، ورأى البأس منهن ، وجهده العطش ، فانصرف ، حتى جاء الى سمرة ، قريبا الى نصف النهار ، فتوسد يده ، ونام تحتها نويمة ، حتى أفرجت عنه الظهيرة ، ونامت الظلال ، وسكن بعض مــا به من ألم الضرب ... » وفى هذه القصة كثير من الجمل المنتقاة ، مثل : « فاقبل صرم من جرم ، لم يجدوا بدا من رمى قشير بأنفســـهم » . « ذهبت الدقيقة من المال ، ونهكت الجليلة » . « والله ما ندرى أرعيتم جرما المرعى ، أم أرعيتموهم نساءكم ؟ » « ظل مجحرا لنا ، ما يطلع منا رأس واحدة ، يدور بين بيوتنا » . « بيتوا جرما فاصطلموها » . « فبرزوا عنا انفسكم وأذنوا بحرب » ... الخ .

وهذه القصة غنية بالاحداث والمفاجآت ، فيزيد يكسب الرهــان لقومه ، ويثبت لهم قوة أسره على الجرميات ، وتهافتهن ، ولكنه من ناحية أخرى يقع فى حب وحشية ، وبهذا تنتقل الى مجال آخــر . فتتحدث عن حب يزيد ووحشية ، ذلك الحب الذى أثـر على يزيـد ، وجعله يتبع هواه ، ويتحايل على الوصول الى حبيبته . وهنا تطلعنا القصة على لون من الفكاهة طريف ، فقد اندس يزيد وسط غنم حبيبته ، ومشى على أربع ، وتجلل شمله سوداء بلون شاة من الغنم .

وهذه القصة ذات دلالات مختلفة ، فهى تدل على نوع الحيــاة التى كان يحياها فريق من البدية ، وعلى لون العيش الذى يعيشونه ، فانظر الى أثر الماء على حياة البادية ، وما يجره على أهلها من رحلات وتنقلات . وانظر الى الحروب والغارات التى تحدث بين القبائل ، وانظر الى العلاقات بين الرجال والنساء التى فيها شىء من الحــرية والاختلاط . وانظر الى الخلق العربى فى تسامحه وتساهله ، فقـــد

أجارت بنو قشير جرما ، ونسيت ما كان بينهما من عداوة وبغضاء . وهذه الحياة بما فيها من تلك المظاهر ، امتداد لحياة الجاهليين ، وكان اثر الاسلام فى تلك القبائل المتبدية ، وفى تغيير اقتصادياتها ، وعاداتها ، ضعيف .

ومن العجيب أن ألاحظ ان الكتب العربية القديمة التى تحدثت عن أخبار العشاق ، لم تول لهذه القصة من العناية والاهتمام ما أولته لقصص أخرى ، مثل قصة المجنون وقصة جميل ، فيكاد لا يخلو كتاب من هذه الكتب الا وقد تحدث أو ذكر نتفا عن جميل أو المجنون ، أو حتى كثير ، الذى يعتبره بعض الأقدمين (٥٧) والمعاصرين (٥٨) ، دعى متكلف فى حبه .

وربما كان السبب ، أن المجنون وقيسا وجميلا ، لاقوا مصاعب ومتاعب ، أكثر مما لاقى يزيد ، وكان عشقهم عذريا لم يخالطه شىء . اما يزيد فقد كان حبه وسطا بين العذرية والحسية ، فله ـ بجانب عشقه لوحشية عشقا مبرحا ـ مغامرات ماجنة (٥٩) ، وشعر مفضوح (٦٠) ، وهو فى مجونه وافتضاحه يختلف عن ابن أبى ربيعة ، الذى يشبه حمامة من حمامات مكة الآمنة . والعرب يأنفون من أمثال مغامرات يزيد الماجنة ، وشعره المفضوح .

وربما كان السبب ، أن جميلا وابن ذريح وكثيرا وعروة بن حزام وغيرهم ، كانوا من بادية الحجاز ، أما يزيد فقد كان من اليمامة . والرواة والمؤرخون اهتموا بالحجاز أكثر من غيره ، فقد كان الحجاز ـ قبل الاسلام ـ ذا مكانة اقتصادية وسياسية واجتماعية ، جعلت له مكان

---

(٥٧) الاغانى ٩ / ٣٢ « دار الكتب » .
(٥٨) حديث الاربعاء ١ / ٣٥٩ .
(٥٩) الاغانى ٨ / ١٦٥ (دار الكتب) .
(٦٠) المرجع السابق ٨ / ١٧٢ .

الصدارة فى شمال الجزيرة العربية ، حتى هيأت للاسلام أن يشرق فيه ، مما جعل الأضواء تتسلط عليه أكثر وأكثر ، ففى مكة ولد الرســـول عليه السلام ، والى يثرب هاجر ، ولهذا لا نعجب حين نرى أن تـأثر الحجازيين بالاسلام ، كان أكثر من تاثر أهل اليمامة ٠

ربما كان السبب هذا ، أو ذاك ، وربما كان الأمرين معا ٠

ماســاة عاشــق :

حدث أحد الرواة

« خرجت فى نشدان ضالة لى ، فاوانى المبيت الى خيمة أعرابى ، فقلت : هل من قرى ؟ فقال لى : انزل ، فنزلت ، فثنى لى وسـادة ، واقبل على يحدثنى ثم اتانى بقرى ، فاكلت . فبينما أنا بين النائم واليقظان ، اذا أنا بفتاة قد اقبلت لم أر مثلها جمالا وحسنا ، فجلست ، وجعلت تحدث الاعرابى ويحدثها ، ليس غير ذلك ، حتى طلع الفجر ، ثم انصرفت ، وقلت : والله لا أبرح موضعى هذا حتى أعرف خبر الجارية والاعرابى . قال : فمضيت فى طلب ضالتى يوما ، ثم أتيته عند الليل فاتى بقرى ، فبينما أنا بين النائم واليقظان ، وقد أبطات الجارية عن وقتها ، فلق الاعرابى ، فكان يذهب ويجىء ، وهو يقول :

ما بال مية لا تاتى كعادتهــا ... أعاجها طرب أم صادها شغل

لكن قلبى عنكــم ليس يشغله ... حتى الممات ومالى غيركم امل

لو تعلمين الذى بى من فراقكم ... لما اعتذرت ولا طابت لك العلل

نفسى فداؤك قداحللت بىسقما ... تكاد من حره الاعضاء تنفصل

لو أن غاديه منه على جبــل ... لماد وانهد من اركــانه الجبل

ثم اتانى فانبهنى ، وقال : أن خلتى التى رأيت بالامس قـد ابطات على ، وبينى وبينها غيضة . وقال : ولست آمن عليها ، فانظـر ما ها هنا ، حتى اعلم علمها . ثم مضى ، فابطا قليلا ، ثم جاء بهــا يحملها ، واذا السبع قد أصابها ، فوضعها بين يدى ، ثم أخـذ سـيفه ومضى . فلم أشعر الا وقد جاء بالاسد يجره مقتولا ، ثم انشا يقول :

الا يها الليث المضر بنفســه ... هبلت لقد جرتيداك لك الشرا

أخلفتنى فـردا وحيـدا مدلها ... وصيرت آفاق البلاد لهــا قبرا

أأصبح دهـرا خاننى بفراقهــا ... معاذ الهى أن اكـون لها بـرا

ثم اقبل على فقال : هذه ابنة عمى كانت من احب الناس الى ، فمنعنى أبوها أن اتزوجها ، فزوجها رجلا من أهل هذه الأبيات ، فخرجت من مالى كله ، ورضيت بالمقام ها هنا على ما ترى ، فكانت اذا وجدت خلوة أو غفلة من زوجها ، أتتنى فحدثتنى وحدثتها كما رأيت ، ليس شىء غيره ، وقد آليت على نفسى ألا أعيش بعدها فأسالك بالحرمة التى جرت بينى وبينك اذا أنا مت فلفنى واياها فى هذا الثوب ، وادفنا فى مكاننا واكتب على قبرى هذا الشعر :

كنا على ظهرها والدهر فى مهل   والعيش يجمعنا والدار والوطن
ففرق الدهر بالتصريف الفتنا   فاليوم يجمعنا فى بطنها الكفن

ثم اتكا على سيفه فخرج من ظهره ، فسقط مغشيا عليه ، فلففتهما فى الثوب وحفرت لهما ، فدفنتهما فى قبر واحد ، وكتبت عليه كما أمرنى » .

* * *

حرصت أن أنقل (٦١) هذه القصة بدون تدخل أو تغيير ، حتى لا افسد فيها هذا الجو الساذج ، وحتى تنتقل معى الى هذه السذاجة ، واليسر ، وتلك المواقف الأسطورية ، وبذلك تؤمن معى أن هذه القصة من أصلح الأشياء لأن تتحول الى « أوبرا موسيقية » ففيها هذا الجو الساذج ، وتلك المواقف الرائعة . وتصور معى تلك المواقف الخلابة وقد اضيفت اليها الموسيقى التصويرية المعبرة ، موقف الاعرابى وهو يحمل معشوقته على كتفه ، أو موقفه وهو يجرجر الأسد وينشد الاشعار ، أو موقفه وقد اتكا على سيفه فخرج من ظهره ، أو موقف الرجل الذى لفهما فى ثوب واحد ، ودفنهما فى قبر واحد ، وكتب عليه أبياتا من الشعر (٦٢) .

---

(٦١) مصارع العشاق ص ٢٢٩ (مطبعة التقدم) ، ص ٢٩٥ (مطبعة الجوائب) .

(٦٢) انظر مقالا لى بمجلة الرسالة تحت عنوان (اوبرات عربية) « العدد ١٧٩ » .

وهذه القصة خير شاهد على وظيفة الشعر فى القصص العربى ، فهو هنا يتطور بالحركة الفنية الى الامام ، ويعبر عن أشياء تعبيرا يعجز النثر عن أدائه . يقلق الاعرابى فليجأ الى الشعر ، كوسيلة للتعبير عن قلقه واضطرابه ، وينتقم من السبع ويجره ، فيعبر عن انفعاله بأبيات من الشعر . ثم يريد أن يلخص مأساته حكمة للاجيال ، وتخليدا على الدهر ، فيلخصها فى بيتين من الشعر ، يكتبهما على قبره .

* * *

وقد اهتمت الكتب العربية القديمة بهذه القصة .

فقد ذكرها صاحب التزيين ، وهو يشبه صاحب المصارع فى ايراده لها ، وان كان يختلف عنه فى أشياء يسيرة ، كان يعبر صاحب التزيين عن الفتاة بأنها « كأحسن ما يكون من النساء » بينما يقول فى المصارع « لم أر مثلها جمالا وحسنا » ... الخ .

ثم ان صاحب التزيين لم يذكر الابيات التى أنشدها الاعرابى وهو يجر الاسد .

وذكرت هذه القصة أيضا فى الموشى ، ولكن الذى رواها هو جميل ابن معمر العذرى ، فقد قال له عبد الملك بن مروان : « يا جميل ، حدثنى ببعض أحاديث عذرة ، فانه يبلغنى أنهم أصحاب أدب وغزل . قال : نعم ، يا أمير المؤمنين .... »

وذكرت أيضا فى ذم الهوى عن جميل بن معمر العذرى أيضا .

وابن الجوزى يتشابه مع الوشاء فى أشياء كثيرة ، ولا يختلف عنه الا فى تغييرات لفظية طفيفة . كأن يقول جميل فى ذم الهوى « انتجعوا عن حيهم مرة ، فوجدوا النجعة بموضع نازح فقطنوه » ولكنه يقـــول فى الموشى « أن آل بثينة انتجعوا الحى وقطنوا بلدا آخر » . ثم ان ابن الجوزى يزيد بيتا بعد البيتين الذين ذكرهما الاعرابى وهو يجـر الاسد ، وذلك البيت الثالث هو :

أأقــول لدهر خانني بفراقـــه   معاذ الهى أن أكون له خدنــا

وقد ذكر صاحب المصارع هذا البيت ، ولكن بصيغة مختلفة ، كما رأيت آنفا .

ويبقى بعــد ذلك التشــابه الكبير بين السراج وداود الانطاكى ، والتشابه الكبير بين الوشاء وابن الجوزى .

فالأولان قد ذكرا أن الراوى قد خــرج فى نشــدان ضــالة له فأواه المبيت عند خيمة أعرابى ، فلما جن الليل اذا بفتاة جميلة تقبل وتجلس من الاعرابى ويتحادثان حتى مطلع الفجر ، حتى كانت ليلة لم تقبــل هذه الفتاة كعادتها ، فيتململ الاعرابى ويقوم ويعقد ، وينشد الاشعار ، ثم يوقظ ضيفه ويخبره بقلقه ، وبأنه يخشى على خلته من سبع فى الطريق ويلتمس منه أن ينظر ما ها هنا حتى يعلم الخبر . ثم مضى وعاد بعد قليل وهو يحملها بين يديه مقتولة ، ويأخذ سيفه ويمضى به أثر الاسد ، ويعود به مجندلا وهو ينشد الاشعار . ثم بعد ذلك يذكر لضيفه قصــة الفتاة ، ويوصيه وصيته .

أما جميل فيذكر أنه خرج يريد بثينة ، فغلط الطريق ، فلمــا جنه الليل لاحت له نار فقصدها ، فاذا هو براع فى أصل جبل قد الجأ غنمه الى كهف ، فينزل ضيفا عليه ، ولكن يسمعه فى الليل يبكى ويشكو الى شخص ، فيسأله فى الصباح عن حاله ، فيقص اسمه ونعته وخبره ، وأنه كان يهوى ابنة عم له ، فأبى أبوها أن يزوجها منه لقلة ذات يــده ، وزوجها الى رجل آخر ، وأنه تنكر ورضى أن يكون راعيا لزوجهــا ، وبذلك ضمن أن يراها وأن تراه . حتى كانت ليلة لم تحضر فيها ابنــة عمه ، فتقلقل وغلبه الشوق ، وجعل ينشد الشعر . ثم ترك جميــلا ومضى ليرى الامر . ثم عاد وعلى يديه شىء محمول ، وقد علا شهيقه ونحيبه ، فاذا هو ابنة عمه قد اعترضها السبع . ثم أخذ سيفه ومضى وابطأ حتى يئس جميل من عودته . ولكنه عاد ورأس الاسد على يده ،

فوضعه وجعل ينكت على أسنانهو هو ينشد الشعر ، ثم أوصى جميلا بوصيته ، وعمد الى خناق ، فجعل يخنق نفسه حتى مات ٠

جميل يبدأ بذكر عشق ذلك الاعرابى وخبره مع ابنة عمه ، ثم يذكر بعد ذلك خبر السبع ومأساته ٠ أما فى المصارع وفى التزيين فيذكر الراوى خبر السبع أولا ، ويؤخر كشف حقيقة الاعرابى وحقيقة فتاته بعد ذلك ٠

قد يكون جميل منطقيا من حيث الترتيب الزمنى ٠ ولكن نجد صنيع الراوى الآخر أقوى من الناحية القصصية ، فهو يؤخر كشف أوراقه ، وتوضيح ما عنده حتى يثير الشوق ، ويجذب الانتباه ٠ فيذكر أن اعرابيا لا يعرفه وفتاة لا يعرفها يتحادثان طيلة الليل ، فيقسم الا يبرح موضعه حتى يعرف خبرهما ، ثم تأتى ليلة فتتأخر الفتاة ويقلق الاعرابى ، ثم يمضى فيجىء بفتاته مقتولة ، فيضعها ، ثم يمضى ويجىء بسبع مقتول ، وبعد ذلك يعرف خبره وخبر الفتاة والسبع ٠ وبذلك يصير الأمر أكثر تشويقا ٠

على أنك لن تعدم فى خبر جميل اشياء فنية مشوقة لا تجدها فى خبر الراوى الآخر ٠ فجميل يفيض فى المقدمة ، ويمهد للحادثة ٠ بينما الراوى الآخر يقتطع ذلك ٠ فبينما يقول : « خرجت فى نشدان ضالة لى ، فأوانى المبيت الى خيمة اعرابى ، فقلت : هل من قرى ؟ فقال له انزل ٠ فنزلت ٠ فثنى لى وسادة ، وأقبل على يحدثنى » ، اذا بجميل يفيض فى هذا ويمهد فيقول : انه دخل على عبد الملك وطلب منه ان يحدثه ببعض أحاديث عذرة ٠ فقال : « نعم يا أمير المؤمنين ، ان آل بثينة انتجعوا الحى ، وقطنوا بلدا آخر ، فخرجت أريدهم فغلطت الطريق وجننى الليل ، ولاحت لى نار فقصدتها حتى دنت ، ووردت على راع فى أصل جبل ، قد ألجأ غنمه الى كهف فى الجبل ، فسلمت ٠ فرد على السلام ، وقال : أحسبك قد ضللت الطريق قلت قد كان ذلك ، فارشدنيه ٠ قال : بل أنزل حتى تريح ظهرك ، وتبيت ليلتك ، فاذا

الى شاة فذبحها ، وأجج نارا ، وجعـل يشـوى ، ويلقى بين يـدى ،

أصبحت وقفتك على الطريق ، فنزلت ، فرحب بى وأكرمنى ، وعمـد ويحدثنى فى خلال ذلك » (٦٣) .

وجميل ماهر فى أنه يعمد الى أشياء فيخفيها ، وبذلك يثـــير التشويق والتشوف ، بينما نجد الراوى الآخـر يوضـح هذه الاشـــياء ولا يخفيها . فبينما يقول جميل : « فلما كان فى الليل سمعته يبـكى ويشكو الى شخص كان معه » ، يقول الآخر : « واذا أنا بفتاة قد أقبلت لم أر مثلها حسنا وجمالا ، فجلست ، وجعلت تحدث الاعرابى ويحدثها » أو بينما يقول جميل : « فلم يلبث أن أقبل وعلى يده شىء محمول ، وقد علا شهيقه ونحيبه » ، يقول الآخر : « ثم جاء بها يحملها » .

---

(٦٣) الموشى ١ / ٨٣ .

الأعرابى الظريف والحسناء الفاتنة :

تزوج اعرابى ظريف ابنة عم له ، فلما أصابته نائبات الزمان ، وحادثات الدهر على حد تعبيره ، رغب عنه أبوها ، فاشتكاه الى ابن أم الحكم ، واذا بهذا يعجبه جمال المرأة ، فيعطى أباها عشرة آلاف درهم ، ويحبس الاعرابى ، فيضطر الى طلاقها . ثم يأتى الى معاوية ، ويشكو اليه عامله ، ويقول له ، وهو يبكى :

فى القلب منى نـــــار	والنــار فيهـــا شـنار
وفى فـــؤادى جمـــر	والجمر فيهـــا شـــرار
والجسم منى نحيـــل	واللـــون فيـــه اصفرار
والعين تبـكى لشـــجو	فدمعهـــــا مدارار
والحـب داء عســـير	فيه الطبيب يحـــــار
حملت منـــه عظيمـا	فمـــــا عليـه اصـطبار
فليس ليـــلى ليـــلا	ولا نهـــــارى نهـــار

فأرسل معاوية الى ابن أم الحكم كتابا عظيما ، جاء فى آخره :

ركبت امرا عظيما لست أعرفه	استغفر الله من جور امرىء زان
قد كنت تشبه صوفيا لـــه كتب	من الفرائض ، أو آيـات فرقان
حتىأتانى الفتىالعذرى منتحب	يشكو الى بحق غير بهتــــان
أعطى الاله عهودا لا احنث بها	أولا فابرأ من ديـن وايمـــان
ان كنت راجعتنى فيما كتبت به	لا جعلنك لحمـــا بين عقبـان
طلق سعاد وفارقهـــا بمجتمع	واشهد على ذلكنصر وابن طبيان
فما سمعت كما بلغت من عجـب	ولا فعالك حقـا فعـل انسـان

ويرد الكتاب إلى ابن أم الحكم ، فيقول « وددت أن أمير المؤمنين ،

خلى بينى وبينها سنة ، ثم عرضنى على السيف » ويدور فى داخله صراع ، أيطلقها أم يمسكها ، وأخيرا يزعجه الوفد ، فيتغلب على عاطفته ويغلب واجبه ، فيطلقها ، وتخرج سعاد ، فاذا هى « شكلة ، غنجة ، ذات هيبة وجمال ، ويراها الوفد فيقول : ما تصلح هذه الا لأمير المؤمنين ، لا لاعرابى • فيرسلها ابن ام الحكم الى معاوية • ويرد على كتابه ، بكتاب من « البحر » نفسه ، ومن « القافية » نفسها :

لا تحنثن أميــر المؤمنين وفى — بعهدك اليوم فى رفق واحسان
وما ركبت حراما حين أعجبنى — فكيف سميت باسم الخائن الزانى
وسوف تأتيك شمس ، لا خفاء بها — أبهى البرية ، من انس ومن جان
حوراء ، يقصر عنها الوصف ، ان — وصفت أقول ذلك فى سر واعلان

ويرد الجواب على معاوية ، فيقول : « ان كانت اعطيت حسن النغمة مع هذه الصفة ، فهى أكمل البرية » • ويستنطقها « فاذا هى أحسن الناس كلاما ، واكملهم شكلا ودلا » •

قال معاوية للاعرابى : يا أعرابى ، هل من سلو عنها ، بأفضل الرغبة ؟

قال : نعم ، اذا فرقت بين رأسى وجسدى ، ثم انشأ يقول :

لا تجعلنى والامثال تضرب بى — كالمستغيث من الرمضاء بالنار
اردد سعاد على حـران مكتئب — يمسى ، ويصبح فى هم وتذكار
قد شفه قـلق ما مثله قـلق — واشعر القلب منه ، أى اشعار
والله والله لا انسى محبتها — حتى أغيب فى رمس واحجار
كيف السلو وقد هام الفؤاد بها — وأصبح القلب عنها غير صبار

فغضب منه معاوية غضبا شديدا ، ولم يجد بدا من أن يخير الحسناء الفاتنة بينه ، وبين ابن ام الحكم ، وبين الاعرابى • واذا بتلك الحسناء تختار الاعرابى ، وتؤثره على الثروة والجاه ، وتنشد :

هذا ، وان أصبح فى أطمار   وكان فى نقص من اليسار

اعز عندى من أبى وجارى   وصاحب الدرهم والدينار

أخشى ان غدرت حر النار

فقال معاوية : خذها ، لا بارك الله لك فيها . فانشأ الاعرابى يقول :

خلوا عن الطريق للاعرابى   أن لم ترقوا ويحكم لما بى

فضحك معاوية ، وأمر له بعشرة آلاف درهم . وناقة ، ووطاء (٦٤)

* * *

أرأيت لتلك الحكايه اللطيفة ، التى تنتصف فيها الحسناء الفاتنة للطبقة الفقيرة ، من الجاه والمال . ولتلك الأشعار المنبثة فى ثنايا القصة وعلى لسان كل أبطالها ، يشكو الاعرابى الى معاويه ، فينشده الأشعار ، فيكتب معاوية الى عامله شعرا ، فيرد عليه عامله بالشعر ، ويبكى الاعرابى أمام معاوية ، وينشده شعرا ، ويسأل معاوية الاعرابية عن رأيها ، فتجيب بالشعر ، وينهى الاعرابى الحكاية ببيت من الشعر .

وانظر الى مقدرة أعاريض الخليل ، على القيام بوظيفة فنية فى تلك الحكاية وعلى التشكل بحسب المواقف والظروف . فالموسيقى الشعرية فى القصة السابقة لا تخرج عن التفعيلات : « مستفعلن » و « فاعلاتن » . ولكن تلك الموسيقى قد اتخذت لونا على لسان معاوية وعامله . ثم اتخذت لونا آخر على لسان الاعرابى والاعرابية . وانظر الى تلك الموسيقى ، كيف تطول وتقصر بحسب الانفعال ، فالاعرابى تشتعل عاطفته ويشتد انفعاله ، فيشكو الى معاوية ، ويختار بحرا مجزوءا ، وتفعيلات سريعة ، تتناسب مع سرعة انفعاله ، ويختار

---

(٦٤) مصارع العشاق ص ١٧٨ : وانظرها أيضا فى « ذم الهوى » مع اختلاف يسير فى الالفاظ ص ٣٣٨ .

للقافية حرف الراء وهو حرف يدق فيه اللسان سقف الحلق دقات متتالية ، فيقول :

فى القــــلب منى نــــار والنــــار فيهــــا شــنار

(الى آخر الابيــات)

وانظر الى التشابه الفنى بين موقفين متشابهين ، يكتب معاوية الى عامله ، فيرد عليه مدافعا عن نفسه ، ومستعملا النغمة نفسها التى استعملها معاوية فى اتهامه له . وتفضل الاعرابية عشيقها منشدة شعرا ، فينشد الاعرابى العاشق شعرا من البحر نفسه . وكأن القاص ـ شعوريا أو لا شعوريا ـ يرى أنه ما دامت عواطفهما وأهواؤهما مشتركة ، فليختر لهما نغمة واحدة ، وموسيقى متشابهة . وانظر الى هذا التوفيق الذى قصده القاص ، أو جاءت به المصادفة ، فجعل الاعرابية والاعــرابى فى آخر القصة ، ينشدان فى بحر الرجز ، وهو بحر سهل ميسور لــدى العامة ، يكثر فيه الجزء والحذف والزيادة . وكثير من الباحثين يعتبرون هذا البحر بحرا شعبيا ، ولعل هذا ما جعل أبا العلاء يختار جنــة للرجاز أدنى طبقة من جنة الشعراء .

وكم يكون جميلا لو أن باحثا جادا يتنــاول الشــعر فى القصص العربى ، فيكشف لنا : هل أعاريض الخليل ـ بما اتيح لها من تصرف وزيادة ـ تستطيع أن تنهض للتعبير عن موقف النفس المختلفة ، وتشف عن الحركة الداخلية للنفس . وعلى ضوء الاجابة على هــذا السؤال نستطيع أن نحكم : فيما اذا كان الحق لأصحاب الشعر الحر ، أو الحق عليهم فى اتهامهم الأوزان التقليدية بالعجز عن ملاءمة الحركة الداخلية والقصور عن شفافية الموقف النفسى .

وهنا ملاحظة : فالشعر فى هذه القصة وفى قصص أخرى مثلها ، يميل الى السهولة واليسر ، واختيار الألفاظ الدارجة والمفهومة ، التى لا تحتاج الى قاموس أو استفسار .

وهذا يختلف عن كثير من قصائد العصر الأموى ، التى تميل الى طول النفس ، وايثار الأوزان الطويلة ، واختيار الألفاظ الفحلة ، التى لا يدرك معناها بسهولة ، والتى تعتبر امتدادا ــ الى حد كبير ــ لقصائد العصر الجاهلى ٠

وأى مقارنة بين شعر كثير من هذه القصص وبين شعر الشعراء الأمويين ، مثل مروان بن أبى حفصة ، والاخطل ، والفرزدق ــ تؤكد ذلك ٠

قال بشار بن برد يفتخر ، وقد صاغ ذلك فى البحر الطويل :

اذا مـا غضـبنا غضبة مضرية
هتكنا حجاب الشمس ، أو تمطر الدما

اذا ما أعرنا سـيدا من قبيلة
ذرى منبر ، صلى علينا وسلما (٦٥)

وقال كثير يمدح عبد الملك مروان ٠ وقد صاغ ذلك فى البحـر الطويل :

جزتك الجوازى عن صديقك نصرة
وأدناك ربى فى الرفيق المقرب

فانك لا يعطى عليـك ظـلامة
عدو ، ولا تنأى عن المتقرب

وانك ما تمنع ، فانـك مانـع
بحق ، وما أعطيت لم تتعقب (٦٦)

حتى فى كثير من شعر الغزل ، تجد فرقا بينه وبين كثير من شعر

(٦٥) الاغانى ٣ / ٣١ « ساسى » ٠
(٦٦) الاغانى ٩ / ١٠ « دار الكتب » ٠

هذه القصص وخذ مثلا قول جرير يتغزل ، وقد صاغ ذلك فى البحـر الطويل :

الى الله أشكو أن بالغدور حاجة
وأخرى ، اذا أبصرت نجدا بدت ليا

نظرت برهبى والظعائن باللوى
فطارت برهبى شعبة من فؤاديا (٦٧)

فكثير من شعر هذه القصص يؤثر السهولة واليسر ، ويميل الى الأوزان السهلة ، بينما يحافظ شعر الغزل على تماسكه ورونقه ٠

وربما كان من أهم الأسباب ، التى أدت بشعر القصص الى هذه الدرجة ، هو أن هذه القصص شعبية ، يتناقلها العامه ، ويسمر بها الناس فى مجالسهم ، فكان من الطبعى أن تنحو هذا المنحى ، وأن تختار الأوزان والألفاظ التى تروق للعامة ، وتصلح مادة للسمر ٠

وقد أدرك بشار بن برد أن مـا يرضى العـامة غير مـا يرضى الخاصة ، فقد قال له قائل : « بينما تقول شعرا تثير به النقع وتخلع القلوب مثل قولك : « اذا ما غضبنا غضبة مضرية ٠٠٠ الخ » ـ تقول :

ربـــابة ربـــة البيـــت   تصـــب الخـــل فى الزيت
لهـــا عشـــر دجاجـات   وديـــك حســـن الصـــوت

فقال : كل شىء له وجه وموضع ، فالقول الأول جد ، وهذا قلته فى ربابة جاريتى ، وأنا لا آكل البيض من السوق ، وربابة هذه لهـا عشر دجاجات وديك ، وهى تجمع لى البيض عندها ، فهذا عندها من قولى ، أحسن من « قفانبك من ذكر حبيب ومنزل » عندك » (٦٨) ٠

فاذا كان بشار يميل الى السـهولة واختيار الاوزان الخفيفة ، ارضاء لربابة وطمعا فى بيضها ، فكذلك هذه القصص تجنح الى الشـعر الخفيف السهل ، ارضاء للعامة ، وطمعا فى جذبهم ٠

(٦٧) ديوان جرير ٧ / ١٦٦ ٠
(٦٨) الاغانى ٣ / ٣١ « ساسى » ٠

عاشقة قد رفع عنها الحجاب :

يقص الفرزدق تلك القصة بأوصاف والفاظ تليقان بشاعر مشهور ، فيقول : « أبق غلامان لرجل من بنى نهشل ، يقال له الخضر . قال : فخرجت فى طلبهما ، وأنا على ناقة لى عنساء أريد اليمامة . فلما صرت فى ماء لبنى حنيفة ، ارتفعت لى سحابة ، فرعدت وبرقت ، وأرخت عزاليها ، فعدلت الى بعض ديارهم ، وسألتهم القرى ، فأجابوا . فدخلت الدار ، وأنخت الناقة ، ، وجلست تحت ظلال من جريد النخل ، وفى الدار جويرية سوداء . اذ دخلت الدار جارية ، كأنها فلقة قمر ، وكأن عينيها كوكبان دريان ، سألت السوداء : لمن هذه العنساء ؟ فقالت : لضيفكم هذا . فعدلت الى ، فقالت : السلام عليك ، فقلت : وعليك السلام . فقالت لى : من الرجل ؟ فقلت : من بنى حنظلة : . فقالت : من أى بنى حنظلة ؟ قلت : من بنى نهشل ، قالت : فانت الذى يقول فيك الفرزدق :

ان الذى سمك السماء بنى لنا ... بيتا ، دعائمه أعز وأطول

بيتا زرارة محتب بفنائه ... ومجاشع ، وأبو الفوارس نهشل

قال : فقلت : نعم . فتبسمت وقالت : فان ابن الخطفى هدم عليه بيته وهو الذى يقول :

أخزى الذى رفع السماء مجاشعا ... وبنى بناءك بالحضيض الأسفل

بيتا يحمم قينكم بفنائه ... دنس مقاعده ، خبيث المدخل

قال : فاعجبتنى ، فلما رأت ذلك فى وجهى ، قالت : الى أين تؤم ؟ قلت : اليمامة .

قال : فتنفست الصعداء ، ثم قالت : ها هى تلك أمامك ، ثم انشأت تقول :

يذكرنى بـلادا خـير أهـلى بها ، أهـل المروءة والكرامة
الا فسقى المليك أجش صـوب يـدر بسـحه تـلك اليمامـة
وحيى باالسـلام أبـا نجيـد فاهـل للتحيـة والسـلامة

قال : فانست بها ، فقلت : أذات خدن أم ذات بعل ؟ فانشـات تقول :

اذا رقـد الخلى ، فـان عمرا هـو القمـر المضىء المستنير
ومـالى بالتبعـل مسـتراح ولـو رد التبعـل لى أسـيرى

قال : ثم سكتت سكتة ، كانها تستمع الى كلامى ، ثم تهافتت ، وانشات تقول :

يخيل لى أيا عمرو بن كعـب كانك قـد حملت على سـرير
فـان يك هـذا يـا عمرو انى مبكرة عليـك الى القبـور

قال : ثم شهقت شهقة فماتت . ويسأل عنهما الفرزدق ، فاذا هى بنت الضحاك بن النعمان بن المنذر بن ماء السماء ، واذا عمرو هـذا ابن عمها . ولما دخل اليمامة سأل عنه ، فاذا به قد دفن فى ذلك الوقت من ذلك اليوم » (٦٩) .

* * *

تلك هى القصـة التى يديرون أحداثهـا على لسـان الفرزدق ، ويزعمون أنه شاهدها بعينيه ، والعاشقة هنا شابة جميلة كانها فلقـة قمر ، وكان عينيها كوكبان دريان ، ذكية تحفظ الشعر وترويه بـل وتنشده ، تميزت بشخصية روحية شفافة ، تبصر عن بعد ، ولهذا علق صاحب منازل الاحباب على هذه الحكاية بقوله : « وهذه الحكاية أعجب من جميع ما تقدم ، فان كلا من أولئك حصل له الموت عند تحقق اليأس

(٦٩) الزهرة ص ١٦١ . ومصارع العشاق ص ٦٣ . وأخبـار النساء ص ٧٨ .

من محبوبه ، اما بمعاينة موته أو اخباره بذلك ... أما هذا فلطفت نفسها الى أن رفع بينها وبين محبوبها حجاب البعد ، ولم يبق لنفسها مادة ، الا مما يرد عليها من ذلك الحبيب ، فكان بمنزلة المصباح الذى للبصير . فلما ذهب عن القلب أحس بفقده ، كما يحس البصر بذهاب نور المصباح اذا أطفىء » (٧٠) .

وصاحب التزيين يضيف الى هذه القصة أمورا أخرى . فعمرؤ هذا قد طلب منه عمه مهرا يعجز عنه ، وازاء تلك العقبة يشير عليه بعض أصحابه بالخروج الى أبرويز بن كسرى لما كان بين جدودهما من الوصلة . وفى طريقه أخبره عراف أن عمه قد زوجها لرجل من فزار فعاد . أما موقفها من الفزارى فيلخصه صاحب التزيين بطريقة مضحكة ، اذ كانت « تشد الفزارى اذا جن الليل الى كسر البيت وتبيت فى الخدر ، فاذا أصبح الصبح تطلقه ، فيستحى أن يخبر العرب بذلك ، فلما كثر توبيخ العرب له واختلاف ظنونهم ، خرج فلا يدرى أين يذهب » (٧١) .

ونستنتج من قول صاحب التزيين ، أن هذه القصة قد حدثت قبل أن يدال من الأكاسرة ، وقبل أن تسقط دولتهم ، فقد نصحه بعض أصحابه ، بالخروج الى أبرويز بن كسرى . وقد ذكر الدكتور الحوفى هذه القصة ــ نقلا عن الدر المنثور ــ على أنها حدثت فى العصر الجاهلى (٧٢) . ولكن الرواية التى نحن بصددها تذكر أن الفرزدق قد شاهد عقيلة بعينيه ، وأنها كانت شابة جميلة تعشق وتنشد الأشعار .

والحل ... أننى لا أصدق أن الفرزدق قد شاهد الحسناء بعينيه ، ولا أصدق تلك الرحلة الطويلة التى خرج يطلب فيها عبدين آبقين ، كل

---

(٧٠) ديوان الصبابة ٢ / ٩١ .
(٧١) تزيين الأسواق ١ / ١٢٣ .
(٧٢) الغزل فى العصر الجاهلى ص ١٧٩ .

هذا من خيال الشعراء ، بل اقول من خيال القصاص ، اراد أن يكسب به القصة شيئا من الواقعية ، وشيئا من التصديق .

ولست أزعم أن هذه القصة قد حدثت فى العصر الجاهلى فهذا شىء يصعب تحديده ، اذ أن هذه القصة من الادب الشعبى الذى لا يتحـرى الصحة التاريخية ، ولا الدقة فى الأسماء والأمكنة ، وانما هو يريـــد أن يحكى قصة غرامية غريبة ، بطلها عاشقة قد رفع عنها حجـــاب البعد ، فليختر لها القاص أسماء جذابة مشهورة ، فلتكن البطلة عقيـلة بنت النعمان ، وليكن عاشقها ابن عم لها باليمامة . ويريد القاص أن يفرق بين العاشق والمعشوقة ، وليس هذا شاقا فالصلة بين ملوك الحيرة والاكاسرة صلة مشهورة يعرفها العامة والخاصة ، واذن فلينصحه بعض أصحابه بالخروج الى ابرويز للاستعانة به ، ولا يهم القصة ، فيمـــا اذا كان ابرويز هذا ما زال حيا ، أم أن الأحداث قد ذهبت به وبملكه ، لا يهمنا هذا بقدر ما يهمها اسم له رنين ، يخدمها فى خلق موقف يفرق به بين العاشقين .

* * *

ونظرة الى الشعر الذى ورد على لسان بنت الضحاك ، والشعر الذى قاله الفرزدق أو جرير وورد فى هذه القصة ، يؤكد ما سبق أن قلته من أن شعر بعض هذه القصص ، يجنح الى السهولة واســتعمال العبارات الدارجـة ، واليك مثـلا من تلك العبارات الدارجـة « وحى بالسلام أبا نجيد ...فأهل للتحية والسلامة » أو « اذا رقد الخلى فان عمرا .. هو القمر المضىء المستنير » أو « ومالى بالتبعل مستراح ... ولورد التبعل لى أسيرى » أو « يخيل الى أبا عمرو بن كعب .. كأنك قد حملت على سرير » . وتحس بذوقك اللغوى أن هذه العبارات تجنح الى السهولة والقرب من الاستعمال الدارج . واذا اردت أن تتبين هـذا اكثر ، فقارن بين قول الفرزدق وهو يمدح بيت آله :

ان الذى رفـع السماء بنى لنـا بيتـــا ، دعائمه اعـز واطول

او قول جرير وهو يهدم عليه بيته :

يحمم قينـــكم بفنـــائه دنس مقاعـده خبيث المدخـــل

قارن بين قول الفرزدق أو جرير ، وبين قول بنت الضحاك وهى تمدح بلاد حبيبها : « يذكرنى بلادا خير اهلى ٠٠ بها ، أهل المروءة والكرامة » : فالفرق واضح بين القوة فى « دعائمه أعز واطول » أو « دنس مقاسده خبيث المدخل » ، وبين السهولة فى « أهـل المروءة والكرامة ٠

عمــــارة :

روى السراج هـــذه القصـــة تحت عنـــوان « باب من عجـــائب العشاق (٧٣) ، وبطلتها جارية حسناء يقال لها « عمارة » وكانت عند عبد الله بن جعفر ، وكان يكلف بها كلفا شديدا · فاتفق أن وفد الى معاوية وكنت معه ، فرآها يزيد فوقعت فى قلبه ، وهنــــا يحدث فى داخله صراع عنيف · ان حب هذه الجارية قد ملأ عليه قلبه وحياته ، وابن جعفر لا يتنازل عنها ، ولا يبيعها ، ومنزلته من الخاصة والعامة ـ كما تقول القصة ـ لا تبيح ليزيد ان يكرهه على التخلى عنها · ماذا يفعل يزيد امام هذا الحجازى الذى يقف عقبة فى سبيل سعادته · وهنــــا تكشف القصة عن نوع من الصراع بين الحجازيين ويمثلهم ابن جعفر ، وبين الشاميين ويمثلهم يزيد · فيستشير يزيد من يثق به فى ســبيل انتزاع هذه الحسناء من ذلك الحجازى ، فيشيرون عليه بأن يلجأ الى الحيلة ، فيرسل فى طلب رجل عراقى له ادب وظرف · ويكون بينهمــا حديث ، يعرض فيه يزيد على العراقى حاجته ، فيجيب العراقى · ويطلب من يزيد أن يعينه بالمال ، ثم « أخذ من طرف الشام ، وثياب مصر ، واشترى متاعا للتجارة من رقيق ودواب ، وغير ذلك ، ثم شخص الى المدينة ، فأناخ بعرصة عبد الله بن جعفر ، واكترى منزلا الى جانبه» وهنا تكشف القصة عن الوان من الحيل والمخادعة ، يتعرض لها هـــذا الحجازى ، فقد أرسل اليه هذا الرجل ، المتنكر فى ثياب تاجر ، وقــال له : انى رجل من أهل العراق قدمت بتجارة ، وأحببت ان أكون فى عز جوارك وكنفك ، الى أن ابيع ماجئت به ثم هيأ له بغلة فارهة ، وثيابا من ثياب العراق ، والطافا ، فبعث بها اليه وكتب معها « ياسيدى انى رجل تاجــر ، ونعمة الله على ســابغة ، قد بعثت اليك بشىء من التحف ، وكذا من الثياب والعطر ، وبعثت اليك ببغلة خفيفة العنان ، وطيئة الظهر ، فاتخذها لرحلك · فانا اسألك بقرابتك من رســـول الله

(٧٣) مصارع العشاق ص ٢٣٩ · وانظرها فى « ذم الهوى » مع تغييرات لفظية يسيرة ص ٦٠٤ ·

ﷺ ، الا قبلت هديتى ولم توحشنى بردها ، انى أدين الله تعالى بحبك وحب أهل بيتك ، وان اعظم املى فى سفرتى هذه أن استفيد الأنس بك .. » ويكثر العراقى من التقرب لابن جعفر ، فاذا ما رآه قام وقبل يده ، وكل يوم يبعث اليه بلطف تطرفه ، وانه لكذلك الى أن دعـــاه عبد الله ، ودعا بعمارة من جواريه ، فلما طاب لهما المجلس ، وسـمعا غناء عمارة ، تعجب العراقى ، وجعل يزيد فى عجبه . ثم كان بينهما حوار ، كان فيه عبد الله على نيته وعلى سجيته . وكان حوار العـــراقى يبغى به غايته ، ويطوعه لهدفه .

لما أطمأن بهما المجلس ، قال عبد الله لضيفه العراقى :

ــ « هل رأيت مثل عمارة ؟ . »

قال الضيف العراقى بخبث : ــ

ــ « لا والله يا سيدى ، ما رأيت مثلها ، وما تصلح الا لك ، وما ظننت أن يكون فى الدنيا مثل هذه الجارية ، حسن وجه وحسن عمل ؟ »

قل ابن جعفر ، وقد انتشى : ــ

ــ « ذلكم سرورى » .

قال الضيف وقد قرب من غرضه :

ــ « يا سيدى انى والله لا أحب سرورك وما قلت لك الا الجد ، وبعد ، فانى تاجر أجمع الدرهم الى الدرهم ، طلبا فى الربح ، ولو أعطيتها بعشرة آلاف لأخذتها » .

فقال له عبد الله متعجبا :

ــ « عشرة آلاف ... »

فأجاب العراقى باختصار :

ــ « نعـــم » .

وهنا اندفع الحجازى « فقال :

ـــ « انا ابيعكها بعشرة آلاف » ٠

فتلقف العراقى هذه الكلمة ٠ وقال :

ـــ « وقد أخذتها » ٠

فقال ابن جعفر ، وكانه يمزح :

ـــ « هى لك » ٠

وأنهى العراقى الحوار بقوله :

ـــ « وقد وجب البيع » ٠

ثم انصرف ٠ وما يشعر عبد الله الا بالمال وقد حمل اليه عند شروق الشمس ، فيفيق لنفسه ويدرك انه وقع فى الفخ ، فيرده الى العراقى ، ويكتب اليه :

ـــ « أنا كنت أمزح معك ، ومما اعلمك أن مثلى لا يبيع مثلها » ٠

فرد عليه العراقى ، منبها له الى قاعدة دينية :

ـــ « جعلت فداءك ، ان الجد والهزل فى البيع سواء » ٠

ويتحاوران ٠ يقول له عبد الله وقد كاد يفقد اعصابه :

ـــ « ويحك ، ما اعلم جارية تساوى ما بذلت ، ولو كنت بائعها من أحد لآثرتك ، ولكنى كنت مازحا وما أبيعها بملك الدنيا ٠٠٠ »

فيجيب العراقى بهدوء وبجد :

ـــ « ان كنت مازحا فانى كنت جادا ، وما اطلعت على ما فى نفسك ، وقد ملكت الجارية ، وبعثت اليك بثمنها ، وليست تحل لك ، ومالى من أخذها من بد » ٠ فمانعه اياها ، فقال له :

ـــ « ليست لى بينة ، ولكنى استحلفك عند قبر رسول الله وآله ومنبره » ٠ فلما راى عبد الله الجد ، قال :

ـــ « بئس الضيف أنت ، ما طرقنا طارق ولا نزل نازل بنا نازل أعظم بلية منك ، اتحلفنى فيقول الناس : اضطهد عبد الله ضيفه

وقهره والجاه الى أن استحلفه ، أما ليعلمن الله عز وجل أنى سابليه فى هذا الأمر بالصبر وحسن العزاء » .

مضى بها العراقى ، وكأنها طرفة من طرفه التى يحملها ، حتى ورد دمشق . ولكن القصة تتحول هنا الى مجرى آخر ، يحاول به القاص ان يرضى عواطف الحجازيين ، وأن يغرس الامل فى نفوسهم ، فالعراقى يدخل الشام ، واذا بجنازة يزيد ، وقد استخلف ابنه معاوية . فيدخل على معاوية ، الذى يهب الجارية والمال للعراقى .

ويستيقظ ضمير العراقى ، فيعود بها الى المدينة ، ثم يدخل الى عبد الله ، ويقص عليه القصة ، ثم يختمها بقوله :

ـ « والله قد وهبتها لك ، قبل أن أراها ، واضع يدى عليها ، فهى لك ومردودة عليك ، وقد علـم الله تعـالى انى ما رأيت لهـا وجهـا الا عندك » .

وهنا ، وبعد كل هذه الرحلة الطويلة ، تبدى الجارية عواطفها ، ولكن لا تبديها بالحديث ولا تعبر عنها بصراحة . بل حين نظرت الى عبد الله ، فاضت عواطفها : « فخرت مغشيا عليها ، وأهوى اليهـا عبد الله ، فضمها . وخرج العراقى ، وتصايح أهل الدار : عمارة . فجعل عبد الله يقول ، ودموعه تجرى : أحلم هذا . أحق هذا . ما أصـدق بهذا » .

قال العراقى لعبد الله بن جعفر :

ـ « جعلت فداءك . قد ردها عليك ايثارك الوفـاء ، وصبرك على الحق ، وانقيادك له » .

فقال عبد الله ، وقد انفرجت اساريره :

ـ « الحمد لله ، اللهم انك قد تعلم انى قد تصبرت عنها ، وآثـرت الوفاء ، وأسلمت لأمرك ، فرددتهـا على بمنك ، فلله الحمد .

يا أخا العراق ، ما أعلم فى الأرض ، أعظم منه منك ، وسيجازيك الله تعالى » .

* * *

قصة « عماره » قصة قد تفيد فى الكشف عن شخصية الجوارى فى هذا العصر ، وموقفهن مما يحيط بهن من الاحداث ، ونستطيع أن نضم اليها القصص التى يكون أبطالها من الجوارى ، ونستطيع أن نستنتج من ذلك نتائج قيمة . ويكون جميلا ورائعا لو أن كاتبا استعرض القصص التى حدثت فى العصر العباسى ، وبعد أن اصبح للأعاجم والموالى منزلة كبيرة وأثر عظيم . ويكون أجمل ، لو انه قارن بين نتائج قصص الجوارى التى نسبت الى العصر الأموى ، وبين نتائج قصصهن التى حدثت فى العصر العباسى . وبذلك يكون قد اتبع منهجا أكثر سلامة وأصح نتائج ، اذ ستشف تلك القصص الشعبية ، التى بعدت عن التكلف ، وعن سيطرة الحكام ، وأصحاب الشأن ، عن نتائج أصدق دلالة من الاعتماد على التاريخ فقط ، الذى نسج حول الملوك والسلاطين .

ولو أن كاتبا صاغ منها « قصة تاريخية » ، لاستطاع أن يكشف عن روح العصر وأن يجسد كثيرا من أحداثه ، يبرز لنا اثر الجوارى والغناء ، ويكشف عن حالة أهل الحجاز وموقف الشام منهم . ويتعرض للمسلك الأموى الذى يملك الخلافة والمال والجاه والحيلة والخداع ولاتجاه أهل البيت الذى يملك الحب والعطف وادخال السرور على الناس .

وفى ظنى أن « عمارة » هذه هى التى يعنيها ابن جعفر حين حدث عبد الملك أنه اشترى جارية مولدة بعشرة آلاف درهم ، وأنها وصفت ليزيد بن معاوية ، فأرسل اليه : اما أن تهديها لى ، واما ان تبيعها بحكمك . فأبى عبد الله أن يخرجها من ملكه ببيع أو هبة أبدا ، ثم بلغه أن بعض عزاب المدينة يهواها ، وأنه يجىء فى كل يوم متنكرا ، فيقف بالباب ، حتى يسمع غناءها . فراعى عبد الله مجيئه ذات ليلة ،

فاذا به قد أقبل متقنع الرأس ، حتى قعد مستخفيا . فاصلح عبد الله أمر الجارية ، وخرج بها وفتح الباب ، فانتبه الرجل مذعورا . فقال له عبد الله : « لا بأس عليك ، خذ بيد هذه الجارية ، هى لك ، فاذا هممت ببيعها فارددها الى « فدهش الفتى ، ولبط به ، وخاطبه عبد الله ، فاذا هو قد مات (٧٤) . وهى التى قص ابن جعفر امرها على عبد الملك حين هون من أمر الغناء . فأراد عبد الله أن يقنع عبد الملك باهمية الغناء ، فقص عليه قصة الفتى الذى كان يأتى متنكرا كل ليلة ليسمع غناء جاريته (٧٥) .

ومن تلك الروايات نستطيع أن نرسم صورة لتلك الجارية العجيبة الشأن ، ذات الأثر الكبير على قلوب الحكام والعامة والخاصة والاشراف . فهى جارية مولدة اشتريت بعشرة آلاف ، تجيد الغناء وتتلقاه على حذاق هذا الفن ، « فكان بديح وطويس يأتيانها فيطرحان عليها اغانيهما ، فعلقت منهما حتى غلبت عليهما » (٧٦) ، وكانت لها جاذبية قوية ، فعبد الله يحبها حبا شديدا ، ولا يخرجها عن ملكه حتى ولو أعطى الخلافة . ويزيد يكلف بها كلفا شديدا يدفعه الى التآمر والاستيلاء عليها . وفتى من أهل المدينة يعشقها ، ويأتى كل ليلة متنكرا ليسمع غناءها . وأهل الدار يحبونها ويفرحون لعودتها ، ويتصايحون : عمارة : بينما يقول عبد الله ودموعة تجرى : أحلم هذا . احق هذا . ما اصدق بهذا .

ومع ذلك لا تتحدث القصة عن عواطف هذه الجارية الا باشارات صغيرة ، فهى حين رأت عبد الله بعد رحلتها الطويلة « خرت مغشيا عليها ، وأهوى اليها عبد الله فضمها » . وهى حين تسمع بموت الفتى حبا لها « مكثت مديدة ثم ماتت » ، ويظن عبد الله ـ وأن الظن لا يغنى من الحق شيئا ـ أنها ماتت كمدا وأسفا على الفتى .

---

(٧٤) « ذم الهوى » ص ٥٢٠ .
(٧٥) العقد الفريد ٣ / ١٩٩ .
(٧٦) العقد الفريد ٣ / ١٩٩ .

الخـاتمة

كان هذا البحث محاولة للاجابة عن سؤال ، دار فى ذهنى وفى ذهن كثير من الباحثين . وقد طفر هذا السؤال فى الفترة الأخيرة ، خلال اتصال البعث العربى بالنهضة الأوربية .

هل عرف العرب القصة ؟ ؟

ومحاولة الاجابة عن هذا السؤال ، اقتضتنى أن أبدأ بالحديث عن « القصة عند العرب » . وساقنى هذا الحديث الى معرفة أنه لا يوجد مانع « بيولوجى » ، يمنع العرب من أن يكونوا كغيرهم من أمم الأرض فى معرفة هذا الفن . ثم كان التاريخ أكبر دليل ، . فالقصة واكبت الأدب العربى فى مختلف عصوره ، من عصر الجاهلية ، حتى العصر الحديث . وبعد أن استعرضت القصة على مختلف العصور ، استعراضا عاما ، سلطت الضوء على فترة معينة ، وهى « القصة فى العصر الأموى » . وقد كشف لى هذا الضوء عن ثراء هذا العصر بأنواع عديدة من القصة ، وعن وفرة القصاص الذين كان يأنس بهم الخلفاء والقواد والحكام والعامة . ثم سلطت الضوء على نوع واحد من قصص هذا العصر ، وهو « قصص العشاق » ، موضوع هذه الرسالة .

بيد أنى قبل دراسة هذا النوع ، رأيت من الواجب أن أعرف المراد « بالقصة » .

وكان بدهيا أننى لا أقصد ذلك الفن ، الذى لم يعرف عند أمة من الأمم ، الا فى القرن التاسع عشر ، حيث استكمل صورته ــ كقالب فنى ــ على يد الواقعيين (١) . أو الذى لم يشهد نور الحياة الا سنة ١٧٤٠ م ، حين أخرج القصص الانجليزى (رتشردسن) قصة «باملا» (٢)

---

(١) انظر : مقالا للدكتور محمد مندور (الجمهورية ١٣ نوفمبر ١٩٦٣) .

(٢) الادب لتشارلتن ص ١٥١ .

أو الذى لم يخترع الا على يد موباسان (٣) . وانما أقصد معنى قريبا للمعنى لهذه المادة فى القواميس العربية ، ومشابها للمعنى المعروف فى العالم فى ذلك الحين . وهو معنى أقرب الى « الأسلوب القصصى » كما يفهمه المعاصرون .

وكانت دراستى من بابين :

ساقنى الباب الأول الى الكلام عن « نشأة قصص العشق » . فتتبعت ـ فى الفصل الأول ـ نموها ، فاذا هى عربية أصيلة ، عرفها العرب فى فترة مبكرة من تاريخهم ، بل فى تلك الفترة التى لا تزال غامضة عند المؤرخين ، والتى يسمونها بالعرب البائدة .

على أنها اذا كانت عربية موغلة فى القدم . فانها قد ازدهرت ، وانتشرت فى العصر الأموى ، وكان لابد لها الازدهار من عوامل هى موضوع الفصل الثانى من هذا الباب .

فقد مر الحجاز فى العصر الأموى ، بتيارات سياسية ، واجتماعية ، واقتصادية ، جعلت هذا الفن ينمو ويترعرع بين الناس ، وقد أنبتت هذه العوامل فى حواضر الحجاز نباتا ، مخالفا للنبات الذى انبتته فى بواديها ، لأن البيئة والمناخ ، والظروف التى احتضنت هذه القصص ، تختلف فى الحواضر عنها فى البوادى .

أما الباب الثانى ، فكان محاولة لدراسة ما فى القصص من بذور فنية ، وكوامن أدبية .

وقد انفتح عن أربعة طرق أو أربعة فصول .

بان فى الفصل الأول أن كثيرا من هذه القصص ، لم يكن يقصد بها التاريخ ، بل كان يخترعها الناس ، لتكون حلية المجالس ، وحديث المسامر . وكانوا يحملونها أغراضا شخصية ، أو قومية ، أو قبلية ، أو أهدافا دينية ... الخ .

---

(٣) فن القصة القصيرة ص ١٠ .

أما الطريق الثانى ، فكان لتحديد معالم هذه القصص ، فرسمت هيكلها ، وكشفت عما فيها من فن « بالقوة » كما يقول المناطقة ، أى عما فيها من كوامن فنية كالصراع ، والتشويق ، والخيال ، واللون المحلى ، وغير ذلك ، من كوامن ، لو وجدت العناية والرعاية ، لأصبحت « بالفعل » فنا سائغا ، يؤتى أكله للأجيال ، ولا يؤخر ثمرة الناضج حتى القرن التاسع عشر .

أما الفصل الثالث ، فقد تتبعت فيه تطور هذه القصص ، وأثرها فيما بعدها ، وقد غنى هذا الفصل بالدراسات الموازنة ، وببيان أوجه الأثر والتأثير ، مما عمق النظرة الى هذه القصص والقى الضوء على طبيعتها .

أما خاتمة المطاف فى هذا الباب ، فقد تناولت فيها نماذج من هذه القصص ، فحللتها ، ونقدتها ، وقارنتها بما يشبهها من قصص .

(٢)

واذا كان من تقليد الدراسات الجامعية أن يتحدث الباحث عما فيها من جديد ، فأننى أزعم :

أننى حاولت أن أحدد ملامح فن ، انتشر بين الشعب فى ذلك العصر ، وكانت له دواعيه وأسبابه ، وكان له قصاصة ورواته ، وكان له متلقوه ومتذوقوه .

وجل ما ورد فى الباب الثانى من هذه الرسالة جديد . ففى حدود ما طالعت لم أجد من تناول قصص العشق ، ودرسها دراسة مستقلة واسعة ، كنوع من الأدب انتشر بين الناس ، وكان يرضى حاجة فى نفوس أصحابه . وكل ما ورد من دراسة حول هذا الموضوع ، كانت دراسة سريعة عامة ، قد تصوغ بعضا من هذه القصص ـ ولا تتقيد بعصر من العصور ـ صياغة أدبية . وقد تدرس قصة أو قصتين أو أكثر خلال حديثها العام .

حقا ٠٠ وجد فى الفترة الأخيرة اهتمام من الدارسين بالأدب الشعبى ، فهناك رسائل جامعية نوقشت حول الهلالية ، وألف ليلة وليلة ٠ وهناك كتب كثيرة ألفت حول سيرة سيف بن ذى يزن أو سيرة عنترة العبسى ، ولكنى لم أجد كتابا مستقلا ، أو رسالة تقتصر على دراسة هذه القصص ٠

وربما كان السبب فى هذا أن سيرة عنترة ، أو ألف ليلة وليلة ، أو غيرهما مما سبق ذكره ، قد جمعت فى كتاب مستقل طويل ، يجده الباحث ميسرا أمامه ، أو تدوولت فى أحاديث طويلة يجد فيها الدارس غناء ومادة دسمة ٠ أما هذه القصص ، فقد كانت – فى معظمها – أخبار قصيرة ، سريعة ، تشبه الخبر الصحفى ، وتتناثر فى كتب التاريخ ، ولا يجمعها كتاب مستقل ، وتختلط بمفاهيم التاريخ ، اختلاطا لا يبين عن شخصية محددة للتاريخ ، أو شخصية واضحة للقصص الشعبى ٠

(٣)

ولست أزعم أننى استوعبت كل شىء فى هذا الموضوع ٠ فما زالت هناك جوانب تغرى الباحثين بالدرس والاستقصاء ٠

١ – فليت من ينهض ، فيجمع هذا التراث المتناثر فى مختلف الكتب ، ثم يفهرسه حسب النهاية ، أو حسب العصر ، أو حسب الموضوع ، أو كما يحلوله ٠ ويضمه فى كتاب واحد ، ويذكر المراجع التى استقى منها كل حكاية ، ولا يقتصر على القصص التهذيبية ، أو الحكايات التعليمية ، بل يجمع الغث والسمين والنافع والضار ، فان الباحث قد يجد فى الضار نفعا ، وفى الغث ثراء لبحثه ٠ وبذلك يوفر على أجيال الباحثين مشقة البحث عن هذه الحكايات ، والتنقير عنها فى مختلف الكتب ، تنقيرا يستهلك جل الوقت ، ومعظم الجهد ٠

٢ – وليت من يشمر لدراسة الشعر فى هذه القصص ، فيجمعه ، ويرى منه الموضوع والذى له أصل فى الدواوين ، ويرى ما يتجه فيه

اتجاها شعبيا ، وما يتجه فيه الى الخاصة ، وسمات كل ، ثـم يقارن بين شعر القصص ، وشعر الدواوين ، ويسجل ما يجره اليه البحث ، فسيجره الى جـــوانب ثـــرية ومغـرية تلقى الضوء على كثير من المشكلات المعاصرة ، كمشكلة الشعر العامى ، فنرى فيمـا اذا كان هذا الشعر ، تطورا لأوزان كانت شائعة بين عامة الناس منذ العصور القديمة ، ونحدد من ذلك الموسيقى التى يميل اليها ذوق عامة العرب ، أو كمشكلة الشعر الحر ، وهل هو اثبـــات لعجز الأوزان الخليلية ، وقصورها عن اظهار الحركات النفسية ، وعن مواءمة المواقف الداخلية ، أو أن هذه الأوزان قادرة على ذلك .

٣ ـ وليت هناك من يعيد النظر فى مناهجنا الدراسية ، فانها محتاجة الى أن تهتم بهذا التراث ، الى جانب اهتمامها بالنواحى الأخرى . فقد اطلعت على كتاب وزارة التربية والتعليم (جمهورية مصـر العربية) فى « الأدب والنصوص والبلاغة » المقـرر على الصـــف الأول من المرحلة الثانوية ، على أحدث منهج فى ذلك الحـــين (١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٤ م) ـ فوجدت أن هذا الكتاب ، حين تعرض للنثر الاسلامى (بما فيه النثر الأمـوى) ، تحدث عن القرآن . وعرض للأحاديث النبوية . ثم للخطب والوصايا . ثم للرسائل . وليس هذا فقط ـ مع أهميته ـ ماأريده . لا أريد أن نكتفى بدراسة رسائل عبد الحميد ، أو بدراسة خطب الحجاج ، ثم بضرب الأمثال والنماذج على هذا . بل أريد أن نهتم ـ الى جانب ذلك ـ بدراسة هذه القصص التى انتشرت بين الناس . ولن نعدم أن نجد نماذج حية من قصص العشق فيها اللغة المشرقة ، والخيال المبتكر ، وفيها ما يرقق الحس ، ويهذب العواطف ، ويعلم النشء كيف يتسامون بعواطفهم ، وكيف يغلبون واجبهم على رغبتهم اذا اصطدما . وقد جمع الأستاذ محمد أحمد جاد المولى وزميلاه طائفة من هـــذه القصص ، فى الجزء الرابع من كتابهم « قصص العرب » . وكذلك فعل الأستاذ موسى خليل سليمان ، فقد أورد للطلاب نمــاذج من

الحكايات الغرامية ، فى الجزء الثانى من كتابه « يحكى عن العرب » ، وكان يعقب على كل حكاية بالدرس والتحليل ، ويورد أسئلة للطالب ، تدور حول مناقشة الحكاية وما فيها .

٤ – وليت الجهود من الأدباء والفنانين تبذل لا ستغلال هذا التراث الخصب فى نواح مثمرة :

(أ) اذ من الممكن عرض هذا التراث بأسلوب فنى ، وبطريقة جذابة ، وبصياغة تؤثر على النفوس ، وتجذب الأفئدة ، كما فعل الأستاذ أحمد حسن الزيات حين صاغ قصة وضاح اليمن ، مع روضة ومع أم البنين تحت عنوان « مأساة الشاعر وضاح » صياغة أدبية ، أراد منها – كما يقول – أن يصور الحياة البدوية والبيئة العربية (٤) .

(ب) ومن الممكن استغلال هذه القصص فى مسرحيات شعرية . واذا كان أحمد شوقى قد ألف رواية « مجنون ليلى » . وعزيز أباظة قد أنشأ مسرحية « قيس ولبنى » ، فما زالت هناك قصص كثيرة صالحة لخلق عمل فنى جذاب ، كقصة ابن الطثرية ، فلو أن فنانا موهوبا تناولها ، لاستطاع أن يخلق منها عملا ، يضارع عمل « روميو وجولييت » ولاستطاع الكشف عن عادات القبائل ، وعن حياتها ، وعن اقتصادياتها ، وعن مركز المرأة فى البادية ... الخ .

(ج) ومن الممكن ، جعل هذا التراث نقطة انطلاق لخلق قصص فنية رائعة ، وخذ لذلك مثلا قصة « وضاح اليمن » ، فلو رجعت الى هذه القصة فى المصادر العربية ، فستجدها قصة فقيرة ، تنتهى عند اختفاء وضاح فى الحفيرة (٥) . وبعض الروايات (٦) تخطو خطوة

---

(٤) مأساة الشاعر وضاح ص ٢٩ .

(٥) انظر : ١ – مصارع العشاق ص ٢٧٦ ، ٢ – ديوان الصبابة ٢ / ٧٨ .

(٦) انظر : ١ – أخبار النساء ص ٨٧ ، ٢ – تزيين الاسواق ١ / ١٦٩ ، ٣ – ذم الهوى ص ٣٧٣ .

أخرى ، فتذكر أن أم البنين كانت تأتى الى المكان فتبكى فيه ، الى أن وجدت يوما مكبوبة على وجها ميتة • هذه القصة ــ كما هى فى المصادر العربية ــ قصة فقيرة ، لو قارنتها بقصة شبيهة لها ، وجدت عند قــوم آخرين وفى عصر موغل فى القدم ، وهى قصة « أوزيريس وازيس » ، فان « ازيس » لم تكتف بالموقف السلبى الذى وقفته أم البنين تبكى ، ثم تموت بجانب قبر الحبيب على أحسن الروايات ، لم تكتف بهذا بل جعلت تبحث عن حبيبها الذى مزق اربا ، وانقيت اشلاؤه فى النيل ، فجعلت تجمع هذه الأجزاء ، وتركب الصعاب ، وتتخطى العقبات ، حتى استطاعت أن تجمع اشلاء زوجها ، وأن تعيد اليه الحياة ، وأن تنتصر على اله الشر (٧) •

لو أن كاتبا موقفا تناول قصة وضاح ، وطوعها لأفكار راقية ، ورمز بها الى صمود الانسان أمام العقبات ، واستخفافه بالمثبطات التى تجابهه فى سبيل ايمانه بفكرة ، أو بحثه عن مثل ، أو تعلقه بهدف ، لو فعل هذا الكاتب ذلك لخطا بنا خطوة محمودة فى طريق اثــــراء الأدب العربى « بأدب البحث » الذى مازلنا فى حاجة ماسة الى نماذج كثيرة منه •

(٧) انظر : الادب المصرى القديم ٢ / ١٣ •

المراجع

« مرتبة حسب الحروف الهجائية »

أولا ـ المراجع العربية

(أ)

١ ـ أبو الانبياء الخليل ابراهيم للأستاذ عباس محمود العقاد . (القاهرة ـ مطابع أخبار اليوم ـ سلسلة كتاب اليوم اغسطس سنة ١٩٥٣ م) .

٢ ـ الاتقان فى علوم القرآن للامام جلال الدين السيوطى . (القاهرة ـ مطبعة حجازى ـ الطبعة الثالثة سنة ١٩٤٠ م) .

٣ ـ أثر العرب فى الحضارة الأوربية للأستاذ عباس محمود العقاد . (القاهرة دار المعارف ـ الطبعة الثانية) .

٤ ـ احياء علوم الدين للامام أبى حامد الغزالى (القاهرة ـ لجنة نشر الثقافة الاسلامية ـ سنة ١٣٥٦ هـ) .

٥ ـ الأخبار الطوال لأبى حنيفة أحمد بن داود الدينورى وتحقيق الاستاذ عبد المنعم عامر (القاهرة ـ وزارة الثقافة والارشاد القومى الادارة العامة للثقافة) .

٦ ـ أخبار الظراف والمتماجنين لأبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى ونشر القدسى (دمشق سنة ١٩٤٧ م) .

٧ ـ أخبار عبيد بن شرية الجرهمى فى أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها . (حيدر آباد الطبعة الأولى سنة ١٣٧٤ هـ)

٨ ـ أخبار عروة بن حزام ٠ لم يعلم جامعه ٠ (مطبعة جول يـروك بمحروسة الجزائر) ٠

٩ ـ أخبار النساء للعلامه شمس الدين أبى عبد الله الدمشقى الحنبلى المعروف بابن قيم الجوزية ٠ (القاهرة ـ مطبعة محمد أفنـــدى مصطفى سنة ١٣٠٧ هـ) ٠

١٠ ـ الأدب الشعبى للأستاذ أحمد رشدى صالح ، الجزء الأول (القاهرة مكتبة النهضة ـ الطبعة الثانية) ٠

١١ ـ الأدب الشعبى للدكتور عبد الحميد يونس ٠ (القاهرة ـ مطبعة جامعة القاهرة سنة ١٩٦٠) ٠

١٢ ـ الأدب القصصى عند العرب للاستاذ موسى خليل سليمان ٠ (بيروت ـ دار الكتاب اللبنانى ـ مطابع دار الغد سنة ١٩٥٦ م) ٠

١٣ ـ الأدب المصرى أو أدب الفراعنة للأستاذ سليم حسن (القاهرة ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ الطبعة الأولى سنة ١٩٤٥ م) ٠

١٤ ـ الأدب المقارن للدكتور محمد غنيمى هلال ٠ (القاهرة ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٢ م) ٠

١٥ ـ الأدب الهادف للأستاذ محمود تيمور ٠ (القاهرة ـ مكتبة الآداب بالجماميز ـ الطبعة الأولى سنة ١٩٥٩ م) ٠

١٦ ـ الأدب والنصوص والبلاغة ، للصف الأول من المرحلة الثانـــوية (جمهورية مصر العربية ، وزارة التربية والتعليم سنة ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٤ م) ٠

١٧ ـ أركان القصة تأليف : أ ٠ م ٠ فورستر ، ترجمة كمال عياد جاد (القاهرة سلسلة الألف كتاب ٠ « ٣٦ ») ٠

١٨ ـ أساس البلاغة لجار الله أبى القاسم محمود بن عمر الزمخشرى (القاهرة ـ مطابع دار الكتب المصرية سنة ١٣٤١ هـ ـ ١٩٢٢م) ٠

١٩ ـ أساطير الحب والجمال عند الاغريق للأستاذ درينى خشبة القاهرة ـ مطبعة الرسالة ـ لم يذكر تاريخ) .

٢٠ ـ أسد الغابة فى معرفة الصحابة للامام عز الدين أبى الحصن على ابن محمد بن عبد الكريم الجزرى المعروف بابن الأثير (القاهرة ـ طبعة جمعية المعارف سنة ١٢٨٠ هـ) .

٢١ ـ أسس النقد الأدبى عند العرب للدكتور أحمد أحمد بدوى . (القاهرة ـ مكتبة نهضة مصر بالفجالة ـ الطبعة الثانية سنة ١٩٦٠ م) .

٢٢ ـ الاسلام انطلاق لا جمود للدكتور مصطفى الرافعى قاضى بيروت الشرعى (بيروت دار مكتبة الحياة سنة ١٩٥٦ م) .

٢٣ ـ الأصابة فى تمييز الصحابة لشهاب الدين أبى الفضل أحمد بن على ابن محمد ابن محمد بن على الكنانى العسقلانى المعروف بابن حجر (القاهرة ـ المطبعة الشرقية سنة ١٣٢٥ . وأيضا مطبعة السعادة سنة ١٣٢٣ هـ) .

٢٤ ـ الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ لشمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوى ونشر القدسى (دمشق سنة ١٣٤٩) .

٢٥ ـ الاعلام : قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين لخير الدين الزركلى . (القاهرة ـ المطبعة العربية سنة ١٣٤٦ هـ) .

٢٦ ـ أعلام الفن القصصى لهنرى توماس وآمالى توماس ، ترجمة الدكتور عثمان نويه (القاهرة سلسلة الألف « ٤٨ ») .

٢٧ ـ الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى (طبعات مختلفة) .

٢٩ ـ الف ليله وليلة (القاهرة ـ مطبعة عبد الرحمن رشدى ببولاق ـ الطبعة الثانية ١٣٨٩ هـ . وأيضا بيروت ـ مطبعة الآباء اليسوعيين) .

٣٠ – الف ليلة وليلة للدكتورة سهير القلماوى (القاهرة – دار المعارف سنة ١٩٥٩ م) .

٣١ – الامالى لابى على اسماعيل بن القاسم القالى البغدادى (القاهرة – مطبعة دار الكتب المصرية – الطبعة الثانية سنة ١٣٤٤ هـ – ١٩٢٦ م) .

٣٢ – الايضاح لمختصر تلخيص المفتاح للخطيب القزوينى وهو جلال الدين أبو عبد الله محمد بن سعد الدين أبى محمد عبد الرحمن القزوينى (القاهرة – مطبعة محمد على صبيح سنة ١٣٤٨ هـ ، وأيضا شرح محمد عبد المنعم خفاجى ، مكتبة الحسين سنة ١٩٤٩ م) .

(ب)

٣٣ – البداية والنهاية فى التاريخ للمؤرخ عماد الدين أبى الفدا اسماعيل ابن عمرو ابن كثير القرشى الدمشقى (القاهرة – مطبعة السعادة – الطبعة الأولى ١٣٥١ هـ – ١٩٣٢) .

٣٤ – بديع الزمان الهمذانى رائد القصة العربية والمقالة الصحفية . للدكتور مصطفى الشكعة (القاهرة – مكتبة القاهرة الحديثة سنة ١٩٥٩ م) .

٣٥ – بلوغ الارب فى معرفة أحوال العرب للسيد محمود شكرى الألوسى البغدادى ، تصحيح الأستاذ محمد بهجة الاثرى (القاهرة المطبعة الرحمانية – الطبعة الثانية سنة ١٣٤٣ هـ) .

٣٦ – البيان والتبيين لابى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، وقف على طبعه محب الدين الخطيب . (القاهرة سنة ١٣٣٢ هـ ، وأيضا طبعات أخرى) .

٣٧ ـ التاج فى أخلاق الملوك للجاحظ ، تحقيق الاستاذ أحمد زكى .
(القاهرة ـ المطبعة الأميرية ـ الطبعة الأولى سنة ١٩١٩ م) .

٣٨ ـ تاريخ آداب العرب للاستاذ مصطفى صادق الرافعى (القاهرة ـ الطبعة الثانية سنة ١٩٤٠ م).

٣٩ ـ تاريخ آداب اللغة العربية . للاستاذ جرجى زيدان (القاهرة ـ دار الهلال سنة ١٩٥٧ م) .

٤٠ ـ تاريخ الأدب العربى للاستاذ أحمد حسن الزيات (القاهرة ـ مطبعة الرسالة ـ الطبعة الحادية عشرة) .

٤١ ـ تاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان ، تعريب الدكتور عبد الحليم النجار . (القاهرة مطبعة دار المعارف سنة ١٩٦١ م) .

٤٢ ـ تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى للدكتور حسن ابراهيم ، الجزء الأول (القاهرة ـ مكتبة النهضة ، الطبعة السادسة) .

٤٣ ـ تاريخ الأمم والملوك لابى جعفر بن جرير الطبرى (القاهرة ـ المطبعة الحسينية ـ الطبعة الأولى) .

٤٤ ـ تاريخ بغداد أو مدينة السلام للحافظ أبى بكر أحمد بن على الخطيب البغدادى (القاهرة ـ مطبعة السعادة سنة ١٣٤٩ هـ ـ سنة ١٩٢١ م) .

٤٥ ـ تاريخ الحكماء لجمال الدين أبى الحسن على بن يوسف القفطى (ليبسك سنة ١٣٢٠ هـ) .

٤٦ ـ تاريخ الفلسفة فى الاسلام تأليف ب.ج . دى بور . ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة (القاهرة ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٣٥٧ هـ) .

٤٧ ـ تاريخ اليعقوبى لاحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب ، الكاتب المعروف بابن واضح الاخبارى (النجف ـ مطبعة القونى سنة ١٣٥٧ هـ) .

٤٨ ـ التحفة البهية والطرفة الشهية . لم يذكر اسم جامعها (مطبعة الجوائب سنة ١٣٠٢ هـ) .

٤٩ ـ تراث الاسلام ، فصل « الادب » ، وضعه : هـ . أ . ر . جب وترجمة الدكتور عبد اللطيف محمود حمزه (القاهرة ـ مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٦ م) .

٥٠ ـ تزيين الاسواق بتفصيل أشواق العشاق للشيخ داود الانطاكى (القاهرة ـ مطبعة بولاق سنة ١٢٩١ هـ) .

٥١ ـ التطور والتجديد فى للشعر الأموى للدكتور شوقى ضيف (القاهرة ـ مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر سنة ١٩٥٢ م) .

٥٢ ـ تفسير البيضاوى المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، لناصر الدين أبى سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازى البيضاوى (القاهرة ـ طبع صبيح سنة ١٣٦٦ هـ) .

٥٣ـ تفسير جزء تبارك للشيخ عبد القادر المغربى المطبعة الأميرية سنة ١٣٦٦ هـ ١٩٤٧ م) .

٥٤ ـ تفسير الحافظ بن كثير وهو الامام الحافظ عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن كثير القرشى اندمشقى (القاهرة ـ مطبعة المنار سنة ١٣٤٣ هـ) .

٥٥ ـ تفسير الزمخشرى المسمى (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل) للامام محمود بن عمر الزمخشرى (القاهرة ـ مطبعة مصطفى محمد صاحب المكتبة التجارية الكبرى ـ الطبعة الأولى سنة ١٣٥٤ هـ) .

٥٦ ـ تفسير الطبرى المسمى « جامع البيان فى تفسير القرآن » لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى (القاهرة ـ مطبعة بولاق سـنة ١٣٢٣ هـ ، وأيضا دار المعارف سنة ١٩٥٨ م) .

٥٧ ـ تفسير القاسمى المسمى « محاسن التأويل » لعلامة الشام محمد جمال الدين القاسمى (القاهرة ـ دار احياء الكتب العربية سنة ١٩٥٧ م) .

٥٨ ـ التفسير الكبير المسمى « مفاتيح الغيب » للامـام محمد الرازى فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين عمر المشتهر بخطيب الـرى (القاهرة ـ المطبعة الخيرية بجمالية مصر ـ الطبعة الأولى سنة ١٣٠٧ هـ) .

٥٩ ـ تفسير المنار : محمد رشيد رضا (القاهرة ـ مطبعة المنار سـنة ١٣٤٧ هـ) .

٦٠ ـ تفسير النسفى المسمى بمدارك التنزيل وحقائق التأويل للامـــام أبى البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفى (القاهرة ـ المطبعة الأميرية ببولاق سنة ١٩٣٦ م) .

٦١ ـ تفسير النيسابورى المسمى « غرائب القرآن ورغائب الفرقان » لنظام لدين الحسن ابن محمـد بن حسين القمى النيسابورى ، على هامش تفسير الطبرى (القاهرة مطبعة بولاق سنة ١٣٢٣ هـ)

٦٢ ـ توفيق الحكيم للدكتور اسماعيل أدهم والدكتور ابراهيم ناجى (القاهرة ـ دار سعد مصر للطباعة والنشر بالفجالة سنة ١٩٤٥ م)

٦٣ ـ التيجان فى ملوك حمير ، عن وهب بن منبه ، رواية ابن هشام (حيدر آباد ، الطبعة الأولى سنة ١٣٧٤ هـ) .

(ث)

٦٥ ـ ثمرات الأوراق فى المحـاضرات للشـيخ تقى الدين أبى بكر ابن على المعروف بابن حجة الحموى (القاهرة ـ الادارة العـامة للثقافة) .

٦٦ – ثورة الأدب للدكتور محمد حسين هيكل (القاهرة – مطبعة السياسة سنة ١٩٣٣ م) .

(ج)

٦٧ – جابر بن حيان للدكتور زكى نجيب محمود (القاهرة – وزارة الثقافة والارشاد القومى – سلسلة اعلام العرب العدد / ٣٠) .

٦٨ – جمهورية أفلاطون نقلها الى العربية حنا خباز (القاهرة – مطبعة المقتطف والمقطم سنة ١٩٢٩ م) .

٦٩ – جمهورية فرحات للدكتور يوسف ادريس ومقدمة الدكتور طه حسين (القاهرة – الكتاب الذهبى يناير سنة ١٩٥٦ م) .

٧٠ – جميل بثينة للأستاذ عباس محمود العقاد (القاهرة – دار المعارف – سلسلة اقرأ العدد / ١٣) .

(ح)

٧١ – حب ابن أبى ربيعة وشعره للدكتور زكى مبارك (القاهرة – المطبعة الرحمانية – الطبعة الثالثة سنة ١٣٤٦ هـ – ١٩٢٨ م) .

٧٢ – الحب العذرى ، نشأته وتطوره للأستاذ أحمد عبد الستار الجوارى (القاهرة – مطبعة الكتب العربى سنة ١٩٤٧ م) .

٧٣ – الحب العذرى للأستاذ موسى خليل سليمان (بيروت – دار العلم للملايين سنة ١٩٤٧ م) .

٧٤ – حديث الأربعاء للدكتور طه حسين (القاهرة – مطبعة الحلبى سنة ١٣٥٦ هـ سنة ١٩٣٧ م) .

٧٥ – حديث عيسى بن هشام للأستاذ محمد المويلحى (القاهرة – مطبعة دار المعارف – الطبعة السابعة) .

٧٦ ـ حسن المحاضرة فى إخبار مصر والقاهرة للشيخ جلال الدين السيوطى الشافعى (القاهرة ـ مطبعة الموسوعات ١٣٢١ هـ) ٠

٧٧ ـ الحضارة الاسلامية ومدى تاثرها بالمؤثرات الأجنبية لفون كريمر ٠ تعريب الدكتور مصطفى طه بدر (القاهرة ـ مطبعة الاعتماد سنة ١٩٤٧ م ـ دار الفكر العربى) ٠

٧٨ ـ حضارة العرب للدكتور غوستاف لوبون ، ترجمة الأستاذ عادل زعيتر (القاهرة الطبعة الثانية ١٩٤٨ م) ٠

٧٩ ـ الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية محمد غنيمى هلال (القاهرة ـ الطبعة الثانية سنة ١٩٦٠ م ـ مكتبة الأنجلو) ٠

٨٠ ـ الحياة العربية من الشعر الجاهلى للدكتور أحمد محمد الحوفى (القاهرة ـ سنة ١٣٦٩ هـ ـ سنة ١٩٤٩ م ـ مكتبة نهضة مصر الفجالة) ٠

٨١ ـ حياة محمد للدكتور محمد حسين هيكل (القاهرة ـ مطبعة مصر سنة ١٩٥٤) ٠

٨٢ ـ الحيوان لابى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق عبد السلام محمد هارون (القاهرة ـ مطبعة الحلبى ـ الطبعة الأولى سنة ١٣٦٣ هـ) ٠

(د)

٨٣ ـ دائرة المعارف الاسلامية (الترجمة العربية) ٠

٨٤ ـ دراسات أدبية للأستاذ عمر الدسوقى (القاهرة ـ مكتبة نهضة مصر) ٠

٨٥ ـ دراسات أدبية للأستاذ يوسف الشارونى (القاهرة ـ سلسلة الألف كتاب « ٥٠٢ ») ٠

٨٦ – ديوان الأعشى الكبير ، ميمون بن قيس ، شرح الدكتور محمد حسين (القاهرة المطبعة النموذجية سنة ١٩٥٠) مكتبة الآداب بالجماميز) .

٨٧ – ديوان أمية بن أبى الصلت . جمعه بشير يموت (بيروت – المطبعة الوطنية – الطبعة الأولى سنة ١٣٥٢ هـ) .

٨٨ – ديوان جرير بن عطية الخطفى التميمى (القاهرة – المطبعة العلمانية – الطبعة الأولى سنة ١٣١٣) .

٨٩ – ديوان الصبابة لشهاب الدين أحمد بن حجلة المقرى ، على هامش تزيين الأسواق . (القاهرة – مطبعة بولاق سنة ١٢٩١ هـ) .

٩٠ – ديوان طرفه بن العبد ، شرح أحمد بن أمين الشنقيطى (قزانده « أورندك » سنة ١٩٠٩ م) .

٩١ – ديوان عنترة بن شداد بن معاوية بن قراد العبسى ، المعروف بمنية النفس فى أشعار عنترة عبس (بيروت – الطبعة الثالثة – المكتبة العمومية لابراهيم صادر وأولاده) .

(ذ)

٩٢ – ذم الهوى للامام أبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى – تحقيق الأستاذ مصطفى عبد الواحد (القاهرة – مطبعة السعادة – الطبعة الأولى سنة ١٢٨١ هـ – سنة ١٩٦٢ م) .

(ر)

٩٣ – رسالة لأبى العلاء المعرى ، شرح كامل الكيلانى . (القاهرة – مطبعة المكتبة التجارية – الطبعة الأولى سنة ١٣٤٢ هـ سنة ١٩٢٣ م) .

٩٤ – رواية مجنون ليلى للأستذ أحمد شوقى (القاهرة سنة ١٩٤٥ م).

٩٥ ـ روضة المحبين ونزهة المشتاقين للشيخ شمس الدين أبى عبد الله محمد بن أبى بكر بن قيم الجوزية ، تصحيح أحمد عبيد (القاهرة ـ مطبعة السعادة سنة ١٣٧٥ هـ) .

٩٦ ـ الرومانتيكية للدكتور محمد غنيمى هلال (القاهرة ـ مطبعة الرسالة ـ مكتبة نهضة مصر بالفجالة) .

(ز)

٩٧ ـ الزهرة لأبى بكر محمد بن أبى سليمان الاصفهانى ، نشر الدكتور لويس نيكل البوهيمى (بيروت ١٩٣٢ م) .

٩٨ ـ زهر الآداب وثمر الألباب لأبى اسحاق ابراهيم بن على الحصرى القيروانى على هامش العقد الفريد (القاهرة ـ المطبعة الشرقية سنة ١٣٠٥ هـ ، وأيضا تحقيق على محمد البجاوى الحلبى سنة ١٣٧٢ هـ) .

٩٩ ـ زهرة العمر لتوفيق الحكيم (القاهرة ـ كتاب الهلال ـ العدد / ٤٧ فبراير سنة ١٩٥٥ م) .

(س)

١٠٠ ـ ساعات بين الكتب للأستاذ عباس محمود العقاد (القاهرة ـ مطبعة المقتطف والمقطم سنة ١٩٢٩ م) .

١٠١ ـ سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون للامام جمال الدين محمد بن محمد ابن نباتة المصرى (القاهرة ـ مطبعة الموسوعات ـ الطبعة الرابعة سنة ١٣٢١ هـ) .

١٠٢ ـ السقامات للأستاذ يوسف السباعى (القهرة ـ الكتاب الذهبى ـ العدد ٥٣ ـ نوفمبر سنة ١٩٥٦ م) .

١٠٣ ـ سيرة الأميرة ذات الهمة وولدها الامير عبد الوهاب والامير أبو محمد البطال وعقبة شيخ الضلال (القاهرة ـ المكتبة الحسينية

المصرية بالأزهر الشريف ـ الطبعة الأولى سنة ١٣٢٧ هـ ـ سنة ١٩٠٩ م) .

١٠٤ ـ سيرة فارس اليمن وسيد أهل الكفر والمحن ، سيف بن ذى يزن . (القاهرة ـ مطبعة الشيخ شرف موسى سنة ١٣٠٣ هـ) .

١٠٥ ـ سيرة النبى لابى محمد عبد الملك بن هشام ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد (القاهرة ـ مطبعة حجازى سنة ١٣٥٦ هـ سنة ١٩٣٧ م ، وأيضا كتاب التحرير سنة ١٣٨٣ هـ .)

(ش)

١٠٦ ـ شاعر الغزل للأستاذ عباس محمود العقاد . (القاهرة ـ دار المعارف ـ سلسلة اقرأ العدد / ٢) .

١٠٧ ـ الشاهنامة نظمها بالفارسية أبو القاسم الفردوسى وترجمها نثرا أبو الفتح بن على البغدادى وقارنها بالاصل الفارسى وقدم لها الدكتور عبد الوهاب عزام . (القاهرة ـ مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٥٠ ـ ١٩٣٢ م) .

١٠٨ ـ شرح المقامات الحريرية للامام أبى العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسى الشريشى (القاهرة سنة ١٣١٤ هـ) .

١٠٩ ـ الشعر الشعبى للدكتور حسين نصار . (القاهرة ـ المكتبة الثقافية العدد / ٦٠) .

١١٠ ـ الشعر الغنائى فى الامصار الاسلامية للدكتور شوقى ضيف ـ ملتزم الطبع والنشر دار الفكر العربى .

١ ـ فى المدينة (القاهرة ـ مطبعة الاعتماد ـ الطبعة الاولى سنة ١٩٤٩ م) .

٢ ـ فى مكة (القاهرة ـ مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ـ الطبعة الاولى سنة ١٩٥٣ م) .

١١١ ـ الشعر والشعراء لابن قتيبة ، تحقيق أحمد محمد شاكر ـ

(القاهرة ـ دار أحياء الكتب العربية ـ مطبعة الحلبى سنة ١٣٦٦ هـ) .

(ص)

١١٢ ـ صحيح البخارى لابى عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم ابن المغيره بن بردزيه البخارى الجعفى .
(القاهرة ـ المطبعة العثمانية المصرية سنة ١٣٥٥ هـ) .

١١٣ ـ الصديقة بنت الصديق للأستاذ عباس محمود العقاد . (القاهرة ـ دار المعارف سلسلة اقرأ العدد / ١٢٥) .

١١٤ ـ صفة جزيرة العرب لابى محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب ابن يوسف داود الهمذانى وتحقيق محمد بن عبد الله بن بليهد (القاهرة ـ مطبعة السعدة سنة ١٩٥٣ م) .

١١٥ ـ الصناعتين الكتابة والشعر ، من تصنيف أبى هلال الحسن ابن عبد الله ابن سهل العسكرى (مطبعة محمود بك الكائنة فى أبى السعود فى الآستانة العلية ـ الطبعة الاولى سنة ١٣٢٠ هـ)

(ض)

١١٦ ـ الضحك لهنرى برجسون وترجمة الاستاذين سامى الدروبى وعبد الله الدايم . (القاهرة ـ دار الكتب المصرى سنة ١٩٤٨ م)

(ط)

١١٧ ـ الطبرى للدكتور أحمد محمد الحوفى . (القاهرة ـ وزارة الثقافة والارشاد القومى ـ سلسلة أعلام العرب العدد / ١٣) .

١١٨ ـ طبقات الشعراء الجاهليين والاسلاميين لابى عبد الله محمد ابن سليمان الجمحى البصرى . (القاهرة ـ مطبعة محمود صبيح مطبعة السعادة بمصر) .

١١٩ ـ طوق الحمامة فى الالفة والالاف للامام أبى محمد على بن سعيد ابن حزم وتحقيق الأستاذ حسن كامل الصيرفى . (القاهرة ـ مطبعة حجازى سنة ١٣٦٩ هـ ـ سنة ١٩٥٠ م) .

(ع)

١٢٠ ـ العجوز والبحر لارنست هيمنجواى ، وترجمة الاستاذ صـــالح جودت (القاهرة ـ الدار القومية ـ سلسلة جوائز عالمية ، العدد ٣١ فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٦٣ م) .

١٢١ ـ عصر ما قبل الاسلام للاستاذ محمد مبروك نافع . (القاهرة ـ مطبعة وادى النيل سنة ١٩٤٨ م) .

١٢٢ ـ العقد الفريد للامام شهاب الدين أحمد المعروف بابن عبد ربـه الاندلسى (القاهرة ـ المطبعة الشرقية سنة ١٣٠٥ هـ) .

١٢٣ ـ على هامش التاريخ المصرى القديم للاستاذ عبد القــادر محمد حمزة . (القاهرة كتب الشعب ـ العدد ـ ١١) .

١٢٤ ـ العمدة فى صناعة الشعر ونقده تأليف أبى على الحسن بن رشيق القيروانى (القاهرة ـ مطبعة أمين هندية بمصر ـ الطبعة الاولى سنة ١٣٤٤ هـ سنة ١٩٢٥ م) .

١٢٥ ـ عيون الأخبار لابن قتيبة (القاهرة ـ دار الكتب المصرية سنة ١٩٠٥ م) .

١٢٦ ـ عيون الانباء فى طبقات الاطباء للطبيب موفق الدين أبى العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدى الخزرجى المعروف ببن أبى أصيبعة . (بيروت ١٣٧٦ هـ) .

(غ)

١٢٧ ـ الغزل فى العصر الجــاهلى للدكتــور أحمد محمد الحوفى .

(القاهرة ـ مطبعة لجنة البيان العربى ـ الطبعة الاولى سنة ١٣٧٠ هـ ـ سنة ١٩٥٠ م) ٠

(ف)

١٢٨ ـ فتوح البلدان لاحمد بن يحيى بن جابر المعروف بالبلاذرى وتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد (القاهرة ـ مطبعة لجنة البيان العربى سنة ١٩٥٦ م مكتبة النهضة) ٠

١٢٩ ـ فجر الاسلام للدكتور أحمد أمين (القاهرة ـ مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر الطبعة الثانية) ٠

١٣٠ ـ الفصل فى الملل والاهواء والنحل للامام أبى محمد على بن أحمد ابن حزم الظاهرى (القاهرة ـ المطبعة الادبية ـ الطبعة الاولى سنة ١٣١٧ هـ) ٠

١٣١ ـ الفصول للأستاذ عباس محمود العقاد (القاهرة ـ مطبعة السعادة سنة ١٩٢٢ م) ٠

١٣٢ ـ فلسفة الحب عند العرب للأستاذ عبد اللطيف شرارة ٠ (بيروت ـ منشورات دار مكتبة الاحياء ـ الطبعة الاولى سنة ١٩٦٠ م)

١٣٣ ـ فن الشعر لارسطو طاليس وترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى (القاهرة سنة ١٩٥٣ ـ مكتبة النهضة المصرية) ٠

١٣٤ ـ فن القصة القصيرة للدكتور رشاد رشدى ٠ (القاهرة ـ الطبعة الاولى سنة ١٩٥٩ م مكتبة الانجلو المصرية) ٠

١٣٧ ـ فن القصص للأستاذ محمود تيمور ٠ (القاهرة ـ مطبعة دار الهلال ـ الطبعة الثانية) ٠

١٣٨ ـ الفن القصصى فى الأدب العربى الحديث للدكتور محمود حامد شوكت (القاهرة ـ الطبعة الأولى سنة ١٩٦٣ م ـ دار الفكر العربى) ٠

١٣٩ ـ الفن ومذاهبه فى النثر العربى للدكتور شوقى ضيف . (القاهرة ـ مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٦ م) .

١٤٠ ـ فنون الأدب تـاليف : هـ . ب . تشـارلتن وترجمـة الدكتور زكى نجيب محمود (القاهرة ـ مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ـ الطبعة الثانية سنة ١٩٥٩ م) .

١٤١ ـ الفهرست لابن النديم (القاهرة ـ الرحمانية سنة ١٣٤٨ هـ) .

١٤٢ ـ فى الأدب الجاهلى للدكتور طه حسين .

(القاهرة ـ مطبعة محمد عبد الرحمن ـ الطبعة الثالثة سـنة ١٣٥٢ هـ ١٩٣٣ م) .

١٤٣ ـ فى طريق الميثولوجيا عند العرب للأستاذ محمود سليم الحوت (بيروت ١٩٥٥ م).

(ق)

١٤٤ ـ القاموس المحيط للشيخ مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز ابادى السيرافى (القاهرة ـ المطبعة الحسينية المصرية سنة ١٣٣٠ هـ)

١٤٥ ـ القرآن الكريم .

١٤٦ ـ القصة فى الأدب العربى الحديث للدكتور محمد يوسف نجـم (القاهرة ـ دار مصر للطباعة سنة ١٩٥٤ م) .

١٤٧ ـ القصة القصيرة فى الأدب الشامى الحديث للأستاذ نعيم حسن اليافى . (وهى رسالة ماجستير بقسم اللغة العربية بكليـة الآداب سنة ١٩٦٤ م) .

١٤٨ ـ قصة قيس بن الملوح العامرى المعروف بمجنون ليلى . (القاهرة ـ مطبعة الجمل المصرية ـ الطبعة الأولى سنة ١٣٤١ هـ ـ سـنة ١٩٢٣ م) .

١٤٩ – قصص الأنبيـاء أو خلق الدنيـا وما فيهـا لأبى الحسن محمد ابن عبد الله الكسائى تصحيح اسحاق بن ساؤول ايزنبرغ (ليدن – مطبعة بريل سنة ١٩١٢ م) .

١٥٠ – قصص الحيوان فى الأدب العربى للدكتور عبد الرازق حميـدة (القاهرة ملتزم الطبع والنشر مكتبة الانجلو المصرية – سنة ١٩٥١ م) .

١٥١ – قصص العرب للأساتذة : محمد أحمد جاد المولى ومحمد أبو الفضل ابراهيم وعلى محمد البجاوى . (القاهرة – مطبعة الحلبى – الطبعة الثالثة سنة ١٣٧٥ هـ) .

١٥٢ – قصصنا الشعبى للدكتور فؤاد حسنين على . (القاهرة – مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٧ – الناشر دار الفكر العربى) .

١٥٣ – قيس ولبنى مسرحية شعرية للأستاذ عزيز أباظه (القاهرة – شركة فن الطباعة – الطبعة الثنية) .

(ك)

١٥٣ – الكامل لأبى العباس محمد بن يزيد المبرد . (ليبسك سنة ١٨٠٤ م) .

١٥٤ – الكامل فى التاريخ للشيخ عز الدين أبى الحسين على بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى المعروف بابن الأثير (مطبعة ليدن ، بريل سنة ١٨٩٩ م) .

١٥٥ – الكتاب المقدس .

١٥٦ – كليلة ودمنة لبيدبا الفيلسوف الهندى وترجمة عبد الله بن المقفع (القاهرة المطبعة الأميرية ببولاق سنة ١٩٢٧ م) .

(ل)

١٥٧ – لسان العرب للامام أبى الفضل جمـال الدين محمد المعـروف بابن منظور (القاهرة – بولاق) .

١٥٨ – اللمع لأبى نصر السراج الطوسى وتحقيق الدكتـور عبد الحليم محمود والأستاذ طه عبد الباقى سرور . (القاهرة – مطبعـة السعادة سنة ١٣٨٠ هـ – سنة ١٩٦٠م) .

(م)

١٥٩ – ما الأدب لسارتر وترجمة الدكتور محمد غنيمى هلال . (القاهرة سنة ١٩٦١ – مكتبة الأنجلو) .

١٦٠ – ماساة الشاعر وضاح للاستاذين محمد بهجة أثرى وأحمد حسن الزيات (مطبعة بغداد – مطبعة العهد سنة ١٣٥٤ هـ) .

١٦١ – مائدة أفلاطون نقل الاستاذ محمد لطفى جمعه مصر سنة ١٩٠٨ وجنيف سنة ١٩١٣ . (القاهرة – مكتبة ومطبعة التاليف بشارع عبد العزيز) .

١٦٢ – ما هو الجنس من مؤلفات اليونسكو ، وتعريب الدكتور يوسـف أبو الحجاج (القاهرة – الألف كتاب «٥٥» علوم انسانية) .

١٦٣ – المثل السابر فى أدب الكاتب والشاعر للشيخ ضياء الدين أبى الفتح نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الموصلى . (القاهرة – مطبعة حجازى – الطبعة الأولى سنة ١٣٥٤ هـ – ١٩٢٥ م) .

١٦٤ – مجمع الأمثال للعلامة أبى الفضل أحمد بن محمد بن ابراهيـم الميدانى النيسابورى (القاهرة – مطبعة بولاق سـنة ١٢٨٤ هـ ١٨٦٧ م وأيضا المطبعة الخيرية بمصر سنة ١٣١٠ هـ) .

١٦٥ – مجموعة رسائل الجاحظ لأبى عثمان عمرو بن محبوب المعروف بالجاحظ (القاهرة – مطبعة التقدم – الطبعة الأولى) .

١٦٦ - المحاسن والأضداد المنسوب لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصرى وتصحيح الخانجى (القاهرة - مطبعة السعادة - الطبعة الأولى سنة ١٣٢٤ هـ) .

١٦٧ - المختار للأستاذ عبد العزيز البشرى ، الجزء الأول . (القاهرة - المطبعة اليوسفية بباب الخلق سنة ١٣٤١ هـ) .

١٦٨ - المرأة فى الشعر الجاهلى للدكتور أحمد محمد الحوفى . (القاهرة - مكتبة نهضة مصر ومطبعتها ، سنة ١٩٥٤ م) .

١٦٩ - مروج الذهب ومعادن الجوهر لأبى الحسن على بن الحسين ابن على المسعودى (القاهرة المطبعة البهية المصرية سنة ١٣٤٦ هـ) .

١٧٠ - المزهر فى علوم اللغة وأنواعها للحافظ جلال الدين عبد الرحمن ابن أبى بكر السيوطى الشافعى . (القاهرة - مطبعة السعادة سنة ١٣٢٥ هـ) .

١٧١ - المستطرف فى كل فن مستظرف للشيخ شهاب الدين أحمد الأبشيهى (القاهرة سنة ١٢٩٢ هـ) .

١٧٢ - مصارع العشاق للشيخ أبى محمد جعفر بن أحمد بن الحسين السراج (القاهرة ، مطبعة التقدم سنة ١٩٠٧ م) .

١٧٣ - معجم الادباء أو طبقات الأدباء أو ارشاد الأريب الى معرفة الأديب لشهاب الدين أبى عبد الله الرومى الحموى البغدادى (القاهرة - مطبعة دار المامون) .

١٧٤ - معجم البلدان للعلامة ياقوت الحموى (دار صادر - بيروت ١٩٥٥) .

١٧٥ - المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم ، وضع الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى (القاهرة - كتاب الشعب) .

١٧٦ – المعلقات العشر وأخبار قائليها ، جمع الأستاذ أحمد بن الأمين الشنقيطى (القاهرة المطبعة الرحمانية – الطبعة الثالثة سنة ١٣٣٧ هـ) .

١٧٧ – المقامة للدكتور شوقى ضيف . (القاهرة – دار المعارف سنة ١٩٥٤ م) .

١٧٨ – مقدمة العلامة ابن خلدون (القاهرة – مطبعة مصطفى محمد بشارع محمد على) .

١٧٩ – الملل والنحل للامام محمد بن عبد الكريم الشهرستانى وتحقيق الاستاذ محمد فتح الله بدران . (القاهرة – مطبعة الأزهر – الطبعة الأولى) .

١٨٠ – مناهج الدراسة الأدبية فى الأدب العربى للدكتور شكرى فيصل . (القاهرة مطبعة دار الهلال بشارع الصحافة) .

١٨١ – المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للشيخ تقى الدين أحمد ابن على بن عبد القادر بن محمد المعروف بالمقريزى (القاهرة – المطبعة الأميرية ١٢٧٠ هـ) .

١٨٢ – الموشى أو الظرف والظرفاء لأبى الطيب محمد بن يحيى الوشاء تحقيق الاستاذ كمال مصطفى (القهرة – طبع الخانجى – الطبعة الثانية) .

(ن)

١٨٣ – النثر الفنى فى القرن الرابع للدكتور زكى مبارك ، الجزء الأول . (القاهرة – مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٤ م) .

١٨٤ – نشأة التدوين التاريخى للدكتور حسين نصار . (القاهرة – النهضة المصرية) .

١٨٥ – نهاية الأرب فى فنون الأدب لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى . (القاهرة – طبع دار الكتب المصرية سنة ١٣٦٩ هـ - ١٩٤٢ م) .

(و)

١٨٦ – وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان لأبى العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر بن خلكان . (القاهرة – مطبعة السعادة سنة ١٣٦٧ هـ ١٩٤٨ م) .

(ى)

١٨٧ – يحكى عن العرب للأستاذ موسى خليل سليمان ، جزءان . (بيروت دار الكتاب اللبنانى – الطبعة الثانية سنة ١٩٥٥ م)

ثانيا – المراجع الافرنجية

١٨٨ – Encyclopeadia Britanica.

١٨٩ – Encyclopeadia of Islam.

١٩٠ – The Modern Arabic Short Story . Abdel Aziz Abdel Meguid (Al Maaref Press Cairo)

ثالثا – الدوريات

صحيفة الجمهورية

مجلة الأديب

مجلة الثقافة

مجلة الرسالة

مجلة المجلة

مجلة المقتطف

مجلة منبر الاسلام

فهرست تفصيلى

فهـرس عــام

رقم الايـداع ٢٥٥٠ / ٨٨

الترقيم الدولى ٧ ـ ٢٤٢٢ ـ ٢ ـ ٠ ـ ٩٧٧

دار التضامن للطباعة
٢٢ شارع سامى ـ ميدان لاظوغلى
تليفون ٣٥٥٠٥٥٦ ـ القاهرة